

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي
وفلسفته في الإحياء
بمعلم

الدكتور عبدوي طيانة
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزي (المعديني)

From the Library of
Muhammad T. Hozien

الجزء الرابع

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" - سماراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدّر كل خطاب . وبمحمده يتم أهل التعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أُرُخى دونهم الحجاب . وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه ربّ الأرباب ومسبب الأسباب . وزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونزع الخوف رجائاً مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول اللطع يوم العرض والحساب . ونعهد لنا عند الله زلفى وحسن مكاب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام الريدين ، ومفتاح استقامة السائرين ، ومطلع الاسطفاء والاجتهاد للمقربين ، ولأئينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجد بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجترم ، فبى شفتة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه آباء لما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن التزوع إليه فى كلا طرفى النفي والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ النسم ، وتقدم على ما سبق منه وتقدم . فمن اتخذ قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب اللاتكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلاقي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الأدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان ، واصطبغ فيه سحبتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على محبة نسبه إلى آدم بملازمة حد الانسان ، والصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى اللاتكة بالتجرد لمحض الخير فمخرج عن حين الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم هجنا محكماً لا يخلصه إلا إحدى التارين

(كتاب التوبة)

[الباب التاسع]

والأربعون فى استقبال

التهار والأدب فيه

والعمل

قال الله تعالى - وأقم

الصلاة طرفى التهار -

أجمع المفسرون على

أن أحد الطرفين

أراد به الفجر وأمر

بصلاة الفجر واختلفوا

فى الطرف الآخر قال

قوم أراد به المغرب وقال

آخرون صلاة العشاء

وقال قوم صلاة الفجر

واظهر طرف وصلاة

المغرب للطرف

وزلنا من الليل صلاة

العشاء ثم إن الله تعالى

أخبر عن عظيم بركة

الصلاة وشرف فائدتها

ومعناها وقال - إن

الحسنات يذهب

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خباثات الشيطان وإليكم الآن اختيار أهون النارين ، والبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطراب . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقفا من الدين هذا للوقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمراتها والآفات للامانة منها والأدوية المبصرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة ويان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على القور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب ويان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى ويان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ويان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضي من الظالم وكيفية تكفير الذنوب ويان أقسام التائبين في دوام التوبة : الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

(بيان حقيقة التوبة وحدها)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء اطراد سنة الله في الملك والملكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محقة يتبين غالب على قلبه نار من هذه العرق تآلم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبة تآلم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل القوت فيسمى تآلمه بسبب فعله القوت لمحبوبة ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي والاستقبال أما تعلقه بالحال فبالتترك للذنوب الذي كان ملاسبا وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب القوت للمحسوب إلى آخر العمر وأما بالماضي فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قليلا للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الحيرات وأعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب عموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتآلم بها القلب حيث يبصر بأشراق نور الايمان أنه صار محجوبا عن محبوبة كمن يشق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحب أو انحسار حجاب فرأى حبرية وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبت تلك النيران بارادته للاتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد التعلق بالتترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والتارك كالثمره والتابع التأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يخلو الندم عن علم أو حبه وأمره وعن عزم بانه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعني ثمرته وثمرته وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فان هذا يعرض لجهد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات أي الصلوات
الحسن يذهب
الخطيئات ، وروى
أن أبا اليسر كتب
إلى عمرو الأنصاري
كان يبيع التمر فأتته
امرأة بتبع تمر فقال
لها إن هذا التمر ليس
بجيد وفي البيت أجود
منه فهل لك فيه رغبة
قالت نعم فذهب بها
إلى بيته فضمها إلى
نفسه وقبلها فقالت له
أتق الله فتركها وندم
ثم أتى النبي عليه
السلام وقال يا رسول
الله ما تقول في رجل
رود امرأة عن نفسها
ولم يبق شيء مما يفعل
الرجال بالنساء إلا
ركبه غير أنه لم يجامعها
قال عمر بن الخطاب

في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات للذمومة بالحركات الحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقوال في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بمقتضى الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من افتتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهdy إلى أول الطريق ثم يهdy بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون بهذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يحوزه ذلك فيتعبر . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده يختصر وخطاه قاصرة ومن سجد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتبته بأدنى إشارة لسلوك طريق معوضة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يجترى بأدنى بيان فكأنه يكاد يزته بضيء ولو لم تسمه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهdy الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامنها ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو منه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا عاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجه علينا غيرنا أو لم يوجه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا لقاء الله تعالى وأن كل محبوب عنه يشقى لاهماله محول بينه وبين ما يشتهى محترق بنار القراق ونار الجحيم وعلم أنه لا يبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والآكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله واتباع لهاب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محبوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجه فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا اللقام للرفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر اللزني يأبها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر يأبها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

لقد ستر الله عليك لو
سترت على نفسك ولم
يرد رسول الله صلى الله
عليه وسلم عليه شيئا
وقال أنتظر أمر ربى
وحضرت صلاة العصر
وصلى النبي عليه الصلاة
والسلام العصر . فلما
فرغ أتاه جبريل بهذه
الآية فقال النبي عليه
الصلاة والسلام : ابن
أبواليسر قال ها أنذا
يلرسول الله قال شهدت
منا هذه الصلاة قال
نعم قال انذهب فانها
كفارة لما عملت قال
عمر يا رسول الله هذا
له خاصة أولنا عامة ،
قال بل للناس عامة
فيستعد العبد لصلاة
الفجر باستكمال
الطهارة قبل طلوع

عجل رجب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين
 فقد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم
 وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً - الآية ومعنى النصوح الخالص لله
 تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب
 التوابين ويحب المتطهرين - وقال عليه السلام «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن
 لا ذنب له» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل
 في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت
 راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أوامشاه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه
 فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لم يموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فأنه
 تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» (٢) وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه
 إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم
 عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرأت عينك
 بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى
 الله إليه يا آدم ورثت ذوبك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ومن
 سألتني الغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب محبب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين
 ودعائهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع متفق من الأمة على وجوبها إذ معناه
 العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن
 قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي
 في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك
 في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي
 فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لاهماله عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع
 في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب .
 فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله عييل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم
 تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل
 والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله - والله خلقكم وما تعملون - وهذا هو الحق
 عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم
 وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضا من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود
 بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب
 الثواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبه الله بن أحمد في زوائد
 المسند وأبو حنبل بسند ضعيف من حديث علي بن الله يحب العبد المؤمن المفتح الثواب (٢) حديث
 لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من
 حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيد
 وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث
 أبي هريرة مختصراً .

الفجر ويستقبل الفجر
 بتجديد الشهادة كما
 ذكرنا في أول الليل ثم
 يؤذن إن لم يكن أجاب
 المؤذن ثم صلى ركعتي
 الفجر يقرأ في الأولى
 بعد الفاتحة قل يا أيها
 الكافرون وفي الثانية
 قل هو الله أحد وإن
 أراد قرأ في الأولى
 - قلوا آمنا بالله
 وما أنزل - الآية في
 سورة البقرة وفي
 الأخرى - ربنا آمنا
 بما أنزل وأبينا
 الرسول - ثم يستغفر
 الله ويسبح الله تعالى
 بما ييسر له من العدد
 وإن اقتصر على كلمة
 استغفر الله لذنب
 سبحان الله بحمد ربى
 أتى بالتقصود من

في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الحواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزم الارادة بعد تردد الحواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم اللوانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا اليل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في السالك ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدأ تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستتبع المثل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حيا عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استعد المثل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد والمساكن للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث للرتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلح البصر ترتيبا كليلا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء السكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر - وأما العباد فاتهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه ميلا يسمى الإدراك والعرفة فاذا ظهرت من باطن للملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودي من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت ومارميت إقدامك ولكن الله رمى وما تقاتل إذ قتلت ولكن قاتلهم بمنهم الله بأيديكم وعند هذا تحير عقول القاعدين في مجبوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم من وجهه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدركوا أحدهم منه كنه هذا الامر ولم يحيط علمه بجوانبه وتتمام علمه ينال باشراف النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

التسبيح والاستغفار.
ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتلم بها شعث وترد بها الفتن عنى وتصلح بها ديني وتحفظ بها فائي وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتصفني بها من كل سوء اللهم - أعطني إيمانا صادقا وقينا ليس بمدة كفر ورحمة أنال بها شرف حكرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والسيئات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسباتها بسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إصالح ذلك إلى الأنفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفة باللمس الذي تدر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل إن الفيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأمسس لا خشونة فيه وليس في غلط الاسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بحيلتهم قصروا عن الاطاعة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم الكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصددده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخلية بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

(بيان أن وجوب التوبة على الفور)

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور والتفصلي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعقل بل هي من علوم العامة وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التفصلي عن عهده مالم يصير باعثاً عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان وهو للراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) وما أراد به نفى الإيمان الذي يرجع إلى علوم الكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلاً فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصود الشارب مقالوم الأظفار نقي البشرة عن الحث حتى يتميز عن البهائم الرسالة للوثة بأروائها المستكرهة الصور بطول عقالها وأظلافها وهذا مثال مطابق فلايمان كالانسان

(١) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والنصر على الأعداء
ومراقبة الأنبياء اللهم
إني آتزل بك حاجتي
وان قصر رأي وضف
عملي واقترت إلى
رحمتك وأسألك
يا قاضي الأمور وباشافي
الصدور كما تجبر بين
البحور أن تجبرني من
عذاب السعير ومن
دعوة التبور ومن فتنة
القبور اللهم ما قصر
عنه رأي وضف فيه
عملي ولم تبلغه نيتي
وأمنيتي من خير
ورته أحدا من
عبادك أو خير أنت
معه أحد من خلقك
فأنا راغب إليك فيه
وأسألك إليه يارب
العالمين . اللهم اجعلنا
هادين مهدين غير

وقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل للروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فزاياله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي عدتها وتقورها فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الحاتمة لا ما يدق بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ضد ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع النخلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا أنجلي الغبار أفرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الحاتمة وإنما انقطع نياط المارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأفلون فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح التهمك في الشهوات الضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صغته وأن الموت طالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح بخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الحاتمة ثم إذا ختم له بالسوء واليأس بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد الزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك العاصي فإذا كان الحافظ من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالحائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متاول السم إذا ندم يجب عليه أن يتضأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافي البدنة المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول موموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تصرم أعمار الدنيادون عشر عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبتة فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل موموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتواء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحقق الكلمة عليه بأنه من المالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يضرنك لفظ الإيمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالجواب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيوجب في الحاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيقا إلى الموت المدمم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعا يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع لبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فالفرع بالفرع والعلوم المكاشفة وعلوم الحاتمة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

ضالين ولا مضلين حربا
لأعدائك وسلسا
لأوليائك نحب بحبك
الناس ونفادي
بعداوتك من خالفك
من خلقك اللهم هذا
الدعاء مني ومنك
الاجابة وهذا الجهد
وعليك التكلان إن الله
وإنا إليه راجعون ولا
حول ولا قوة إلا بالله
المولى العظيم ذى
الحبل الشديد والأمر
الرشيد أسألك الأمن
يوم الوعيد والجنة
يوم الخلود مع المقربين
الشهود والركع السجود
والموفين بالعهود إنك
رحيم وودود أنت تفعل
ما تريد سبحانه من
تططف بالعز وقال به
سبحان من ليس المجد

التابع وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

(يان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق للبعد عن الله القرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تنكسر غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والنصب وسائر الصفات للذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مرافقة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان فالطارد بينهما كالطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزهي الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تسكن في العبا والشباب قبل كمال العقل قد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالمادة وغلب ذلك عليه وبسر عليه التزوع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج فإن لم يقو ولم يكمل سلت مملكة القلب للشيطان وأتجزأ العين وموعده حيث قال - لأحتسكن ذريته لإثيلا - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله فزع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيه الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدوة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدوة الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبييا كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها القدر وحدها سجية نفس كل غائبة هند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفائه بفهم معنى الإسلام فإنه لا يفي عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانتكاس والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكرهون إذ همزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستثنى عنها أحد من البشر كالم يستثنى آدم خلقه الولد لا تتسع له المالم يتسع له خلقه الولد أصلا ، وأما يان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بخوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالنوب بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسوس الشيطان بإيراد الخواطر المنفرقة المذهلة عن ذكر الله فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالنشغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده وللراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون

وتكرم به سبحانه الذي
لا ينبغي التسبيح إلا له
سبحان ذي الفضل
والتم سبحان ذي الجود
والكرم سبحان الذي
أحصى كل شيء بعلمه
اللهم اجعل لي نورا في
قلبي ونورا في قبري
ونورا في ممالي ونورا
في بصري ونورا في
شعري ونورا في بشري
ونورا في لمي ونورا
في دمي ونورا في عظامي
ونورا من بين يدي
ونورا من خافي ونورا
عن يميني ونورا عن
شمالي ونورا من فوق
ونورا من تحتي اللهم
زدني نورا وأعطني
نورا واجعل لي نورا.
ولهذا الدعاء أثر
كثير وما رأيت

في القادر فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (١) الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من المموم والحواطر نقص وأن الكمال في الخلو عنه وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فالمراد بقولك التوبة واجبة في كل حال . فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدريك ماضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجهه للرأفة الصقيلة فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجهه للرأفة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجهه للرأفة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالطوبوع من الخبث ولا يكتفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب كما لا يكتفي في ظهور الصور في الرأفة قطع الأنفاس والبخارات السوداء لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات تنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «أتبوع السيئة الحسنة تمحها» (٢) فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاؤه وجلأؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصديق الأول ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدا عن الرأفة كغسله في عمل أصل الرأفة فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تقاته لتركوا المعاصي ورفضوا الدنيا بالسكينة ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالسكينة فانه مهمل فسدت المعاصي لم يفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحزنة والخير يستغرق جميع العمر من كل واحد فبحسب الحاجة إليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المأمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أى لمن يريد بها فانه لا يتوصل إليها إلا بها ، فأما من رضى بالنقصان والحرمات عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا

أحدا حافظ عليه
إلا وعنده خير ظاهر
وبركه وهو من وصية
الصادقين بعضهم بعضا
محفظه والمحافظة عليه
منقول عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
كان يقرؤه بين الفريضة
والسنة من صلاة
الفجر ثم يقصد السجدة
للجماعة في الجماعة
ويقول عند خروجه
من منزله : - وقل رب
أدخلني مدخل صدق
وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لذك
سلطانا نصيرا - ويقول
في الطريق : اللهم إني
أسألك بحق السائلين
عليك وبحق ممشي
هذا إليك لم أخرج
أشرا ولا بطرا ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر الزنى
إلا أنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله
في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار
والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره
وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

ينفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون
كلهم على وضوء وتكررة مطروحة فليس يشترط مثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات
الداخلية في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة
من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنبأ الحياة وفيه سعى الأنبياء
والأولياء والعلماء والأئمة فالأصل عليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم للأذى
الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال
أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم
لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه بالحجر
توبة عن ذلك التمتع ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى
واجبا في فتوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغل الثوب الذي كان عليه علم
في صلاته حتى نزع^(١) وشغلته شركته الذي جده حتى أعاد الشرك الخلق^(٢) لم يعلم أن ذلك
ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه
رآه مؤثرا في قلبه آرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضي الله
عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معصروحه
ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراج
فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره
عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون فتأمل
أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة
واحدة أن تترك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من
استنشق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل
نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على القور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان
الداراني حيث قال لو لم يترك العاقل قلبا بقي من عمره إلا على تقوية ماضى منه في غير الطاعة لكان
خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ماضى من جهله وإنما
قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهره نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة وإن ضاعت
منه وصار ضايعا سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهر نفيسة
لا خالف لها ولا بدل منها فاتها صالحة لأن توصلك إلى معادة الأبد وتنفذك من شقاوة الأبد وأي جوهر
أنفس من هذا فإذا ضيعتها في الفعلة فقد خسرت خسرا ثانيا مبينا وإن صرقتها إلى معصية فقد هلك
هلاكا فاحشا ، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيتك بجهلك أعظم من كل
مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف الصاب بها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الفعلة يحول بينه وبين
معرفة الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته
وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه
أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طريقة عين فيبدو للتعب من الأسف والحسرة
مالو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث
نزع الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا سمعة خرجت انتفاء
سخطك وانتفاء
مرضاتك أسألك أن
تتقضى من النار
وأن تغفر لي ذنوبي
إنه لا يضر الذنوب إلا
أنت . وروى أبو سعيد
الخدري أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
« من قال ذلك إذا
خرج إلى الصلاة وكل
الله به سبعين ألف
ملك يستغفرون له
وأقبل الله تعالى عليه
بوجهه الكريم حتى
يقضى صلاته » وإذا
دخل المسجد أودخل
بجاءته للصلاة يقول :
بسم الله والمحمد لله
والصلاة والسلام على
رسول الله اللهم اغفر
لي ذنوبي واقتح لي

ويتدارك فريضة فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعتذرفيه إلى ربي وأتوب وأزود صالحا لنفسي فيقول فبيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول فبيت الساعات فلا ساعة فيغلط عليه باب التوبة فيترغر بروحه وتردد أنفاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ومثل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الربن على القلب فلا يقبل الهو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السبيل الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يابني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين « أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعاً فلا يقبل الهو - الثاني أن يماجله للرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالهو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية ^(١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاؤه بالطاعة نسيته إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيائته فأمره عطر - قال بعض العارفين : إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام « أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبيد قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبيد ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فأتاك على الوفاء أو أضعتها فأتاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم - وبقوله تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

(بيان أن التوبة إذا استجعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة)

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإعما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك القبره وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئات لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كالأطعمة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنة يوسخ الثوب ويغسله

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجده أصلاً .

أبواب رحمتك ويقدم
رجله اليمنى في الدخول
واليسرى في الخروج
من المسجد أو السجادة
فسجادة الصوفي بمنزلة
البيت والمسجد ثم يصل
صلاة الصبح في جماعة
فاذا سلم يقول : لا إله
إلا الله وحده لا شريك
له ، له الملك وله الحمد
يعبي ويحيي ويميت وهو حي
لا يموت يسده الخبر
وهو على كل شيء قدير
لا إله إلا الله وحده
صدق وعده ونصر
عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
لا إله إلا الله أهل النعمة
والفضل والثناء الحسن
لا إله إلا الله ولا نعبد
إلا إياه مخلصين له الدين
ولو كره الكافرون
ويقراً هو الله الذي

بالصابون والماء الحار ينظفه لاحتالة قاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويزكيه ، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فاعلم عليك الزكية والتطهير . وأما القبول فبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو للسعي فلا حرج في قوله - قد أفلح من زكاها - ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من الشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستمر لأحدهما لفظ الطلبة كما يستمر للجهد ويستمر للآخر لفظ النور كما يستمر للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماءه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغرس الوسخ لطول تراكمه في تجاريف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلمه فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى يصير طبعا وريثا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف للتمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق القليلين على الدنيا المرصين عن الله بالكيفية فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات - وقال تعالى - غافر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « الله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (١) » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم (٢) » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينه ثابتا منه فإرا حتى يدخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة (٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسل ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضطرب في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك البشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن
الرحيم القسمة
والتسعين اسما إلى
آخرها فإذا فرغ منها
يقول : اللهم صل
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك النبي
الأمرى وعلى آل محمد
سلام تكون لهم رضاء
ولحمته أداء وأعطه
الوسيلة والمقام محمود
الذي وعدته وأجزه
عنا ما هو أهله وأجزه
عنا أفضل ما جازيت
نبيا عن أمته وصل
على جميع إخوانه من
النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين .
اللهم صل على محمد
في الأولين وصل على
محمد في الآخرين وصل
على محمد إلى يوم الدين
اللهم صل على روح

ويروى « أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه^(١) » ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى « وعزتي وجلالي لا أجبت عنه التوبة مادام الروح فيه^(٢) » قال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب للسحاب^(٣) » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار « فقد قال سعيد بن السيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر الذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أتى إن وضعت عليهم عدلي عذبهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها المبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه بحيث عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبيامن أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لأن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تصحني لأعودن فصحه الله تعالى وقال بعضهم إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال ناديا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تدر فان قال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يفتح فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكفار وقول الله تعالى - إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون السلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة السلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لأحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفه عين . وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا إلى التوابين فأنهم أرق أئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم الغفرة أي للغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرأة فرى الشيب في لحية فسأه ذلك فقال إلهي أطعك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببتنا وتركنا فتركناك وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده للصف بصيغة ويروى كذا ولم يزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكره احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب للسحاب الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي وتقدم قريبا .

في الأرواح وصل
على جسد محمد
في الأجساد واجمل
شراف صلواتك
ونواي برحمتك
ورأيتك ورحمتك
وتحيتك ورضوانك
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك اللهم
أنت السلام ومنك
السلام وإليك يعود
السلام فحين ربنا
بالسلام وأدخلنا دار
السلام تباركت يا ذا
الجلال والإكرام
اللهم إني أصبحت
لا أستطيع دفع ما أكره
ولا أملك فتح ما أرجو
وأصبح الأمر بيد
غيري وأصبحت مرتها
بملى فلا قصير أقر
منى اللهم لا تشمت بي

جنون وتلهوا من غير عي ولا بك وإنهم هم البلاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولت قلوبهم في اللسكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستطلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسم الورع فاستمذبوا مرارة الترك للدينا واستلناوا خشونة للضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في الملا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحيا فوردوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة القنينة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن المزايا والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لامحالة . فان قلت أقول ما قلته العترة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب اللوث وليس في شيء من ذلك ما يريد العترة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكرمة للمعبودية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدرة منقصة بخلافه لو سبقت به السيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت لما من تأمب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شكك في القبول كشكك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالتدب يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل يسهل وذلك لشكك في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لامحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

(الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها)

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله للوفيق للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات البعد)

اعلم أن للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب هجائب القلب وغوائله ولكن تتحصر مئارات الذنوب في أربع صفات صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الإنسان هجنت من أخلاط مختلفة فانتضى كل واحد من الأخلاط في المبعون منه أثرًا من الآثار كما ينتضى السكر والخمر والفرغران في السكجيين آثارًا مختلفة . فأما ما ينتضى الزروع إلى الصفات الربوية فثلث السكر والخمر والجبرية وحب اللذات والثناء والعز والنفى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأطم وهذا يقتضب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبًا وهي للهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر للعاصي كما استتميناه في ربيع للهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يقتضب الحسد والبغى والحيلة والخذاع والأمر بالفساد والنكر وفيه يدخل النفي والتفاني والدعوة إلى

عدوى ولا تنسى . بي
صديق ولا تجعل
مصيبتي في ديني ولا
تجعل الدنيا أكبر همي
ولا تسلط على من
لا يرحمني الله بهذا
خلق جديد فاتحه
على بطاعتك واخته
لي يغفرك ورضوانك
وارزقي فيه حسنة
تقبلها مني وزكها
وضغها وما علمت فيه
من سيئة فاعف عني إنك
غفور رحيم ودود
رضيت بالله رباً
وبالاسلام ديناً وبمحمد
صلى الله عليه وسلم نبياً
اللهم إني أسألك خير
هذا اليوم وخير
ما فيه وأعوذ بك من
شره وشر ما فيه
وأعوذ بك من شر

طوارق الليل والتهار
ومن بقات الأمور
ونجاة الأقدار ومن
شر كل طارق يطرق
إلا طارقا يطرق منك
غير يارحم الدنيا
والآخرة ورحيمهما
وأعوذ بك أن أزل
أو أزل أو أضل أو أضل
أو أظلم أو أظلم أو أجهل
أو أجهل على عز جارك
وجل ثناؤك وتقديس
أسمائك وعظمت
نعمائك أعوذ بك من
شبه ما يلع في الأرض
وما يخرج منها وما ينزل
من السماء وما يجرج فيها
أعوذ بك من حسنة
الحرص وشدة الطمع
سورة الغضب وسنة
النفلة وعاطى الكلفة
اللهم إني أعوذ من

الكبار

الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهي الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى للصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن والعين القموس والسحر وشرب الخمر والسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وكل الربا والزنا والواطء والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع اللوَبقات قالوا يا رسول الله وما هي؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنوب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولله مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني حليمة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنما هي أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يابسون على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمر وأعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبراز من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل المساء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراك بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف للطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حشمة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن أبي عمير وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث وائلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن يفتني الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والدي ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه سئل عن الكبائر فبين قهرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو فيها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستغربه البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الحراساني

مباهاة الصكرين
والإضرار على القليلين وأن
أنصر ظالماً أو أخذل
مظلوماً وأن أقول في
العلم بغير علم أو أعمل في
الدين بغير يقين أعوذ
بك أن أشرك بك وأنا
أعلم وأستغفر لك لما
لا أعلم أعوذ بعفوك
من عقابك وأعوذ
برضاك من سخطك
وأعوذ بك منك
لا أحصى ثناء عليك
أنت كما أثبتت على
نفسك اللهم أنت ربّي
لا إله إلا أنت خلقتني
وأنا عبدك وابن
عبدك وطيّ عهدك
ووعدك ما استطعت
أعوذ بك من شر
ما صنعت أبوء بنعمتك
علي وأبوء بذنبي فاغفر لي

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن والميّن القموس ، وهي التي يحق بها بطلاؤ أو يطل بها حقا ، وقيل هي التي يفتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سوا كامن أراك . ومحييت غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الحلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما الزنا والواط . واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وجلة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما وإن يسأه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقه العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتضيده وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه للسلم ^(١) » وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أي كبيرة أم لا لا يصح ما لم يفهم معنى

إنه لا يضر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة آيينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الختان

والحديث منكسر يعرف به . وأما للوقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراف بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشراف بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا والميّن القموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكنان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله وتقص العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لا صغيرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من الرفوعات والوقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت للوقوفات حتى يعلم ما ورد في الرفوع وما ورد في الوقوف ولا يهتدى في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى السبعين أقرب وروى البيهقي أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم ^(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه السلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استتالة في عرض السلم بغير حق كما تقدم ^(٢) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من اللوبات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عباد بن قرص وقال صحيح الاسناد .

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أو لا ثم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من الصفات وما من ذنب إلا وهو كبير بالاضافة إلى مادونه وصغير بالاضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالاضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة إلى ضربه صغيرة بالاضافة إلى قتله ، نعم للانسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ما همل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب التهي عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضا تفاوتت درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يعمد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن نعلم معنى قول الله تعالى - إن تجنبتوا كباثر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فان هذا إثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصفات وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني أردت بالكبائر عشرة أو خمسا ويصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ «ثلاث من الكبائر (١)» وفي بعضها «سبع من الكبائر (٢)» . ثم ورد «أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر» وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر لعظم جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فمعرفة بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر «فأما أصغر الصفات فلا سبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الترائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسوله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - أي ليعبدوا عبيدا لا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية وقسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى يمتنع الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام «الدنيا مزرعة الآخرة (٣)» فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكثر الكبائر ثلاثا الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طب في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع اللواتي (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

لنار يديع السموات
والأرض ذو الجلال
والاكرام أنت الأحد
الصدق الذي لم يلد ولم
يولد ولم يكن له كفوا
أحدا يحيى يا قيوم يحيى
حين لا حي في ديمومة
ملكه وجائه يحيى
حي للوحي يحيى يميت
الأحياء ووارث
الأرض والسماء ، اللهم
إني أسألك باسمك
بسم الله الرحمن الرحيم
وباسمك الله لا إله إلا
هو الحي القيوم
لاتأخذه سنة ولا نوم
اللهم إني أسألك باسمك
الأعظم الأجل الأعز
الأكرم الذي إذا
دعيت به أجبت وإذا
سئلت به أعطيت يا نور
النور يا مدبر الأمور

إعالم ما في الصدور
يا صميع يا قريب يا مجيب
الدعاء يا لطيفاً لما يشاء
يا رءوف يا رحيم يا كبير
يا عظيم يا الله يا رحمن
يا ذا الجلال والاكرام
الم لا اله الا هو الحي
القيوم وعت الوجوه
الحى القيوم يا الهى
يا اله كل شئ يا اله
واحدا لا اله الا انت
اللهم انى اسألك باسمك
يا الله الله الله الذى
لا اله الا هو رب العرش
العظيم فتعالى الله الملك
الحق لا اله الا هو رب
العرش الكريم انت
الأول والاخر والظاهر
والباطن وسعت كل
شئ رحمة وعلم
كهيمن حم عقى
الرحمن يا واحد يا قهار

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل النصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الحيانة والصبر إلى أن أكل دافق بالحيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى عما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لا خير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى إلى قطرة من الحمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الحمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيمد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه محال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرية ولتناولها مراتب وأعظمها تناول بالقذف بالاضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يبدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذى نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالتقياس بمجردة لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد ويجعل للشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من الصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث التقياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فاذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما اقسام إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغى أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بعضه مظهر للنفى والاثبات وبسبب مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطلق فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فان قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام أبقى به حتى يكون الناس على وجل وحذر

يعزز بإجبار بالأحد
يا صمد يا ودود يا غفور
وهو الله الذى لا إله إلا
هو عالم الغيب والشهادة
هو الرحمن الرحيم لا إله
إلا أنت سبحانك إني
كنت من الظالمين
اللهم إني أعوذ باسمك
للكون المحزون
للزلازل والسلام الطاهر
الطاهر القدوس القدس
يادهر ياديهور ياديهار
يأبد يا أزل يا من لم يزل
ولا يزال ولا يزول هو
يا هو لا إله إلا هو يا من
لا هو إلا هو يا من
لا يعلم ما هو إلا هو
يا كان يا صكبان
يا روح يا كائن قبل
كل كون يا كائن بعد
كل كون يا مكنونا

فلا يتجرءون على الصفائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصفائر بموجب قوله تعالى - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فكيف نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عيننا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهي المحرم بطبعه ولو أيسر له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصفائر التي هي من مقدماته كسماع اللاهی والأوتار، ثم من يشتهي المحرم وسماع الأوتار فيصمك نفسه بالمجاهدة عن المحرم وينطلقها في السماع لمجاهدة النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفة : قد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة (١) » قيل مترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف بقاتله فهذا أمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لأحالة مبهما . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا لمن يجنب الكبائر والورع عن الصفائر ليس شرط في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فأعلم أنا لا نخصم رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع للاهی ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه إذا شرب الخنق النبيذ حددته ولم أرد شهادته قد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة تقيا وإثباتا لا تدور على الصفائر والكبائر بل كل الذنوب تندفع في المدالة إلا ما لا يغلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالنسية والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والعلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على الصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن ينزل الناس ويتجرد لأموال الآخرة ويمجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لمز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس ليس الحرير وسماع للاهی واللعب بالترد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والحلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصفائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا التهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصفائر التي لا ترد الشهادة بها لو اطلب عليها لآثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن الباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالقضاء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصفائر والكبائر .

(بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعني بالدنيا حالتيك قبل

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد .

لكل كونه أهيا
شرا هيا أدوناي
أصبوت يا مجلي عظامي
الأمور - فإن تولوا
قل حسبى الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش
العظيم - ليس كمثل شيء -
وهو السميع البصير -
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد كما صليت
على إبراهيم وآل
إبراهيم وبارك على
محمد وعلى آل محمد كما
باركت على إبراهيم
وآل إبراهيم إنك
حميد مجيد اللهم إني
أعوذ بك من علم
لا ينفع وقلب لا يخضع
ودعاء لا يسمع اللهم إني
أعوذ بك من فتنة
الدجال وعذاب القبر

الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فاننا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك ومرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» (١) وماسيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال الموهجة إلى التعبير فكذلك ماسيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكتفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة قد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن مؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فان أمك سييت في صفرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فاذا جاريته كانت أمه وقد سييت في صفره وقال «آخر رأيت كأنني أفلد الدر» في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يفتح به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو للنسج الذي يراد الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلّفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمنثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن التل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من المثال الذي لا يحقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعه ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . «كذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . ومن ههنا زلّ من زلّ في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرّفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول «كذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بمحمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الأحق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا ضحاجان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف يتقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جئ بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال للمبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لأن

- (١) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب
(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبي سعيد .

ومن الحيال والهم إلى أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي اللهم إني أعوذ بك من القسوة والنفقة والذل والسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص ومائر الأسماء ، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحوّل عافيتك ومن خفّة همّتك ومن جميع سخطك ، اللهم إني أسألك الصلاة على

المذبح وقع اليأس منه فان العبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن للوكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالاضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربيع الصادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لامورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولاتفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا أثبت فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسفته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أن إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين وممذيين وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم المهلكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المذبذبون ويخلى بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان للملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ولا يجذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلى إلا مترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر لعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك المهلكين إما تحقيقا بحز الرقبة أو تسكيلا بالمثل بحسب درجاتهم في المعاندة وتذيب الممذيين في الخفة والشدة وطول الددة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يعملون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمذبذبون ينقسمون إلى من يمدب قليلا وإلى من يمدب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك المهلكون الأيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزيعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة المهلكين . نضى بالمهلكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في الثالثة الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تنفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمرضين للتجربين للدنيا المكذبين بأقبح ورسله وكتبه فان السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

محمد وعلى آله وأسألك
من الخير كله عاجله
وأجله ما علمت منه
وما لم أعلم وأعوذ بك
من الشر كله عاجله
وأجله ما علمت منه
وما لم أعلم وأسألك الجنة
وما قرب إليها من قول
وعمل وأعوذ بك من
النار وما قرب إليها من
قول وعمل وأسألك
ما أسألك عبدك ونييك
محمد صلى الله عليه
وسلم وأستعيذك عما
استعاذك منه عبدك
ونبيك محمد صلى الله
عليه وسلم وأسألك
ما قضيت لي من أمر أن
تجعل عاقبته رشدا
ترحمته يا أرحم
الراحمين يا حي يا قيوم
ترحمته أستغنيث

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

بالإيمان والتصديق والجاهدون هم المنكرون والكاذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبداً الآباد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحجوب بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للجنات والعين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يبعد الله بعوض فهو لئيم كأن يبعده لطلب جنته أو لحوف ناره بل العارف يبعده لقلبه فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ونار جهنم لاشف لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحرق مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد روي عن غلب عليه الوجد فندا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لقرط غلبة ما في قلبه ونرى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار » (١) واحترق الفؤاد أشد من احترق الأجساد والأعد يطل الإحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحرقه بالإضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن استرقت صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، واستأعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسى وسائر الأعضاء عالمه ومملكته والله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو الطائفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تنكفى إلى قصى
طرفة عين وأصلح لى
شأنى حكه يا نور
السموات والأرض
يا جمال السموات
والأرض يا عماد
السموات والأرض
يا بديع السموات
والأرض يا ذا الجلال
والإكرام يا صريح
المتصرخين يا غوث
المتغيثين يا منتهى
رغبة الراغبين
والفرج عن الكرويين
والروح عن القوميين
ومجيب دعوة
الضطرين وكاشف
السوء وأرحم الراحمين
وإله العالمين منزل
بك كل حاجة يا أرحم
الراحمين اللهم استر
عورائى وآمن روعائى

الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر الصية ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله بؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولنعد إلى الفرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أطل من علوم للعاملات التي تصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاتدخل تحت الحصر فذلك لم نوردناها . الرتبة الثانية : رتبة للعديين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد أخذ الله هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون - وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط للوصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يغلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لامحالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك السكال القاتل بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يغلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا وإردناها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا تيقنا أننا على النار واردون وشككتنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان^(١) قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر اللد وأن الاختلاف بالشدة لانهاء لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كأن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يصفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المسال فقط كمن يعذب بأخذ المسال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقتلها وكثرة السيئات وقتلها . أما عدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرةها وأما كثرة فبكثرةها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بهوله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وأقلنى عتراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي ، اللهم - إني ضعيف تقو في رضاك ضعفي وخذ لي الخير بناصيتي واجعل الاسلام منتهى رضاي ، اللهم إني ضعيف تقو في اللهم إني ذليل فأعزني ، اللهم إني فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنيك تعلم سرى وعلانيتي فأقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي ، اللهم إني أسألك إيمانا يسائر قلبي وقينا صادقا حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسمل عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك يعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمي غضبي » (١) وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستقده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بين الاعتبار فتقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع القرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لساينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع المذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد تقلت موازينه ، فينبغي أن يكون به مظهر الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، ثم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرين وزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمررون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بانسراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم القريبون الذين يزلون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللأ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات المعارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يفوح فيه الفواصق بقدر قوامه وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهائية لما ناله فالسالكون سبيل الله لانهائية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو عن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة القريبين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرين ، وهذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى القرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلوة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المنسول كالنسي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاسما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والمعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعضدان إلا أن يحفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين والمعارفون المستبصرون في أعلى عليين .

(١) حديث سبقت رحمي غضبي مسلم من حديث أبي هريرة .

أنه لن يصيغ إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والإكرام اللهم ياهادي المضلين وياراحم المذنبين ومقيل عثره العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأجباء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الغيبات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف (١) » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بمشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنائير فأعطاه مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلا التثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشرة عشره بل هو موازن لثقلها في الأجزاء وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لما لثقله وفروحه السالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحية لا بالموازنة الجسمية وهذا صادق عند من يعرف روح السالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فإن روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سيبل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فنجد ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات (٢) » كما ورد في الأخبار والسموات هي الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يحجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالمين الجهال وغنى قوم افتقر وعزير قوم ذل (٣) » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزل وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل (٤) » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر (٥) » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلنا بفك الأولياء عن ضروب

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالمين الجهال الحديث ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحتري، واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي ومحمد والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء والطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخاري من حديث ابن مسعود .

وإليك للصبر يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله مع مع ولا يشغله عليه الأصوات ويا من لا تلهيه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يتبرم بالخالج الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعقلا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك ما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعما لا ينفد وقرة عين الأبد ومراقبة نبيك محمد وأسألك حبك

من الأذى وأنواع البلاء بالأخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون للفاضل عن الجهل الكبير جوهر صغير عند الجاهلين من البغويين للضعيف. فاذ عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إني أعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصدقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرٍّ إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه فلا يدرك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم السر الذي فارت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تسكنوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لعمالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترتيب إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرًا لأنعمه ومتعرضاً لنقمة الله لأنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فعنده أمانة ترجع لعمالة إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هي بطت إلى هذا القالب الثاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إمامظلة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير لكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم - فين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد اقبلت وجوههم إلى أفتيتهم واتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توقيفه ولم يهده طريقه ، فعوذ بالله من الضلال والتزلزل إلى منازل الجهال فهذا حكم اقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الفاعلين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة حيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكاله التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» (١) وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السبائك فيتسارع العفو والتكفير إليها في الأثر إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبَّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا يبقى له حسنة ، فتقول

(١) حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم .

وحب من أجبك
وحب عمل يحرب إلى
حبك . اللهم بملك
الغيب وقدرتك على
خلقك أحين ما كانت
الحياة خيراً لي وتوفى
ما كانت الوفاة خيراً لي
أسألك خشيتك في
الغيب والشهادة وكلمة
العدل في الرضا والغضب
والقصد في الغنى والفقر
ولذة النظر إلى
وجهك والشوق إلى
لقاءك وأعوذ بك من
ضراء مضرة وفتنة
مضلة . اللهم اقم لي
من خشيتك ما تحول
به بيني وبين مصيبتك
ومن طاعتك ما يدخلني
جنتك ومن اليقين
ماتهمون به علينا
مصائب الدنيا . اللهم
ارزقنا حزن خوف

للائكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وسكوا ۝ صكا إلى النار وكما يهلكه وبسطة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجل للظلم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لا أفعل ليس في تحقيق حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره مذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها تحقيق فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في العباد في درجات السمادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاها حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه حين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى الشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشمر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها جبر عن ذلك السبب الحقى المفضى إلى النجاة بالغو والرضا وعماد يفضى إلى الهلاك بالنضب والانتقام ووراء ذلك سر الشبهة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فذلك يجب علينا أن نجوز الغو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والنضب على الطييع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والنضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - وكل ذلك صحيح فليس للانسان إلا ما سمى وسعيه هو الذى يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما راغوا أزاح الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الخلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الخلط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأعلى النجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمتهوين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جود ولا طاعة ولا مصيبة فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور
رجاء للوعد حتى
نجد لغة ما نطلب
وخوف مامنه نهرب
اللهم ألبس وجوهنا
منك الحياء واملأ
قلوبنا بك فرحا وأسكن
في قوسنا من عظمتك
مهابة وذلل جوارحنا
لخدمتك واجعلك
أحب إلينا مما سواك
واجعلنا أخصى لك بمن
سواك نسألك تمام
النعمة بتمام التوبة
ودوام العافية بدوام
العصمة وأداء الشكر
بحسن العبادة اللهم
إني أسألك بركة الحياة
وخير الحياة وأعوذ بك
من شر الحياة وشر
الوفاة وأسألك خير
ما بينهما أحبى حياة

(١) حديث حول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبي سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم العصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن الدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى ابن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم فهذا مظهر وليس بمستقيم والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ويعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عن الملمات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك (١) فاذن الاشكال والاعتناء أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون القلدين وهم القربون السابقون فإن القلة وإن كان له فوز على الجملة مقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم القربون وما يليق هؤلاء بمجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والحجر والحل والأساور فأنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمة وطى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لملمات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخاري من حديث ممرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة قليل يارسل الله وأولاد الشركين قال وأولاد الشركين وللطبراني من حديثه سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريع كنا في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية وفيه إلا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبي داود في آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ثابت بن الحرث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن طهمة ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والمودة في النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذراري المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين فقالوا يارسل الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالك منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين ولإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصب بن جشامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

السعداء حياة من
تحب بقاءه وتوفى وفاة
الشهداء وفاة من يحب
لقاءه يا خير الرازيين
وأحسن التوابين
وأحكم الحاكمين
وأرحم الراحمين ورب
العالمين ، اللهم صل على
محمد وعلى آل محمد
وارحم ما خلقت واغفر
ما قدرت وطيب
ما رزقت وتمم ما أنعمت
وتقبل ما استعملت
واحفظ ما استخفظت
ولا تهتك ما سترت فانه
لا إله إلا أنت أستغفرك
من كل لذة بغير ذكرك
ومن كل راحة بغير
خدمتك ومن كل
سرور بغير قربك
ومن كل فرح بغير
مجالستك ومن كل

ولذلك قيل لراية العذوبة رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لا يقوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه ما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى بلغت إليه لاقته ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قررة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فلهذا حجاب على التحقيق وبرهه ينكشف النطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وإن الدار الآخرة لمضى الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الوافق بلفظه.

(بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب . منها الإصرار والواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تصرم ولا يتبعها مثله لو تصور ذلك كان الغوغى الرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على نوال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ « خير الأعمال أدومها وإن قل » (١) والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للتصميم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور المحجوم عليها بفتنة من غير سوابق ولواحق من جملة الصفات قلما يبنى الرأى بفتنة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بفتنة من غير مشاحنة سابقة ومعاودة فكل كبيرة تكتنفها صفات سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بفتنة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » (٢) وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لملحه بجلال الله فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لاصغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب ثبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته فكأنه لم يسله ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطينا يا حافظ

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم (٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخارى من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فقد ذكر هذا وحديث لله أفرح بثوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضي الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللوالب إذ كانت معرفة الصغائر بحلال الله أمم فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد النكس من ذلك نعمة والنفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من الذنوب من يتمدح بذنبه ويقبح به لشدة فرحه بمعارفته إياه كما يقول أمارأيتني كيف مزقت عرضه ويقول الناظر في مناظرته أمارأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحقتة فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإهماله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل ممثلاً ليزداد بالإمهال إنما يظن أن تمكنه من العاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان السرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده عليه وتحريك لرغبة الشرف من اسمه ذنبه أو أشهده فله فيها جنايتان انضمتا إلى جنايته فقلبت به فان انضاف إلى ذلك الرغبة للغير فيه والحلل عليه ونهية الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاخس الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين بيبب أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين ولذلك قال تعالى - للناقون والناقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف - وقال بعض السلف ما انتهك الرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصيته يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبرسم وركوبه مراكب الذهب وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الانكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتمديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم عاليا يقصده من الإلجاء كعلم الجدول والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيحوت العالم ويبقى شره مستطير في العالم آماداً متطاولة فطوبى لمن إذامات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً (٢) » قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

(١) حديث كل الناس معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة باللفظ كل أمق وقد تقدم (٢) حديث من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .

الحافظين وبإذا كر
الذاكرين وبإذا كر
الساكرين بذكر
ذكروا وبفضلك
شكروا وبإغياث بامغيث
بامغيث يا غياث
للمستغيثين لا تنكسني إلى
نصي طرفه عين
فأهلك ولا إلى أحد من
خلقك فأضيع أكلتي
كلاءة الوليد ولا تلعل
عني وتولني عما تولى به
عبدك المالحين أنا
عبدك وابن عبدك
ناصرتي بيدك جار في
حكمتك عدل في
نصاؤك نافذ في مشيئت
إن تعذب فأهل ذلك
أنا ، وإن ترحم فأهل
ذلك أنت فاقبل اللهم
بأمولاي يا الله يارب
مأنت له أهل ولا تفعل

مثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويفرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن طالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فصل في الإصلاح دهرا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت لك ولكن كيف بمن أضلت من عبادي فأدخلتهم النار . فهذا يتضح أن أمر العلماء محطّر فعلهم وظيقتان : إحداهما ترك الذنب والأخرى إخفاؤهم وكاتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمل والليل إلى الدنيا وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويتقدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدرّون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من المحرم ويكون هو السبب في جميع ذلك فخرّكات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالرجح وإما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

(الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر)

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أو رثه العلم يكون للعاصي حالّا بينه وبين محبوه ولشكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بدّ من يانها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسببها . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والسكران من استشعر عقوبة نازلة بولده أو يعض أعضائه طالع عليه مصيبته وبكائه وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأي شيء أدلّ على نزول العقوبة من العاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله ولوحده إنسان واحد يسمى طبيبا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطلال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا اللوت بأشد من النار ولا المرض بأدلّ على اللوت من العاصي على سخط الله تعالى والتعرض به للنار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فلامحة محبة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فانهم أرقّ أفئدة (١) » ومن علامته أن تملك من مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يقبل توبته فقال وعزّي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه . فإن قلت فالذنوب هي أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عدلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلّه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عدل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك السم أم لا ؟ فإن قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن الصل الذي ليس فيه سم أيضا تشبه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون فلا تری إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى اللوت

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرقّ أفئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموغلة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمة وأرق قلبا .

اللهم يارب يا الله
ما أنا له أهل إنك أهل
التقوى وأهل للغفرة
يا من لا تنصره الذنوب
ولا تنقصه للغفرة هب
لي ما لا يضرك وأعطني
ما لا ينقصك ياربنا
أفرغ علينا صبرا
وتوفنا مسلمين توفي
مسلمنا وألحقني
بالصالحين أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وأنت
خير الغافرين ربنا
عليك توكلنا وإليك
أئبنا وإليك للصير
ربنا اغفر لنا ذنوبنا
وإسرافنا في أمرنا
ثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين
ربنا آتنا من لدنك
رحمة وهي لنا من
أمرنا رشدا ربنا

وبينى أن يجد هذه الرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في السمل التفرقة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من السمل بل بما فيه ولم يكن ضرر التائب من صرقته وزناه من حيث إنه صرقه وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس . وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك ما فرط والمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشروط محتمتها بتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالنسب أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهر شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها وإلى للمعاصى ما الذى قارقه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيه عن آخرها فإن شك في عدد ما فات منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقى وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتصرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشغل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فإن ذلك لا يجزئيه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك بطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويأمره أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فضليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فضليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له كسب ولا مال فضليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » (١) والمجزئ الطارئ . بمد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما للمعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميع صفاتها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر ومما ملاء وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالدم والتحرر عليها بأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث الدعة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » (٢) بل من قوله تعالى « إن الحسنات يذهبن السيئات » فيكفر صماع الملاحى بسماع القرآن وبمعجالى الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبيا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر من الصحف محدثا بكرام الصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقيله بأن يكتب مصحفا ويحمله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذى من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

أتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والمعصية من المعصية وإفراغ السر في الخدمة وإيداع الشكر في النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن القلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق المضادة فإن الرض بجالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا ينجوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي التناوبات فلذلك ينبغي أن تمحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطيف في طريق الحق فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا **المهو** فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والخنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينجو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجاف بالمهموم والغفوم عن دار المهموم قال صلى الله عليه وسلم **من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم (١)** وفي لفظ آخر **«إلا المهم بطلب العيشة»** وفي حديث عائشة رضي الله عنها **«إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه المهموم فتكون كفارة لذنوبه (٢)»** ويقال إن المهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والمهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهو اللطم . فان قلت هم الإنسان غالباً بما له وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان كفارة ولو تمتع به تمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكتيب فقال قد حزن عليك حزن مائة شكلى قال فما له عند الله قال أجزأته شهيد فاذن المهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا لما قال من حق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والالتيان بالחסنات التي هي أضدادها فيقابل بإنشاء الناس بالاحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالعبية والقنح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ البعد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتاق بإيجاد لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الإعدام بالأيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمهو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبته ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الإيذاء المحض . أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم البدن ووصولها إلى السحق لإيمانه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا لقتصاص فبالقتصاص فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يستتر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في بعض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى **«أن ما عزم مالك أني رسول الله صلى الله عليه وسلم**

لنا ولا خواتنا الذين
سبقونا بالإيمان ولا
تجعل في قلوبنا غلا
للذين آمنوا ربنا إنك
رءوف رحيم اللهم
اغفر لي ولوالدي وللمن
تولدا وارحمهما كما
ربياني صغيرا واغفر
لأعمامنا وعماتنا
وأخواتنا وخالاتنا
وأزواجنا وفريقاتنا
ولجميع المؤمنين
والمؤمنات والمسلمين
والمسلمات الأحياء
مهم والأموات بأرحم
الراحمين يا خير الغافرين
ولما كان الدعاء مع
العبادة أحببنا أن
نستوفي من ذلك فسمنا
صالحا نرجو بركته
وهذه الأدعية
استخرجها الشيخ

- (١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم وفي لفظ آخر إلا المهم في طلب للعيشة طس
وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح
(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغفوم وتقدم أيضا
في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحرز .

فقال يارسول الله إني ظلمت نفسي وزينيت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله إني قد زينت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به لحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقاتل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقاتل يقول ماثوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سمعهم (١) وجاءت الغامدية فقالت « يارسول الله إني قد زينت فطهرني فردها فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردني لملك تريد أن تردني كما رددت ماعزا فوالله إني لحلي فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهي حتى تضعى فلما ولدت أنت بالصبي في خرقه فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تظميه فلما فطمته أنت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يابني الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسمها نسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلا ياخالد فوالذي نفسي بيده لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وأما القصص وخذ القذف : ■ بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان تناول مالا تناوله بفسب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويح زائف أو سر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراج به بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحيات والدوائق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقتش قبل أن يناقتش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجمرع ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلمهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فاتهم لا يقدر على طلب العاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتسكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مال كما يعين وما لا يعرف له مال كما فليه أن يتصدق به فإن اختلط الحلال بالحرام فليه أن يعرف قدر الحرام بالأجره ويطهره بذلك التقدير كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الجنابة على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يميمهم في النية فيطلب كل من تعرض ■ بلسانه أو أدى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجد وأحله بطيب قلب منه فذلك كفرته وعليه أن يعرف قدر جنابته

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم « لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى قله كل الاعتقاد وفي البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء [الباب المحسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات] فمن ذلك أن يلزم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لثلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين عبده أهل

وتعرضه له فالاستحلال للمهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاستحلال
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فإن كان في جملة جنائته على
 الغير ماله ذكره وعرفه لتأذي بعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه باللسان إلى عيب من خفايا
 عيوبه بعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم
 تبقى له مظلة فليجبرها بالחסنات كما يجبر مظلة الليث والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال
 بقيت المظلة عليه فإن هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسمى في مهماته وأغراضه ويظهر من
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فإن الإنسان عبد الاحسان وكل من تفر ببيتة مال بحسنة
 فإذا طاب قلبه بكثرته وتودده وتلطفه صحت نفسه بالاستحلال فإن أي إلا الاصرار فيكون تلطفه به
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته وليكن قدر سعيه في فرحه
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك
 منه عوضا في القيامة يحكم الله به عليه كمن أتلّف في الدنيا مالا لجاء بمثله فامتنع من له المال من
 القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي التفرق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا
 أهل الأرض فدل على رهاب قاتله فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا
 فقتله فكل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا
 نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة
 جاء تائبا مقبلا فقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي
 فجاءوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاموا فوجدوه أدنى
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب
 منها بشبر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فقفر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان
 ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد للتعلق بالمعصية .
 وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعتقد مع الله عقدا مؤكدا وبما هداه بهد وثيق أن لا يعود
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالتي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزمًا جزما
 أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تخلفه
 الشهوة في ثانی الحال ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب
 في أول أمره إلا بالمعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فإن كان له مال موروث
 حلال أو كانت له حرفة يكسب بها قدر الكفاية فيقتصر عليه فإن رأس للعاصي أكل الحرام
 فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

(١) حديث أبي سعيد الخدري التفرق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو . متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

للعمامة وأرباب القلوب
 وقد ندب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم إلى
 ذلك ثم يقرأ الفاتحة
 وأول سورة البقرة إلى
 للفلقون والآيتين
 بالحكم إله واحد وآية
 الكرسي والآيتين
 بعدها وآمن الرسول
 والآية قبلها وشهد الله
 وقل اللهم مالك الملك
 وإن ربكم الله الذي
 خلق السموات
 والأرض إلى الحسين
 ولقد جاءكم رسول إلى
 الآخر وقل ادعوا الله
 الآيتين وآخر الكهف
 من إن الذين آمنوا
 وذا النون إذ ذهب
 مغاضيا إلى خير الوارثين
 فسبحان الله حين
 تمسون وحين تصبحون

في المأكولات واللبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام محمل بل نقول لمن قال لاتصح إن غنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كدمه لما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلها سبب لقلته وقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولنا تسكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لهما إذ من يتوجه على قتل ولله بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بفوات محبوه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فان استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التائبين فهو كالمالك المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول قول إن العقد لا يصح أي لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يتم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستلحق النصف بتفصيل به يكشف النطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يحق على أهل الملك وحرمة ويحق على دابته فيكون خائفا من الجنابة على أهل مستحقرا للجنابة على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة المعصية والطبيب قد يعذر المريض العمل تحذيرا شديدا ويعذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن الصل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل الصل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أهد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والتهب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كما في تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر
السورة ولقد صدق الله
وأول سورة الحديد إلى
بذات الصدور وآخر
سورة الحشر من
لو أنزلنا ثم يسبح ثلاثا
وثلاثين وهكذا محمد
مثله ويكبر مثله ويتمها
مائة بلا إله إلا الله وحده
لا شريك له فإذا فرغ
من ذلك يشتغل بتلاوة
القرآن حفظا أو من
المصحف أو يستغل
بأنواع الأذكار ولا
يزال كذلك من غير
قصور وقصور وناس
فان النوم في هذا الوقت
مكروه جدا فان غلبه
النوم فليقم في مصلاه
قائما مستقبل القبلة
فان لم يذهب النوم
بالقيام يخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فيحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الفرية أو عن النظر إلى غير الحرم أو ما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه وندم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون فدية نفسه في تلك المصيبة أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والفقره وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون ملما بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فان سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك العصية وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالقية وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يطمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوة فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أدخل العذار وأرخصي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فمأني أعليه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فان أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول الله تعالى على أمران وإلى على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملئ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أفهره فيما أقدر عليه ، وأرجو مجاهدتى فيه أن بكفر عن بعض ما عجزت عنه بفطر شهوتى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالمقدرة الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلا ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه إما في شدة العصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندم على ذلك الذنب ووافؤه بعزمه على الترك بلحقه عن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة بتحقيق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية

نحو القبيلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبيلة في إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصي به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم بنيانه وتبني أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يتسدى بهراء المسحات العشر

لكانت حرقه الندم تنفع تلك الشهوة وتغلبها فأنى أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه
سببته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ
عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً
أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنيتين هذا المبلغ
إلا أنه لا يعرفه من نفسه فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله
تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فضاء يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله
ترجع إلى أن ظلمة العصبية تتمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة
بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى
على محوها دون المجاهدة ولولا هذا قلنا إن التوبة لا تقبل مالم يمضِ التائب بعد التوبة مدة يجاهد
نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا بدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً ، فإن قلت
إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن التزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه تزوع إليه وهو
يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل ؟ . فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، قال أحمد بن أبي الحواري
وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن مع التوبة فضل الجهاد . وقال علماء البصرة ذلك
الآخر أفضل لأنه لو قتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن
المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن
الذي انقطع تزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع تزوعه إليها بختور في نفس الشهوة
فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو
دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين . وأغنى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبثق بإشارة اليقين
وتقمع الشهوة للنمعة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً وقول القائل إن هذا
أسلم إذ لو قتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل
العنيتين أفضل من الفعل لأنه في أمن من خطر الشهوة والعصبية أفضل من البالغ لأنه أسلم والفلس أفضل
من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن الفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات وهذا
كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام
الأغرار بل كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة
من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على
الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان
قويًا عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بطلان
التزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب
الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من
المجاهد للقاسي لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة
بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصوداً لئنه بل للمقصود قطع ضرر أوه العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته
وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فإذا قهرته وحصلت المقصود قد ظفرت ومادمت
في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجماد
في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما تائبان عنده
بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجراح بالإضافة إلى من هو مشغول بمسألة التأديب بعد ولقد دل

وهي من تطهير الخضر
عليه السلام عليها
إبراهيم التيمي وذكر
أنه تعلمها من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ،
وينال بالمداومة عليها
جميع التفرق في
الأذكار والدعوات ،
وهي عشرة أشياء
سبعة سبعة الفاعحة
والسودتان وقل هو
الله أحد وقل يا أيها
الكاغرون وآية
الكبرى وسبحان الله
والحمد لله ولا إله إلا الله
والله أكبر والصلاة
على النبي وآله وسخفر
لنفسه ولوالديه
والمؤمنين والمؤمنات
ويقول سبحا اللهم اقل
بي وبهم عاجلا وآجلا
في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يطعنوا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإمالتها بالكيفية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فجزع عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واستمرسل في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع للهلكات . فان قلت لما قولك في تأييد أحد هاتين الغلب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويمحرق ندماعليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من اللذيين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهجم حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة والارادة والجديس يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهجم أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازل له أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدي سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكرك والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعثته لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى العاقل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يهجم على غير السلوك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف ■ أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق السافر عن الطريق إلى بلد من البلدان هجر حاجز طال تعب السافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسده من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يتكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتصذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاهن وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطلان الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل ■ من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى بمن الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والقصد والعاقل وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع للهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعم في الآخرة لتزيد رغبته ولكن إن كان شاعرا لا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر بما يحرك رغبته في طلب العاجلة ولا يرضى بالآخرة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدئ أيضا قد يستغربه فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتمة بأنهم فاتهم ما بعثوا إلا لارشادهم فطهير التلبس بما تنفع أنفسهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بدواعي رياضة إلا ويغوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على اللريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ■ أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشجع (١) « وفي لفظ ■ إنما أسهو لأنسى » .

(١) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشجع ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

ما أنت له أهل ولا تفعل ربنا يا مولا نا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رءوف رحيم . وروى أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الحضرة رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى لللائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقبل له كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسحات أقبل على التسيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كنع كنع »^(١) لما أخذ تمره من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطق ترك الفصاحة ونزل إلى لسانه بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبيمة والطائر تلتطفا في تعليمه فأياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزية أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بطلعه وكرمه .

(بيان أقسام العباد في دوام التوبة)

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات للتبديل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس للطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق الفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الله كبر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا »^(٢) فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الله كبر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزول إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر زاعها ولم يشغل عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه لم يجاهدتها وردها ثم تفاوتت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف اللذة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختلط يموت قريبا من توبته يخط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن يحمل طالع جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فاعسا نحوها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق قهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكشاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعثره لاعن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غيره أن يقدم عزمًا على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

لا يوجد في اللوط إلا مرسلًا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنساطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للآئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسند (١) حديث أنه قال للحسن كنع كنع لما أخذ تمره من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق للفردون المستهترون بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقصد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة التداوي إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه قد قل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ بعد في باطنه أثرًا ونورًا وروحًا وأنسا إذا كان صادقًا والذي يحمد

أسبابها التي تعرض لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تعلم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال النسيجة لأعن تصميم عزم وتغمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية صعبه أن يطلب خيره شره حتى يشغل ميزانه فترجع كفة الحسنات فأما أن تغلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع الغفرة - فكل للمام يقع بصغيرة لأعن توطئ نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى - والذين إذا ضلوا فأحسوا ضلالتهم وأظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأتى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه طي كرم الله وجهه « خياركم كل مفتق تواب ^(١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تنفيء أحيانا ويميل أحيانا ^(٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة ^(٣) » أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة الصيرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من القواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالضيق الذي يؤيس للنفقة عن نيل درجة الفقهاء بقتوره عن التكرار والتعلق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقهاء بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المحتطفات قال النبي ﷺ « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون ^(٤) » وقال أيضا « المؤمن واه رافع غيرهم من مات على رقبته ^(٥) » أي واه بالذنوب رافع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة - فما وصفهم بعدم السيئة أصلا. الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قهرها وكفاه شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتقدم ويقول ليتني لم أقصه وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس للسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمرهم من حيث مواظبتهم على الطاعات وكرهتهم لتعاطاهم مرجو

(١) حديث طي خباركم كل مفتق تواب البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث للمؤمن كالسنبلة تنفيء أحيانا ويميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلها وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تنفيء وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد حديث أنس (٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذي واستغفره والحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل للمستغفرون . قلت فيه طي بن مسعدة ضعفه البخاري (٥) حديث المؤمن واه رافع غيرهم من مات على رقبته الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا فسميد بدل غيرهم .

من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمين الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه في يومه وليته ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلاته ههنا ليستعيد بالله تعالى من شر يومه وليته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بأمك وكلتك التامة من شر السامة والهامة

فسمى الله أن يتوب عليه وعاقبته عظمة من حيث تسوية وتأخير فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في الشبهة فإن تداركه الله فضله وجبر كرمه وأمن عليه بالتوبة التحق بالسائقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الحاشية ما سبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تمذر على انتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم قد تمذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضرب الرجاء في حقه وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادته الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصوله النفس الذي به تستحق الناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت قهية بطول التفقيه فلا يصلح ملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا القلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - وقس و ما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهوا وقد خاب من دساها - فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب قدما والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد يعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يلقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (١) فاذن الخوف من الحاشية قبل التوبة وكل نفس فهو خائفة ما قبله إذ يمكن أن يكون اللوث متصلا به فليراقب الأنفاس والإوقع في المذنب ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينعمك اتهامك الفافل في اتباع شهواته فهذا من جملة الصرير وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير وخائف على هذا سوء الحاشية وأمره في مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه كالأستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يحمد وأن يجلس في البيت ليحمله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في الواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالتناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض في بيته الخرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والفرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير مالك سبيل للمغفرة بعد عند آرباب القلوب من المعتوهين والمجب من عقل هذا للتوهم وترويعه حماقته في صفة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست

(١) حديث إن العبد يعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل يعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل يعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ بأصمك وكلتك
الثامة من شر عذابك
وشر عبادك وأعوذ
بأصمك وكلتك الثامة
من شر ما يجري به الليل
والنهار إن ربى الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم
ويقول بعد الر كنتين
الأولين اللهم إني
أصبحت لأستطيع
دفع ما أكره ولا أملك
نفع ما أرجو وأصبحت
مرتهنا بصلى وأصبح
أمرى بيد غيرى فلا
قصر أقرمى اللهم
لا تشمت بى عدوى
ولا تنسى بى صديقى
ولا تجعل مصيبتى فى
دينى ولا تجعل الدنيا
أكبر همى ولا مبلغ
على ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومصيبتي ليست تضروه ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزانته ليست تنقص عن قهرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فمساء يرزقك من حيث لا تعتصب فيستحق قائل هذا الكلام ويستهيء به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم للفرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يستقدانه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك للقيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا ينعمه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فعوذناهم من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخل تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا - أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فعوذناهم من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء القلب والمآب.

(يان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إلمام بحكم الاتفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كاذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لعلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوجها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضم بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي وكذلك ينكر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الافلاع عن الذنب وتخوفا العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم بحمده مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين^(١) وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات^(٢)

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله لا يغفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فلعل للصنف عبر بالآثر لارادة الوقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرحم الله إنى أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ثم صلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل عمله في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلحها أمام كل أمر يريد ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية (١) » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس فأقضى علي بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ما صليت معنا صلاة القعدة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات (٢) » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما يبينهن إلا الكبائر » فلي الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهتد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للتسخر من الذنب وهو مصر عليه كالمستزىء بآيات الله (٣) » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولي أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن المصنف ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هاسكتنا (٤) . فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس التفتة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفعة النار فعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال التوبة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها ففصل لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة (٥) » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل المذبة فقام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل - وأقم الصلاة طر في النهار - الآية وإسناده جيد (١) حديث إذا عملت سيئة فأتبها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر الحديث (٢) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة القعدة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث (٣) حديث التسخر من الذنب وهو مصر عليه كالمستزىء بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستزىء بربيه وسنده ضعيف (٤) حديثا بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديث أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس (٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تخدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجل فيه
الحيرة . ثم يصلى
ركعتين أخريين يقرأ
في الأولى سورة الواقعة
وفي الأخرى سورة
الأعلى ويقول بعدها
اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد واجعل
حبك أحب الأشياء
إلى وخشيتك أخوف
الأشياء عندي واقطع
عني حاجات الدنيا
بالشوق إلى لقائك وإذا
أقررت أعين أهل
الدنيا بدنيام فأقرر
عيني بعبادتك واجعل
طاعتك في كل شيء
منى يا أرحم الراحمين
ثم يصلى بعد ذلك
ركعتين يقرأ فيهما
شيئا من حربه من
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى آخرها، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاة فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء. فإن عصى قال يارب استر علي فإذا فرغ من العصية قال يارب تب علي فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الإناة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والإناة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفسك ثم المعرفة ثم النجاة ثم المصافة ثم الموالاة ثم محادثة السرو هو الحلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم «التائب حبيب الله» فقالوا، إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية. وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه، وللقصود أن للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له. والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكيفية وبضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فلا استغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل الشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قوله الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كالا تخلو شعيرة تطرح في اللزبان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجع اللزبان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يقل قترفع كفة السيئات فيألك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيا وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الحرقاء تسكل عن الغزل تملأ بأنما لا تقدر في كل ساعة إلا على خط واحد وتقول أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري المتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيوخه أي عثمان الغري: إن لسان في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلي غافل. فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول وما ذكره حتى فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا جمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أتبع كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرب قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيمضي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعاني قوله تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر المعصيان بالغية واللغو والفضول هذا تضاعف في الدنيا لأدنى الطاعات وتضاعف الآخرة أكبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليحضر لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين ليقبه الله سوء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقبه الله سوء الدخول بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت

يعلمون - فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبته عن العبادات فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعته على المرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل النطق للخفايا والسر الرفاى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه للكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلا لاجرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر للملح عليه . وأما الظالم للفرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدققة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تمويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدل بجبل غروره فتمت بينهما المشاركة والواقعة كأكيل : وافق شن طبقه . وافقه فاعتقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالاضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً وظالم للخلق كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لا أنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة إلى الكاتب لا بالاضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارتنا محتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفار لا إلى استغفار واحد فكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يندم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القريين. فان هذه أمور ثبتت بالاضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبياً ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فله رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فله غضبه فيه وخبياً ولايته في عبادته فلا تحقروا منهم أحداً فله ولي الله تعالى وزاد وخبياً إجابته في دعائه فلا تركوا الدعاء قريباً كانت الاجابة فيه .

(الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزيز نادر: والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الدواء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواءه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله ولا يطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم النافلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون - فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكتنجين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصغراء فكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار فاذا لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بينهما .

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يعلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن فقد كان من الصالحين من يحتم القرآن في الصلاة بين اليوم واليلة وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير -

فان قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم بمجملها أدوية لأعراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبب الأسباب وهذا هو الإيمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويعق عليه الملاك وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو العصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان . الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصنى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب للضررة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتياء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتياء ووزانه من الدين الاصفاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلحق إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف القوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصنى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتياء عنه ليعرفه ولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتياء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم وغير ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فانهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قسيسا متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جاهلا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والقرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار الرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيد بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية قرأ
في كل ركعة آية منها
إما مرة أو يكررها
مهما شاء ويقدر
لطلاب أن يصلى بين
الصلاة التي ذكرناها
بعد طلوع الشمس
وصلاة الضحى مائة
ركعة خفيفة وقد كان
في الصالحين من ورده
بين اليوم واليلة مائة
ركعة إلى مائتين إلى
خمسمائة إلى ألف
ركعة ومن ليس
له في الدنيا شغل وقد
ترك الدنيا إلى أهلها
فما باله يطل ولا يتنعم
بخدمه الله تعالى . قال
سهل بن عبد الله
النسري لا يكمل شغل
قلب عبد بالله الكريم
وله في الدنيا حاجة فإذا
ارتفعت الشمس

فإن طاقته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما يجد للوت غير مشاهد وطاقية الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتل النفرة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها فذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال . والثالثة : وهو الداء الضال قد الطيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا هجروا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر قصاتهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيد مرضا لأن الداء للهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تخدير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فلما بالكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم فهذا السبب هم على الخلق الداء وعظم الوفاء واضطج النبوءة وهلك الخلق لقدد الأطباء بل اغتفل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يشعروا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فاتهم إذا تكلموا لم يهجمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتخليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن الله في الأصم وأخف على الطباع تنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من يد جراءة على العاصي ومزيد الله بفضل الله ومهما كان الطيب جاهلا أو خائفا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك للصريح على الذنوب الشبهة للتوبة للمتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظما لذنوبه التي حقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة للفرور للسترسل في العاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة للفرور بالصل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجبال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي العضة الزبالة التي لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فأذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فأعلم أن ذلك بطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملك كان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا لماذا خلقوا علموا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا بما علموا تابوا بما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبد يصحى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخفف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفيا عن عبدى وأمهلاء فانكما لم تغلفاه ولو خلقتهما لرحمتاه ولله يتوب إلى فأغفر له ولله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملك كان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربسين زرع قد دنا حصاه الحديث وفيه ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما ينصف العصر بين الظهر والقرب صلى الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رخصت الفصال » وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حر الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنهم غافلون - لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدري لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحصوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأناست الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسرار بل الترضى بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار، نعم كانت مساعدتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأستقاء بهملون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنبه على ألسنة الصبرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر فحط جبهه فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها تتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ^(١) » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا ^(٢) » وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه وقصا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرم من رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المتكبرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يعقته الله تعالى ليعقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يعيش في الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ققام وهو يعيش في وسط الوحل ويكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فتندها بخوض في الذنوب خوفا وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورتبك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقى فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحسنة كيف خلقت النار قفمن يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يقوت أحد صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فما غيرتم من أعمالكم ^(٣) » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع

الذكر وأفضله فإن عجز
عن ذلك أيضا وتعلمته
الوساوس وتزاحم في
باطنه حديث النفس
فليتم في النوم السلامة
وإلا فكمرة حديث
النفس تقسى القلب
ككثرة الكلام لأنه
كلام من غير إيمان
فيحترز عن ذلك قاله
سهل بن عبد الله أسوأ
المعاصي حديث النفس
والطالب يريد أن يعتبر
باطنه كما يعتبر ظاهره
فانه بحديث النفس
وما يتخيل له من ذكر
مامضى ورأى ومع
كشخص آخر في باطنه
فيقيد الباطن بالمراقبة
والرعاية كما يقيد الظاهر
بالمعمل وأنواع الذكر
ويمكن للطالب المجد

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده واللفظه إلا أنه قال الرجل بدله العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فما أنكرتم من أعمالكم البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء

بالعبء إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذينة مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلى فخامر قلبى هوى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسود جسمى كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غشاه في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيـد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة فلما أتيت قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فصاررت تنفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا آتي دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فمجيبت كيف علم بذلك وهو يفعداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجهه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقيماً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنوب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما يسهل صفته فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يحاقب على كفرانه وأما للطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على أحماد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والفيـسة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنفس والسحنة ووجود الحركات على الطفل الباطنة ويشتمل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تنكح على قال لا تنكح (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الفنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يستدر منه (٣) » وقال رجل لمحمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فتهاء عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيماً كن لك الجنة وعيافاً فكأنه تفرس فيه آثار القظاظ والظلة . وقال رجل لابراهيم بن آدم أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أرام بالناس بل غمسون في ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة الخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبني لى كتاباً توصيني فيه ولا تنكحى فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يصيهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يمين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإنباه

وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبيد الله بن هاني . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما أصنع بالعبء إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذينة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تنكح على قال لا تنكح تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكفه الله إلى الناس» (١) والسلام عليك فانظر إلى فقهها كيف تدرست لآفة التي تكون الولاية بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد : فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفالك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغفوا عنك من الله شيئاً والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال الالقية ليسكون اشتغاله بهمهم فان حكاية جميع مواظب الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تعميم زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أوسأله من لا يدري باطن حاله أن يحظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب الملل . ومثاله ما روى أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عزوجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت لإلصاق خبير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعزّ أمر الله يعزّك الله . وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرضا فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفه ولا تغالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يا بني لاتضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عمالا يعينك ولا تضع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يأتهم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل مال وجاءك للوت عليه قرأته غنيمة فالزمه وكل مال وجاءك الموت عليه قرأته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى لأخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساميا ولا تكن غضابا وكن نقاعا ولا تكن ضاررا وانزع عن اللجاجة ولا تش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تدير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحمد بن كرام أوصني فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف الصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا ما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا ما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : أما بعد ، خف بما خوفك الله واحذر مما حذر الله وخذ محافى يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يحظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمور المقلعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالمطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يفر من لا علم عنده فكُن فيها يأمر المؤمنين كالمدادى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكفه الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يحسم .

من نوم النهار تجد في الباطن نشاطا آخر وشغلا آخر كما كان في أول النهار فيكون للصادق في النهار نهران يغتنيهما بخدمة الله تعالى والدؤوب في العمل وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذا كرام أو مسجعا أو تاليا قال الله تعالى - وأقم الصلاة طرفي النهار - وقال - فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - قيل قبل طلوع الشمس صلاة الصبح

على شدة الدواء لما يغاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فممتهم وأما أعداؤه فمترتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، قد أمكتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقته فهذه للواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الانتفاع بها ولأجل قد مثل هؤلاء الوعاظ انهم باب الاتماظ وغلبت العاصي واستشرى القصاد وبلى الخلق بوعاظ يخرقون أسجاعا وينشدون أياتا ويتكلمون ذكر ماليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متكلف والمتسمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضي وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما تناول ذلك إما تنفثته عن مضرة وإما شدته غلبة شهوته فله بيان لما ذكرناه هو علاج النفة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضررته لما كوله مضرا فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتأمل عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلا يدب على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يبالغ الشهوة في العاصي كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستشعر الخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب للهبطة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور للشهية والنظر إليه وعلاجه الحرب والعزلة ومن داخل تناول له لاذنا الأطمع وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بالصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وانتكار أو عن صماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الله كثر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتنام الفهم وينبت من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وابتعث الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فائق وانتظر الثواب وصدق بالحسن فييسره الله تعالى لليسرى « وأما من يغفل واستغنى وكذب بالحسن فييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإتمام الله الآخرة والأولى . فإن قلت فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لنصف الإيمان إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أحدها أن العقاب الموعود غيب ليس بمحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود وضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن

وقبل غروبها صلاة
الصبر - ومن آتاه
الليل فبصبح - أراد
العشاء الأخيرة
سواطراف النهار - أراد
الظهر والغرب لأن
الظهر صلاة في آخر
الطرف الأول من
النهار وآخر الطرف
الآخر غروب الشمس
وفيها صلاة المغرب
فصار الظهر آخر
الطرف الأول والمغرب
آخر الطرف الآخر
فيستقبل الطرف الآخر
بالقطة والله كذا
استقبل الطرف الأول
وقد عاد بنوم النهار
جديدا كما كان بنوم
الليل ويصلي في أول
الزوال قبل السنة
والفرض أربع ركعات

العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها خلفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبق أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها خلفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد » (٢) فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المآل سيان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيكون عليه الألم للتعطش. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكثير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير في حيث رجاءه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب ويتنظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان « نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس قدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكيا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذر الطيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر - فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شرائك نعله فما يدريه لكل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألم لحظة إذ ألم يخف ما بعده ومفارقة الدنيا لا بد منها فنكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه ألا وبأدق في نظر كيف يبادر إلى ترك ملائه بقول ذي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكير بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا وأبدا إذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنقصها وامتناع صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويف التوبة فيما لجه بالكفر في أن أكثر صباح أهل النار من التسويف لأن المسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فله لا يبق وإن بقي

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.

بتسليمة واحدة كان
صليها رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهذه
صلاة الزوال قبل الظهر
في أول أوقاتها واحتاج
أن يراعى لهذه الصلاة
أول الوقت بحيث
يظن للوقت قبل
لؤلؤين حين يذهب
وقت الصلوة
بالاستواء فيشرع في
صلاة الزوال ويسمع
الأذان وقد توسط
هذه الصلاة ثم يستعد
لصلاة الظهر فإن وجد
في بطنه كدرا من
عاطلة أو مجالسة
اتفقت يستغفر الله
تعالى ويتضرع إليه
ولا يشرع في صلاة
الظهر إلا بعد أن يجد
الباطن عائدا إلى حاله

فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الخيال إلا قلبه الشهوة والشهوة ليست تفرقه غدا بل تضاعف إذ تتأكد بالاعتقاد فيست الشهوة التي أكدتها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين التائبين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومما شال السوف إلا مثال من احتاج إلى قطع شجرة فراهقوية لا تتقطع إلى بمشقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعف فأخذ ينظر الطلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله قراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العزور على كثر في أرض خربة فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا اتهم إلى داري مات على باب الدار فإن الموت يمكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأمصار أن مثل ذلك وقع فأتا أنتظر من فضل الله مثله فتنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك بطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بعقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالة كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولدت فيه حياة وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان الله الأطلعة فيقول أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا نبيحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أغنى بهم جهال العوام بل ذوى الأبواب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفية فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية للسكدة فلا يبقى لك توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا بمخلوعة بالذرة وقدرنا طائر ايلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت القدرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التوحي الممرى :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبث الأموات قلت إليك
إن صح قولكما قلت بخاسر أو صح قولي فالحاسر عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ما قلت فقد تخلفنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت أى العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت هذه الأمور جليلة ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستغفلته وما علاج القلوب لردّها إلى التفكير لاسيما من آمن بأصل الشرع وتخصيله . فاعلم أن المانع من الفكر

من الصفاء والاهتمام
حلاوة النجاة لا بد أن
يجدوا صفو الأنس في
الصلاة ويتكبدون
ببسر من الاسترسال
في اللباس ويصير على
بواطنهم من ذلك عقد
وكدرو قد يكون ذلك
بمجرد الخاطلة والمجاسة
مع الأهل والولد مع
مكون ذلك عبادة
ولكن حسنات الأبرار
سيأت القريين فلا
يدخل الصلاة إلا
بصد حل العقد
وإذ هاب الكدرو حل
العقد بصدق الانابة
والاستغفار والنزع
إلى الله تعالى ودواء
ما يحدث من الكدر
بمجالسة الأهل والولدان
أن يكون في مجاسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وعذائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم القيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقت فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر ينمعه من ذلك ، وأما علاج هذين الأمرين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما جده تألما بذكره مع استحقار أم مواقفه فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مغفوا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فاتها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدور وهي مشوبة بالمكدرات لما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن العاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمنجاة الله تعالى واستراحة بمرفته وطاعته وطول الأنس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمنجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة لما عودتها تعود والخير عادة والشر لاجبة ، فاذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن الذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موقفا للطبع فيميل القلب إليه ويبرع عن السبب الذي أوقع المواقعة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لمي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعصى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العباد ومن عصى نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدأ له من **■** ما لم يكن يحسب ، فما ذكرناه يان بعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(وهو الكتاب الثاني من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، للفرد برداء الكبرياء ، للتوحد بصفات المجد والملاء ، للوحد بصفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانتضاء [أما بعد] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ^(١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وإيمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

غير راكن إليهم كل
الزحكون بل يسترق
القلب في ذلك نظرات
إلى الله تعالى فتكون
تلك النظرات كفارة
لتلك الهالة إلا أن
يكون قوى الحال
لا يجبه الخلق عن
الحق فلا يعتقد على
باطنه عقدة فهو كما
يدخل في الصلاة
لا يجدها ويجد باطنه
وقلبه لأنه حيث
استروحت نفس هذا
إلى الهالة كان
استرواح نفسه منغمرا
بروح قلبه لأنه يجالس
ويخالط وعين ظاهره
ناظرة إلى الخلق وعين
قلبه مطالعة للحضرة
الإلهية فلا يعتقد على
باطنه عقدة وصلاة

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميهِ باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا وسيقال تعالى - ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يوفى الصابرون وأجرهم خير حساب - فإما من قرابة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى «الصوم على وأنا أجزى به» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واسبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يحسبها لغيرهم فقال تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المنتهدون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان ^(١) » على ما سياتي وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أكل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فات من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أتم عليه أحب إلى من أن يوافي كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بضعكم بضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - ^(٢) » الآية وروى جابر أنه سئل عن النبي ﷺ عن الإيمان فقال « الصبر والسجدة ^(٣) » وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة ^(٤) » وسئل مرة « ما الإيمان فقال الصبر ^(٥) » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة ^(٦) » معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أكل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسجدة الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

يزوال التي ذكرناها
تحل المسند ونهي
الباطن لصلاة الظهر
فيقرأ في صلاة الزوال
يعتد سورة البقرة
في النهار الطويل وفي
القصر ما يتيسر من
ذلك قال الله تعالى :
وعشا وحين نظهرون -
وهذا هو الإظهار فان
انتظر بعد السنة
حضور الجماعة للفرص
وقرأ الدعاء الذي بين
الفرصة والسنة من
صلاة الفجر لحسن
وكذلك ماورد أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم دعا به إلى
صلاة الفجر ثم إذا
فرغ من صلاة الظهر
يقرأ الفاتحة وآية
الكرسى ويسبح

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»^(١) وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخليق بأخلاق وإن من أخلاق أنى أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب السكينة»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير»^(٣) وقال السبيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين»^(٤) والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر «اعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال صلى الله عليه وسلم: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهد والعدل. وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان وأعمت الملاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالملاوة الهدى والملاوة ما يعمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى - أو لك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأنت هم المتهدون - وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية - إنا وجدناه صابرا ثم البصير إنا وأبى بكر - وقال وعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطى للصبر وهو النبي. وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث الثقل وأما من حيث النظر بين الاعتبار فلا تنههم إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إيمان تنظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الأصول وهي توزن الأحوال والأحوال ثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مظهر في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على السلك كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمره يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين اللاتسكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم ولللاتسكة أما في البهائم فلتنقصاتها. وأما في اللاتسكة فلعلها وبإناه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا. وأما اللاتسكة

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لأصل له مرفوعا وإعما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال مؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب السكينة (٣) حديث في الصبر على ما تكره من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٤) حديث في الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٥) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبراني من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقيلي.

وبمحمد وبكبر ثلاثا
وثلاثين كما وصفنا ولو
قدر على الآيات كلها
التي ذكرناها بعد
صلاة الصبح وعلى
الأدعية أيضا كان ذلك
خيلا كثيرا وفضلا
عظيما ومن همة
ناهضة وعزيمة صادقة
لا يستكثر شيئا لله
تعالى ثم يحسب بين
الظهر والعصر كما يحسب
بين العشاءين على
الترتيب الذي ذكرناه
من الصلاة والتلاوة
والذكر وللرابعة
ومن دام سهره ينام
نومة خفيفة في النهار
الطويل بين الظهر
والعصر ولو أحيا بين
الظهر والعصر ركعتين
يقرأ فيهما ربع القرآن

عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادرة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بمنحدر آخر يطلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا الشهوة الفداء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة . إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبر إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى فضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه تميز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفيتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فذلك لا يتطلب إلا اللذيد . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا يتطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بمنحود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلقسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعنا دينيا ولقسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليغهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال المشبهة بعمل يثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال ثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوى يقينه أغنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تقتضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والأيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للسكان هما التكفلان بهذين الجندين بأذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما ، وهما من الكرام السكاكين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من آدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذي أشرف الجانبين من جنب الدست ، ينبغي أن يكون مسلما له فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . ولتجد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسمى إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بآبائهما فذلك سما كراما

أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وإن أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن **أو** بشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال إذا كان صائما وإن لم يكن صائما فأى وقت خير فيه القم . وفي الحديث « السواك مطهرة للقم مرضاة للرب » وعند القيام من الصلوات يستحب قبل إن الصلاة بالسواك فضل على الصلاة بصير سواك سبعين ضعا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأين

كاتبين أما الكرام فلا تتفاح الصبر بكرمهما ولأن اللاتكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبون فلا تبايتها الحسنة والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطبهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات قد قامت قيامته ^(١) » وفي هذه القيامة يكون الصديق وحده وعندها يقال - ولقد جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمت الخلق وفيها يساق الثقلون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والحوال الأول هو هول القيامة الصغرى ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت يهلك صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده قد حصلت الزلزلة في حقله لأنه إنما يضطر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب وحطك الخاص من التراب بدتك قطعاً ما بدن غيرك فليس يحطك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدتك ظرف ومكان وإنما تخاف من زلزلة أن يتزلزل بدتك بسببه وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تغشاه إذ ليس يتزلزل به بدتك فخطك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدتك قطعاً فهي أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وممك وبصرك وسائر خواصك نجوم بجانك ومفيض العرق من بدتك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فإذا اتهم بالموت أركان بدتك قد زلزلت الأرض زلزالها فإذا انقضت العظام من اللحوم قد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فإذا رمت العظام قد سفت الجبال نسفاً فإذا أظلم قلبك عند الموت قد كورت الشمس تكويراً فإذا بطل ممك وبصرك وسائر خواصك قد انكسرت النجوم انكساراً فإذا انشق دماغك قد انشقت السماء انشقاقاً فإذا انتجرت من هول الموت عرق جبينك قد فجرت البحار تفتيحاً فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى - وما مطيتك قد عطلت العشار تعطيلاً فإذا فارقت الروح الجسد قد حملت الأرض ثلثت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يحسك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انشردت حواسك التي بها تنفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلائها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حسته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه قد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماؤه فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والحوال بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طوكتا في وصفها فإنا لم نذكر عشر عشر أو صافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات قد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلتين في صلاته في
عشرين ركعة في كل
ركعة آية أو بعض آية
تقرأ في الركعة الأولى
- ربنا آتنا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة
حسنة وقنا عذاب
النار - ثم في الثانية
- ربنا أفرغ علينا صبراً
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين -
ثم - ربنا لا تؤاخذنا
بإخراة السورة ثم - ربنا
لا تزغ قلوبنا - الآية ثم
- ربنا إنا معصنا ناديا
ينادي للإيمان - الآية
ثم - ربنا آمنا بما
أنزلت - ثم - أنت
وليننا فاغفر لنا - ثم
- فاطر السموات
والأرض أنت ولي -
ثم - ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم كنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم القدي يقدم عليه الصمد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم قفس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - وننشكم فيما لا تعلمون - فالمرء بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك واللكوت والقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور الدجال ، فما أعظم غفلتك يامسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأهوال فان كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا » (١) أو ما سمعت بكبريه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت » (٢) أو ما تستحي من اسبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قباهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جيع لينا محضرون ولكن ماتناهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولترجع إلى الفرض فان هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم العاملة . فقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الإقبال والاعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على صمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالترقيف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا صمت في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فبنال بها درجة القرب من رب العالمين كما ناله الملائكة فيكون مع النبيين والقرين والصديقين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريس بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بالفظ اللهم أغنى على سكرات الموت .

ما تخفى وما نعان -
الآية ثم - وقل رب
زدني علما - ثم - لا إله
إلا أنت سبحانك - ثم
- رب لا تذرنى فردا -
ثم - وقل رب اغفر
وارحم وأنت خير
الراحمين - ثم - ربنا
هب لنا من أزواجنا -
ثم - رب أوزعنى أن
أشكر نعمتك التي
أنعمت على وعلى
والدى وأن أعمل صالحا
تَرْضاه وأدخلني برحمتك
في عبادك الصالحين -
ثم - يعلم خائنة الأعين
وما تخفى الصدور - ثم
- رب أوزعنى أن
أشكر نعمتك التي
أنعمت على - الآية
من سورة الأحقاف ثم
- ربنا اغفر لنا

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» (١) وأشار إلى أصعبه السكر عتبتين صلى الله عليه وسلم .

(بيان كون الصبر نصف الإيمان)

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا والمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشبهاللفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع الصلوات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين للمعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن العصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن تزك العصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ماؤتينم اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثانى أن يطلق على الأحوال الثمرة للأعمال لاهل للمعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى تسمين . باعث من جهة الشهوة . وباعث من جهة الغضب فالشهوة تطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن تفهم تفهيمات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

(بيان الأسمى الذى تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر)

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالقول كتماطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات المائلة وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلقت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والمطع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان فى احتمال النفسى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقابلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حقا ويضاده التذمر وإن كان فى نائمة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول الفيش سمى زهدا ويضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولاخواننا الذين -
الآية ثم - ربنا عليك
توكلنا - ثم سرب اغفر
لى ولوالدى ولمن دخل
بىق مؤمنا وللؤمنين
واللؤمنا ولا تزد
الظالمين إلا تبارا -
مهما يصل فليقرأ بهذه
الآيات وبالحفاظة على
هذه الآيات فى الصلاة
مواظنا للقلب واللسان
يوشك أن يرقى إلى
مقام الاحسان ولورد
فرد آية من هذه فى
ركعتين من الظهر أو
الصبر كان فى جميع
الوقت مناجيا لمولاه
وداعيا وتاليا ومصليا
والدؤوب فى العمل
واستيعاب أجزاء النهار
بزيادة وحلاوة من
غير سامة لا يصح

الحرص وإن كان صبرا على قدر يسير من الحفظ سمي قناعة وبضاده الشراهة فأكثر أخلاق
الإنسان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفة»^(١) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى
- والصابرين في البأس - أي الضيق - والضراء - أي الفقر - وحسن البأس - أي المحاربة - وأولئك
الذين صدقوا وأولئك هم للتقوى - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ للعاني من
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفوا الذي
يسلك الطريق للستقيم وينظر بنور الله يلحظ للعاني أولا فيطرح على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي
فإنها وضعت دالة على للعاني فالعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع
لا بد وأن يزل وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى - أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يخطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانكسارات ، نسأل
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف)

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا يتقوى
له قوة للنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه المرتبة
هم الأقولون فلا جرم هم الصديقون للقرىون الذين قالوا ربنا أقمم استقاموا فهو لا لازموا الطريق
للمستقيم واستنوا على الصراط القويم وإطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى النادى
- يا أيها النفس الطمئة ارجعى إلى ربك راضية مرضية - . الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى
وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة
وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقهم شهواتهم وغلبت عليهم شغوتهم ففكروا
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليه الإشارة بقوله تعالى
- ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ففسدت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم فأعرض عنهم
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط
والفرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أولم يكن مشتقا إلى التوبة ولكن قال إن
الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي وهذا السكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته قد صار عقله في يد شهواته كسليم
أسير في أيدي الكفار فهم يستخرونه في رعاية إحتنازير وحفظ الخمر وحملها وعمله عند الله تعالى
عمل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق السلم أن يكون متسلطا
لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكفار أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل
بالدين وباعث الشياطين وحق السلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر الله العن الشريف

إلا ليد تزك نفسه
بكمال التقوى
والاستقصاء في الزهد
في الدنيا واتزاع منه
متابعة الهوى ومقابلة
على الشخص من
التقوى والزهد والهوى
بقية لا يدوم روحه في
العمل بل ينشط وقتا
ويسأم وقتا ويتناوب
النشاط والكسل فيه
لبقاء متبعة شئ من
الهوى بنقصان تقوى
أوجبة دنيا وإذا صح
في الزهد والتقوى فإن
ترك العمل بالجوارح
لا يفتر عن العمل بالقلب
فمن رام دوام الروح
واستحلاء الدؤوب في
العمل فعليه بحسم مادة
الهوى والهوى روح
النفس لا يزول ولكن

(١) حديث الحج عرفة أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج

(٢) حديث السكين من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

الذى هو من حزب الله وجند للملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرقى مسلماً لكافر بل هو كمن قصد الملك النعم عليه فأخذ أمر أولاده وسله إلى أبض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستجابته لنعمته لأن الهوى أبض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين بعد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يطلب جميع الشهوات أو لا يطلب شيئاً منها أو يطلب بعضها دون بعض وتزيل قوله تعالى - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً - على من هجر عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعظله فهو الناقص حقاً الدبر يقينا ولذلك قيل :

فلم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسن فسنيسره لليسرى - ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا ثوب ولا تضرب فيه نفسه ولا ينهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وبعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات واتعمت وتسلطت باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورث ذلك مقام الرضا كسباني في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خبر كثير (١) » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالقدر وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على الصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض وقول ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نفل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يده وله وهو يصبر عليه ما كنا وكن يقصد حرمة بهشوة محظورة قهره غيرته فيصبر عن إظهار القبرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحكم الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينفي أن يحيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال)

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يغلو من نوعين : أحدهما هو الذى يوافق هواه .

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خبر كثير الترمذى من

حديث ابن عباس وقد تقدم .

تزول متابعته والنبي
عليه السلام ما استأذ
من وجود الهوى
ولكن استأذ من
متابعته فقال « أعوذ
بك من هوى متبع »
ولم يستعذ من وجود
الشح فانه طبيعة
النفس ولكن استأذ
من طاعته فقال « وشح
مطاع » ودقائق متابعة
الهوى تثبني على قدر
صفاء القلب وغلو الحال
فقد يكون متبعاً للهوى
باستعلاء مجالسة الخلق
ومكالتهم أو النظر
إليهم وقد يتبع الهوى
بتجاوز الاعتدال في
النوم والأكل وغير
ذلك من أقسام الهوى
المتبع وهذا شغل من
ليس له شغل إلا في الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافق بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها للباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطفان فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والعوفا لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الفراء فصرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخله مجبنة محزنة (١) » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيصره نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إنى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسي أن أخذه (٢) » . ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرج بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو والمعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالاتفاق وفى بدنه ببذل للمعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر مآلئهم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدره ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحاجة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثانى مالا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشقى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أمثاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان : الضرب الأول : الطاعة والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتنا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبداده ذلك ليس بصدور إلا عن إظهار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فإذن العبودية شاقة على النفس **صلوات** ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ومحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والخلص والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصل العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة وقراءتها فى الأربع قبل العصر إذا زلزلت والمعاديات والقارعة والمهاكم وصلى العصر وعمل من قراءته فى بعض الأيام والجماء ذات البروج وصمت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل وقراء بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء ما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

(١) حديث الولد مجبنة مبخله محزنة أبو يعلى اللؤلؤى من حديث أبى سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قيصره نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .

ودواعي الآفات وعقد المزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذا قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين الدين - ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسنته ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالبنى والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن البنى والأذى قد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى - فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو الرودة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثاني للمعاصي لما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » (٢) والمعاصي مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفا بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ذات انصاف العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من النية والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع للزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصدها الأزرار والاستحغار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علوهم وسيرهم ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان ، إحداها نفى القبر والأخرى إثبات نفسه وبها تتم « الربوية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية واجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك مقننا في المحاورات يعصر الصبر عنها ، وهي أكبر الويلات حتى يطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر « من أن الفية أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد » (٣) فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الحواطر باختلاج الوسوس فلا جرم يبقى

الصبر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهد في الدنيا ويسدد كلامه عرا التقوى من الطاعة الزاهدين للتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين فإذا سمعت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد وللداومة على الأذكار وإن عدت هذه المجالسة وتصدت فليترجح بالتنفل في أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائي في الكبرى بالشرط الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الفية أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يظلب على القلب ثم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح ومهمومه ثم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه . القسم الثاني ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه كماله أودى بفعل أو قول وجب عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وقال تعالى - ولنصبرن على ما آتيتونا وعلى الله فليتوكل التوكان - « وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاهمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصر (١) » وقال تعالى - ودع أذاً وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرة جليلا - وقال تعالى - ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى - وإن عاقبتهم فاقبوا بمثلاً ما عاقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك وأعف عمن ظلمك (٢) » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن لحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على الصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألكم من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا (٣) » فهذا صبر مستنده حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قل الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو أولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب ميزانا أو أنشر له ديوانا (٤) »

في أول النهار ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء . وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة الصبر وأجازه للشافعي والصلحون ويقول كما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسي الله لا قوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ، وليقرأ الفاتحة والموذنين ولا بدع أن تصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمر أو قسمة فان القليل بحسن التوبة كثير . وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمة مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث أسألكم من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو أولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك (٢) » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كرميته قال سبحانه لا أعلم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي بلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه ودعا خيرا من دمه فاذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي (٤) » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان لا أزرعه عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنعم الله على عبد نعمة فأنزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر قال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الرضا لا يتمنى فوق منزلته ، وقيل حبس الشئلى رحمه الله في السارستان فدخل عليه جماعة فقال من أتم قالوا أحياءك جاءوك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحياء لصبرتم على بلائى ، وكان بعض العارفين في جيمرة يخرجها كل ساعة ويطلعها وكان فيها - وأصبر لحكم ربك فانك أعيننا - ويقال إن امرأة فتح للوصل عثرت فاقطع ظفرها فضحك قيل لها أما تجددين الوجع قالت إن لغة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم يزل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك (٥) » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كاه صرة فافتقدتها فإذا هي قد أخذت من كاه فقال بارك الله فيها لعله أحوج إليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسفك ماء فقال جرنى قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فإني صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكى طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد اللالىنى في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة ولترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كرميته الحديث الطبرانى في الأوسط من رواية أبى ظلال القسلى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضته منهما الجنة رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كرميتى عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي بلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه الحديث مالك في اللوطا من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في الرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا يتحدث بمصيبتك ولا يوجعك ولا تركى نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لتأقيل ذر كثير . وجاء في الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من الصبر إلى اللرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية الصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والبالغة في الشكوى وإظهار الكتابة وتغيير العادة في اللبس والفرش والطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يحتجب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان ودعة فاسترجعت كما روى عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب قممت فسيجته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة قممت فبأت له إبطارمه فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بعض ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك في السجدة سبعة كلهم قد قرءوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة ، وقد قيل الصبر الجليل هو أن لا يعرف صاحب الصيبة من غيره ولا يخرج به عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل اللوت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الليت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى اللوت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالقدم على الحجابة والقصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى . وكتب ابن أبي نجيح يمزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أباه له . واعلم أن الساضى قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يمافون منه فاذن مهمادفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان اللرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فان الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والافتراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الحواطر لا يسكن وأكثر جولان الحواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له وفي مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضيق زمان وآلة البعد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووساوسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه بل يقدر التحاقه من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتطلون به

(١) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب قممت فسيجته في ناحية البيت الحديث طيب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر
من ذلك ومائة مرة
لا إله إلا الله الملك الحق
المبين قد ورد أن
من قال في يومه مائة
مرة لا إله إلا الله الملك
الحق المبين لم يسل
أحد في يومه أفضل
من عمله ويقول مائة
مرة سبحان الله والحمد
لله الكلمات ومائة
مرة سبحان الله
وبحمده سبحان الله
العظيم وبعمده أستغفر
الله ومائة مرة لا إله
إلا الله الملك الحق المبين
ومائة مرة اللهم صل
على محمد وعلى آل
محمد ومائة مرة أستغفر
الله العظيم الذي لا إله
إلا هو الحي القيوم
وأسأله التوبة ومائة

في مخالفته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالصفار والصفار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف للمؤمن المحلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال - خلقته من نار وخلقته من طين - فاذن حيث لم يسجد للمؤمن لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده ومهما كف عن القلب وسواه وعدوانه وطيرانه وجولانه قد أظهر اتقاده وإذعانه واتقاده بالاذعان سجود منه فمروء السجود وإتمام وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجمل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي العظم المحترم يرى استخفافا بالمادة فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وتشر اللب عن اللب فتكون عن قبه عالم الشهادة بالسلبية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من النظيرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبر وهو منك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يبعد للمؤمن مجالا فيك ضد ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا الأمين ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو صبا يجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدر فانك إن أردت أن يخلو الصدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمست في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب للشغول بفكرهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان والأمين غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرب إلا الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يمش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطانا فهو له قرين - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يفيض الشاب الفارغ (١)» وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بما يحسن يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفراده أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البنة بل تسمى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة تفكك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك فاذن حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

اعلم أن الذي أزل الداء أزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وإن كان شاقا أو محتملا فتحصيله ممكن بسجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تتركب الأدوية لأمر أراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك بما يطول

(١) حديث إن الله يفيض الشاب الفارغ لم أجده .

مرة ماشاء الله لا قوة إلا بالله ورأيت بعض الفقهاء من القرب بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثني عشرة مرة بأنواع الذكر . ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم واليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم واليلة وليل مائة مرة بين اليوم واليلة هذا التسبيح سبحان الله العلي الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فتقول إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن الواطئة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فتقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يظلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسهيل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن تنظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المهركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة اللينة الشهوة . الثاني قطع أسبابه المبرجة في الحال فانه إنما ينجح بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور الشهوة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس ^(١) » وهو سهم يسدده ملعون ولا ترس يمنع منه إلا تقيض الأجنان أو الحرب من صوب رمية فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلب عن صوب الصور لم يصيبك سهمه . الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالكساح فان كل ما يشتهيه الطبع في اللباحت من جنسه ما ينفي عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأتبع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء ^(٢) » فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهي قطع الملف عن البهيمة الجروح وعن الكلب الضاري ليضعف فتنسقط قوته . الثاني يضاهي تقييد اللحم عن الكلب وتقييد الشعر عن البهيمة حتى لا يتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فانهما تكون بطريقتين أحدهما إطعامه في فوائده المجاهدة وممراته في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر ذكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر : إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مضبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعده ، وتهأب الدهر ومن أسلم خيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الحسب في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجته تهيجها شديدا وإن ضعف ضعفه وإعنا قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لمزجة الصبر وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها فان الاعتناء والممارسة للأعمال الشاقة تؤكدها القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة المحالين والفلاحين والقاتلين وبالجملة تقوية الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والطارئين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قوامهم لم يتأكد بالمارسة فالعلاج الأول يضاهي أطماع المصارع بالحمامة عند الغلبة ووعده بأنواع الصكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه أيام موسى حيث قال - وإنكم إذا لمن للقربين - والثاني يضاهي تمويده الصبي

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم الحديث تقدم في الكساح .

صبيحان من لا يشغله
شأن عن شأن صبيحان
الله الحنان للنان
صبيحان الله المسبح في
كل مكان . روى
أن بعض الأبدال
بات على شاطئ البحر
فسمع في هذه الليل
هذا التسبيح فقال من
الذي أسمع صوته ولا
أرى شخصه فقال أنا
ملك من الملائكة
موكل بهذا البحر
أسبح الله تعالى بهذا
التسبيح منذ خلقت
قلبت ما اسمك فقال
مهلبيا نزل قلبت
ما ثواب هذا التسبيح
قال من قاله مائة مرة
لم يمت حتى يرى مقعده
من الجنة أو يرى له .
وروى أن عثمان رضى

الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يانس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته لمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه وإنما أشدها كنف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن تقع الشهوات الظاهرة وآثر المزية وجلس للمراقبة والله كروا الفكر فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع الملائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفى ما لم تصر المموم هما واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك بمحاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينبغي إلا الأوراد للتواصل الترتيب في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإن الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يغلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطفيل من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يبينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة . وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب العاش فان تهية ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يغلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع الملائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم همة أو واقعة في تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر غيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالملائق والاتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقديرا بل الجهد ويحل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمولود راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد « ثم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجدوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين وكل مهوم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع الملائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا تفرصوها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يبسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفريغ المله والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبت البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا بغير ولا يدري متى يقد الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يغني سنة عن مطر فكذلك فلما تحلوسنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور القيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع المهم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان المهم والأشواق أسباب بحكم تقدير الله تعالى لا تستدرار رحمة حتى

الله عنه سأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
عن تفسير قوله تعالى
- له مقاليد السموات
والأرض - فقال سألني
عن شيء عظيم ما سألني
غيرك هو لا إله إلا الله
والله أكبر وسبحان الله
والحمد لله ولا حول
ولا قوة إلا بالله عز وجل
وأستغفر الله الأول
الآخر الظاهر الباطن
له الملك وله الحمد
الحير وهو على كل شيء
قدير من قالها عشرا
حين يصبح وحين
يمسي أعطى ست خصال
فأول خصلة أن يحرس
من إبليس وجنوده
الثانية أن يعطي قطارا
من الأجر الثالثة يرفع
له درجة في الجنة

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرا أمطار الكاشفات ولطائف المعارف من خزائن
الملوك أشد مناسبة منها لاستدرا قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل
الأحوال والكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بملاتك وشهواتك فصار ذلك
حجاباً بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من
باطن القلب واظهار ماء الأرض بحفر القن أسهل وأقرب من استرسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها
ولكونه حاضراً في القلب ومنسيا بالثقل عنه متى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكر أفعال تعالى
- إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وقال تعالى - ولتذكر أولوا الألباب - وقال تعالى - ولقد
يسرنا القرآن لذكر فهل من مدكر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات
الصبر وإنما الصبر عن العائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا
إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب
شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأعد العائق
على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فإن لغة الرياسة والتلبه والاستعلاء والاستبغاع أغلب الذات في
الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب الذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية
والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأموال الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى
- قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموماً على جهة ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقوعه بسبب
تدبير الشيطان العين للبعد عن طام الأمور إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضله وأخوه وكيف يكون
مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب لإبقاء لائقه فهو عزا لادله فيه وأمنه لا خوف فيه
وغنى لا فقر فيه وكلا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل
حق كل عبد أن يطالب ملكاً عظيماً لا آخر له وطالب الملك طالب للعالمين والكمال لا محالة ونسكن الملك
ملكاً كان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك عجل
دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الإنسان مجبوراً لا رغباً في العاجلة فجاء
الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغوا به العاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة
الحق فوعده بالفرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال عليه السلام «والأحقق من أتبع نفسه
هوها» ونفى على الله الأمانى فأنخدع المخدول بفروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم
يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فصر عن المخدولين بقوله تعالى - كلا
بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوماً
تقيلاً - وقال تعالى - فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مباهمهم من العلم -
ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحى إليهم ما أمروا به على الخلق
من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل
له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم - يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انظروا في سبيل
الله أن قلتم إلى الأرض أراضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا القليل -
فالتوراة والإنجيل والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة
الخلق إلى الملك الدائم الخلد والبراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة أما ملك الدنيا
فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لائقه فيه وعزا
لاذل فيه وقررة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك
الدنيا لطمه بأن ملك الآخرة يموت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً

الرابعة يزوجه الله من
الحور العين الخامسة
اثنا عشر ملكاً
يستغفرون له السادسة
يكون له من الأجر كن
حج واعتمر ويقول
أيضاً في هذا الوقت وفي
أول النهار اللهم أنت
خلقتني وأنت هديتني
وأنت تطعمني وأنت
تسقينني وأنت تميتني
وأنت تحيياني أنت ربي
لا رب لي سواك ولا
إله إلا أنت وحدك
لا شريك لك ويقول
ما شاء الله لا قوة إلا بالله
ما شاء الله كل نعمة
من الله ما شاء الله الخير
كله بيد الله ما شاء الله
لا يصرف السوء إلا الله
ويقول حسبي الله لا إله
إلا هو عليه توكلت

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المازعات والمكدرات وطول المصوم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجلاء ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقض العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصد عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينفادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة يملوكها يستجره زمام الشهوة أخذها بجنته إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اختار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبدلى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكك هؤلاء كلهم فهم عبيدلى فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك في الآخرة فالخمدوعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين ونقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الفلطي في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتليسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجلاء والأعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجوه ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجلاء وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب عن موضع الجلاء كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل ويزى الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن ومابس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى حاجه فينبغى أن يبدلها بنقائصها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياده ضد فلامعنى للمعالجة إلا المضادة - الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع قهور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسل نفسه ببعض ثم إذا فقت نفسه بذلك البعض ابتداء بترك البعض إلى أن يقع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيهم إلى هذا التدرج بالإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تنفض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لأرضاً قطع ولا ظهراً أبقي» (١) وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يظليه» (٢) فاذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجلاء أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات فاتخذة دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل فإن تفصيل الأحاد يطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يظليه تقدم فيه .

وهو رب العرش العظام
ثم يستعد لاستقبال
الليل بالوضوء والطهارة
ويقرأ المسبحات قبل
الغروب ويديم
التسبيح والاستغفار
بحيث تغيب الشمس
وهو في التسبيح
والاستغفار ويقرأ عند
الغروب أيضاً والشمس
والليل والعوذتين
ويستقبل الليل كما
استقبل النهار قال الله
تعالى - وهو الذى
جعل الليل والنهار خلفه
لمن أراد أن يذكروا
أراد شكورا - فكما
أن الليل يعقب النهار
والنهار يعقب الليل
ينبغي أن يكون العبد
بين الذكر والشكر
يعقب أحدهما الآخر

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه وهذا لا يحرف إلا بالتجربة والدوق وله نظير في العادات فإن الصبر يعمل على التعلم في الابتداء قهراً فيشقى عليه الصبر عن العلم والعب والصبر على التعب وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض المارقين أنه سأل الشبل عن الصبر أيه أشد ؟ قال الصبر في الله تعالى قال لا فقال الصبر لله قال لا فقال الصبر مع الله قال لا فقال لا فيش ؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبل صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل في معنى قوله تعالى - اصبروا وصابروا ورابطوا - اصبروا في الله وصابروا بالله ورباطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله غناء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه : والصبر عنك فدموم عواقبه والصبر في مائر الأشياء محمود وقيل أيضاً : الصبر يعمل في للوطن كلها إلا عليك فإنه لا يعمل هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

السطر الثاني من الكتاب في الشكر ، وله ثلاثة أركان

الأول : في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه . الثاني : في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول في نفس الشكر

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرفي كتابه مع أنه قال سوف ذكر الله أكبر - قال تعالى - فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما جعل الله بهذاكم إن شكرتم وآمنتم - وقال تعالى - وسنجزى الشاكرين - وقال عز وجل إخباراً عن إبليس العين - لأتقنن لهم صراطك المستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلورتبة الشكر طعن العين في الخلق قال : ولا تجداً كثرهم شاكرين وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الأغناء والاجابة والرزق والغفرة والتوبة قال تعالى - فسوف ينصركم الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء - وقال - يرزق من يشاء بغير حساب وقال : ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال : ويتوب الله إلى من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة قال تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين - وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» (١) وروى عن عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبريني بأحب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك قالت وأي شأنه لم يكن محباً أنا ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لكني أوثر هو فكأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يسكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلاأأكون عبداً شكوراً ولم لأفضل ذلك

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف .

ولا يتخللها شيء كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء والذكر جميعه أعمال القلب والشكر أعمال الجوارح قال الله تعالى - اعملوا آل داود شكراً - والله للوفى العين .

[الباب الحادى والخمسون في آداب الريذ مع الشيخ]
أدب الريدين مع الشيخ عند الصوفية من مهام الآداب والوقوف في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تخدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى على - إن في خلق السموات والأرض - (١) الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتسحب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار فأجابه ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا - وروى عنه عليه السلام أنه قال « ينادى يوم القيامة ليتم المحادون زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن المحادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٢) » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في رضىته بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر استزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل في الكدور ما نزل . قال عمر رضى الله عنه « أى لئال تتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا (٤) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن اللال . وقال ابن ميمون الشكر نصف الإيمان .

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل في ورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحجوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بين النعمة ووجه كونها نعمة في حقه وبذات النعم ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنم ومنم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لابد من معرفتها في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط ثم يخبرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس واتوحد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتقار بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجبا الحديث في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٢) حديث ينادى يوم القيامة ليتم المحادون الحديث الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة المحادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده أصلا وفي الصحيح من حديث أنس هزيمة الكبر رداؤه الحديث وتقدم في العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا الحديث تقدم في الشكاح .

الله صبيح عليم - .
 روى عن عبد الله بن
 الزبير قال قدم وفد
 على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم من بني تميم
 فقال أبو بكر أمر
 القمقاع بن معبد وقال
 عمر بل أمر الأفرع
 بن حابس فقال أبو بكر
 ما أردت إلا خلافي
 وقال عمر ما أردت
 خلافتك قباريا حتى
 يرتفعت أصواتهما
 فأنزل الله تعالى على
 الذين آمنوا - الآية
 قال ابن عباس رضى
 الله عنهما لا تقدموا
 لا تتكلموا بين يدي
 كلامه وقال جابر كان
 ناس يضعون قبل
 رسول الله قهوا عن
 تقديم الأصحية على

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله » وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينشئ الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك، نعم لا يفيض من توحيده في حق الملك وكما لشكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطربان من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عقابته لما سلم إليه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كمنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فان الله تعالى هو للسلطان الدواعي عليها لتفعل شامت أم أبت كالخازن المضطرب الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى وتقه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطرب فسلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن عطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده في الخلق والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لنفسه لا لغيرك ولو لم يكن غرضه في العطاء ما أعطاك ولو لم يعلم أن نفعه في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفسك فليس منكما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطربا إلى الإيصال إليك فان عرفت الأمور كذلك فقد عرفت أن الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه العرفة بمجرد ما شاكرنا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا فاذا لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فان خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا بالنعمة ولا بالثمن فلا تفرح بالثمن وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأصل الثاني: الحال للسمعة من أصل للعرفة وهو الفرح بالثمن مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم. وقال الكوفي لاتسبقوا رسول الله يقول ولا فضل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب المرید مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لاتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لاتقدموا لاتمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجدهم رفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا.

شكر على تجربته كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإتمام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثالا نقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأنتم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد قيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجد في سمراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح. الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في سمراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل الحل في قلب الملك. الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بمخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يتخفق بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويستغنى به هذا القدر من العناية بل هو طالع لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها قصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها للذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الانعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكروونه خوفا من عقابه ورجاء ثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا. وأمارة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعنيه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها للذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهلج بل من حيث إنه يحمله في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه. ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية النعم لارؤية النعمة. وقال الحواسب رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدرجات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى للأشياء الحلوة ويستحل الأشياء الرّة كما قيل:

ومن بك ذا فم مريض يهجد مرآ به الماء الزلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فان لم تكن إبل فمزى، فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية. أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه. الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح. أما بالقلب فقصد الخير وإضاره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه. وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت
أمتى أمام أبي بكر
فقال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم
تمنى أمام من هو خير
منك في الدنيا والآخرة
وقيل زالت في أقوام
كانوا يحضرون
مجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فاذا سئل الرسول
عليه السلام
عن شيء خاضوا فيه
وتقدموا بالقول
وانتوى فهو عن
ذلك وهكذا أدب
لاريد في مجلس الشيخ
ينبغي أن يلزم السكوت
ولا يقول شيئا يحضرته
من كلام حسن إلا
إذا استأمر الشيخ
ووجد من الشيخ
فسحة له في ذلك وشأن

الاستعانة بها على معصيته حتى إن شكر الصّين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فبدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يشاءون ونيهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين «كيف لا تصيح الشكوى من ملك للملوك ويده كل شيء» إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء «فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو البلى والقادر على إزالة البلاء وذلك العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يأمر المؤمنين لو كان الأمر بالسّن لكان في المسلمين من هو أسنّ منك فقال تكلم فقال لنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلنا إلينا فضلك وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك وإعنا نحن وفدا لشكر جثثك فشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة للتم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط التهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلا إشارة إلى أن معنى للمعرفة من معاني الشكر قطع وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فذلك يختلف أجوبتهم ولا تنفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما همهم عما لا همهم أو يتكلمون بما يروونه لانفا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا يشكرونها بل لا يظن ذلك بعقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يقتل بعضها مقصودا وبقيّة المعاني تكون من توابعه ولو أزمه ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته .

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا مضطرب ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضمه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

للريد . حضره الشيخ كثر هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه تطلعه إلى الاستماع وما يبرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه إلى القول بوجهه عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جناية للريد . وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يادته بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا بلفظه بالحق

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى)

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فإنا نشكر لللوك إما بالثناء ليزيد محلمهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إغاثة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الخطوط والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإغاثة وعن نشر الجاه والخشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين يديه ركما سجدا فشكر إياه بما لاحظ له فيه ضاهى شكرنا الملك للنعم علينا بأن تام في يوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ما تعطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا ومائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول منا بل كان الثاني محتاج إلى شكر كما محتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكركم لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة مني رضى منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فاني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا فرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المأملة ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وأنه للشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذلك ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا ثم العبد إنه أواب - فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فلي نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميثمي حيث قرئ بين يديه - بحبهم ومحبتهم - فقال لعمرى بحبهم ودعه بحبهم

وهو عند حضور
الصادقين يرفع قلبه
إلى الله ويستعطر
ويستقي لهم فيكون
لسانه وقلبه في القول
والتطق مأخوذين إلى
مهم الوقت من أحوال
الطالبين المحتاجين إلى
ما يفتح به عليه لأن
الشيخ يعلم تطلع
الطالب إلى قوله
واعتداده بقوله
والقول كالبذر يقع في
الأرض فاذا كان
البذر فاسدا لا ينبت
وفساد الكلمة بدخول
الهوى فيها فالشيخ
ينقى بذر الكلام عن
شوب الهوى ويسلمه
إلى الله ويسأل الله
المعونة والسداد ثم يقول
فيكون كلامه بالحق

فيحق عيهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لانفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يغني عليك أن الصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعه فان أحبه لما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فيحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أريه أذرع ولله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز فيضحك عليهم الجاهل الجاهلهم بمعنى كلامهم وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهن وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فالقوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظريين . النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب بعيد وهؤلاء هم العميان النكوسون وعمام في كلتا العينين لأنهم نقوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقامم به ولم يقتصر واطى هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلوا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الوجود وبين الوجود وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد فالموجود حق والوجود باطل من حيث هو هو الوجود قائم وقيوم والموجود هالك وفان وإذا كان كل من عليهما فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني ليس بهم عي ولكن بهم عور لأنهم يصرون بأحدى العينين وجود للوجود الحق فلا ينكرونه واليمين الأخرى إن تم عمها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتنا بين الوجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى الهو فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله الميزة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأفلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نبدم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تفتتح بصبره في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبريق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم واللهوام فيه عزيز :

من الحق للحق فالشيخ
المريد بن أمين الإلهام
كما أن جبريل أمين
الوحي فكما لا يغنون
جبريل في الوحي
لا يغنون الشيخ في
الإلهام وكما أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
لا ينطق عن الهوى
فالشيخ مقتد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
ظاهرا وباطنا لا يتكلم
بهوى النفس . وهوى
النفس في القول
بشيئين : أحدهما طلب
استجلاب القلوب
وصرف الوجوه إليه
وما هذا من شأن
الضيوخ . والثاني ظهور
النفس باستحلاء
الكلام والمعجب وذلك
خيانة عند المحققين

لكل إلى شأو الملا حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قيل له «واسجد واقترب» قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ونزق إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وما صفتان ثم رأى ذلك قصصنا في التوحيد فاقرب ورتق من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك قصصنا واقترب فقال «لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» قوله صلى الله عليه وسلم «لأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» يان أنه للثنى والثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شيء هالك إلا وجهه - فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله فيستفيد بفعل من فعله فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدد بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك قصصنا في كونه قصيرا في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم واليلة سبعين مرة» (٢) فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان قصصنا بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضى الله عنها «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا» (٣) مضاه أفلا أكون طالبا للزبد في القامات فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - «لئن شكرتم لأزيدنكم» - وإذا تطلعتنا في بحار للكاشفة فلنقبض الغنان ، ولترجع إلى ما يليق بعلوم العاملة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بشوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرح كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك التمام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشكور ولا يعرف ذلك إلا بعثال ، فأقول «يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبده قد بد منه مراكوبا وملبوسا وهذا لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعاذتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقبله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بنية حديث عطاء عنها التقدّم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبه .

والشيخ فيها يجرى على لسانه راقد النفس تشبه مطالعة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والسحب فيسكون الشيخ لما يجربه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد السمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يشكك مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تفتي فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصد من الإناعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته ليتنفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وباتقاعه فنزل البعاد من الله تعالى في اللزلة الثانية لافي للزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا ومع ذلك بتصوّر أن يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنعم الله عليه مولاه فيما أحبه لأجله للأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فلهما ليس العبد الثوب وركب الفرس ولم يتفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته أي فيما أحبه لعبده لأنفسه وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يمد منه فقد كفر نعمته أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لأنفسه وإن جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته إذ أهملها وعطّلها وإن كان هذا دون ما هو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته تعالى عما سادتهم في القرب منه فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لمواقفة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والعصية وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضا كقمران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أوعاس استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما الشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سرّ القدر الذي يمنع من إفشائه وقد أحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وهذا أيضا ينحل الثاني فانالم نحن بالشكر إلا لانصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محلّه فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محلّ المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجد ولكن بمعنى أنك محلّ له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئة لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئا فأنت شيء إذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقا وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل قبيلين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى وعمل أفضاله وإن كانوا أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محلّ لبعض وقوله اعملوا وإن كان جاريا على

في المنام كأن قائلا يقول له أليس الغواص يوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في محلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب للريد مع الشيخ السكوت والحمود والحمود حتى يبادته الشيخ بماله فيه من الصلاح قولا وفلا وقيل أيضا في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم
فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية أيضا
من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب
لبعض أي الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق
الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب
لبعض أي هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعمل لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعمل لقبول
العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن
بعض أفعاله موجد لغيره بل بمهد شرط للحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي
ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأتهم معاقبون مذمومون على العصيان وما إليناشيء
فكيف ندع وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا
والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الفرور ،
وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له في الأزل السعادة
يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن
لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام
العلماء فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون
إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم
يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم
والخوف عليه وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط النفاق والأمن والفرور
عليه فالمقتون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار
ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين العاقلين فشهدوا الأمر كذلك سمعوا عند
ذلك نداء النادى - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك
اليوم على الخصوص ولكن العاقلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد
للعاقلين من كشف الأحوال حيث لا يتفهم الكشف ، فنعوذ بالله الحكيم الكريم من الجهل والعمى
فانه أصل أسباب الهلاك .

(بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه)

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر
استعمال نعمه تعالى في محابه ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه
ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان : أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثاني بصيرة
القلب وهو النظر بين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى
الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد
فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثاني وهو النظر
بين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكمة
وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية
فكالمعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل
لباسا فتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب
وأعزها وينبغي للمريد
أن لا يحدث نفسه
بطلب منزلة فوق
منزلة الشيخ بل يجب
للشيخ كل منزلة عالية
ويتمنى للشيخ عز
النسب وغرائب الواجب
وبهذا يظهر جوهر
الرغبة في حسن الإرادة
وهذا يعزى للردين
فإرادته للشيخ تعطيه
فوق ما يتحلى لنفسه
ويكون قائما بلحب
الإرادة . قال السرى
رحم الله حسن الأدب
ترجمان العقل . وقال
أبو عبد الله بن حنيفة
قال لي روي يابى
اجعل عملك ملحا
وأدبك دقيقا ، وقيل
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في النسيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يصرون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صينا السماء صياهم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا - الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت خفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم معاؤه وكواكبه ورياحه وبخاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين للإبصار واليد للبطش واليد للبطش والرجل للمشي والشم فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والرازة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاوب والتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والفظوظ سائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - فاذن كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره يده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لاليهك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذ الإبصار يتم بهما وإنما خلقنا لمبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتق بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والسماء والحواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس اللطيفة بطول العبادة والعرفة فلذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقامته على تلك اللصية . ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والتكفران على النعم فنقول ١ من نعم الله تعالى خلق الدرام والنانيير وبهما قوام الدنيا وهما حبران لامتعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يحجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل وربما يستغنى - ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير إذ لا يندل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بقباب أو عبا غنفا أو دقيقا بحماز فلهذا الأشياء لا تناسب فيها فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر التعاملات جدا فافتقرت هذه الأعيان التنافرة للتباعدة إلى متوسط بينها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رغبته ومنزله حتى إذا فقرت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي خلق الله تعالى النانيير والدرام حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث بطن القرب ومردود من حيث رجو القبول ومن تأدب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية نأديا له ونفسيره .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التعديل بالتقدين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأبدى ويكونا حاكين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهى التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملسكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والشئ إنما تستوى نسبته إلى الاختلافات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيد بها بخصوصها كالمرأة لالون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لامتني له في نفسه وأظهر به المعاني في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يتمتع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير ليزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحد في أعيانها فأنهما حجران وإنما خلقا لتداولهما الأبدى فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الوجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام صعب من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب أليم - وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياة والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الحزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تقبذ وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكتفى الحزف والحديد في المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم^(١) وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لالنفسهما إذ لا غرض في عينهما فإذا أبحر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء لمعنى في غيره وكوقع المرأة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة المكسور وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم

(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح الصنف بكونه حديثاً .

أخبرنا ضياء الدين
عبد الوهاب بن طي
قال أنا أبو الفتح
المهروى قال أنا أبو نصر
الترياقي قال أنا أبو محمد
الجراحى قال أنا
أبو العباس المجهوبى
قال أنا أبو عيسى
الترمذى قال أنا محمد
ابن النسي قال أنا مؤمل
ابن إسماعيل قال أنا نافع
ابن عمر بن جميل الجهمى
قال حدثني حابس بن
أبي مليكة قال حدثني
عبد الله بن الزبير أن
الأقرع بن حابس قدم
على النبي صلى الله عليه
وسلم فقال أبو بكر
استعمله على قومه فقال
عمر لا تستعمله يا رسول
الله فسئل عما عند النبي
صلى الله عليه وسلم

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز بيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا في النع منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم بمثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه فلا تمنع مما لاتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء . فذلك مما قد يقصده فلا جرم تمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقا أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فاعلم بحج ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة للساعة فيكون له حمد وأجر . والمعارضة لاحد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص الساعة وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقيدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يامل على الأطعمة إلا مستغن عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ولم يحمله بضاعة تجارة وإن خطه بضاعة تجارة فليسه ممن يطلبه بوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالمكر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في القرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عايب فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التمتع أسقط الشرع غرض التمتع فيها هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بغير التفهيمات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون الكليات إذ لو دخل الجلس فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصه بالأوقات ولكن كل معنى يرطاه الشرع فلا بد أن يضبط بمحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم فرأى الشرع التحديد بمجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتعير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن يمتد حدود الله فقد ظلم نفسه -

حق علت أصواتها
فقال أبو بكر لعمر
ما أردت إلا خلافي وقال
عمر ما أردت خلافتك
فأنزل الله تعالى الآية
فكان عمر بعد ذلك
إذا تكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم
لا يسمع كلامه حتى
يستفهم . وقيل لما نزلت
الآية آلى أبو بكر أن
لا يتكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم إلا
كأخ السرار فكذا
ينبغي أن يكون المريد
مع الشيخ لا يتبسط
برفع الصوت وكثرة
الضحك وكثرة
الكلام إلا إذا بسطه
الشيخ فرفع الصوت
تنجية جلباب الوقار
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التعديد كما عُدَّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس السكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة سو من يؤت الحكمة قد أوتي خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الأبواب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «ولولأن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) وإذا عرفت هذا المثال قس عليه حركاتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى قد كفرت نعمة اليمين إذ خلق الله اليمين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليمين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للمصنف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت المصنف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسما في حركاتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدتك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك اتسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق فإذا رميت بصاقتك إلى جهة القبلة قد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى قد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ فينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيض ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن ساء الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الخنطة وكان يتصدق بها فستل عن سببه فقال لبست للداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفهيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بل بصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها قبيح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدح ييساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة قبيح أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة قبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يحمل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق

(١) حديث لولأن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان
ما يقول وقد ينزل
باطن بعض الريدين
من الحرمة والوقار من
الشيخ ما لا يستطيع
للريد أن يشبع النظر
إلى الشيخ وقد كنت
أحم فدخل على عمي
وشيخي أبو النجيب
السهروردي رحمه
الله فيترشح جسدي
عرقا وكنت أتمنى
المرق لتخف الحمى
فكنت أجد ذلك
عند دخول الشيخ
على ويكون في قدمه
بركة وشفاء وكنت
ذات يوم في البيت
خاليا وهناك مندبل
وهبه لي الشيخ وكان
يتعم به فوق قدمي
على اللنديل انخافا فتألم

لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكابة في نفسه فشكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسيبه هذه الضرورة وإلا فشكل هذه السكارة عدول عن العدل وكفران للنعمة وتقصان عن الدرجة المبلغ للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر في العبد بتقصان القرب وانحطاط النزلة وبسببها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فأنها تخالق للعبث بل للطاعة والأعمال العينة على الطاعة . وأما الشجر فأنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والتماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لاعلى وجه ينتفع به عباده مخالفة لقصود الحكمة وعدول عن العدل فإن كان غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جعل لافداء لأغراض الإنسان فأنها جميعا فانيان هالكان فافناء الأخص في بقاء الأشرف مدتها أقرب إلى العدل من تضييعها جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بينها لاتفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتمهيد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فإن ثبت ذلك في موات الأرض لا يسمي آدمي اختص بغيره أو بغيره فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصة السبق ، فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك للوك الذي له مافي السموات والأرض ، كيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس بملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها براجه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكا بالأخذ باليد فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بينها لاتفى بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يفرد به العبد فنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده ولذلك يقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حدتنا وفي الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استئثار الفقر الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فكيف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوفاق والنوذة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه قركنا الاعتراض عليهم في الحب واللغو وإباحة ذلك أيام لا يدل على أن الله واللغو اللعب حق فكذلك إباحة للعوام حفظ الأموال والاعتصار في الاتحاق على قدر الزكاة لضرورة ما قبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكوها فيحفكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الرأب فشكل عباد الله ركاب لمطاي الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منه عن ركب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وصائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأب وبإل عليه

باطن من ذلك وهاتئ
الوطء بالقدم على
منديل الشيخ وابنت
من باطن من الاحترام
ما أرجو بركته . قال
ابن عطاء في قوله تعالى
- لا ترفعوا أصواتكم -
زجر عن الأدنى لئلا
ينخطي أحد إلى ما فوقه
من ترك الحرمة وقال
سهل في ذلك لا غلط به
الاستفهمين . وقال
أبو بكر بن طاهر
لا تبدوه بالخطاب ولا
تجيبوه إلا على حدود
الحرمة ولا تجهروا له
بالقول كجهر بضمكم
لبعض أي لا تفتظوا له
في الخطاب ولا تتادوه
باصحه يا محمد يا أحمد كما
ينادي بضمكم بضاً
ولكن غصموه

في الدنيا والآخرة لمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك محتاج إلى مجلدات ثم لا نفي إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادي الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدوا كثير من شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى وراء ذلك تنقض الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت قد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لنظام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انسافت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باقية وهو أن فعل العبد النقص إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرضها هو أيضا من فعل الله تعالى فإن العبد في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها فهمها من عرف منطق الطير ويحجدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلا عن أن يحول في جوار المكسوت جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لمعناها وانحطاط رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الحفائش عن نور الشمس لا تلمس في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الحفائش فاضطر الدين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعبروا من حضيض عالم للتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضئيلا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتعاسروا بسبب استعانتهم على النطق فقلنا الله تعالى صفة عن القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر أقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوس صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي تومئ منها أمرا مجعلا عند التناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات التفاهين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل إنها مجعلا في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجعلا عند طائفة الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيفاء حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقتت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمدة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاء في الأزل فعل انسافت بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموا وقولوا له :
يا نبي الله يا رسول الله
ومن هذا القليل
يكون خطاب المرید
مع الشيخ وإذا سكن
الوقار القلب علم اللسان
كيفية الخطاب . ولما
كلفت النفوس بحجة
الأولاد والأزواج
وتمكنك أهوية
النفوس والطباع
استخرجت من اللسان
عبارات غريبة وهي
تحت وقتها صاغها
كلف النفس وهواها
فاذا امتلأ القلب حرمة
ووقارا تعلم اللسان
العبارة . وروى لما
نزلت هذه الآية قد
ثابت بن قيس في
الطريق يبكي فمر به
عاصم بن عدی فقال

مخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أنقى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف اللالك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجلك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو اللئى على الجمال فهو اللئى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث اللئى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب والسيئات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبمحت بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلعج بالبصر أو هو أقرب ففاضت بحار التقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد القدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء يإزاء الأمر الواحد الكلى ولفظ القدر يإزاء التفصيل للتأدى إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لما إذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفصيل وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجؤا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام اللع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتكم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تفسد نار فستة نار فاشتعل نورا على نور فأشرفت أقطار للسكرات بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم تأدبوا بأداب الله تعالى واسكتوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وأزولوا إلى صفاء الدنيا من متهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتسبوا من بقايا أنواركم الشرقية من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والسكرات كعب في جنح الليل فيجابه حياة عتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة للتردد بين في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب هكذا شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جاهير الخلق كنسبة المشى على الماء إلى المشى على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم فأما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للشيء صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لشيء على الهواء (٢) » فهذه

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لشيء على الهواء وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد الحواريون نبهم قبيلا له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما انتهوا إلى البحر

ما يبكيك يا ثابت قال هذه الآية تخوف أن تكون نزلت في - أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - وأنا ربيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار ففضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابنا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسد على الضبة بمسار فضربته بمسار حتى إذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم العامة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين وينضى الآخر واسمه إبليس وهو اللعين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قبل نزله روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ليضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف المباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والإرشاد سببه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يستقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أحبهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب للطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول هذا فلي ولم يكون فعله دون فعله فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل للكره بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعملك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير وفعله الذي رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال للعدالة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب للشعبذ الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزغق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤسها في يد للشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلم كما يعلم الشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها التحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محررون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشعبة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الحيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الحيوط في مناطات لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المراكين للسماوات وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قليل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما تعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص إذا هو قد أقبل بمشي على الماء فقد ذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث ماذن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

أتى عاصم النبي وأخبره
بغيره اذهب
فادعه فجاء عاصم إلى
المكان الذي فيه رآه
فلم يجد فجاء إلى أهله
فوجد في بيت الفرس
فقال له إن رسول الله
يدعوك فقال اكر
الضبة فأتيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما ييك
يا ثابت فقال أنا صيت
وأخاف أن تكون هذه
الآية نزلت في فقال له
رسول الله صلى الله عليه
وسلم أما ترضى أن
نميش سميدا وتقتل
شهيدا وتدخل الجنة
فقال قد رضيت بيشري
الله تعالى ورسوله ولا
أرفع صوتي أبدا على

الراسخين في العلم بعلوم لا تعتمد على أنفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمر بينهن - فقال لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجتموني وفي لفظ آخر قلتم إنه كافر . ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم العامة ما ليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب بومامتهم إلا أنه مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرئيل عليه السلام وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض وبلى درجتهم درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتتم بهم حكمته وأعلام رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكل الله به الدين وختم به النبیین ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج راع . واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنه تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تفرقون منهم وتنكرون ويغسدون وما يصلح الله بهم أكثر فإن أحسنوا فاهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فاضلهم الوزر وعليكم الصبر » (١) . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير فقال السلطان قيل كنأرى أن شر الناس السلطان فقال مهلاً إن لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أديانهم فيطلع في صحيفته فيخبره جميع ذنبه وكان يقول الخشب السود الملقط على أبوابهم خير من سبعين قاصيقصون .

(الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر)

وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وجماعها فيما يخص وبم كان إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فتقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الأحاد والله الموفق للصواب .

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يغسدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء تفرقون وتنكرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللإيضاح بسند ضيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جارأ وخاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبيد الله اصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قد كر حديثنا والإمارة الفاجرة خير من المهرج رواء الطبرانة في الكبير باستناد لا بأس به .

رسوله الله فأمر الله تعالى - إن الذين يفتنون أصواتهم عند رسول الله - قال أنسى كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان يوم الجمعة في حرب مسلماً ترى ثابت من المسلمين بعض الانكسار واتهمت طائفة منهم فقال آف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبنا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعد رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويمين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية والأسباب المعينة والذات المسماة نعمة تشرحها بتفسيات [القسم الأول] أن الأمور كلها بالإضافة إلى ما تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل كاللذات بتابع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع في الحال للضرر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظن الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يئده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سبق إليه والضرر في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الأبصار بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأقسام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظن به بلاء والماعز يئده نعمة ويتخذ المنة بمن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجابة والأب يدعو إليها فإن الأب لكامل عقله يلح العاقبة والأم لفرط حبها وقصورها تلاحظ الحال والصبي لجهله يتخذ منة من أمه دون أيه ويأنس إليها وإلى شفتها ويحذر الأب عدوا ■ ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن منعها إياه من الحجابة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجابة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو [قسم ثانيا] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها قلما يصفو خيرها كالسالم والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضرر كقدر السكافية من المسال والجاه وسائر الأسباب وإلى مضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالسالم الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكفي ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثرت فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حق مومنين إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستضررا ■ شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه [قسم ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لقائه لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لقائه ولغيره . فالأول ما يؤثر لقائه لا لغيره كلفة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة بالجملة سعادة الأخرى التي لا انتضاء لها فإنها لا تتطلب لتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تتطلب لقائها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته كالدرهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقض بها لكانت هي والحسب بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكثرونها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنهم مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في حبه الرسول حبه الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتمهيد الرسول وصرعاته وتحفده وهو غاية الجهل والضلال . الثالث ما يقصد لقائه ولغيره كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها إلى استيفاء لقائه الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي أراد سلامة الرجل لأجله ف يريد أيضا سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم
وعليه درع قرآه
رجل من الصحابة بعد
موته في المنام فقال له
اعلم أن فلانا رجلا من
المسلمين نزع درعي
فذهب بها وهو في
ناحية من السكر
وعنده فرس يستن
في طيله وقد وضع على
درعي برمة فانت خالده
ابن الوليد فأخبره
حتى استرد درعي واثت
أبا بكر خليفة رسول
الله عليه السلام فقل
■ إن على ديننا حق
يقضى على وفلان من
عبيدي عتقي فأخبر
الرجل خالدا فوجد
الدرع والفرس على
ما وصفه فاسترد الدرع
وأخبر خالد أبا بكر

من حيث إنها سلامة فإذا أثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً وما يؤثر لذاته وتغيراً يضافه
 نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالتقديرات فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما
 جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه
 أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده
 الذهب والدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر
 والعبادة فيكونان بلاء في حقّه ولا يكونان نعمة [قصة رابعة] اعلم أن الحيرات باعتبار آخر تنقسم
 إلى نافع ولذيد وجميل فاللذيد هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجميل
 هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشروع أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من
 القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم
 والحكمة فانها نافعة وجيلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح
 ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه
 جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات
 البدنية عن التعلم فيتنجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك نقصان
 وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في
 عذاب دائم لا محالة . والضرب الثاني للقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب
 نافع مؤلم كقطع الأصبع للتأكل والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحق فانه بالإضافة
 إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل فانه لا يهتم بالعاقبة فيسترخ في الحال إلى أن
 يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق
 فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قسمان ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال
 إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرها وإلى مالا يكون ضرورياً
 كالسكنجيين مثلاً في تسكين الصفر فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قصة خامسة]
 اعلم أن النعمة يبر بها عن حكمل لذيد واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها
 أو مشاركتها لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع
 الحيوانات أما العقلية فكذلك العلم والحكمة إذ ليس يستلذهما السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن
 ولا الفرج وإنما يستلذهما القلب لاختصاصه بصفة يبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجوداً وهي
 أشرفها أما قلبها فلأن العلم لا يستلذه إلا غالم والحكمة لا يستلذه إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة
 وما أكثر التسمين باسمهم والترسمين برسومهم وأما شرفها فلائها لازمة لا تزول أبداً في الدنيا ولا
 في الآخرة ودائمة لا تمل فالتطام يشبع منه فيمل وشهوة الواقع يفرغ منها فتستقل العلم والحكمة
 قط لا يتصور أن تمل وتستقل ومن قدر على الشريف الباقي أبداً الآباد إذا رضى بالحسب الفاني
 في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج
 إلى أعوان وحفظه بخلاف المال إذ العلم يهرسك وأنت تهرس المال والعلم يزيد بالإشفاق والمال
 ينقص بالإشفاق والمال يسرق والولاية يزل عنها والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي
 السلاطين بالمزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً
 ثم العلم نافع ولذيد وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة
 ولذلك لم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن ساء خيراً في مواضع وأما تصوراً أكثر الخلق

بتلك الرؤيا فأجاز
 أبو بكر وصيته قال
 مالك بن أنس رضى
 الله عنهما لا أعلم وصية
 أجيزت بعد موت
 صاحبها إلا هذه فهذه
 كرامة ظهرت لكاتب
 بحسن تقواه وأدبهم
 رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فليعتبر
 المرید الصادق ويعلم
 أن الشيخ عنده
 تذكرة من الله ورسوله
 وأن الذي يعتمد مع
 الشيخ عوض ما لو كان
 في زمن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم واعتمده
 مع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فقام القوم
 بواجب الأدب أخبر
 الحق عن حالهم وأثنى
 عليهم قال - أولئك

عن إدراك لذة العلم فإما لعدم الذوق فمن لم يذوق لم يحرف ولم يشتق إذ الشوق تبع الذوق وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًا وإما لقصور فطنهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذيدة ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحس ببطنه كالطفل وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لينذر من كان حيا - إشارة إلى من لم يحس حياة بطنه وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموت وإن كان عند الجهال من الأحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلفة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسود والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلفة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادي ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة وهو أشدها تصاقا بالمتخالفين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا يزال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة وأما شره البطن والفرج فكسره محبة قوي عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا تقوى على كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالسكينة حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإيمانه لذته بالجاء والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تأنذ بالعلم والمعرفة أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد وأما الثاني فالدنيا طائفة به وأما الثالث والرابع فوجدان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرتي في الأعصار القرية من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمرا كان مفعولا وإنما يجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثر فكذا لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة فإنها عبارة عن عالم الشهادة والآخر عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى - أي اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه وكان اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب فهذا ينبغي أن يكون للسريد مع الشيخ . قال أبو عثمان الأدب عند الأكابر وفي مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى والخير في الأولى والعقبى ألا ترى إلى قول الله تعالى - ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم - ومعهم عليهم الله تعالى قوله سبحانه - إن الذين ينادونك من وراء الحجرات

ولكن الانكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب
والمسكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصير به إلى
عالم المسكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا بأولي الأبصار - ومنهم من
عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة واستفتح إلى حيسه أبواب جهنم وهذا
الحبس مملوء نارا من عاتقها أن تطلع على الأئمة إلا أن بينه وبين إدراك أئمة حجابا فإذا رفع
ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا
الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر
يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن
للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم -
أى في الدنيا - ثم لترونها عين اليقين - أى في الآخرة فإذا قد ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة
لا يكون إلا عززا كالشخص الصالح ملك الدنيا -

(قصة سادسة حاوية لمجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الغاية فاتها
سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى
لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا عيش إلا عيش الآخرة»^(١)
وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في عدة الضر وقال ذلك مرة
في السرور من النفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع^(٢)
وقال رجل «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم تمام النعمة؟ قال لا
قال تمام النعمة دخول الجنة»^(٣) وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى
ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب
الضيفة بالبدن من المال والأهل والمشيئة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس
وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والمهابة فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص
الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انتساب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان
إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسوله وإلى علوم العامة، وحسن الخلق
ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب وإصمه الغفة ومراعاة العدل في الكف عن
مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان
العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى «أن لا تطغوا في الوزن
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الوزن» - فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أوترك النكاح
مع القدرة والأمن من الآفات أوترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر
الميزان ومن انهك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الوزن وإعسا العدل أن يغلو وزن شهوته وتقديره
عن الطرفين والحصران فتعطل به كفتا الميزان فاذن الفضائل الخاصة بالنفس للقرينة إلى الله تعالى أربعة
علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يفلون -
وكان هذا الحال من
وقد بنى تيم جاء وإلى
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنادوا يا محمد
أخرج إلينا فان مدحنا
زين وذمنا شين قال
فسمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم فخرج
إليهم وهو يقول «إنما
ذلكم الله الذي ذمه
عين ومدحه زين» في
قصة طويلة وكانوا أتوا
بها عزم وخطيبهم
قطيبهم حسان بن ثابت
وشيبان المهاجرين
والأنصار بالخطبة وفي
هذا تأدب للريد في
الدخول على الشيخ
والإقدام عليه وتركه
الاستعجال وصبره إلى
أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا عيش إلا عيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث
قوله في حجة الوداع لا عيش إلا عيش الآخرة الشافعي ومرسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم في الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

موضع خلوته - صحفت
أن الشيخ عبدالقادر
رحمه الله كان إذا جاء
إليه فقير زائر يخرج
بالفقير فيخرج ويختص
جانب الباب ويصافح
الفقير ويسلم عليه ولا
يجلس معه ويرجع
إلى خلوته وإذا جاء
أحد ممن ليس من
زمرة الفقراء يخرج
ويجلس معه غطر
لبعض الفقراء نوع
إنكار لتركه الخروج
إلى الفقير وخروجه
لتفسير الفقير فاتهى
ماخطر للفقير إلى
الشيخ فقال الفقير
رابطتنا - رابطة
قلية وهو أهل وليس
عنده أجنبية فنكتفى
معه بموافقة القلوب

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله لال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا ومن طريقه رواه القاضي في مسند الشهاب هكذا مرسلًا (٣) حديث من أصبح معافي في بدنه آمنًا في سربه الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إسناده ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير صاع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في التلخيص .

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الدل والضيم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإعنا تدفع هذه الشواغل بالعم والجاء ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاء إلى ملك القلوب كالأ معنى للفنى إلاملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاء وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائهم والاستتار والاستكثار في الدنيا بتناهبهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب جبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم الشجرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكرام » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قليل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسنة في النبت السوء » (٥) فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار التومنين بالعلم والعمل . فان قلت معنى الفضائل البدنية . فأقول لا يخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

وقنع بها عن ملاقة
الظاهرة بهذا القدر
وأما من هو من غير
جنس الفقراء فهو
واقف مع العادات
والظاهر فمضى لم يوف
حقه من الظاهر
استوحش خلق المريد
عمارة الظاهر والباطن
بالأدب مع الشيخ
قبيل لأبي منصور
للغربي كم صحبت
أبا عثمان قال خدمته
لا صحبته فالصحة مع
الإخوان والأقران
ومع الشايخ الخدمة
وينبغي للمريد أن يكلأ
أشكال عليه شيء من
حال الشيخ يذكرك قصة
موسى مع الخضر عليهما
السلام كيف كان
الخضر يفعل أعياء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت لئن صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل الحديث ولترمذى ومحممه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه يبطبلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه في عنقه فغلقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث والبخارى وأبو يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أقتلوا رجلا أن يقول ربى الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائي «الحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه والطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال أقولم ينتدولون أصلى فوائده لانا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم في النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول
العمر في طاعة الله تعالى ^(١) » وإنما يستحقر من جملة أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليما
من الأمراض الشاغلة عن تعمرى الخبرات ، ولعمري الجمال قليل الفناء ولكنه من الخبرات أيضا
أما في الدنيا فلا يغني نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطابع عنه
نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح يبلغ
كالملك والجلال إذ هو نوع قدوة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل
معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على
فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك
عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ،
ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل
مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للأموث جيشا فرض عليه رجل قبيح
فاستقطقه فاذا هو ألكن فأسقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة أو على
الباطن فصباحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح
الوجوه ^(٢) » وقال عمر رضي الله تعالى عنه « إذا بستم رسولا فاطلبوا به حسن الوجه من الاسم » وقال
الفقهاء : إذا تساوت درجات للصالحين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة « وقال تعالى عمتا بذلك سوزاده
بسطة في العلم والجسم - ولنا نفي بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإمنا نفي به ارتفاع
القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبوا
الطباع عن النظر إليه . فان قلت قد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد
ضم الله تعالى للمال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وكذا العلماء قال تعالى - إن من
أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة وقال على
كرم الله وجهه في فم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل للرد نفسه
لأبائه فإمعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة
المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على
ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة
على أمر الآخرة لاسبيل إلى جعدها إلا أن فيها فتنا وعخاف ، فثال للمال مثال الحية التي فيها ترياق
نافع وسم نافع فان أصابها السم القوي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع
كانت نعمة وإن أصابها السوادى القوي فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر القوي تحته أصناف
الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق القوص وطريق الاحتراز عن

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللتزمذي من حديث أبي
بكرة أن رجلا قال يا رسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح
(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو موسى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت
محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمسها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه
آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ضم المال
والجاه الترمذي من حديث كعب بن مالك ماذبان جائمان أرسلنا في غم بأفسد لها من حب المال
والشرف لديه وقد تقدم في فم المال والبخل .

يسكرها موسى وإذا
أخبره الخضر بسرها
يرجع موسى عن
إنكاره لما ينكره
الريد لقلعه بحقيقة
ما يوجد من الشيخ
فلشيخ في كل شيء
عذر بلسان العلم
والحكمة . سأل بعض
أصحاب الجنيد مسألة
من الجنيد فأجابه
الجنيد فمارضه في ذلك
فقال الجنيد فان لم
تؤمنوا إلى فاعتزلون
وقال بعض المشايخ من
لم يعظم حرمة من
تأدب به حرم بركة
ذلك الأدب « وقيل
من قال لأستاذة لا ،
لا يفلح أبدا . أخبرنا
شيخنا ضياء الدين
عبد الوهاب بن على

مهلكات البحر قد ظفر بنعمه « وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فذلك مدح الله تعالى للال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى للال » وكذلك مدح الجاه والعز إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحبه في قلوب الخلق وهو المعنى بالجاه ولكن النقول في مدحها قليل والنقول في ذم للال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لدية للال وطريق الفوس في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم للال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن يضاف إلى النبوة للالك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولأن يضاف إليها النقي كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون قد يضرب الصبي مالا يضرب للعزم ، نعم للعزم لو كان « وله يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حديقته علم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به وله وأخذ الحية إذا رآها يلعب بها فيهلك الله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالحرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سماً قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يبعثه أصلاً بما فيها من قمع الترياق فان ذلك ربما يضره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك القواص إذا علم أنه لو طاف في البحر يرى من وله لا تبمه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والثر « فان كان لا يتزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والله يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بحجزكم (٢) » وحفظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهالك فانهم لم يمتثلوا إلا لذلك وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يحسبوه بل أشقوه فان الإلتحاق فيه الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورجعوا فيه لما لوا إلى سم الامساك ورجعوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قبحت الأموال والمعنى به تهييج إمساكها والحرص عليها بالاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذا أنها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله ، فأما إذا صمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب (٣) » معناه لأفكم خاصة

قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا أبو نصر
الترياق قال أنا أبو محمد
الجراحي قال أنا
أبو العباس المحبوبي قال
أنا أبو عيسى الترمذى
قال حدثنا هناد عن
أبي معاوية عن
الأعمش عن أبي صالح
عن أبي هريرة قال :
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « أتركوني
ماتركتكم وإذا
حدثتكم غفدوا عني
فإنما هلك من كان
قبلكم بكثرة سؤالهم
واختلافهم على أنبيائهم »
قال الجنيد رحمه الله
رأيت مع أبي حفص
النيسابوري إنسانا
كثير الصمت لا يكلم
قلعت لأصحابه من هذا

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم
(٢) حديث إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بحجزكم متفق عليه من حديث
أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب
والفرائش يقمن فيه فأتا آخذ بحجزكم وأنتم تتحممون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم
من النار وأنتم تملتون من يدي (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه

ولا قد كان فيمن يروي هذا الحديث ويصل به من بأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويغرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة * ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مه بأن يطعم للسكين ويكسو العاري ويقرى الضيف ^(١) الحديث . فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها وقمها بضرها فمن وثق يصيرته وكال معرفه ^(٢) أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواها * ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تصد بالسلامة شيئا في حق هؤلاء . وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة البعد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل يخص بمن ماله إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق وذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما ينجى عليه اجتاده

فأما الهداية ■ سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فن أبن ينفعه مجرد الإرادة ■ فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم ■ ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أي بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا ^(٣) . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناه النجدين - وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالقل وببعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وأما عود فقد ينهم فاستجوبوا العمى على الهدى - فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تسمى القلوب ■ إن كانت لا تسمى الأبصار قال تعالى - فانها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور - ومن جملة العميات الإلتفات والعادة وحسب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب ^(١) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مه بأن يطعم للسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خلل بن أبي مالك ضعيف جدا ^(٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبي هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله ■ ولا أنا إلا أن يتخمدني الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة واخبر به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لي هذا إنسان
يصحب أبا حفص
ويخدمنا وقد اتفق
عليه مائة ألف درهم
كانت له واستدان مائة
ألف أخرى أنفقها عليه
ما يسوغ له أبو حفص
أن يتكلم بكلمة واحدة
وقال أبو يزيد البسطامي
صحبت أبا حفص السندي
فكنت ألقنه ما يقيم به
فرضه وكان يلحن
التوحيد والحقائق
صرفا . وقال أبو عثمان
صحبت أبا حفص وأنا
غلام حدث فطردني
وقال لا تجلس عندي
فلم اجعل مكافأته له على
كلامه أن أولى ظهري
إليه فانصرفت أمشي
إلى خلف ووجهي
مقابل ■ حتى غبت

- إنا وجدنا آباءنا على أمة - الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقوله تعالى - أأشرا منا واحدا نتبعه فبهذه المعصيات هي التي منعت الإعتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي بعد ■ تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وهو المراد بقوله تعالى - والذين اهتدوا زادهم هدى - والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيبتدى بها إلى ما لا يبتدى إليه بالقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو المسمى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى - قل إن هدى الله فبما شاء الله وما يستبد - وهو المسمى حياة في قوله تعالى - أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس - والعنى بقوله تعالى - أفمن نزع الله صوره للإسلام فهو على نور من ربه - وأما الرشد فعنى به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى - ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين - فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خيرا يحفظ المال وطرق التجارة والاستئمان ولكنه مع ذلك يذو ولا يريد الاستئمان لا يسمى رشيدا لانه لم يهتد بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكمن شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فان الهداية بمجرد ذلك لا تكفي بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما ابتعث الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأيد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل - إذا يدرك روح القدس - وتقرب منه الصلة وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كأنه من باطنه غير محسوس وإياه عنى بقوله تعالى - ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - فهذه هي مجاميع النعم ■ لن تثبت إلا بما يحولها الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفاه وظلم الأعداء ويستدهي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل التحيرين وملجأ للضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلقد ذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وبالله التوفيق .

■ واعتقدت أن أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه فلما رأى ذلك منى قريبي وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن للريد لا يسطع سجدته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فان للريد من شأنه التبتل للخدمة في السجادة إيماء إلى الاستراحة والتمزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المسريد عن الاسترسال في السماع وتحيده وامتناعه في

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكل ولا بد
للمأكل من أصل منه يحصل ولا بد من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الإرادات
ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكل على سبيل التلويح لأعلى سبيل الاستقصاء .
(الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك)

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والحدود والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي
لا تنمى ولا تنضج فإن النبات خلق فيه قوة بها يجذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في
الأرض وهي آلات فيها يجذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تملأها صولها ثم
تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعيرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تضيء عن البصر إلا
أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويمس أصله جف وييس ولم يمكنه
طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة اللطوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن
ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى
ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خافت
لك حتى إذا مسك نار محرقة أو سيف جارح تحس به قهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا
يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأتقص درجات الحس أن
يحس بما لا يلاصقه ويماسه فإن الاحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل
حيوان حتى الدودة التي في الطين فاتها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فإن النبات يقطع
فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على
طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما لمس بدتك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى
حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية
فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما تعثر فتكون
في غاية التماس لو لم يخلق لك إلا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتصدق تلك
الجهة بينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر
غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره
وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من
وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا أو أمما الغائب فلا يمكنك
معرفة الإكلام بتنظيم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك
وميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان فيك لو لم يكن لك حسي التدقيق لإيضاح الغذاء
إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله قهرك كالشجرة تصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها
فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر
يسمى حسا مشتركا تأدى إليه هذه الحسومات الخمس وتجتمع فيه ولولا لطلال الأمر عليك فانك إذا
أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرعا فالله لك قركته فاذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر مالم تدقه
ثانيا لولا الحس المشترك إذا لم ينسب الصفرة ولا تدرك الرائحة فكيف تمتنع عنه والتدقيق يدرك الرائحة
ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والرائحة جميعا حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه
مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشارك في الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك
إلا هذا لكنت ناقصا فإن الهمزة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه
ومطالعة موارد فضل
الحق عليه أنجع له من
الإصغاء إلى السماع ومن
الأدب أن لا يكتفى على
الشيخ شيئا من حاله
ومواهب الحق عنده
وما يظهر له من كرامة
وإجابة وينكشف
للشيخ من حاله ما يعلم
الله تعالى منه وما
يستحي من كشفه
يذكره إيماء وتريضا
فإن المريد متى انطوى
ضميره على شيء
لا يكشفه للشيخ
تصريحا أو ترميضا
يصير على باطنه منه
عقدة في الطريق
وبالقول مع الشيخ
تحل العقدة وتزول
ومن الأدب أن

تتخلص إذا قيدت وقد تلقى نفسها في بر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثانی الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا فيعزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرّة الأطعمة ومنفعتيها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفضاله ومعرفة الحكمة في عاقله وعند ذلك تنقلب قائمة الحواس الخمس في حقا فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الوكيلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي غثومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم إليها آت إليه غثومة فيفتشها للملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عمية لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إتمام التديرات التي تمنّ له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ولا تظن أن استوفيتها فان الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض وبعضها كأنه الجلد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فحس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جورة صغيرة فكيف ظنك بجمع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

(الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات)

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من يدوم غناك لك ميل في الطبع وشوق إلى الشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أرفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة وحرارة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكّلها بك كالمقتاضي الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتغذي فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها لا كالزعر فانه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آثم يفسد غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجماع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومق كان عند الريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستمد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان للريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمجبة والتألف هو الوساطة بين للريد والشيخ وعلى قدر قوة المجبة تكون سراية الحال لأن المجبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجفنية جالبة للريد حال الشيخ أو بعض حاله

دم الحيض وتأليف الجنين من المني ودم الحيض وكيفية خلق الأثنين والعروق السالكة إليهما من الفغار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها وتتشكل بشكل الله كور وتقع في بعضها فتشكل بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقه ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل المعجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأنيك الهلكات من الجوانب فلم يخلق فيك النضب الذي به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك لبقية عرصة الآفات ولا يخدمك كل ما حصلت من الغذاء فان كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية النضب الذي به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والنضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا يكفي فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كما خلق الشهوات والنضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يفنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد صمينا هذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

(الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة)

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك والارادة لا معنى لها إلا الليل إلى الطلب والمهرب وهذا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض متتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقده رجله أولا يمكنه أن يتناوله لفقده يده أو قلعج وخدر فيها فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمنقضى الشهوة طلبا وبمنقضى الكراهية هربا فذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فلهذا هو للطلب والمهرب كالرجل للإنسان والجنح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح لطير بسرعه ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ما له رجلان ومنها ما يذب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله تعالى عليك بخلق البدن وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشتلتان على مفاسل كثيرة لتحرك في الجهات فتتقن إليك فلا تكون كشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضما إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مفرقة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن شمرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارها وأسند إليها رموس الأصابع حتى لا تنفتحت حتى تلتقط بها الأعياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برموس أظفارك ثم هب أنك أخذت الطعام باليدن فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المدة وهي في الباطن فلا بد أن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة
أبو الفتح محمد بن
سليمان قال أنا أبو الفضل
حميد قال أنا الحافظ
أبو نعيم قال ثنا سليمان
ابن أحمد قال ثنا أنس
ابن أسلم قال ثنا عتبة
ابن رزين عن أبي
أمامة الباهلي عن
رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال « من علم
عبدا آية من كتاب
الله فهو مولاه ينبغي
■ أن لا يخذله ولا
يستأثر عليه فمن فعل
ذلك فقد فسم عروة
من عر الاسلام ■ ومن
الأدب أن يراعى
خطرات الشيخ في
جزئيات الأمور
وكلياتها ولا يستحقر
كراهة الشيخ ليعبر

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل القم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثير سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في القم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام تخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى جادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل مفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر الاضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الأسفل متحركا كحركة دورة والحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء القم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل القم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب القم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق ومحاجب قوة النطق الحكم التي لسانا نطلب بدكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الخلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينحدر به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام للطحون النمنجن من يوصله إلى المعدة وهو في القم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يدق للمعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى للرء والحجرة وجعل على رأسها طبقات تتفتح لأخذ الطعام ثم تطبق وتتضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهبى إلى المعدة في دهليز الرء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى للمعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب فلا يزال لا يثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام التراب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائما متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه وورقه وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تضج هذا الدم فتولد من هذا الدم فضلان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحداها شبيهة بالدردي والمكر وهو الحائط السوداء والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى للراة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا محدودا إلى الكبد داخل في تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله القربي ونحن شبان ويسافر بنا في البرارى والقلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صعبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتخير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب للرشد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه الفتوح إلى الله أكبر

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منها عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حذبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لفلط ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية فقدمار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نجا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروفا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق للتقسمة شعرية كمروق الأوراق والأشجار بحيث لا تترك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولوحلت المرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الحائط السوداوى حدثت الأمراض السوداوية كالبلهق والجذام والمالبخوليا وغيرها وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة القاطر الحكيم كيف رتب النافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة أما المرارة فاتها تجذب بأحد عنقها وتذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزقة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتسكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبها ويشيرها ويخرج الباقي مع الفضل وأما الكلى فاتها تفتدى بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأشياء أخرى سواء بل في آدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولاشئ منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولالتقوى بعدها على الشكر فانك لاتعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسنها ثم لاتعرف منها إلا أنك نجوع فتأكل والحر أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يبرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحر نعم الله فقط قس على الاحمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الآن من علم شيئا من هذا أدرك حققة من معاني قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام مناضها وادراكها وقواها بخار لطيف يتصاعد من الأخلط الأرضية ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن

فإن كان واقعة للريد من الله تعالى بواقعه الشيخ وبعضها وما كان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبهة نزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتسب للريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالريد لعله في واقعة بخامره يكون إرادة في النفس فيشتبك يكون الإرادة بالواقعة متما كان ذلك أوقطة ولهذا سر عجيب ولا يقوم للريد باستئصال شأفة السكمن في النفس وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ فإن

إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سبباً له بحكته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح وعمله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمرجة والشم الأسود الذي في باطن القلب له كالفنية والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ مهما انقطع غذاءه وكان الفنية قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الشم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفراط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً فتشبت النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بقاء الزيت أو فساد الفنية أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقه أنواره التي كان يستفيد منها الروح هي أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أضرار مزوجير إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومحاسن حكمته يعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - عز وجل تنصاً لمن كفر بالله تصاً وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً. فان قلت قد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «مثل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي» (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاختراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق للعنان كثيرة لان طول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جعلها جماً لطيفاً تسميه الأطباء الروح وحوادث عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يبالون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويبالون بها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمر سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تخضع للعقول وصفها بل تحجب فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والحالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتنزّل في ذكر مبادئ وصفها معاقدة العقول القيدة بالجواهر والمرض المحبوسة في منصفها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل ينور آخر أطل وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية فيسببه إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك الحسي المحسوسات ولا يدرك العقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقولات ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

كان من الحق يتبرهن
بطريق الشيخ وإن
كان ينزع واقعه إلى
كون هوى النفس
تزلزل وتبرأ ساحة
للريد ويحصل الشيخ
تقل ذلك لقوة حاله
وحمة إيوانه إلى جناب
الحق وكال معرفته
ومن الأدب مع الشيخ
أن الريد إذا كان له
كلام مع الشيخ في شيء
من أمر دينه أو أمر
دنياه لا يستعجل
بالإقدام على مكالة
الشيخ والمعجوم عليه
حتى يتبين له من حال
الشيخ أنه مستعد له
ولسماح كلامه وقوله
متفرغ فكما أن للدعاء
أوقاتاً وأدباً وشروطاً
لأنه مخاطبة الله تعالى

وإنه لهام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد وجنب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وطى أول اللبدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحالة أن يصل للبدان فكيف بالاتباء إلى ماوراءه من للشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربها أتى بصادف هذا في خزنة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل للنبي للمسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان لللك بالإضافة إلى لللك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان لللك فظن أنه رأى لللك ولا يشك في أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أخفى منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا فعولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبته وتوفقه ولم يذكر ذاته أما نسبته ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما توفقه فقد ذكر في قوله تعالى - يأتينا النفس للطمشة ارجى إلى ذلك راضية مرضية فادخل في عبادى وادخل جنى - ولترجع الآن إلى الترض فان التصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

(الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة)

وتصير صالحة لأن يصلحها الأدنى بعد ذلك جنته)

اعلم أن الأطعمة كثيرة والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لأغصى وأسباب موائمة لانتهاهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلنأخذ الأغذية فانها الأصل ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ولنضع سائر الأغذية فتقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فليت وبقيت جائها فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتضاعف حتى تنقو يتم حاجتك خلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يتنقى به كما خلق فيك فان النبات إنما يشارك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاعتناء لأنه يتنقى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تتنقى أنت وتجذب ولنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه . فتقول : كما أن الحطب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تتنقى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمزج ماءها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنتنت فيها حبا وعبا وقضاو زيتونا وغلا - ثم لا يكفى للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة مترا كسما لم تثبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلقة يتغلغل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهجر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإنما إلقاها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يفيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الريح والصيف قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج للماء لينساق

فلقول مع الشيخ أيضا
آداب وشروط لأنهم
معاملة الله تعالى ويسأل
الله تعالى قبل الكلام
مع الشيخ التوفيق
لما يجب من الأدب
وقد نبه الحق سبحانه
وتعالى على ذلك فبأمر
به أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
مخاطبته فقال - يا أيها
الذين آمنوا إذا ناجيتم
الرسول قدموا بين
يدي نجواكم صدقة -
يعنى أمام مناجاتكم
قال عبد الله بن عباس
سأل الناس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فأكثروا حتى شقوا
عليه وأحفره بالمسكة
فأدبهم الله تعالى
وفطمهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار وجر العيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرغمة والياه لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى اليوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مددرا على الأراضي في وقت الربيع والحريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع وللواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فاتها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع جدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انقصاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق التمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصة الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصنفها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والتمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تضمد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتخلب على رأسك الرطوبة التي يجر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب القاكهة أيضا ولا تطول فيها لا مطمع في استقصائه بل قول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يغلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تنفي قوة البشرا بحاصتها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا لا فائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن نظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخائف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل النهي عنه في النجوم أمران : أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق واسكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تخفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تسكديه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوائثه حمى

وأمرهم أن لا ينجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند النجاة فلما رأوا ذلك اتهموا عن مناجاته فأما أهل الصرة فلا هم لم يجدوا شيئا وأسأهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الرخصة وقال تعالى - أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد والطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولعلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتى الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث -

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان قال قرعتي الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلومك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والعلوم بضه معلوم للناس كافة كصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبضه لبعض الناس كصول الزكام بهروقي القمر فاذن الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا نحصى ولهذا «نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك فقنا عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم - ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» (١) ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قطع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأقنص والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب عسايفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه جباله فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه من تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنعه بواسطة قلوب عباده فإن تعجبت من تصنيف فلا تصعب من التصنيف بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسيديده وعريفه كما إذا رأيت لب للشعوز ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فاتها خرق حركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق الشعوز المهرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذن القصد أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك إلا بالآفلاك التي هي مركوزة فيها ولا يتم الآفلاك إلا بحركاتها ولا يتم حركاتها إلا بعلائكة سبوية يحركونها وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بييدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما هملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

(الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب للوصلة للأطعمة إليك)

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب الدال وشهوة الربح مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يعمقوا في بعض البلاد فيأخذوها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجبل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى القرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف قطع البراري وتطوى للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك فقنا عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي ترك تأملها التلبي من حديث ابن عباس بلقط ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف .

لم ينجح رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب قدس ديارا قصد في به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلا ولا يعمل بها أحد جدي وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ما ترى في الصدقة كم تكون دينار قال على لا يطبقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لو هيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدق وما فيه من حسن الأدب وتضييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن قد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادي ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر ترى تركها طلبا للإيجاز .

(الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة)

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يفهم ويؤكل وهو كذلك بل لابد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلتعبر رغيفا واحدا ولتنظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بدء إلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التمديد بسقي الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم القمح ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصانع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرماس والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض متجاورات مختلفة ، فإن فشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدى من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة اللانكسة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الإنسان ، فإذا استدار طلبه قريب من مئة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تتكامل صورتها من حديد تصليح الآلة إلا بعد أن تمر على يد الأبرى خمسا وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملا ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتضت إلى عمل للنجل الذي تعمد به البر مثلا بعد نباته لفد عمرك وهجرت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قنرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الثمينة فانظر إلى القراض مثلا وما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معا ويقطمانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق أخذه بفضل كرمه لمن قبلنا واقتصرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل القراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأدنى أكل القول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أخس العمال أو عن الخائض أو عن واحد من جهة الصانع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى تخدم به مشيئة وتمت به حكته . ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضا فإن القرض التنبه على النعم دون الاستقصاء .

(الطرف السابع : في إصلاح المصلحين)

اعلم أن هؤلاء الصانع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتافرت طبائعهم تافرت طباع الوحش لتبدوا وتباعدوا ولم يتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يجمعهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألهم الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم لواء ألفت ما في الأرض جميعا

مانسخ ، والقائدة
باقية . أخبرنا الشيخ
الثقة أبو الفتح محمد
ابن سلمان قال أنا
أبو الفضل أحمد قال
أنا الحافظ أبو نعيم
قال حدثنا سليمان
ابن أحمد قال حدثنا
مطلب بن شبيب قال
حدثنا عبد الله بن صالح
قال ثنا ابن لهيعة
عن أبي قبيل عن
عبادة بن الصامت قال
سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يقول « ليس منا من
لم يعمل كبيرنا وبرحم
صغيرنا ويعرف لعائلنا
حقه فاحترام العلماء
توفيق وهداية وإعمال
ذلك خذلان وعقوق .

ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وبنوا للدين والبلاد ورتبوا الساكن والهدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأوق والحانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه الحبة تزول بأغراض يتراحمون عليها ويتنافسون فيها في حيلة الإنسان الفيط والحسد والتنافسة وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدم بالقوة والمدة والأسباب والتي رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلاد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وأزموهم التساعدا والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالحداد والنجار ينتفع بالنجار والحجار ينتفع بالحجار والحجام ينتفع بالحجام والخباز ينتفع بالخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث ينتفع بالحداد والحجار ينتفع بالحجار والنجار ينتفع بالنجار والحجار ينتفع بالحداد وكذا جميع أرباب الصناعات الصالحين لآلات الأطنمة والسلاطين يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم العلماء يصلحون السلاطين ولللائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا - لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة البسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بمن الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لنشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تكلمنا فإذنه انبسطنا وإن سكنا فبقهره انقبضنا ، إذ لا مغطى لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بنسم القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأممنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

(الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق اللائكة عليهم السلام)

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق اللائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهذا يتم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات اللائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: اللائكة الأرضية والسموية وحمة العرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والنفاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يفتدى إلا بأن يוכל به سبعة من اللائكة هو أقره إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويأته أن معنى النماء أن يقوم جزء من النماء مقام جزء وقد تلف ذلك النماء بصير دما في آخر الأمر ثم بصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاء كل واحد منهم والجميع أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجينا ثم خبزا مستديرا عجوزا إلا بصناع فكذلك النعم بنفسه لا يصير لحما

[الباب الثاني والخمسون
في آداب الشيخ وما
يتممه مع الأصحاب
التلامذة]

أهم الآداب : أن
لا تعرض الصادق
للتقدم على قوم ولا
تعرض لاستجلاب
بواطنهم بلطف الرفق
وحسن الكلام بحبة
للاستبصار فإذا رأى
أن الله تعالى يبعث
إليه المرشدين
والمرشدين بحسن
الظن وصدق الإرادة
يحذر أن يكون
ابتلاء وامتحانا من
الله تعالى والنفوس
مجبولة على حبة إقبال
الخلق والشهرة وفي
الحقوة السلامة فإذا بلغ
الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع في الباطن هم اللائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمة ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تفعل عن نعمة الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة السم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع رعى التقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالجوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على غفده لكبر أنه يبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقه بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحديقة مع صفائها وإلى الأخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض الواضع وضعف بعض الواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في التسمية والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجاين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القصة مفوضة إلى ملك من اللائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي اللائكة الأرضية وقد دخلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يختار بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للإيجاز واللائكة الأرضية مددوم من اللائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد اللائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيم القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعرز والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام والأخبار الواردة في اللائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريد في حكمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد الولد بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه راجع الله تعالى في معناه ويكثر الاجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستهين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا بالنجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تتكلم أحدا من الفقراء إلا في أمشي

(١) حديث الأخبار الواردة في اللائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا اتضح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها اتضح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يلغون عن أمي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد يليل فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت نبت إلا وتحت ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكري وأبو بكر بن عثمان بن عبد الرحمن وكلاما ضيف للطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون السلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس ولترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديات بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من اللائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل بخلاء من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتتعى ذلك السحاب فأفرغ مائه في حرة الحديث.

الأفضل إلى ملك واحد ولم أفتر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولانهم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يجمع رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغافا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس ومامن واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلفل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما منا إلا له مقام معلوم - فذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مناهم في تعين مرتبة كل واحد منهم ونفله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحم الالها بالزحان الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطن بأصابع الرجل بطشا ضعيفا قتراحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك قتراحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والحبر فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك نرى الانسان يطبع الله مرة ويصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لاجمال المعصية في حقهم فلا جرم لا يصون الله مأمروهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكم منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لاختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لاجمال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جزمت الارادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا بإشارتك فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه إذا الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتعا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ؟ فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه - فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في طريقة واحدة بأن قنع جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة الله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حق للملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان الله تعالى في كل طريقة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذا البياض يفرق الضوء والسواد يحممه ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومنشبنا للأقذاء التي تنثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبا وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من قشع العين ولو طبق لم يصير فيجمع الأجفان مقدار ما تشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر فيكون شبك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدة غبار قد خلق

أوقاتك ، وهذه وصية نافعة لأن الكلمة تقع في سمع الريد الصادق كالجبة تقع في الأرض وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فخذ الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند البصير فيكون ناظرا إلى الله مصغيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحدقة كالصفة للمرأة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان والفتاب لمالم يكن لحدقة جن خلق له يدان قراء على الدوام يسبح بهما حدقيه ليصلهما من الغبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا نقفاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنفله كتابنا مقصودا فيه إن أمهل الزمان ومساعد التوفيق نسميه بحجاب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم قد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجنان ولا تقوم الأجنان إلا بالعين ولا العين إلا برأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالهواء والأرض والهواء والطور والنسيم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسحوات ولا السحوات إلا باللائكة فان الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الترتيب إلى منتهى الترتيب فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جاد إلا وليته وذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر (٢) وأن اللائكة يلغون الصلاة (٣) في أقطاب كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بطرفة واحدة جن على جميع مافي الملك والملكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيقبل العن بالاستغفار فصي الله أن يتوب عليه ويتجاوز ما وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال للسلطان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علواً رتبة وعندي آتي أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحمهم والآثار تبكي عليهم ، وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين إذ بانسباطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لملك وباتقاضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولوسد متنفسه لا حرق قلبه باقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فليكن في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهي كيف أشكرك ولك في كل شجرة من جسدني نعمتان أن لبت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه قد قتل علمه وحضر عذابه وجميع مذكراته يرجع إلى اللطم والشرب فاغتر ماسواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير مطعم .

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجبل والنفقة فاتهمموا بالجهل والنفقة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين العرتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلهم أو تستغفر لهم لم أجده أصلاً (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر تخدم في العلم (٣) حديث إن اللائكة يلغون الصلاة من حديث أبي هريرة لللائكة تلغ أحداكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

للشيخ أن يعتبر حال
للريدين ويتفرس فيه
بنور الإيعان وقوة العلم
والعرفه ما يتأتى منه
ومن صلاحته
واستعداده فمن
للريدين من يصلح
لتجديد النفس وأعمال
القضايا وطريق
الأبرار ومن للريدين
من يكون مستعداً
صالحاً لقرب وسلوك
طريق القربين المرادين
بمعاملة القلوب
والعاملات السنية
ولكل من الأبرار
والقربين مبادئ ونهايات
فيكون الشيخ
صاحب الاعتراف على
البواطن يعرف كل
شخص وما يصلح له
والعجب أن الصمراوي

واستلاء الشيطان . أما النعمة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس يجملهم لا يدون مايم
الخلق وسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة
للخلق مبنوة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد نفسه منهم اختصاصا به فلا يمد نعمة ولا
ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختفهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في
بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمافان ابتلى واحتمتهم شيء من
ذلك ثم نجوا ربما قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجمل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب
عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال الأولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى
البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه فند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس بوشكره وعده نعمة
ولما كانت رحمة الله واسعة نعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يمد الجاهل نعمة وهذا الجاهل
مثل البعد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقطع به منة فإن ترك ضربه على الدوام
غلبه البطرا وترك الشكر صار الناس لا يشكرون إلا المال القوي يتطرق الاختصاص إليهم من حيث
الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكوا بعضهم قهره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر
شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أخرس
ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أقطع الدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا
قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قاله أما تستحي أن تشكو مولاك وله
عندك عروض بخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً فرأى في المنام
كان قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة
هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فهدد عليه سوراً ثم قال فمك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو
فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السكك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه فقال له عظمي قال
لو لم تعط هذه الشربة إلا ينفد جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم قال لو لم
تعط إلا بملكك كله فهل كنت تركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فهذا بين أن
نعمه الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة
إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة . وقد ذكرنا النعم العامة فلند ذكر إشارة وجيزة إلى النعم
الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو آمن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه
فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يحترف به كل عبد
في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والعلم أما العقل فما من عبده تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد
أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به
للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر
واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كثر أمت الأرض فهو
يفرح به ويشكر عليه فإن أخذ الكثر من حيث لا يدري فيق فرحه بحسب اعتقاده وميق شكره لأنه
في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرها وأخلاقاً يقيمها وإغاييمها من
حيث يرى قسه بريئاً عنها فإذا لم يشتغل بنم الغير فيبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه
وابتلى غيره بالخلق السيء . وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخبايا أفكاره
ما هو منمرد به ولو كشف النطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لا تضح فكيف لو اطلع الناس كافة
فانذ لكل عبد غم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر من الله الجليل الذي
أرسله على وجه ميسوره فأظهر الجليل وستر التبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

يسلم الأراضي والفروس
ويسلم كل غرس وأرضه
وكل صاحب صنعة يسلم
منافع صنعه ومضارها
حتى المرأة تعلم قطبها
وما يتأتى منه من الفزل
ودقته وغلظه ولا يسلم
الشيخ حال للريد
وما يصلح . . . وكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم يكلم الناس
على قدر عقولهم
ويأمر كل شخص بما
يصلح له فمنهم من كان
يأمره بالاتفاق ومنهم من
أمره بالإمساك ومنهم
من أمره بالكسب
ومنهم من قرره على
ترك الكسب كأصحاب
الصفة فكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يجمع الدعوة لأنه سبب إثبات المحبة وإيضاح المحبة يدعو على الإطلاق ولا يخص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسهه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخاطبة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فإن رسول الله

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يشرف بها كل عبد إماما مطلقا وإماما في بعض الأمور فلنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلدته أو رفيقه أو أقربه أو عزه أو وجهه أو في سائر محابه أمور لو سلب ذلك منه وأعطى ما يخص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لأنني وصحيفا لا مريضيا وسليما لا مريضيا فان كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فان هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل أمور لا يبدلها بأحوال الأدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما يخص به أحد من الخلق أولا يبدله بما يخص به الآخر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإماما في أمر خاص فاذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فليتنظر إلى عدد القبولين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوي ديناه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة ينفقها يستدر إليها بأن في الفساق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا » (١) فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفقر عما يخص به وجد الله تعالى على نفسه نعم كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيما بسطيل به في دينه ثم في ديناه إقبالا

فليتنظر إلى من فوقه ورعا وليتنظر إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » (٢) وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو التقي الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » (٣) وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله » (٤) « قال رسول الله » ليس من آمن لم يتغن بالقرآن » (٥) وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى » (٦) وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه الشئ بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الفناء الذي لا غناء بعده ولا فقر أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا فقر بهم ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا وهو أشبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله البخاري في التاريخ من حديث رجاء القنوي بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أغنى أفضل مما أوتي قد صغر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحته ووارد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبراني من حديث عتبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه وقد تقدم.

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أعتت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك هكذا الصحة والأمن
وأصبحت أcha حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق المبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالصاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال « من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(١) » ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصلوهم إلى النعيم القيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل نعم نعم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علك بل عن عشر عشر علك لم يأخذها وذلك لرعايته أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكاله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذها لعله بأن للعلم دأمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تنصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بنعمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذا خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتغنى حتى إذا انعدمت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشباب الشبق الغنى حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في حب قائم وعناء دائم وكل ذلك باعتراره ببلدة النظر إليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فكذا وقت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن يقول إن العرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن القبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم العرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم القبل يفضي إلى الألم في الآخرة فليقرأ للعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى - ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون - فإذا نمت أسد طريق الشكر على الخلق لجهاهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة . فإن قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فمساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لاتعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاداء معها فببيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار للرضى والمقابر وللواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار الرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بيلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجنة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فإن يوم القيامة يوم التغايب فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فلما أعظم غنني إذ ضيعت بعض الأوقات في الباحات، وأما العاصي فببيله ظاهر فإذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يغلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطيف ذلك أو كثر وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اغتد ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترسل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناه للباطلين بلقمة تؤكل عنده ويرفق بوجود منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا يقبته سلوك طريق للتقنين فافتن وأقن وبقي في خطة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك مغفرة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل إلى الإسهال في كل شيء من الأتقاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزوّد من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب العاقلة لتشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكروا وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمغفرة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلّا في عنقه ويقيم في لحده ثم يقول رب ارجعوني لأعمل صالحاً ثم يقوم ويقول يارب ربي قد أعطيت مأسألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم قبل زوالها . زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدها بالشكر وفي الخبر : ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ^(١) فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر (بيان وجه اجتناع الصبر والشكر على شيء واحد)

لذلك نقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فإمعن الصبر إذ وإن كان البلاء موجوداً فإمعن الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بآثبات النعمة يوجب القول بآثبات البلاء لأنهما متضادان فقد البلاء نعمة وقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالتزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يصيب عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويغسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالعبد من الله تعالى إمامة وإمابداً وأما في الدنيا فالكفر والعصية وسوء الخلق وهي التي تنفض إلى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا العصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف أنه عاصي فعليه ترك العصية بل كل بلاء يقدّر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الساء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الألم وإتمام الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فإن النفي مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجاج الأعور .

دائرة الفتور لما يستغنى
الشيخ عن الاستعداد
من الله تعالى والتضرع
بين يدي الله بقلبه إن لم
يكن بقلبه وقلبه فيكون
له في كل كلمة إلى الله
رجوع وفي كل حركة
بين يدي الله خضوع
وإمعاد خلت الفتنة على
الفرورين المدعين للقوة
والاسترسال في الكلام
والخالطة لقلة
معرفة صفات النفس
واغترارهم ببسر من
للوهبة وقلة تأديهم
بالشيوخ . كان الجنيد
رحمه الله يقول لأصحابه
لو علمت أن صلاة
ركعتين لي أفضل من
جلوسي معكم ما جلست
عندكم فإذا رأى
الفضل في الخلوة غلغلو

والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الحيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحمي عبده للؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعم في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كال نعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قد صدها نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو عرف السوء واطلع عليه لطال ألمه وحقد وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالحاصل الحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهاتته ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لاهمالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض السكبان فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق التائب بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من العصية كقطع يده نفسه ووجهه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتممون قدر نعمه ولا أكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تشكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبدولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على البتلى أو على غير البتلى فاذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قامت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد ينفذ به من وجه ويخرج به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاعتصام والشكر من حيث الفرح وفي كل قهر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتنور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تنهاى فلو مضى الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويجزها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتي

(١) حديث إن الله ليحمي عبده الدنيا الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في
الجلوة يجلس مع
الأصحاب فتكون جلوته
في حماية خلوته وجلوته
مزيدا لخلوته وفي هذا
سر وذلك أن الأذى
ذو تركيب مختلف فيه
تضاد وتناظر على
ما أسلفنا من كونه
مرتددا بين السفلى
والعلوى ولما فيه من
التناظر له حظ من
الفتور عن الصبر
على صرف الحق ولهذا
كان لكل عامل
فترة والفترة قد تكون
تارة في صورة العمل
وتارة في عدم الروح في
العمل وإن لم تكن في
صورة العمل ففي وقت
الفترة للمريد
والسالكين تضييع

واستروح لنفس
وركون إلى البطالة فن
بلغ رتبة الشيخة
انصرف قسم قترته إلى
الحلق فأفلق الحلق
بهم قترته وما ضاع
قسم قترته كضياعه في
حق الريد بن فالمرید
يعود من الفترة بقوة
الشدة وحدة الطلب إلى
الإقبال على الله والشيخ
يكتسب الفضيلة من نفع
الحلق بقسم قترته
ويعود إلى أوطان
خلوته وخاص حاله
بنفس مشربة أكثر
من عود الفقير بحدة
إرادته من قترته فيعود
من الحلق إلى الخلوة
منزع الفتور بقلب
متطش وافر النور
وروح متخلصة عن

الأعضاء

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه فالمصلحة غذا يتعمنون لو كانوا عجمانيين أو صيانيًا ولم يتصرفوا بقولهم في دين الله تعالى فأسمن شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأت ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذاه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أنهم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد قد روى «أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تنهم الله في شيء فضاء عليك (١)» «ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى بالسراء رضى وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيراً له (٢)» الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار التورور ومواناة النعم على وفق الراد من غير امتزاج بلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها حتى يصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب ازعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنًا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالحلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزن إلى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الواحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجابة بمن يتولى حجاتك مجاناً أو يسقيك دواءً نافعاً بشما مجاناً فانك تألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهًا حسنًا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبلاء عليه لأنه يورثه الأذى بمنزل لا يمكنه الإقامة فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نوره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا محصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب الصية أكبر من الصية لم يتصور منه الشكر على الصية. وحكي أن أعرابياً عزى ابن عباس على أبيه فقال :

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بن زياد في أوله وفي إسناده ابن أبي عمير (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحه عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ولقناني في اليوم واليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمدته وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار
قادمة بمحنة شغفها إلى
دار القرار . ومن
وظيفة الشيخ حسن
خلقه مع أهل الإرادة
والطلب والزول من
حقه فيما يجب من
التبجيل والتعظيم
للشايخ واستعماله
التواضع . حكى الرقي
قال كنت بمصر وكنا
في المسجد جماعة من
الفقراء جلوساً فدخل
الزقاق فقام عند
أسطوانة يركع فقلنا
بفرغ الشيخ من
صلاته وتقوم نسلم عليه
فلما فرغ جاء إلينا وسلم
علينا فقلنا نحن كنا
أولى بهذا من الشيخ
فقال ما عذب الله

اصبر نكن بك صابرين فائما صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعدد والله خير منك العباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصبر به»^(١) وقال عليه السلام «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا». وقال عليه السلام «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا أضل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كريمته جزاؤه الخلود في جاري والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال عليه السلام «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره»^(٢) وروى رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى ينتلي يلاء في جسمه فيلغها بذلك»^(٣) وعن خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه قلنا يا رسول الله ألا ندعو الله تستنصره لنا فجلس عمرا لونه ثم قال «إن من كان قلبكم يؤتى بالرجل فيحضره في الأرض خيرة ويحيا بالنفسار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرف ذلك عن دينه»^(٤) وعن علي كرم الله وجهه قال : أئما رجل حبسه السلطان ظلمات فهو شهيد وإن ضربه فبات فهو شهيد. وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون الموت وتمرون للخراب وتغرصون على ما خفي وتفرون ما يبق الأحياء الكروهاة الثلاث الفقر والمرض والموت. وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا أو أراد أن يضافه صب عليه البلاء صبا ونجبه عليه نجا فإذا دعا قالت لللائكة صوت معروف وإن دعا ثانيا قال يارب قال الله تعالى ليك عبدى ومحمدك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أودفت عنك ما هو خير وأدخرت الله عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جرى بأهل الأعمال فوقوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصبر به منه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى ينتلي يلاء في جسمه فيلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن البدي من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية الأوزاعي ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عنه خالد إلا أنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده مسمى جده اللجلاج بن سليم قاله أعلم وطى هذا فإنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده قاله أعلم (٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث تقدم.

قلبي بهذا قط يعني
ما تحيت بأن أحترم
واقصد. ومن آداب
الشيخ الزول إلى
حال اللريدين من
الرفق بهم وبسطهم.
قال بعضهم: إذا رأيت
الفقر الله بالرفق ولا
تلقه بالعلم فإن الرفق
يؤنس والعلم يوحش
فإذا فعل الشيخ
هنا انتهى من الرفق
يتدرج للريد بركة
ذلك إلى الاستعاضة
بالعلم فيعامل حينئذ
بصرع العلم. ومن
آداب الشيخ
التعطف على الأصحاب
وقضاء حقوقهم في
الصحة والمرض ولا
يترك حقوقهم اعتادا
على إرادتهم وصدقهم

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تفرض أحمادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب » فذلك قوله تعالى - إنا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكاني من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يا رب العبد المؤمن يطيعك ويعتنب ماصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحتري عليك وظل ماصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقيني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقيني فأجزيه بسيئاته - وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجزيه ساءا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف القرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » غفر الله لك يا أبا بكر ألت تعرض ألت يصيبك الأذى ألت تحزن فهذه مما تجزون به (٢) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال » إذا رأيت الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما ساء ما ذكرناه فتحنا عليهم أبواب كل شيء - (٣) » يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلما هم تركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم » إذا أراد الله بعد خيرا محمل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم » وجهه ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فاقه أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فاقه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال » ما يرجع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يصاويه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضراب بن عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجزيه - قال أبو بكر الصديق كيف القرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » غفر الله لك يا أبا بكر ألت تعرض ألت يصيبك الأذى ألت تحزن فهذه مما تجزون به (٣) حديث عقبة بن عامر إذا رأيت الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعد خيرا محمل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

بعضهم لا يضيع
حق أخيك بما
بينك وبينه من
المودة . وحكي عن
الجريري قال وافيت
من الحج فابتدأت
بالجنيد وصلت عليه
وقلت حتى لا يثنى
ثم أتيت منزلي فلما
صليت الفداة التفت
وإذا بالجنيد خلقي
قللت ياسيدي إنما
ابتدأت بالسلام عليك
لكيلا تنعني إلى ههنا
فقال لي يا أبا محمد هذا
حقك وذلك فضلك .
ومن آداب الشيوخ
أنهم إذا علموا من
بعض المترشدين ضعفا
في مراغمة النفس
وقهرها واعتاد صدق
الزعمة أن يرققوا

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو فطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلاة الرحم (١) . وعن أبي الهرداء قال : توفي ابن لسلیمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فحبسا بين يديه في زى الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذراهما استصعد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الجادة فأنيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أمعلت أن لا بد للناس من الطريق . قال فلم تحزن على ذلك أمعلت أن اللوت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على وله بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يا بني لأن تكون في ميزان أحب إلى من أن أكون في ميزانك . فقال يا أبت لأن يكون ما أحب أحب إلى من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفها الله وأجر قد ساقه الله ثم زل فضلى ركنين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن الباركة أنه مات له ابن فعزاه عجوس يعرفه . فقال له ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يخطه الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن الباركة كتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله لينلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمضى على الأرض وما له ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى المرضى بأبواب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فصر فواذلك فجىء بالفتش ففتشت الشجرة حتى بلغ الفتش إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن صدقت منك أنه ثمانية لأعحونك من ديوان النبوة فضض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بمصيبة ففرق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رجحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط سخط السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى مرضي ، فقلت لعمى ما تمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد : وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلى كالأشكوك إلى ملائكتي إذا صدعت مساوئك وفضاحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجليل في الدنيا والآخرة .

به وبوقوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير وما دام العبد لا يخطئ حصرم الرخصة فهو حرم إذائت وخالط الفقراء وتدريب لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان المزة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف إبراهيم الصائغ وكان لأبيه نعمة فاقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلائي فربما كان يقع بيد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو القدي منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدا ابتغاه وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو القدي منكر الحديث .

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لكل تحول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء .
 فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعبد في دعائه من
 بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(١) » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « بنا آتيا في الدنيا حسنة
 وفي الآخرة حسنة ^(٢) » وكانوا يستعيذون من شجاة الأعداء وغيرها ^(٣) . وقال على كرم الله وجهه
 اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية ^(٤) » وروى
 الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما
 أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين ^(٥) » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك
 فحافية القلب أهل من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شرف فيه العافية مع الشكر
 فكمن من نعم عليه غير ما كر . وقال مطرف بن عبد الله لأن عافى فأشكر أحب إلي من أن أتبلى فأعبر
 وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلي ^(٦) » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل
 واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إمامي الدنيا أوفى
 الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تعالى النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من
 البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه
 على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يصير على الخلق كلهم
 فينجون وأكون أنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال البلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون الحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بملة الحصر
 فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعكم الكذاب ، وأما محبة الإنسان
 ليكون هو في النار دون صائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تطلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه
 حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب
 عليه كان حالة لا حقيقة لها فسامحته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبه وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث
 بشر بن أبي أرطاة بلفظ أجرتنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث
 عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة
 (٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتيا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
 عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول
 اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا آتيا الحديث (٣) حديث كان يستعبد من شجاة
 الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال صلى الله عليه وسلم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم
 لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما
 قال مع رجلا وله والنسائي في اليوم واليلة من حديث على كنت ساكنًا ثم بلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فإن كان بلاء فصرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن
 صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة بإسناد
 جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلي ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى
 الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلًا

النعمة فيجب أن نرفق
 به وتؤثره على غيره .
 ومن آداب الشيوخ
 التنزه عن مال المرید
 وخدمته والارتفاق
 من جانبه بوجه من
 الوجوه لأنه جاء الله
 تعالى فيجعل نفسه
 وإرشاده خالصا لوجه
 الله تعالى فما يسدى
 الشيخ للمريد من
 أفضل الصدقات .
 وقد ورد ما تصدق
 متصدق بصدقة أفضل
 من علم يثبه في الناس
 وقد قال الله تعالى
 تنزيها على خلوص
 ماله وحراسته من
 الشوائب . إنما نطمعكم
 لوجه الله لا نريد منكم
 جزاء ولا شكورا فلا
 ينبغي للشيخ أن يطلب

يستلذ سماعه ولا يحول عليه كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها فتحنه فقال ما ألقى يمتعني.
ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لقمته لأجلك فسمع سليمان عليه السلام
فاستدعاه وعاتبه فقال يابني الله كلام العشاق لا يحكي وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومغنا أن أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يريد بل
لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل
به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة
إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال حب المال إذا سلم درهم في درهمين فهو يحب الدرهمين بترك الدرهم
في الحال . الثاني أن يصبر رضاء عنده مطلوب من حيث إنه رضاء فقط ويكون له رضاء في استعمار من صابره
منه تريد تلك اللذة على قدرته في مشاهدته مع كراهته فند ذلك تصوّر أن يريد ما فيه الرضا فلا ذلك قد انتهى حال
بعض المحبين إلى أن صارت قوتهم في البلاء مع استعمارهم رضاء الله عنهم أكثر من قوتهم في العافية من غير شعور
الرضا فهو لاء إذا قدر وارضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يمدد قوتها في غلبات
الحب لكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضاها حالة أخرى وردت على القلب فالت به
عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء
فنسأل الله تعالى لأن يفعله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

(بيان الأفضل من الصبر والشكر)

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون
هما سيات وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن
التحصيل فلامعني للتطويل بالنقل بل البادرة إلى إظهار الحق أولى فتقول في بيان ذلك مقامان : المقام الأول
البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن
يخاطب به عوام الخلق قصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن
يتممه الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والنظر للشفقة لا ينبغي أن تصلح العصبى الطفل
بالطيور السان وضروب الحلوات بل بالبلبن اللطيف وعليها أن تخرج عنه أطايب الأطعمة إلى أن يضرب حتملا
لها بقوته ويشارك الضعف الذي هو عليه في بنيتة فنقول : هذا المقام في البيان يأتي البحث والتفصيل ومقتضاه
النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة
في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل
كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » (١) وفي الخبر « يؤتى بأشكر أهل
الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزيك
كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كلا أنصت عليه فشكر واجتلتك
فصبرت لأضعن لك الأجر عليه فيعطى أضاعف جزاء الشاكرين (٢) وقد قال الله تعالى - إنما
يؤتى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (٣) »

على صدقته جزاء إلا
أن يظهر له في شيء
من ذلك علم يرد عليه
من الله تعالى في قبول
الرفق منه أو صلاح
يتراءى للشيخ في حق
للريد بذلك فيكون
التلبس بالله والارتفاق
بخدمته لمصلحة تعود
على للريد مأمونة
الفائسة من جانب
الشيخ قال الله تعالى
- يؤتىكم أجوركم ولا
يسألكم أموالكم
إن يسألكموها
فبعضكم تبخلوا
ويخرج أضاعفكم -
معنى يحفكم أي يحمدكم
ويلج عليكم . قال
قاعدة : علم الله تعالى
أن في خروج المال
إخراج الأضغان وهذا

ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل (١) حديث من أفضل
ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين
ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر
الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض البالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حج السالكين وجهاد للرأفة حسن التبعل» (١) وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كعابد الوثن» (٢) وأبدا للشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه» (٣) وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً» (٤) وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام» (٥) وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغني، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكتفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لمافي صلاح دينهم . المقام الثاني هو البيان الذي قصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والابضاح فنقول فيه كل أمرين مبينين لا يمكن للوازنة بينهما مع الإيهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن للوازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الأحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حج للسالكين وجهاد للرأفة حسن التبعل للحديث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فلا يدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه التماس بن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مضمن الخمر ورواه بلفظ شارب الخمر بن أبي أسامة من حديث عبداللّٰه بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصماني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً وقال لم يروه إلا شعيب بن خاله وهو كوفي ثقة ، وروى البراز من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن نعم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريح أبواب الجنة خرقه ، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده إن ما بين الصراعين من مصاريح الجنة لكأين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصري وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين الصراعين من مصاريح الجنة مسيرة أربعين سنة ولبيان على يوم وهو كظيف من الزحام .

تأديب من الله الكريم
والأدب أدب الله .
قال جعفر الخلدی جاء
رجل إلى الجنيد وأراد
أن يخرج عن ماله
كله ويجلس معهم
على الفقر فقال له الجنيد
لا تخرج من مالك
كله احبس منه مقدار
ما يكفيك وأخرج
الفضل وتوفت بما
حبست واجتهد في
طلب الحلال لا تخرج
كل ما عندك فاست
آمن عليك أن
تطالبك نفسك وكان
النبي عليه السلام إذا
أراد أن يعمل عملاً
ثبت وقد يكون
الشيخ يعلم من حاله
للريد أنه إذا خرج
من الشيء يكسبه من

والنقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه القامات تنظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر القامات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض لاح لناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أبواب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف . أفضل المعارف علوم الكاشفة وهي أرفع من علوم العامة بل علوم العامة دون العامة لأنها تراد للعامة فثابتها إصلاح العمل وإنما أفضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان عليه عناية فنه . فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن يكشف . جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم الكاشفة معرفة الله سبحانه وهي القاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للمعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وختم بالإضافة إليها فإنها إنما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نعمها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكما كانت الوسائط بينهما وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل . وأما الأحوال فتضي بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا ظهر وصفاته واضع له حقيقة الحق فاذا نائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم الكاشفة ، وكما أن تصفية الرأفة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال الرأفة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لأحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكل عمل إيمان يجلب إليه حالة مائة من الكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول العصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول للطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن الفنى الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء القسرك من علوم الكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا الدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر شهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمرضى الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينفع به بل حقه أن ينظر في الهلاك الذي استولى عليه والشمع الطامع من جملة للهلكات ولا يزال صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه . وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع للهلكات فليرجع إليه فاذا باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للطلق فيه خطأ

الحال ما لا يتطلع به إلى المال فينتد عجوز له أن يفسح للرديد في الخروج من المال ففسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض الريدين مكروها أو علم من حاله أعوجاجا أو أحسن منه بدوى أو رأى أنه داخله هيب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه الذمة مجلا فحصل بذلك الفائدة لكل فهذا أقرب إلى الداراة وأكثر أثرا لتألف

القلوب وإذا رأى من
للريد تقصير في خدمة
نذبه إليها عمل تقصيره
ويسفو ■ ويحرضه
على الخدمة بالرفق
واللين وإلى ذلك نذب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما أخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن أبي قال أنا أبو الفتح
الكرخي قراءة عليه
قال أنا أبو نصر الترمذي
قال أنا أبو محمد الجراحي
قال أنا أبو العباس
المجوسي قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال ثنا حنيفة
قال ثنا رشدين بن
سعد عن أبي هلال
الحولاني عن ابن
عباس بن جليل
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للباطن ومزكية لها عن خبايا الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام وصحابها أو سائح أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) والقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع المهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولزج الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل **المعرفة** يجوز أن تقابل للمعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبهذا التناسب يظهر الفضل ومهما قولت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة المنيين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى المني من الله وهما معرفتان متلازمان متساويتان هذا إن اعتبرت في البلاء والصاب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن العصية وفيهما يتعد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو القصد منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصبر به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذن مجازي الصبر ثلاثة : الطاعة والعصية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورية كالصينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما الصينان فصر الأعمى عنهما بأن لا يظهر التشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى لا يترخص بسبب العمى في جنى المصاوي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على مصيبة ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يغلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجلية لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جبل فصر كان ما كرا لنعمة الصينين وإن أبجع النظر كفر نعمة الصينين قد دخل الصبر في شكره وكذا إذا استعان بالصينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى هجاب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة التسبب عنه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويتركه كلعن على وضئ وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت ففوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد القفر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في العصية فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

(١) حديث النهي عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة وصحابها أو سائح الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد اللطيف بن ربيعة إن هذه الصدقة لا تعمل لنا إنما هي أو سائح القوم وإنما لا تعمل الحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أو سائح الناس .

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال « كل يوم سبعين مرة » وأخلاق الشاكر مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته في كل ما أمر وتنبوا وأتوا وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار للردين فيها يكاشفون به ويمنعون من أنواع للنسح فسر الريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحضر الشيخ في نفس للرديما بحمد في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق المادات يعرفه

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع بالباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين
أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين
أبعاضها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على مصيبة بل يصرفه إلى التمتع بالباح فالصبر هنا أفضل
من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني للمسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله
إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نعمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي
لا محالة قوة والغني أبسع نعمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على الباح والباح فيه مندوحة عن الحرام
ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه
القوة التي تصدر عنها الاقتصاد في التمتع على الباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فإن الأعمال
لا تتراد إلا لأحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والایمان فسادله على زيادة
قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار
إنما أريد به هذه الرتبة على التحصر لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها
والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المصيبة لأن يصرفها
إلى الطاعة ، فاذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه
العامة وإلى هذا للغنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث مثل عن الصبر والشكر أيهما أفضل
فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشرط ما عليهما
فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتتمتعها وتقددها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم
صفته وتقبضها وتزهبها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزهبها
أتم حالا ممن منع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جهة أقسام الصبر والشكر في القسم
الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغنى
الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف
أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير
الصابر على الغنى الشاكر ومهما لاحظت المأني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهها
في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر وذلك
هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يسلك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات
أو يسلكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكين وإنما ينتظر حاجه تسنح حتى يصرفه إليهم وإذا
صرف لم يصرفه لطلب جاء وصيت ولا تقليد منه بل أداء لحق الله تعالى في فقد عبادته فهذا أفضل من الفقير
الصابر ، فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك
يستشعر ألم الصبر فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك ببلدته في القدرة على الانفاق فاعلم أن الذي
نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطع عنه
نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطاوعا بعينه بل لتأديبها
وذلك بضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التأديب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على
الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان
مؤلما في حقه لدينة عنده كما يصير التلم عند الصبي العاقل للذي أوقد كان مؤلما له أو لا ولكن لما كان
الناس كلهم إلا الأقلين البداية بل قيل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته
أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراد من عموم الحلق ، فإذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء
من هذا يشغل عن
الله ويسد باب الزيد
بل يعرفه أن هذه نعمة
تشكر ومن ورائها نعم
لا تحصى ويعرفه أن
شأن المرید طلب التمتع
لأن النعمة حتى يبقى سره
محفوظا عند نفسه
وعند شيخه ولا يذيع
سره فإذاعة الأسرار
من ضيق الصدر
وضيق الصدر
الوجب لإذاعة السر
يوصف به الفسوان
وضغفاء العقول من
الرجال وسبب إذاعة
السر أن الإنسان قوتين
أخنة ومعطية وكلتاها
تتشوف إلى الفعل
المختص بها ولولا أن
الله تعالى وكل للمعطية
بإظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق ففصل فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذا الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فإن حياة العبد من تابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من الشكر شكر والمعرفة بظلم حلم الله وكشف ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وهو هبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسايط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» (١) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستغظام صغيرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كأورد في الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسأله عن حاله فقال إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني فاتفق أنهما زوجتا من فليقة فافتاقلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمنا فضلنا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فضلنا طول الليل فندمنا سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لولم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذا ن لاوقوف على حقائق الفضلات لا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائهم والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه للعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدمهم عن التعرض لأنتمته والتهدف لسخطه ونعمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرق واللفظ إلى جنته « والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[أما بعد] فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء مخفوقا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الألم مع كونه مخفوقا بلطائف السموات ومجائب اللذات إلا بسياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذن من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادها وتمازجها ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

ما ظهرت الأسرار
فكامل الخلق كلها
طلبت القوة الفعل
قيدها ووزنها بالعقل
حتى يضعها في مواضعها
فيجل حال الشيوخ
عن إذاعة الأسرار
لرزانة عقولهم وينفي
للريد أن يحفظ سره
من به في ذلك محته
وسلامته وتأيد الله
سبحانه وتعالى له
بتدارك للريدين
الصادقين في مورد
ومصدرهم .

[الباب الثالث]

والحمسون في حقيقة
الصحة وما فيها من
الحير والشر [
للتقوى للصحة وجود
الجنسية وقد يدعو
إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يجلب به الرجاء .

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سرية الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يشعر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى متظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى مسمى ذكراً وتذكراً وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال مسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً وإنما مسمى وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك مسمى انتظاراً وتوقفاً فإن كان للنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب مسمى خوفاً وإشفاقاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لغة في القلب وإرتياح مسمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو إرتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب للتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه قاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظاراً مع انحراف أسبابه واضطرابها قاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء قاسم التني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو زول للطر وأخاف انقطاعه وقد علم أن باب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جازية تجري قليب الأرض وتطهيرها ويجري حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب للستر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبعة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقفاً ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد للفرجة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير غفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات للفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته مسمى انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرفوعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه مسمى انتظاره حقاً وغروراً لارجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تلعب الأمطار ولا يتمتع أيضاً مسمى انتظاره تمنياً لارجاء ، فإذا نسي اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص الأوصاف فالدعاء بأعم الأوصاف كمال جنس البشر بعضهم إلى بعض والدعاء بأخص الأوصاف كمال أهل كل فئة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك كمال أهل الطاعة بعضهم إلى بعض وكما أهل العصية بعضهم إلى بعض فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصلابة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليتعقد الإنسان نفسه عند الليل إلى صفة شخص وينظر ما الذي يميل به إلى محبته ويرى أحوال من يميل إليه بعينان الشرع فان

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى ثيبته على ذلك إلى الموت وحسن الحانة للفضية إلى الغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على اللواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب الغفرة إلى الموت وإن قطع عن بند الإيمان تمهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر للغفرة فانتظاره حق وغرور قال صلى الله عليه وسلم «الأحقق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١)» وقال تعالى - غلغف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - غلغف من بعدهم خلف ورتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيفغر لنا - وذنم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلباً - فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي تحقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تصغير حقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويشهى التوبة ويشاق إليها تحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يغضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يحزم على التوبة والرجوع فرجاؤه الغفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يمهده بسقى ولا تنقية . قال مجي ابن معاذ من أعظم الاغترار عندى النجاشي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بفير طاعة وانتظار زرع الجنة يئذ النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بفير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الافراط :

رجو النجاة ولم تملك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة آتمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تتميز الجهد للقيام بيقية الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه فلا يزال يعمل صدق الرجاء على تفقد الأرض وتمهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تمهدها أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاهي اليأس واليأس يمنع من التمهيد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فترك لا محالة تفقد الأرض والتمسب في تمهدها والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال واللواظبة على الطاعات كما تنقلب الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتمتع بمناجاته والتلطف في التعلق له فان هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فإن كان لا يظهر فليست تدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والفوز في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل

(١) حديث الأحقق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة
فليشتر نفسه بحسن
الحال قد جعل الله
تعالى مرآته مجلوة
يلوح في مرآة أخيه
جمال حسن الحال وإن
رأى أفضاله غير مسددة
فليرجع إلى نفسه باللاءة
والإهام فقد لاح له في
مرآة أخيه سوء حاله
فبالجدير أن يخرجه
كفراره من الأسد
قائما إذا اصطحبا
الزما داظلة واعوجاجا
ثم إذا علم من صاحبه
الذي مال إليه حسن
الحال وحكم لنفسه
بحسن الحال طالع ذلك
في مرآة أخيه فليعلم أن
الميل بالوصف الأعم
مركوز في جبلته والميل
بطرفه واقع وله

وبدل على إيماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحسنت إليه قال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراد بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور^(١)».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له والحب يلبس الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء ثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسياً في وقت الموت قال تعالى - لا تقنطوا من رحمة الله - فخرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء^(٣)» ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في التزع فقال كيف تجدك فقال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتماع في قلب عبد في هذا الوطن إلا أعطاه الله مارجاً وأمنه مما يخاف^(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «أخرجته الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا بأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك» وقال سفيان: من أذنب ذنباً فسلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عفو رحيم قال - وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قومًا بوراً - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره قال لقنه الله حجة قال يارب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك^(٥)» وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يدين الناس فيسامح النفي ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا^(٦)» فغفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماء النبي ﷺ الخبر ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير فقال بالرسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن جابر من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في التزع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والسناني في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يدين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك بما يورثون عنه واتفقوا عليه من حديث حذيفة

بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكون وركون فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص ويصير بين التصاحيب استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصفة لله إلا العلماء الزاهدون وقد ينفسد الريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقتهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بحسبة الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين

وأقاموا الصلاة وأتوا بما رزقناهم سرا وعلاية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم فهبط جبريل عليه السلام قال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي غفر عليم ورجام وشوقهم (١)» وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحب من محبي وخبيثي إلى خلقي فقال يارب كيف أحبك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجليل واذكر الآثي وإحساني وذكركم ذلك فاتهم لا يعرفون مني إلا الجليل (٢)» ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يذكر أبواب الرجاء فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك قلت أردت أن أحبك إلى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكرم بعد موته في النوم قبيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين يديه وقال يا شيخ السوء فقلت «فقلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا حدثت عنك قال وما حدثت عنى فقلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء وكنت أظن بك أن لاتخذني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فأبست ومشي بين يدي الولدان إلى الجنة فقلت يا لها من فرحة - وفي الخبر «أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويستك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها (٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فأتني بعبدي قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشي ويلتفت إليه ورائه فيقول الله عز وجل إلى أي شيء تلتفت فيقول لقد رجوت أن لاتعبدني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به إلى الجنة (٤)» فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه.

(بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء وبغلب)

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في اللواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما العاصي للفرور التمني إلى الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب مومما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل للفرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب للبهجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع الملل معالجا لكل علة بما يضاهاها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل

وأبي هريرة بنحوه (١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة ولخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحب من محبي الحديث لم أجده أصلا وكأنهم من الاسرائيليات كالذي قبله (٣) حديث أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله واليهي في الشعب وضمه من حديث أنس .

حقيقة الصبغة
لاكتسب من طريقهم
التصور في الطلب
والتيخلف عن بلوغ
الأرب فليتببه الصادق
لهذه الحقيقة ويأخذ
من الصبغة أصنى
الأقسام وينذر منها
مايسد في وجهه للرام
بعضهم هل رأيت
شرايط الإيمان تعرف
ولهذا المعنى أنكر
طائفة من السلف
الصبغة ورأوا الفضيلة
في العزلة والوحدة
كأبراهيم بن آدم
وداود الطائي وفضيل
ابن عياض وسليمان
الخوأس وحكي عنه
أنه قبل له جاء إبراهيم
ابن آدم أمانتاه قال
لأن ألقى سببا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها فإذا حاز الوسط إلى أحد الطرفين عوج بما رده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل بالالتفة في التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب فاما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويردهم بالسكينة ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعظ إلا استئالة القلوب واستنطاق الخلق بآلتها كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد التهمكون في ظلماتهم تهاديا قال طي كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرى الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كالآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفنين وغير ذلك مما كان لا ينشأ بفقد غرض مقصود وإنما كان يغوت به مزية جمال فالنانية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تموتهم الزايد والزاي في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياتهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يذهب بعد للموت أبدا مثلا أو لا يحترق أصلا فليست كراهمهم لعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتعق لئولت نادرهم لا يتماء إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجعلها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدير الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وستنها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية للدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار لما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يالي إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعد لها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلال من النار ومن تحتهم ظلال ذلك يخوف الله به عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأندرتكم نار اتظنى لا يَصْلَاهَا

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يالي الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب لي من أن ألقى إبراهيم بن آدم قال لأنني إذا رأيته أحسنه كلامي وأظهر قضي باظهار أحسن أحوالها وفي ذلك القنطة وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها وهذا واقع بين المتصالحين إلا من عصمه الله تعالى . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأشقي الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - (١) » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال « أمي أمة مرحومة لا تعذب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب قيل هذا فداؤك من النار (٢) » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فداؤك من النار فيلقى فيها (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار (٤) » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم (٥) » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب أجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيري فأوحى الله تعالى إليهم هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع » وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأييت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأييت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم (٧) »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والعملي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سميد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمة مرحومة لا تعذب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب أجعل حسابهم إلى الحديث لم أقص له على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجالهم رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف.

مسلمان بن الأشعث
قال ثنا عبد الله بن
مسلمة عن مالك عن
عبد الرحمن بن أبي
صهبة عن أبيه عن
أبي سعيد الخدري
قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« يوشك أن يكون
خير مال المسلم غنما يتبع
بها شمس الجبال
ومواقع القطر يفر
بدينه عن الفتن » قال
الله تعالى إخبارا
عن خليله إبراهيم
- واعتزلكم وما تدعون
من دون الله وأدعو
ربي - استظهر بالعزلة
على قومه . قيل :
العزلة نوعان فريضة
وفضيلة فالعريضة
العزلة عن الشر وأهله

وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم الضو قال جبريل عليه السلام أتدري ما تفسير يا كريم الضو هو إن عفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ما علم النعمة؟ قال لا قال دخول الجنة (٢)» قال الطاء قد آم الله علينا نعمته برضاه الاسلام (٣) إذ قال تعالى - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فعمل أن له ربا يفر القنوب ويأخذ بالذنوب أشهدكم أني قد غفرت له (٤)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها (٥) ما استغفرتي ورجائي (٦)» وفي الخبر «لو لقيني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٧)» وفي الحديث إن (٨) يرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه وإلا كتبها سيئة (٩) وفي قسط آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير على هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات تلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي وإن تاب عنه قال عي عنه قال فإن عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فإن تاب قال عي من صحيفته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يعمل من القفرة حتى يعل العبد من الاستغفار فإذا أمم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها (١٠) سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا أمم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل (١١) وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم الضو قال جبريل تدري ما تفسير يا كريم الضو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم وللوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فعمل أن له ربا يفر القنوب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبداً أصاب ذنباً قال أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذي من حديث أنس يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لو لقيني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركني شيئا لقيته بمثلها مغفرة والترمذي من حديث أنس الذي قبله يابن آدم لو لقيني الحديث (٦) حديث إن لللك يرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه الحديث قال وللفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير على هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي فإن تاب عنه قال عي عنه قال فإن عاد الحديث وفيه إن الله لا يعمل من التوبة حتى يعل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلو غير العزلة فالخلو من الأغيار والعزلة من النفس وما تنسحب إليه وما يشغل عن الله فالخلو كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخطاة فمن لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما سلم إلا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصمت وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليزوم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

«يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع» أين أنا إذ امت قتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : نعم معي ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينيك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحق هاتين (١) . وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يارسول الله من بلى حساب الخلق » قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه « قال نعم قتبسم الأعرابي قال صلى الله عليه وسلم ضحكك بأعرابي قال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب صامح ، قال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي (٢) » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولأن عبدا هدمها حجرا أجبره أن أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل - الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة (٣) » « وللمؤمن طيب طاهر (٤) » « وللمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة (٥) » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٦) » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فانه أصل
والسلام عارض ولا
يتكلم إلا بحجة غطر
الصحة كثير يحتاج
البد فيه إلى مزيد
علم والأخبار والآثار
في التحذير عن
الخلطة والصحة
كثيرة والكتب بها
مشحونة . وأجمع
الأخبار في ذلك ما أخبرنا
الشيخ الثقة أبو الفتح
بإسناده السابق إلى
أبي سليمان قال حدثنا
أحمد بن سليمان
النجاد قال ثنا محمد
ابن يونس الكريمي
قال ثنا محمد
ابن منصور الجشمي
قال ثنا مسلم بن سالم
قال ثنا السري
ابن يحيى عن الحسن

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يارسول الله « إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث حمات أو ربما . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم للصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدنا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يفرله ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يعمل الله حتى تملاوا وليس في الحديثين قوله في آخره فاذا هم البد بحسنة الخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسبئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها فعملها كتبها الله سبئة واحدة زاد مسلم في رواية أو عفاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث جاء رجل ، قال يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من بلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم قتبسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث للمؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفسي بيده لحرمة للمؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرغب عليهم (١) . وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يقبله وجعل رحمة تطلب غنبيه (٢) » وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تطلب غضبي (٣) » وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) » . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) » . ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار (٦) » . ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) » وفي خبر آخر « لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أبس من جنته أحد (٨) » ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام قم فابست بمت النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » فأبلس القوم وجعلوا يكون وتعطوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم في الأمم أين تأويل وتاريخ ومنسك وأجوج وما جوج أم لا يحصيا إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود كالرقعة في ذراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويخفى عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرغب عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يقبله وجعل رحمة تطلب غنبيه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب اللبزان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمته تطلب غضبي متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد قد تقدم من حديث معاذ من حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لماذا من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار زاد البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جهه الله في الجنة والنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلتقي الله عبدا من عباده إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن يضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان أني لأعلم كلمة لا يقوله عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحجين النار وإخراجهم بالشفاعات ، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه لمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أبس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص
عن عبد الله بن مسعود
قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
ليأتين على الناس زمان
لا يسلم لدى دين دينه
إلا من فر بدينه من
قرية إلى قرية ومن
شاهق إلى شاهق ومن
جحر إلى جحر كالطلب
الذي يروغ قالوا ومتى
ذلك يا رسول الله قال
إذا لم تنل المعيشة إلا
بمعاصي الله فإذا كان
ذلك الزمان حلت
العزوبة قالوا وكيف
ذلك يا رسول الله وقد
أمرتنا بالتزوج قال إنه
إذا كان ذلك الزمان
كان هلاك الرجل على
يد أبويه فان لم يكن له
أبوان فلي يزوجته

الدابة (١) فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوام بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن كمر في الأول مارآسيبالشفاء واتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة الطل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو التفرور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال العجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لا أرحم عبده للؤمن من الوالدة الشقيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطر على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه (٥) » وفي الخبر « إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عندة تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترحم الخلق فتن الوالدة على ولدها وتغطف البيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجي من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتخمدني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي آرونها للمطيعين التقيين بل هي للمتولين المخطئين (٩) »

وولده فإن لم يكن زوجة ولا ولد فليبد قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يمرونه بضيق البيضة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الملكة . وقد رغب جمع من السلف في الصبة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا فقال سبحانه وتعالى - واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا - وقال تعالى - هو الذي أبدلك بعمره وبالؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا الحديث الترمذي من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد (٢) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم ، وفي لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البرار وابن جبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذي نفسي بيده لا أرحم عبده للؤمن من الوالدة الشقيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطر على قلب أحد الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله أيضا (٩) حديث إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي الحديث الشيخان من حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة وإن خبات دعوتي شفاعا لأمتي ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذي من حديثه وصحه وابن ماجه من حديث جابر شفاعي لأهل الكبائر من أمي ، ولابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خبرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمي الجنة فاحترت الشفاعة لأنها أهم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .

وقال عليه الصلاة والسلام «بشت بالحنية السمحة السهلة» (١) وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا ساحة» (٢) ويدل على مضاه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا نحمل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال ياجبريل وما الصفع الجليل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلك فلاتتابه فقال ياجبريل فافقه تعالى أكرم من أن ياتب من عفا عنه فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرنكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمي» (٣) . والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فافقه أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فافقه تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف «لأؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة يارب قال الله تعالى حتى متى تعجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يخفر الذنوب غيري أشهدكم أنني قد غفرت له . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في اللززم عند الباب قلت : يارب اصصمني حتى لا أعصيك أبدا ففتفت بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني الصحة وكل عبادي للؤمنين يطلبون مني ذلك فاذا عصمتهم فعلت من أفضل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول : لو لم يذنب للؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمع بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للسبيلين بالحسين . ولقي مالك بن دينار أبا ناققاله إلى كم تحدث الناس بالرخى فقال يا أبا يحيى إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من القرح . وفي حديث ربهى بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بمد اللوت . قال لما مات أخى سجد بئوه - ألقيناه على نمشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إني لقيت ربي عز وجل لحياي بروح وريحان وربى غير غضبان وإني رأيت الأمر أسير مما تظنون فلاتفتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكانها كانت حصاة وقعت في طشت فخلتاه ودقناه . وفي الحديث

(١) حديث بشت بالحنية السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة سمعته ضعيف دون قوله السهلة وله والطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الحنية السمحة وفيه محمد بن إسحق رواه بالضعف (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا ساحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال ياجبريل وما الصفع الجليل قال إذا عفوت عمن ظلك فلاتتابه الحديث ابن مردويه في تهذيبه موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

بين قلوبهم لو اتفقت
ما في الأرض جميعا
ما اتفقت بين قلوبهم
ولكن الله ألف
بينهم - وقد اختار
الصحة والأخوة في
الله تعالى سعيد
ابن السبب وعبد الله
ابن المبارك وغيرها .
وفائدة الصحة أنها
تفتح مسام الباطن
ويكتسب الانسان
بها علم الحوادث
والعوارض . قيل :
أعلم الناس بالآفات
أكثرهم آفات
ويتصلب الباطن
برزين العلم ويتمكن
الصدق بطروقي
هبوب الآفات ثم
التخلص منها بالإيمان
ويقع بطريق

«أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويذمّه فكان يقول دعني وربّي أبعث علي رقياً حتى رآه ذات يوم على كبيرة فضرب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحد أن يحظر رحمي على عبادي اذهب أنت قد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته (١)» وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فرأى عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معها ثالثاً قال فزّل بفعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدري نفسه تعظيماً للحوارى ويقول في نفسه مثل لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال وأحسن الحوارى به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي فضم نفسه ومشي إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجنبه فبقى اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لجهه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه . وروى عن مسروق أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألقى الحصى بجنبه قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضباً فقال اذهب فلن يغفر الله ﷻ فأوحى الله تعالى إليه تعالى على في عبادى إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقتل على المشركين ويلعنهم في صلاته فزّل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام (٢)» وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعتنى على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسألنى في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار فأعطيت كل عبد مسؤوله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لمقابله وبين من يخدم ارتجاء لا نعامهوا كرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ «سلوا الله الدرجات العلى فإيماننا لنون كريماً (٣)» وقال «إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاطى منى (٤)» وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث ابن عباس كان يقتل على المشركين ويلعنهم في صلاته فزّل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم المن فلانا وفلانا وفلانا بما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد أنزل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء - إلى قوله فأنهم ظالمون - ورواه الترمذى وسماه أناسياف والحرف بن هشام وصفوان بن أمية وزاد قتاد عليهم فأسلوا الحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإيماننا لنون كريماً لم أجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطى منى مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم

الصحة والأخوة
التعاضد والتعاون
وتتقوى جنود القلب
وتستروح الأرواح
بالتشام وتتفق في
التوجه إلى الرفيق
الأعلى ويصبر مثالها
في الشاهد كالأصوات
إذا اجتمعت خرقت
الأجرام وإذا تفردت
قصرت عن بلوغ
المرام . ورد في الخبر
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم «للؤمن
كثير بأخيه» وقال
الله تعالى عبداً عن
لأصديق له - فالنامن
شافعين ولأصديق
حميم والحميم في الأصل
الحميم إلا أنه أبدلت
الماء بالحاء لقرب
مخرجيهما إذ هما من

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قتلنا يا أبا عبد الله كيف نجدك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي مع الذنوب يطلب رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتمد في الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها أنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف. وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال إن أسلت أضفك فإبراهيم الجوسي فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك فإبراهيم يسعى خلف الجوسي فردّه وأضافه فقال له الجوسي ما السبب فيما بذلك قد كر له فقال له الجوسي أهكذا ياملني ثم قال اعرض على الإسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصملي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف جالك فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصملي في المنام على هيئة حنة لا توصف فقال له يا أستاذي قلت هذا فقال بحسن ظني بربي. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه أن القيامة قد قامت وإذا الجيار صيحانه يقول أين العلماء قال فجاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال قتلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك ثلاث ليال. وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من القواكه للمجلس فإبراهيم التلام ياب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع التلام إليه الدرهم فقال منصور ما الذي تريد أن أدعو فقال لي سيد أريد أن أخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يغفر الله لي دراهمي فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله لي سيدى فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لي سيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع التلام فقال له سيده لم أبطأت قمص عليه القصة قال وبم دعا قال سألت نفسي العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وأيش الثاني قال أن يغفر الله لي الدرهم قال لك أربعة آلاف درهم وأيش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال ثبت إلى الله تعالى قال وأيش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قال يقول له أنت فعلت ما كان إليك أقرى آتى لأفضل ما إلى قد غفرت لك وللقوم وللمصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبت إلى القبرة وصلينا عليها ودفنا الليت فقلت للمرأة من كان هذا الليت منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت وأيش كان هذا قالت عنتا قال فرحمتهما وذهبت بهما إلى منزلي وأعطيتهما دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب ييض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال الخنث الذي دفتنوني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس إياي. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا فينداد مع معروف الكرخي على دجلة إذ مر أحدث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعرف أمارام يصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقال اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطى شيء أعطاه والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فاذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وهبادة بن الصامت

حروف الخلق والمهم
مأخوذ من الاهتمام
أى بهم بأمر أخيه
فالاهتمام بهم الصديق
حقيقة الصداقة. وقال
عمر إذا رأى أحدكم
ودا من أخيه
فليتمسك به قلما
يصيب ذلك وقد قال
القائل:

وإذا صفا لك من زمانك
واحد

فهو للراد وأين ذاك
الواحد

وأوحى الله تعالى إلى
داود عليه السلام
قال يا داود مالي أراك
منتبذا وحده قال
إلهي قلت الخلق من
أجلك فأوحى الله إليه
يا داود كن يقظا
مرتادا لنفسك أخوانا

للقوم إنما مآلناك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول في دعائه يا ربّ وأى أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحلك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لاتنضب فهدى هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحقى المفلتون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ما منورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسلط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف)

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجلال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجمل فالحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود وإتماما دوام الشهود غاية المقامات . ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم بضامن علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاجش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه مخفوقا بمن يحته على الانتقام خاليا عنمن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب بسبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في محالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه تخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الساء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للثب لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأتلموا هلك العالمين لميال ولمعتمه مانع وتارة يكون لكثر الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعبوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغاثته وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله » (١) وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كملت المعرفة

وكل خدن لا يوافق على مسرقى . فلا تصحبه فانه عدو يقسى قلبك ويصادك منى . وقد ورد في الخبر « إن أجبك إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالؤمن ألف مألوف » وفي هذا دققة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله ينهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفاً فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجليل ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس خطا

(١) حديث أنا أخوفكم البخارى من حديث أنس والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولا شيعين

أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والبشيه والزغقة والبكاء . وقد تنشق به الرارة فيفيض إلى اللوت أو يجمع إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فبكتفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يكي ويمسح عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى التوب متى يكون العبد خائفا قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم التي يحتمى مخافة طول السقام . وأما في الصفات فبأن يجمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير للعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العمل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه صما فحترق الشهوات بالخوف وتآذب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والدلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب المهمل بخوفه والنظر في خطراته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا للراقة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذه النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال من وقع في محالب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو بهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا تمتنع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة الراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحترائه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفضاله وبميوه النفس وما بين يديها من الأخطار والأحوال وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعافان زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصديق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبيى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أفضاه فهو الصديق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ويدخل في الصديق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع الورع في الورع العفة فاتها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه أعظم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ووراء اسم الصديق والقرب وتجري الرتبة الآخرة بما قبلها مجرى الأخص من الأعم فاذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل كما أنك تقول الإنسان إما عربى وإما عجمى والعربى إما قرشى أو غيره والقرشى إما هاشمى أو غيره والهاشمى إما علوى أو غيره والعلوى إما حسمى أو حسبنى فاذا ذكرت أنه حسمى مثلا فقد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوى وصفته بما هو فوقه بما هو أعظم منه فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباعدة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب للعاني من الألفاظ ولم يقبض الألفاظ للعاني فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمرقة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

من هذا الوصف
الأنبياء ثم الأولياء
وأنتم الجميع في هذا
نبينا صلوات الله عليه
وكل من كان من
الأنبياء أتم ألفه كان
أكثر تبعا ونبينا
صلى الله عليه وسلم
كان أحكمهم ألفه
وأكثرهم تبعا وقال
«تناكروا تنكروا»
فاني مكاتر بكم الأمم
يوم القيامة» وقد نبه
الله تعالى على هذا
الوصف من رسول الله
صلى الله عليه وسلم
قَالَ - وَلَوْ كُنْتُ فَظًا
غَلِظَ الْقَلْبُ لَا تَقْضُوا
مِنْ حَوْلِكَ - وَإِنَّمَا
طَلَبَ الْمَزَلَةَ مَعَ وَجُودِ
هَذَا الْوَصْفِ وَمَنْ
كَانَ هَذَا الْوَصْفُ فِيهِ

من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

(بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف)

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى الواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهمة أن لا تغلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن البالغ في الضرب محمود وكذلك الخوف قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى النشوة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألم المبرح فلا يسوقها إلى القصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء للترسمين برسوم العلماء والتسمين بأسمائهم فأنهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك مما قد عز وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحرارة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما شرط فأنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الجمل على العمل ولولا لما كان الخوف كلاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فأنه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه يتعرض للحدور ولا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص آدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف لله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس يكال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض واللوت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى اللوت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يعرضها أو يكرس عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها يعالج به صدمة الخوف المفرط للقضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمر فالحمود منه ما يغني عن المراد للقصور منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فلت من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لومات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفتريه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما يبطل العمر أو العقل أو الصحة التي تتطلب العمر بتعطيلها فهو حيران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأنهم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حبيب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلو في أول أمره وكان يغار في غار حراء ويتحنن إلى ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آتياً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة من هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا في أول الباب إن في الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف

إلى أمور آخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مادونها لا بالاضافة إلى درجة التيقن والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يعمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فإذا أثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه مقسع فهذا أقصى ما محمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدن الللازمين للجوع أيما كثيرة احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

(بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى ما يخاف منه)

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه كما تكثره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه الضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتحمل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من المكروهات المهدورة فالذين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يخلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقص التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الليل عن الاستقامة أو خوف اميلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسنة التي اتكل عليها وتمزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحيانة والنفس وإضمار السوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بخلاف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه أو خوف الحتم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على النظام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فإن الأمر فيه محطر وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تحمل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع محتمل أن يكون فيه حز الرقة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما إذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا النزاع إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيمه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزادهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم قلما علم الخدائق
ذلك المهمم الله تعالى
حجة الحلوة والعزة
لنصفية النفس عن
اليل بالوصف الأعم
لترتقى المهمم العالية
عن ميل الطباع إلى
تألف الأرواح فإذا
وفوا التصفية حقها
اشترأت الأرواح إلى
جنسها بالتألف الأصلي
الأولى وأعادها الله
تعالى إلى الخلق
ومحافظتهم مصفاة
واستنارت النفوس
الطاهرة بأنوار
الأرواح وظهرت صفة
الجيلة من الألفة
المكلمة آلفة مألوفة
فصارت العزلة من
أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستقدم الله قبل الموت ولو بغواق باقية وليعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بغواق السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقى بقضاء الله والأعمال بالحواليم (١) وهذا كاتقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنابته وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضى الهيبة لاهياله فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الفرور والامن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأل يخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسر أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من سرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا الطابع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذوبصرة فقد جاء في الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يداود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢) » فهذا المثل يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا لجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يغلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك ثمة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته والله المثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » هؤلاء إلى النار ولا أبالي » ويكشف عن موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستثناء وعدم المبالاة.

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يداود خفي كما تخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل للمصنف قصد بإبراده أنه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة .

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصحبة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يهاجر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس بهيشه الله

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل في أنفسهم ماهو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدة
أوسؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هية الوقف بين يدي الله تعالى والحياء من
كشف السر والسؤال عن النقيز والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه
أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة ذار النعيم والملك القيم
وعن نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها
فهي لا محالة محوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها ولعلها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله
تعالى وهو خوف المارقين وما قبل ذلك خوف العالمين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن
لم تكمل معرفته ولم تفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن
المارق لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في بطنه منكرا وتجب منه في نفسه وربما
أنكر لذة النظر إلى وجهه الكريم لولامع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان
عن ضرورة التقليد والإفراط لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر
إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأما لذة المارقين فلا يدركها غيرهم
وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهله ومن كان أهله استبصر بنفسه واستغنى عن أن
يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فسيبيله أن
فضيلة التي بقدر غناؤه في القضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة
ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد
ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا تحصل
المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر
ولا تيسر للواظبة على الذكر والفكر إلا باقطار حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات
الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك للشهوات إلا بجمع الشهوات ولا تتمتع الشهوة بشيء كما تتمتع بنار
الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف
عن اللامع ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون
الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المأمورة التي
تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فنورد في فضيلة الخوف خارج
عن الحصر ونأهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي
جميع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال تعالى
- إنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم لحشيتهم وقال عز وجل - رضى الله عنهم
ورضىوا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف
ثمره العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق
الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم
رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك
لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

لصادقين رقما من الله
تعالى وثوابا للعبد
معبدا والأنيس قد
يكون مفيدا كالشايخ
وقد يكون مستفيدا
كالمریدین فصحيح
الخلوة والعزلة لا يترك
من غير أنيس فان
كان قاصرا يؤنس
بمن يتم حاله به وإن
كان غير قاصر يقبض
الله تعالى له من يؤنس
من المریدین وهذا
الأنس ليس فيه ميل
بالوصف الأعم بل هو
بالله ومن الله وفي الله.
وروى عبد الله بن
مسعود عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
«التحابون في الله على
عمود من ياقوته حمراء
في رأس العمود سيمون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى (١) فاذن إن نظر إلى مشرعه فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذام بصوت يسمع أقصام كما يسمع أذانهم فيقول - يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم - أيها الناس إني قد جعلت نسباً وجعلت نسباً فوضعتم نسي ورفعت نسبكم - قلت - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فالיום أضع نسبكم وأرفع نسي أبين التقوى فيرفع القوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله (٣) » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى (٤) » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلاحظها حسنتان باباً من الحكمة والعبرة مارأيت قط - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلاحظها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كعقاب بين أسدين - وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وقششت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسماء وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال - سيذكر من يخشى - وقال تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزني

ألف غرفة مشرفون
على أهل الجنة يضي
حسبهم لأهل الجنة كما
تضي الشمس لأهل
الدين فيقول أهل الجنة
انطلقوا بنا ننظر إلى
التحابين في الله عز وجل
فإذا أشرقوا عليهم
أضاء حسبهم لأهل
الجنة كما تضي الشمس
لأهل الدنيا عليهم
ثياب سندس خضر
مكتوب على جباههم
هؤلاء التحابون في الله
عز وجل » وقال
أبو إدريس الخولاني
لهذا إني أحبك في الله
فقال له أبشر ثم أبشر
فإني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يقول « ينصب لطائفة
من الناس كراسي حول

(١) حديث لماخبر في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يغبر فلما نزل به ورأسه في حجرى غشي عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فملت أنه لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصام كما يسمعه أذانهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسباً الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والعلبي في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نسباً الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضاً (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لا أجمع على عدى خوفين ولا أجمع له أمتين فإن أمتي في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمتي يوم القيامة (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء » (٢) وقال عليه السلام « أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً » (٣) وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد له حبه وصح له به . وقال ذو النون أيضاً ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذ غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً فقال أشدكم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمه الله لا نجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تسكد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تغالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلباً إلا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويرزني قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » (٤) والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكادت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف للضاد له بل تقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فإن كل من رجا محبوباً فلا بد وأن يخاف فوته فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفصلته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ للعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر ينتظر مشكوكاً فيه نعم أحد طرفي الشك قد يرجع على الآخر بمحذور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفاً وطمعا - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقارا - أي لا تخافون وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لا أجمع على عدى خوفين ولا أجمع له أمتين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بأسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً الحديث لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويرزني قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي جازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة
وجوههم كاتمة ليلة
السدر يفزع الناس
ولا يفزعون ويخاف
الناس ولا يخافون وهم
أولياء الله الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون
ف قيل من هؤلاء
يا رسول الله قال
المتحابون في الله عز
وجل . وروى عبادة
ابن الصامت عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال « يقول الله عز وجل
حقن عبي لي المتحابين
في والزاورين في
والتبازلين في
والتصادقين في »
أخبرنا الشيخ
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي إجازة قال
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - يكونون ويذبحون خشوعا - وقال عز وجل - آمن هذا الحديث تهيجون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - وقال عليه السلام ■ ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حروجه إلا حرمه الله على النار ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة تورقها» ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع» ^(٣) وقال عقبة بن عامر «ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسمعك ييتك وابك على خطيئتك» ^(٤) وقالت عائشة رضي الله عنها «قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى» ^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم ■ ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم مع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى ^(٦) ■ وقال صلى الله عليه وسلم «اللهم ارزقني عيني هطالتين تشفيان» [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمر» ^(٧) وقال عليه السلام ■ سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا فضاقت عيناه ^(٨) ■ وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتبأك - وكان محمد بن النكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل كل موضع ما سته الدموع. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فإن لم تبكوا فبكا كوا فوالذي نفسي بيده لو علم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما ترغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والفسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى لم أقفله على أصل (٦) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عيني هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين للروزي في زيادته على التردد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسل دون ذكر الله وذكر الدار قطن في العلل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسل قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وإني أحمد الحاكم فإن الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإعنا ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم، نعم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروى عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ.

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المصملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن السيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فإنها هي الخالقة» وبإسناد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

يوم القيامة فان سالت دموعه أطفالاً الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأحبار رضى الله عنه والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعه على وجنتي أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دموعاً من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعنا إلى أهلى فذنت منى للرأه وجرى بيننا من حديث الدنيا ففسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلنا في نفسى قد تافقت حيث تحولت عنى ما كنت فيه من الخوف والرقه فخرجت وجعلت أنادى نافع حنظلة فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلاً لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافع حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلاً لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجاءت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعنا إلى أهلى فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصالحكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

(بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدلهما)

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيمتريه شك في أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهاى قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فان اجتماعاً نظر إلى الأغلب فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد للعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكتنجين إذ يبالغ بالخبز مرض الجوع وبالسكتنجين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر الحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا يمازجه المحبة ممازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافع حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصراً .

أبا مسلم يقول صمت
أبا هريرة يقول الخبر
وفى الخبر تحذير عن
البغضة وهو أن يحفو
الختلى الناس مقتالهم
وسوء ظن بهم وهذا
خطأ وإنما يريد أن
يغلو مقتنا لنفسه
وعلمنا بما فى نفسه من
الآفات وحذرا على
نفسه من نفسه وعلى
الخلق أن يعود عليهم
من شره فمن كانت
خلوته بهذا الوصف
لا يدخل تحت هذا
الوعيد والاشارة
بالحاقة يعنى أن البغضة
حالة للدين لأنه نظر
إلى المؤمنين والمسلمين
يعين الوقت . وأخبرنا
الشيخ أبو الفتح
بإسناده إلى إبراهيم

فيلو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدالا وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفا ترمى أنك لو أتيت به حسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترمى أنك لو أتيت بسيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي يَدْخُلُ النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي يَدْخُلُ الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لحشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمر الله بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوته أسبابه كمثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تربة وواظب على تعدها وجاء بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وثقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق للهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثل مسألنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يحدها الزارع ولم يجربها وهي في بلاد ليس يدري أن تكر الصواعق فيها أم لا لئلا هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألنا هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبث وصفاته من الشرك الحفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والثغرات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يمرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند انصرف من الصيام إلى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الحفي وإن اعتقد تقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتبليس حاله عليه وإخفاء عيه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقائنه على ذلك إلى تمام حسن الحاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» (٢) وفي رواية «لا قدر فواق

الحرقى قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن الله تعالى ملكا نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعائه اللهم فكأ ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ألفت بين قلوب عبادك الصالحين وكيف لا تألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسهه شيء لطف حال الصالحين وجدتم في ذلك القام العزيز

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين مسلم من حديث حذيفة في أمهاني اثنا عشر مناقبا تمامه لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية لا قدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل يعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يحتم له بعمل أهل النار ولا يزال والطيراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن والشيخان في أثناء حديث لابن مسعود إن أهدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار وقد عرفوا أن النافعة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن أن يستدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مسندة للاغترار وقلعة السرفق ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفاً وطمعا - وقال عز وجل - ويدعوننا رغباً ورهبا - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالحق للوجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من الغفرة فيكون ذلك سبباً لتكامل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار القنوط وهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس اللوجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى ببعض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بعض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محبة الادكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي . ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذن لا بد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويسين على تمجيل موته وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحياة الله تعالى ليكون محالاً لقاء الله تعالى فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه والرجاء تقاربه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب وللصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تشر المعرفة المحبة فإن للصير إليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوه اشتدت محبته وعذابه فبهما كان القلب التائب عليه عند الموت حب الأهل والولد والسالك والسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموتة خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذن يمكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلاقتها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة السائمة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فموتة قدوم على محبوه وخلّاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها وأطاعوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والانسكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا بالكسب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاء ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد »^(١) والغرض

ليس فيه تهديد زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وهدم في الأذكار والدعوات .

وقال السلام علينا
وطى عباده الصالحين
فهم مجتمعون وإن
كانوا متفرقين
وصحبهم لازمة
وعزيتهم في التواصل
في الدنيا والآخرة
جازمة . وعن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
لو أن رجلا صام النهار
وقام الليل وتصدق
وجاهد ولم يحب في
الله ولم يغض فيه
ما نفعه ذلك . أخبرنا
رضي الدين أحمد بن
إسماعيل بن يوسف
إجازة إن لم يكن معاً
قال أنا أبو المظفر عن
والله أبي القاسم
القشيري قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت عبد الله

ابن المسلم يقول
سمعت أبا بكر
التمساني يقول أحبوا
مع الله فإن لم تطيقوا
أحبوا مع من يحب
مع الله لتوصلكم بركة
صحبته إلى صفة الله.
وأخبرنا شيخنا ضياء
الدين أبو النجيب
إجازة قال أنا عمر
ابن أحمد الصفار
اليسابوري إجازة قال
أنا أبو بكر أحمد بن
خلف قال أنا أبو
عبد الرحمن السلي
سمعت أبا نصر
الأصفهاني يقول سمعت
أبا جعفر الحاد يقول
سمعت علي بن سهل
يقول : الأنس بالله
تعالى أن تستوحش
من الخلق إلا من أهل

29

يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضاً بالنظر إلى الحاضرين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان قامت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأمل فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف العبد المحجوب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية ولكن هو مجرد التقليد يضاهاى خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضاعف وبزول طي قرب حتى إن الصبي ربما يرى المزمع يهدم طي أخذ الحية فينظر إليه ويفتربه فيتجراً على أخذها تقليداً له كما احتزم من أخذها تقليداً لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للؤكد لها طي الدوام وبالمواظبة طي مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة طي الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفاً في محال به لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة جلب في الخوف من السبع الضاري إلا المعرفة السبع ومعرفة الوقوع في محال به فلا يحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالى وبحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سابقة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وإن خطر ببالك أنه لا يماقب إلا طي معصية ولا يثيب إلا طي طاعة فتأمل أنه لم يعد الطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد المعاصي بدواعي للمعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه معها خلق الغفلة والشهوة والقدرة طي قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبده لأنه عصاه فلم حمله طي للمعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة طي أول لاغلة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله يده ونفخ فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائه وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أقتلوني طي أن عملت عملا كتبته الله طي قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (١) فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين طي سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محال السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه ذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سوى اتفاقاً وإن أضيف إلى علم الله لم يحز أن يسمى اتفاقاً والواقع في محال السبع لو كانت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع اقترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد نبه القائل نظماً على حقيقة جامعة لمعان الصحة والخلة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله : وحسنة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قوم الرد وحده [الباب الرابع] والمحسبون في أداء حقوق الصعبة [الأخوة في الله تعالى] قال الله تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى - وتواصوا بالحق - وتواصوا بالمرحمة - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سبع الآخرة مثل سبع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرع عن القضاء الجزم الأزل إلى ما خلق له من خلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا . وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد قصة في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيب له أن يبالغ نفسه بجماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم القراعة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، قضى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفي رواية ثانية « أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضرب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بي إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لأزكى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذي ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره (٦) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو غليل فسمع امرأة تقول هنيئا

ر-ول الله صلى الله عليه وسلم - أشد على الكفار رحما بينهم- وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصعبة فمن اختار صعبة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصعبة فانه يفتح على نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - وقيل

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم ولا خفر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم قه وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصيية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لجا هذا الصبي واختلف في إسناده فرواه في الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضرب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فضيب وقد تقدم (٥) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب قشهادى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث . وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى في الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلا قال له أجزر بالجنة وقد تقدم في دم اللال والبخل مع اختلاف.

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه النارية على الله تعالى فقال للمريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا ينبغي ويخجل بما لا ينبغي (١) وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيتني هود وأخواتها (٢) سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال الغمام لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - الأبعدا لعاد قوم هود - ألا بعدا لثمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود - مع عليه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لأن كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قتها كاذبة - خاصة راضة - أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا وإما راضة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكاثر أحوال يوم القيامة وانكشاف الحائنة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علقت نفس ما أحضرت - وفي عم يتساءلون - يوم ينظر المرء ما قدمت يداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق التفرقة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فمسي أن يكون من الفلاحين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم آية الثقلان - وقوله عز وجل - أقامنا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نعشر المثنين إلى الرحمن وفدا - الآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما شئتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والمصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الحشران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد امتسكا ققلا ومن يأمن مكر الله (٣) وكأنهما إذ علمتا أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد امتسكا ابتلاء وامتناعا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمانا من المكرو وما قيا بقولهما كما أن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذي وفى - أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقبل له - لا تخف إنك أنت الأعلى - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إني كنت أعمل لي وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلني ليتني لم آخذ فلانا خيلا - وإن مكنت الآية

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتني هود وأخواتها الحديث الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في السائل من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ورويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك (١) » فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله « وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وقال - إن تعذبهم فأتهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية - فوض الأمر إلى الشبهة وأخرج نفسه بالكلية من اليأس لعله بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد العقول والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حساب فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباده ثم يخبر عنه ويقول - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزلى ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطعمة تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستغراء خفي السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الحيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الحاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أسبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقبلا من القدر فى غلياتها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من آمنوهو ينادى بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لحواصل الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنى لأدري ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام لأنى لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يخلف بالله ما أحد آمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحاتمة عند كل خطرة وعند كل

وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى فيه بذلك عباده على الحذر من كل خيل يقطع عن الله واختيار الصعبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وتجت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصعبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يعذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخارى من حديث ابن عباس بلفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - ولما احتضر سفيان جل يكي ويخرج قيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرته الوفاة فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني متاً على التوحيد تغذ جميع ما أملكه فاشتره لوزاوسكرا واشتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس للنفلة ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يشتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والأوز وفرقه . وكان سهل يقول للريد يخاف أن يتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكان في وسطى زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن السبيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يا محتر الحواريين أنتم تخافون للمعاصي ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى في أخبار الأنبياء أنه نيا شكا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبيد أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضه على رأسه ، وقال بلى قد رضيت يارب فاعصمني من الكفر ، فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، وسوء الخاتمة أسباب تتقدم على اللوث مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق القدي هو ضد أصل الإيمان بل للراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناقها ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فقيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » وإذا خاصم فجر (١) وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا تخلو عن شيء منه إلا صدق إذا قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف للدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه للعاني بل سارت هذه الأمور مألوقة بين الناس معتادة ونسي كونها منكراً بالكلي بل جرى ذلك على قرب عهد زمان النبوة ، فكيف الظن زماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً إنني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتملأون أعمالاً هي أدق في أعينكم

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد .

وسؤال البركة والخبرة في ذلك وتقديم صلاة الاستغارة . ثم إن اختيار الصلحة والأخوة عمل وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل « سبعة يظلهم الله تعالى فمنهم اثنان هما في الله فاضا على ذلك ومانا عليه » إشارة إلى أن الأخوة والصلحة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب للواخاة ومنى أفسد للواخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول . قيل ما حد

من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار^(١) . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكبره من الناس مأتى مثله ، وأن تحبّ على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أحبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) . وروى أنه سمع رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه ، قال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) . وأشد من ذلك ما روى أن قرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم النفاقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يمتلئ بالآيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مفرز إبرة ويأتي عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز إبرة . قد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها الماضى . ومنها النفاق ، ومتى يغلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قديم لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار^(٥) » ، والله المستعان .

(بيان معنى سوء الحاتمة)

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداها أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة المسائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجبا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبخاري من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث سمع ابن عمر رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه فقال رأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن قرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرج له في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین
على بر حسنة
متأخين في الله
متحابين فيه فانه
يمجد نفسه ويحث
فيسله على إفساد
ما بينهما . وكان
الفضيل يقول : إذا
وقمت الغيبة ارتفعت
الأخوة ، والأخوة في الله
تعالى مواجهة قال
الله تعالى - إخوانا
على سرر متقابلين -
ومتى أضمر أحدهما
للآخر سوءا أو كره
منه شيئا ولم ينبهه
عليه حتى يزيله أو
يتسبب إلى إزالته منه
فما واجبه بل استدبره
قال الجنيد رحمه الله
ما نواخى اثنان في
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبداً وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يطلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روجه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسراً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحبوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لحي فهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرم يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تمظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يحمو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد متقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا متقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويعمل طول هذه اللمدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما سمعت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة» (١) . «وأنه قد يفتح إلى قبر المذب سبعون باباً من الجحيم» (٢) كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روجه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الخاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملائ من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشق متردداً فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدهدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المذب سبعون باباً من الجحيم لم أجده أصلاً (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملائ الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر بإسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رموس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمناق فينادى بهم على رموس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلي فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مفضلاً فى خزنة جهنم ما بين منسكى أحدهم كايين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا
لعله فى أحدهما فالمواخاة
فى الله أصنى من الماء
الزلال وما كان الله فاهه
مطالب بالصفاء فيه وكل
ماضفا دام والأصل فى
دوام صفائه عدم المخالفة
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « لا تمار
أخاك ولا تمازحه
ولا تعدد موعدا
فتخلفه » . قال أبو سعيد
الحاراز : سمعت
الصوفية خمسين سنة
ما وقع بينى وبينهم
خلاف قليل له وكيف
ذلك ؟ قال لأنى كنت
معهم على نفسى .
أخبرنا شيخنا
أبو النجيب السهروردى
إجازة قال أنا عمر بن
أحمد الصفار قال أنا

فتجتمع الأجزاء للفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت اللوت إلى
الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه
الحال إن كانت والعباد بالله شقية . فان قلت لما السبب الذي يفضي إلى سوء الحاتمة . فاعلم أن
أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على
الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح
في الأعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعني مذهبا .
فأقول إنه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله
وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل
الحصم وعليه يعول وبه يقتر وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب اللوت وظهرت له ناصية
ملك اللوت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا
إذ حال اللوت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل
عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد
خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن
عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشف
بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه
الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد
بالله منه فهو لاء هم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبقوله عز وجل
- قل هل تثبتم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعا - وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن
القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي النافذة
للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه
فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من
اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمعقول
فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق والبله
بحزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا محملا راسخا كالأعراب
والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا أصغوا
إلى أصناف التكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة
البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور
وأمرهم بالخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر
مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم
وعقباته كشودة ومسالكه وعرة والمعقولة عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور
اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون بيضاعة عقولهم
مضطرب ومتمازض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتصببات الثائرة بين
الخلق مسامير مؤكدة للمقائد الورثة أو المأخوذة بحسن الظن من العلمين في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البرار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف
قال أنا أبو عبد الرحمن
السلي قال سمعت
عبد الله الداراني قال
سمعت أبا عمر والدمشقي
الرازي يقول سمعت أبا
عبد الله بن الجلاء يقول
وقد سأله رجل على أي
شرط أصحب الخلق
فقال إن لم تبرم فلا
تؤذم . وإن لم تسرم
فلا تؤثم . وبهذا
الاسناد قال أبو عبد الله
لاضيع حق أخيك
بما بينك وبينه من
للمودة والصداقة فان الله
تعالى فرض لكل
مؤمن حقوقا لم يضعها
إلا من لم يراع حقوق الله
عليه ومن حقوق
الصحة أنه إذا وقع
فرقة ومباينة لا يذكر

يحب الدنيا مشغوفة وعلينا مقبلة وشهوات الدنيا بخنقتها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمقول مع تفاوت الناس في قرائعهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم فأنشد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعزوا المأه وخارج عن حد طاعتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفيها الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن نبأ بعد حين - وينبئ أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسن ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسألتك الليالي فأغررت بها وعند صفو الليالي يحدث السكر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينة وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والمهلك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين بضاعة عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تصبباتهم أودون الأدلة فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واقفا به فهو آمن من مكر الله مفتر بقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود العقول إلى نور الكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنى يتيسر وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يغوصوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة .

وأما السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبق في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في محاربة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطغى ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعنا فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيختشى أن يشور في باطنه بفض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بضما فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آباؤكم أبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره - فاذن كل من فارقه روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بآله وظهور بفض الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير . قيل
كان لبعضهم زوجة
وكان يعلم منها ما يكره
فكان يقال له استخيرا
عن حالها فيقول لا ينبغي
للرجل أن يقول في أهله
إلا خيرا فارقها وطلقها
فاستخبر عن ذلك فقال
امرأة بعدت عني
ولست متي في شيء
كيف أذكرها وهذا
من التخلق بأخلاق الله
تعالى أنه سبحانه يظهر
الجميل ويستر القبيح
وإذا وجد من أحدهما
ما يوجب التقاطع فهل
ينفضه أولا اختلف
القول في ذلك . كان
أبو ذر يقول إذا انقلب
عما كان عليه أنفضه
من حيث أحببته وقال
غيره لا يفيض الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد للبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يغني ما يستحقه من الحزى والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا في لقاءه فلا يغني ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مقارنة للمعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله أكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله أكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا القينة بعد القينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو أنه لا يغني عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما يراه من مشاهداته في اليقظة وحتى إن الراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدته لما رأى عند الاحتلام صورة الواقع ثم لا يغني أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقير لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبه النوم ولكنه فوقه ولكنه سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب للرجعة لحصول ذكره في القلب طول الإلف وطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى ■ الخلاص منها وكما أن ما غطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك أحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى تعرف بعضها ولا تعرف بعضها كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من شيء إلى شيء ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيذكر قبيحا ويتأمل في عدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدر آه من قبل مع إنسان فيذكر ذلك الإنسان وقد ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقلات الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الحياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التي لها عادة بالسكتان يأخذ الأزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى القراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طرقي له إلا المجاهدة طول العمر في قطامه

بعد الصلوة ولكن
يفض عمله قال الله
تعالى لنبيه صلى الله
عليه وسلم - فإن
عصوك قل إنى برى
مما تعملون - ولم يقل
إنى برى منكم .
وقيل . كان شاب يلزم
مجالس أبي الدرداء
وكان أبو الدرداء يعيره
على غيره فابتلى الشاب
بكبيرة من الكبائر
وانتهى إلى أبي الدرداء
ما كان منه قبيلا له
لوا بعدته وهجرته
فقال سبحان الله لا يترك
الصاحب جنى . كان
منه . قيل : الصداقة
لحمة كلحمة النسب .
وقيل لحكيم مرة
أيما أحب إليك أخوك
أو صديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول الواظبة على الخير وتحذية الفسك عن الشر عدة وذخيرة لحالة السكرات الموت فانه يموت الرء على ما عاش عليه ويمش على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلتي الشهادة فيقول خمسة سنة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلقاه له قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره تتلأ نورا فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة ممصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يحول عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلث فيه تأثير فهذا عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فمجرني شهر اولم يكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو التدبر الذي نسمع بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير مصيبة فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكائك وباحتك وبدموعك وحزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لأعجب ممن هلك كيف هلك ولسكني أعجب ممن نجى كيف نجى ولذلك قال حامد اللفاف إذا صمدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجى هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي فقبل له علام يبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم النظام من أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيمرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب» (١) ولا يتسع فواق الناقل لأعمال توجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأني أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء

أحب أخى إذا كان
صديقي وهذا الخلاف
في المفارقة ظاهراً وباطناً
وأما الملازمة باطنياً
وقعت المباني ظاهراً
فتختلف باختلاف
الأشخاص ولا يطلق
القول فيه إطلاقاً من
غير تفصيل فمن الناس
من كان تغيره رجوعاً
عن الله وظهور حكم
سوء السابقة فيجب
بفضه وموافقة الحق
فيه ومن الناس من
كان تغيره غيرة
حدثت وفترة وقعت
يرجى عوده فلا ينبغي
أن يبغض ولكن
يبغض عمله في الحالة
الحاضرة ويلاحظ بعين
الود منتظراً له العرج
والعود إلى أوطان

الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما اللوث فجأة فلائه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلائها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يسبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطن نفسه على للوث إلا حب الله طلبا لمرضاة وبإتمامه بآخرته وراضيا بالبيع الذي باهه الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبايع راضع عن البيع لأعماله ومخرج حبه عن القلب وبمجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد ينقلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال بسبب زهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والفنيحة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كادلت عليه الأخبار^(١) وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المأصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المأصى ومشاهدة أهلها جهلك فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيروحك فراقب قلبك في كل تطرئة وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن ينقلب النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا ينقلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم فالبا عليه وأنه لا ينقلب في النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك وللوث والبعث شيء النوم واليقظة فكما لا ينالم العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا ينحسر إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا وبقينا أن اللوث والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تنفل عن الله طريقة عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكي إلا العالمون والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون والعالمون كلهم هلكي إلا المخلصون والمخلصون كلهم هلكي إلا العظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك . طعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعام ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكلاهما يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك قيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كتصديقك من قضاء

الصلح قد ورد وأن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي آتى فاحشة قال له وزجرهم بقوله ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكهم وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فينته » وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذلك أخو الشيطان قال له ما قال إنه قارف

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والفنيحة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلا قال يا رسول الله الرجل يقاتل للدعم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .

حاجتك فسلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأ كوك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكفى في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقتنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوئة الشهوات والذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأما ما يسبك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك بضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكن تف به في خسارة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت بمن لا يعلل بطنه إلا التراب وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقما والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فملكك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائض سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وترزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيق منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصررت عليها نفرغت لله وقدرت على التزود لأخرك والاعتماد لحاتمك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلكك فأقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فإذا قضته يوما يوم في تسويةك أو غفلتك اختلطت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمرا الحاتمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يغتر ميتا إلى الأرض ولا يغرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أعدسة أو إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما لقه بغافل عما يعملون .

(بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف)

روت عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله (١) » وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق (٢) » وقال تعالى «وآخر موسى مصقا» ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق (٣) » وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الواقعة فصعق المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده - لدينا أنكلا وجعيا وطما ماذا غصة وعذابا ألجما فصعق كما رواه ابن عدى والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البرار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فقد عابه فطلع عليه من قبل الشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك عن رواية الحسن مرسلًا

الكبار حتى وقع في الحرج فقال إذا أردت الخروج فأذن قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر قتاد ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت بعينا وشم لانسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فأسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يكيان فأوحى الله إليهما مالم يكتبكيا كل هذا البكاء فقالا يارب مانا من مكرك فقال الله تعالى هكذا كوا لا تأمنا مكرى . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أنفثة للملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم حادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالى لأرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقاله ابن عمر رضي الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من القروياكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل قلت يا رسول الله لا أشتيه فقال لكفى أشتيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيسر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخشون رزق ستمهم ويغضب اليقين في قلوبهم قال فو الله ما برحنا ولا نقا حتى نزلت سوكان من دابة لأتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم - قال فقال رسول الله ﷺ إن الله ليأمركم بكنز المال ولا يتابع الشهوات من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ألا واني لأكنز دينارا ولأدري ما ولا أخبر أرزقا لعد (٤)» وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت للرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فودى يداود أجاجع أنت فتطعم أم ظلمان فتسقى أم طارفتكسى فتحب نعمة حاج العود فأحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كنى فصار خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لقبره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثا فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يغيب القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياة من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض رجها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي . سبحانه إلهي أنيت أطباء عبادك ليدوا وخطيئتي فكلمهم عليك بدلى فؤسا لقا نطين من رحمتك . وقال الفضيل بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صار خاوا واضع يده على

بلفظ فتشى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له سمائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة مع لصدره أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السماع (٢) حديث ما جاءني جبريل قط إلا هو ترتعد فرائصه من الجبار لم أجده هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سمالك الحنفى يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الحائرين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسل وورد ذلك أيضا في حق إسرافيل رواه البيهقي في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحائرين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من القروياكل والتهمير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف

كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعتته
وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما ما اختلف رجل إلى مجلس ثلاثا من غير حاجة تكون له فقلت ما مكافأته في الدنيا وكان يقول سعيد بن العاصي لجليسي حتى ثلاث إذا دنا رجبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان فإن ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلقه إلى علة يحكم بدوام خلقه ومن شرط الحب في الله

رأسه حتى لحق بالجيال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمرني ملائكة غلاظ شداد لا يصون الله مأمريهم ويضلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي بجز صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك ضاق فذعه واشتد غمه فقال يا رب أمارح بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنوبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كفف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلى الطير على رأسى وأنست الوحوش إلى عرابي إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنسى الطاعة وهذه وحشة للعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقتة يدي ونضفت فيه من روحى وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى وشكالى الوحدة فزوجه حواء أمي وأسكنته جنى عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اسمع مني والحق أقول أطعنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلكنا وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج للنبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الضياع والآكام والجيال والبرارى والصوامع والبيع فينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الضياع وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرفى للنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتصوت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أحوال القيامة وفي الباحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا ابتاه قد مزقت السمعة من كل ممزق ومات طوائف من بنى إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فيبناهو كذلك إذ ناداه بعض عباد بنى إسرائيل يا داود عجبت بطلب الجزاء على ربك قال فيخبر داود مفشيا عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير خيمه عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير خيمه فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتلته ذكر النار يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأخلق بابيه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال ينادى ربه فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعر فيقول يا ابتاه تقو بهذا على ما تريد فأتى كل من ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس عظمهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا في عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب تعذتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت القدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وملكوا فيها السلاسل وعدوا أنفسهم إلى أطراف بيت القدس فهاله ذلك

إشارة الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - فقله تعالى - لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انزعاج الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا . والثاني الإشارة بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام «المرء على دين خليله والاخير

فرجع إلى أبيه ثم بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا للعب فقال إني لم أخلق للعب قال فأتى أبيه فسألهما أن يدرجاه الشعر ففعلوا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهرا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أتبع رجله في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يخطر على قرص كان معهما من شعير وشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبرفرد أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلي بكى حتى يسكى معه الشجر والدر ويسكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يضمى عليه فلم يزل يسكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن آخذ ذلك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فمهدت إلى قطمق لبود فالتصقتهما على خديه فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطمتين أتت إليه أمه فحصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرعني بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك. وقال المسيح عليه السلام « معاصر الخواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم إن أكل الشعير والدوم على الزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل. وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يمشي عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل فيقول « ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت فلهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله القربين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف)

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا. وقال أبوذر رضي الله عنه وددت لو أني شجرة تعضد وكذلك قال طلحة. وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا مت لم أبت وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مفشيا عليه فكان يباد أياما وأخذ يوما تبتة من الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبتة ياليتني لم أك شيئا مذكورا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلهني أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع. وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه - إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خر مفشيا عليه ومروما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع - نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زمانا ورجع إلى منزله ففرض شهر ايعوده الناس ولا يدرون مامرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شفاصرا غبرا بين أعينهم أمثال الركب للمزى قد باتوا لله سجدا وقياميتلون كتاب الله يراوحن بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فادوا كما يمد الشجر في يوم الربح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل نياهم والله فكان بالقوم باتوا غافلين

ك في صجة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه وكان يقول أبو معاوية الأسود إخواني كلهم خير مني قيل وكيف ذاك؟ قال كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلى على نفسه فهو خير مني وبعضهم نظما : تذلل لمن إن تذللته يرى ذاك للفضل لا قلبه

وجانب صداقة من من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له.

[الباب الخامس والخمسون في آداب الصحبة والأخوة] مثل أبو حفص عن أدب القراء في الصحبة

ثم قام فما رأى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقى ، وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توشأ أصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يتأكد عند الوضوء فيقول أتندرون بين يدي من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسعود كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا المأزى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاري يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لأعصيتك جهدي أبدا فأعنى بتوفيقك على طاعتك ، وكان المسور ابن محزمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة لما يعقل أيما حتى أتى عليه رجل من خنعم ققرأ عليه - يوم نحشر التقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من الجرمين ولست من التقيين أعد على القول أيها القاريء فأعادها عليه فشبه شقة فلحق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يناد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرة منصبة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذهابها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وبكى فما زال ذلك مقامها حتى طلع الهجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول ثكلت مالكا أمه ، وروى أن الفضيل رأى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تقرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأناه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج والموت من درائنا والقبر أماننا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا وموقفنا . وروى الحسن بن شاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يا فتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما روي ذلك الفقي بعد ما ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو أطمأنتت فيقول تلك جلسة الأمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يمتوتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبدة الأبق إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تفترب موضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ملقى ولا تفترب بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تبعده لقي ملقى ولا تفترب بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تفترب برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه . وقال السري : إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهي ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظري السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إني اجتريت البارحة على الله سألته الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها يابني إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً وكأنك أحدث حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليالك ونهارك فقال يا أماء ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلمع على وأنا على بعض ذنوبي فمعتنى وقال وعزني وجلالي لا غفرت لك ، وقال الفضيل إني لا أغبط نبيا مرسل ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا ليس هؤلاء يمانون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخلق . وروى « أن فتى من الأنصار

قال حفظ حرمت
الشايح وحسن
العشرة مع الاخوان
والصيحة للأصاغر
وترك صجة من ليس
في طبقتهم وملازمة
الایشار ومجانبة الادخار
والمعاونة في أمر الدين
والدنيا فمن أدبهم
التخافل عن زلل
الاخوان والنصح فيها
يجب فيه الصيحة
وكنتم عيب صاحبه
واطلاعه على عيب
يعل منه . قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
رحم الله امرأ أهدي
إلى عيوبى وهذا فيه
مصلحة كلية تكون
للشخص ممن ينه
على عيوبه قال جعفر
ابن برقان قال لي

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه غفر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده (١) وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول ياليت أمتي لم تلدني فقالت له أمة ياميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الإسلام قال أجل ولكن الله قدين لنا أنا ولردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنه أو قيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والوسج فتذاكرن ثواب الله وعقابه فتمن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما فززع فسقط فالتحق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة عذابة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طام قال هذا من أجل يصيهم لموات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة القلام وفيما كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم تنثور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله الطيمين وكيف أهان العاصين فيبينهم يشون إذ مر أحدكم بمكان غر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله ليكون في يوم شديد البرد وجبينه برشح عرقا فجاءوا بعماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من التميميين - يوم ثقل وجوههم في النار - يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما فقرأت - كما أرادوا أن يخرجوا منها أعيديا فيها - فغرميتا، وروى أن زرار بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ - فاذا تقر في الناقر - خر مغشيا عليه فحمل ميتا. ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظمي يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكي ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكي ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لموعدهم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر على عليه (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولد لها وهي تقول يا ابناء ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرضه سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمى فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في الله الحنيفة مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ففتحت على عقلي فقلت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فان لم تبكوا فبكا كوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٣) » وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه فان الصادق يحب من صدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر - ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والروقة فقال له العباس قلعت ما كان

(١) حديث إن فقي من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة واليهيقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر .
(٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أقف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا كثير اتقدم في قواعد العقائد

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة وبحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وروى الفضيل يوما وهو يمشي قليل له إلى ابن؟ قال لأدري وكان يمشي والمها من الخوف . وقال ذو بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلمين يتكلمون فلا يسيئ أحدنا إذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائمة الشكلى كالنائمة للسأجرة وحكي أن قوما وقفوا بما بد وهو يسيئ فقالوا ما الذي يبيك يرحمك الله ؟ قال فرخة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يسيئ ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتني . وقال صالح الربي : قدم علينا ابن الهالك مرة فقال أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم فنهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خصر له فاستأذنا عليه فإذا رجل يعمل خوصا قمرأت عليه . إذا الأغلال في أعناقهم والصلامل يسحبون في الجحيم ثم في النار يسجرون . فشق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه قمرأت هذه الآية فشق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا قمرأت . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد . فشق شهقة فبدا الدم من منخره وجمل يتسخط في دمه حتى ييس فتركناه على حاله وخرجنا فأدركته على ستة أنفس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فإذا امرأة من داخل الحصن تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال إلا إن الخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فأخا فاه شاخصا بصره يصيح بصوته ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفمون به الساعة فلما كان بعد ذلك مالت عن القوم فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل ممنا أبدا لما روى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل ممنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سمعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بهير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أي حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالي أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جرى بالصراط فوضع على منها فقال هيه قالت جئني بعد الملك بن مروان فحمل عليه فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جرى بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جرى بسلطان بن عبد الملك فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جرى بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خرم مغشيا عليه فقامت إليه فجمعت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تنادى وهو يصيح وينحصر برجله

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده فقال إذن لا يردني إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه وردته إلى موضعه ومن أدبهم أن لا يرون أنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيان كنا لا نصحب من يقول نمل . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبي اللفظ عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أبا حاتم الصوفي قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانسي دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرموني

ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكن من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويسا ثم يقوم منطلقا فينبه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلب كما تتقلب الحبة في القلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الحائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله يخرج من النار رجل بعد ألف عام باليتى كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك خوفا من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فإذا سكنت كأن النار تسمر بين عينيه وعونب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض ما يكره ففقتى فقال اذهب فلا غفرت لك فأنا أعمل في غير معتمل . وعن ابن السكيت قال وعظت يوما في مجلس فقام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا بنالي أن لانسبح غيرها قلت وماهى رحمتك الله قال ذلك لقد قطع قلوب الحائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفى النار ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره فأسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد فأتيته أعوده فقلت يا أخى ما الذى أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الحائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال غفرلى ورحمى وأدخلنى الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والملاء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة والإفليس أمنا لقلعة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شفتونا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرحيل ينهبنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الحائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزجنا فأسأل الله تعالى أن يتدارك بفضل وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرنا وانجربنا وركبنا البحار والبرارى وخططنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقها وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهدنا في طلب أرزاقنا ولا تلقى بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم القيم قمنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول - وأن ليس الإنسان إلا ماسعى . ولا يفرنكم بالله الفرور . يا أيها الإنسان ما تحرك ربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فهاهنا إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجيرنا فأسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخلدان أعظم من هذا فأسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشيدته وفعله ولتقتصر من حكاية أحوال الحائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفى والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يضى . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الحولاني وكان من خيار العباد أنه رأى على باب بيت القدس واقفا كهية المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعته من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالكا منظره قلت أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك فقال يا أخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تسكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والحوام فهو خائف حذر

ويعلمون قتل يوما
لبعضهم أين إزارى
فقطبت من أعينهم .
وكان إبراهيم بن آدم
إذا صحبه إنسان شارطه
على ثلاثة أشياء أن
تكون الخدمة
والأذان له وأن تكون
يده في جميع ما يفتح
الله عليهم من الدنيا
كيده فقال رجل من
أصحابه أنا لأقدر على
هذا فقال أعجبني
صدقك . وكان إبراهيم
ابن آدم ينظر البسائين
ويحمل في الحصاد
وينفق على أصحابه .
وكان من أخلاق
السلف أن كل من
احتاج إلى شيء من
مال أخيه استعمله من
غير مؤامرة قال الله

يخاف أن يفشل فتغترسه السباع أو يسهو فتتهسه الهوام فهو مذخور القلب وجل فهو في الخفاقة ليله وإن أمن للفقرون وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولي وتركني ققلت لو زدني شيئا عسى ينفعني فقال الظلمان يحزبه من الماء أيسره وقد صدق فإن القلب الصافي يهركه أدنى عناية والقلب الجامد تنبو عنه كل اللواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفتسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمتلأت بصورها وأشكالها المواقفة لمانها تقرأ بينك العقارب والحيات وقد أهدقت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فإن أردت أن تقتلها وتظهرها وأنت قادر عليها قبل اللوت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصمم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

كتاب الفقر والزهد

(وهو الكتاب الرابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتكدك من هيئته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصالصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالقُدو والآصال ، ثم كل بصيرة المخلص في خدمته بنور المبرة حتى لاحظ بضائعه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال ، واستنقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستنقال ، وعثله ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجبت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب السكر والإغتيال ، ثم لا تجترى معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفوال ، زهدوا فيها زهد البعض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتربها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[أما بعد] فإن الدنيا عدوة لله عز وجل ضرور هاضل من ضل وبكر هازل من زل فخير رأس الخطايا والسيئات ، وبضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وضم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس النجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك قهرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا أو اسكل واحدا منهما درجتي نيل السعادات ، حفظ في الامانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودور جاتها وأقسامها وشر وطعها وأحكامها ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فقول : [الشطر الأول من الكتاب في الفقر] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

(كتاب الفقر والزهد)

تعالى - وأمرهم شوري بينهم - أي مشاعهم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسبون في إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصعبة قال أبو بكر الصكتاني صحبني رجل وكان على قلبي ثقباً فوهبت له شيئاً بنية أن يزوله فقلته من قلبي فلم يزل فخلوت به يوماً وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقات له لا بد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على النقي وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار النقي المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

(بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميهِ)

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما قد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو النقي المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداها فاتهم محتاجون إليه ليجدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى - والله النقي وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لنقص بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص وإلا فقير العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا تحصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن بيانه فقط فنقول: كل فاقد للمال فانا نسجه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لتتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قائما إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب له جزء وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وأهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسجه بالحريص . الخامسة أن يكون ماقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقدا تنفك هذه الحالة عن الرغبة . فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وقده فان وجد لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاه مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها قتالت خادماتها ما استطعت فبها فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما تطير عليه قتالت لو ذكرتي لعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائمه لم تضره إذ هو يرى الأموال في خزائنه الله تعالى لا في يده فله فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره وينبغي أن يصمى صاحب هذه الحالة المستغنى لأنه غنى عن قد السال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم النقي المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لاعتقائه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فانه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه وليس فاقدا له

حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والايثار بما وضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدرين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بدار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فبأشياء فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده ففناه إلى العموم أميل فهو إلى الفنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وإنما قرب البعد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليقى الفنى اسماء لمن الفنى المطلق عن كل شئ، وأما هذا البعد فان استغنى عن المال وجودا أوعدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب للقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعنته من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن فذلك لم يكن اسم الفنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا. واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه قصانا إذ حسان الأبرار سببات المقربين وهذا لأن الكارهة للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا يمد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب إليك من جبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهووات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا ■ فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول بنفسه عنه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمشتوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستغفله وكرهه حضوره فهو في حال اغتفال قلبه بغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغفله العشق لفعل عن غير المشتوق ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المشتوق لحبه عند حضور المشتوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبا إلا أن الشغل بحبا غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد والمشغول ببغضا غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود فالكمال له مرتبة لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالهبط والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبرها فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى الاستدبر إذ يرجى ■ الوصول إليها وليس محمودا بالإضافة إلى المتكف في الكعبة اللازمة لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عبث بل الدنيا هائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فيبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فاذن قد ظهر أن الزهد الدنيا أن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص وتقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يفيض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال
بأى عذر فقال بأنك
لقيت الجنيد ومالقيته
ومن أدبهم ترك محبة
من هم شئ من
فضول الدنيا قال الله
تعالى - فأعرض عن
تولى عن ذكرنا ولم يرد
إلا الحياة الدنيا -
ومن أدبهم بذل
الانصاف للاخوان
وترك مطالبة الانصاف
قال أبو عثمان الجيرى
حق المحبة أن توسع
على أخيك من مالك
ولا تطمع في ماله وتصفه
من نفسك ولا تطلب
منه الانصاف وتكون
تبعاله ولا تطمع أن
يكون تبعالك وتستكثر
ما يصل إليك منه
وتستقل ما يصل إليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا يغفل به على أحد فمكذبا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبره العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لعمالة ما دمت حيا كيايتك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى قال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للغير إذا ذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن المدون يوسوس لي أن الأص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زاده في الدنيا ما غابه من أخذها فينب أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والقصان . فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار . فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فقروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايات يدرونهم مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري المحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذا كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخذله المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والمهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لما سكو كما يفر للرجل المعز من بيدي أولاده من الحية للضعفه عن أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآوها فيه لم يكون والسير يسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والماء قد عرفت إذن أن الراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص ، وأما الضرر في تصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فإنه أحق باسم العبد من العاقلين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين وإذا عرفت هذا لا شك ففهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر (٢)»

(١) حديث إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب العيشة من عند البخاري تطبيقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بدومه الحديث ولهما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلاثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .

منك . ومن أدبهم في الصعبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قعة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أدبهم أن لا يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا ولت كان كذا وعسى أن يكون كذا فانهم يرون هذه التنديرات عليه اعتراضا . ومن أدبهم في الصعبة حذر المفارقة والحرص على الملازمة . قيل صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وإن كان

وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا »^(١) لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وميتى مسكينا »^(٢) إذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسما .

(بيان فضيلة الفقر مطلقا)

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض - ساق السلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أي الناس خير فقالوا مؤسرون المال يعطى حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا »^(٤) وقال عليه السلام « إن الله يحب الفقير التتفف أبا العيال »^(٥) وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائها بخمسةائة عام »^(٦) وفي حديث آخر « بأربعين خريفا »^(٧) أي أربعين سنة فيكون للراد به تقدير تقدم الفقير الحرص على النفي الحرص والتقدير بخمسةائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على النفي الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوت بين الفقراء في درجاتهم وكأن الفقير الحرص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسةائة ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »^(٨) فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته واللائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيى مسكينا وميتى مسكينا الترمذى من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا مؤسرون المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على الرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبي سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير التتفف أبا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائهم بخمسةائة عام الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخارى من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصحبه لأنك صعبتنا أولا فقال الرجل زال عن قلبي نية المفارقة . ومن أدبهم التمتطف على الأصغر . قيل : كان إبراهيم بن آدم يعمل في الحصاد ويطمع الأصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل فقالوا ليلة تعالوانا كل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فأفطروا وناموا وافرغ إبراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق فمجنه فانتبهوا وهو ينفع في النار واضنا

بل مخالف له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها
تم له الأفعال الخارقة للمعادات كما أن لنا صفة بهاتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة
وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بهايصر لللائكة ويشاهد كإن
البصير صفة بها يغارق الأعمى حتى يدرك بها البصيرات. والرابع أن له صفة بهايذكر ما سيكون في الغيب
إما في البقطة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم
ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى
خمسين وإلى ستين وبممكننا أيضا أن تكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تنفع الرؤيا الصحيحة
جزءا واحدا من حملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن
وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما العلوم مجامع الصفات
التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لإرشادنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء
لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحرامس مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد
حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقضى ذلك التقدم بخمسةائة عام فليس
في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والترض التنبه على
منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله
صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا من نصب النبوة عن ذلك. ولترجع إلى نقل الأخبار فقد
قال صلى الله عليه وسلم أيضا «خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضغفاؤها» (١) وقال
صلى الله عليه وسلم «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر
والجهاد» (٢) وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ
عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا (٣) وتكون معك أينما كنت فأشرق رسول
الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له وما لمن لا مال له ولها جمع من
لا عدل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك بالقول الثابت. وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في
سياحته برجل نام ملتف في عبادة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذا ذكر الله تعالى فقال ما تريد مني؟ إلى
قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نام على التراب
وتحت رأسه لينة ووجهه ولحيته في التراب وهو مزر بعبادة فقال يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع
فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت أتى إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا
كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه
فأرسلني إلى رجل من يهودي خير وقال قل له يقول لك محمد أسلفني أو بني دقيقا إلى هلال رجب
قال فأتيته فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله
إني لأمين أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأدبت إليه اذهب بدمعي

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضغفاؤها لم أجده له أصلا (٢) حديث
إن لي حرفتين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال
إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه إن الدنيا دار
من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي
ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن
ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم في فم الدنيا.

عاشته على التراب قالوا
له في ذلك قال قالت
لعلكم تجدوا فطورا
فتمنم قالوا انظروا
بأى شيء عاملناه
وبأى شيء ياملنا.
ومن أدبهم أن لا يقولوا
عند الدعاء إلى أين ولم
وبأى سبب قال بعض
الملاء إذا قال الرجل
لصاحب قم بنا فقال
إلى أين فلا تصعبه.
وقال آخر من قال
لأخيه أعطني من
مالك فقال كم تريد
ما قام بحق الإخاء وقد
قال الشاعر:
لا يسألون أخام حين
يندبهم
لنائبات على ما قال برهانا
ومن أدبهم أن
لا يشكفوا للاخوان

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم وزهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تمزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين بالمؤمن من المدار الحسن على خد القرس (٢)» وقال عليه السلام «من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كتب الأخبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا قتل مرحبا بشمار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرني من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك قال الله تعالى للدلائكة اكشفوا العبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من السكرامة ولذلك من الهوان قال رضيت يا رب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلمت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أبن الأغنياء قليل جسمهم الجدة» وفي حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء قللت ما شأنهن قليل شغلن الأحرار الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل النقي الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا قتل مرحبا بشمار الصالحين وإذا رأيت النقي مقبلا قتل ذنب عجلت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبه لأجلك فقال: كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم - الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين بالمؤمن من المدار الحسن على خد القرس الطبراني من حديث عداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه الحديث الترمذي وقد تقدم (٤) حديث اطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت بني عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الحولاني (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا قتل مرحبا بشمار الصالحين وإذا رأيت النقي مقبلا قتل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي برداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كتب

قيل لما ورد أبو حفص
المسراق تكلف له
الجيد أنواعا من
الأطعمة فأنكر ذلك
أبو حفص وقال صبر
أصحابي مثل الخائض
يقدم لهم الألوان
والفتوة عندنا ترك
التكلف وإحضار
ما حضر فإن بالتكلف
ربما يؤثر مفارقة
الضيف وبترك
التكلف يستوى
مقامه وذهابه ومن
أدبهم في الصعبة
المدارة وترك المداينة
وتشبه السدادة
بالمداهنة الفرق بينهما
أن للمدارة ما أردت
به صلاح أخيك
فدأرت له لرجاء صلاحه
واحتملت منه ما تكره

عليه وسلامه إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسماء إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا يجيئون إليك ولا يجيئون ينعون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس النخعي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فزل عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى - عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر نتفحه الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فأنته له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي ﷺ أنه قال « يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من السكرامة والفضيلة أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي غدا يده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندكم الأيادي فان لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

الأخبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سامان (٢) حديث استأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش ونزول - قوله تعالى - عبس وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك على الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول قراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتمت اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسأني في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندكم الأيادي فان لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا إلى الفقراء فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى

والدهانة ما قصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه . ومن أدبهم في الصبغة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط . قل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكان بين المنقبض والنبسط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونعطيه فقال بل نكشفون عورته

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فاذا بلال ونظرت في أعلاها فاذا قراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فاذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقلت يارب ما شأنهم قال أما النساء فأضربهن الأحمران الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ونفدت أمهاتي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خافك عني قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت للشياطين وظننت أنني لأراك » فقلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي ^(١) فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابجة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة ^(٢) وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ^(٣) » ومع هذا فقد استضرى بالنفي إلى هذا الحد » ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم ^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم «الأنبياء هم ملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أنتم على الله لأبره ^(٥) » وقال عمران ابن حصين «كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقت معه حتى وقف يباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بشك بالحق نيا ماعلى إلا عبادة قال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف يرأسى فالتفت إليها ملاء كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابتناء كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجمة وزادني وجعا على ما بي أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضربني الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا ابتناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك ولوسألت ربي لأطعمني ولكني أثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب يده على منكبها وقال لها أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنك في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقمنى بآبن عمك

إلى أخيه في الدنيا [١] (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فاذا بلال ونظرت إلى أعلاها فاذا قراء أمي وأولادهم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث إلا من قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده (٥) حديث الأنبياء هم ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقلوا ملوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الأنخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبي العباس بخط بعض الفضلاء حديث اتخذوا مع الفقراء أيادي وكذا حديث الفقر فضرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت في كلام له آخر .

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهور النيب والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع الكاره عنهم . حكى أن أخوين اتسلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إني ابتليت بهوى فان شئت أن لا تقعد على محبتي لله فافعل فقال ما كنت لأحل عقد إخالك لأجل خطيئتك

وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمافيه الله تعالى من هواه وطوى أربعين يوما كلا يسأله

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١) وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدرهم درهم الله بأربع خصال بالقسط من الزمان والجور من السلطان والحيانة من ولادة الأحكام والشوكة من الأعداء (٢) . وأما الآثار فقد قال أبو العبداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشد حسبا أو قال أشد حسبا من ذي الدرهم ، وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرني درعك الخلق فشقه وجهه صررا وفرقه ثم قام يصلي ويكفي إلى العداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بمئة سنة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣) » وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يفسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتكم ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم قراء لكثرة تفرقه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال للؤمل ما رأيت النقي أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله . وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منها جميعا ولو رغب في الجنة كما يرغب في النقي لفاز بها جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسمع في الدارين جميعا وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالنقي وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه : لا تحقرن أحدا خلقنا نيا به فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين ، وفي الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبا ، ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحا تظفرين عليه وكانت صائفة فقالت لو ذكرتني لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحق بى فطيك ببش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعه (٤) » وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بشرة آلاف درهم لأفضل ذلك أبدا رضي الله عنه .

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في حياة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جملة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمئة سنة عام الحديث وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء حزينا وفرقا ، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تسلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بمئة سنة عام فهو الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقين . (٤) حديث قال لعائشة إن أردت اللحق بى فطيك ببش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم .

عن هواه يقول ما زال فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال فأكل وشرب . ومن أدبهم أن لا يحوجوا صاحبهم إلى الداراة ولا يلجئوه إلى الاعتذار ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد صاحب على مراد أنفسهم قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شر الأصدقاء من حوجك إلى مداراة أو الجألك إلى اعتذار وتكلفت له . وقال جعفر الصادق أنقل إخواني على من يتكلف لي وأحفظ منه وأخفهم على قلبي

بيان فضيلة خوص الفقراء من الراضين والقانين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (١) »
وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تطفروا بثواب فقركم وإلا فلا (٢) »
قال أول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لأتواب له على فقره ولكن الصومات
الورادة في فضل الفقر تدل على أن « ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل الراد بعدم الرضا والكراهة تفعل
الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في ضله
فذلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم على جلاء
الله تعالى يوم القيامة (٣) » وروى عن طي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى
الفقر القانع برزقه الراضى عن الله تعالى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد
كفافا (٥) » وقال « ما من أحد غنى ولا فقير إلا يؤد يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا (٦) » وأوحى الله
تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال
صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يوم القيامة
أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون
بقدرى أدخلهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون (٨) » فهذا في
القانع والراضى . وأما الزاهد فستذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار
في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن
الطمع قهر والياس غنى وإنه من يقس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله
تعالى عنه ما من يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال
أبو النرداء رضى الله تعالى عنه ما من أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أته الدنيا بالزيادة ظل فرحا
مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمرهم لا يحزنه ذلك ويع ابن آدم ما ينفع مال يزيد عمره ينقص وقيل
لبعض الحكماء ما ألقى قال قللة تمنك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن آدم من أهل النعم بخراسان
فبينما هو يشرف من قصره ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل
نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فأتني به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٢) حديث
يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث
أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى منهم بالكذب ووضع الحديث
(٣) حديث إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى في غرائب مالک
وأبو بكر بن لال في مقام الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .
(٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند
ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير للتعفف (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من
حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود
يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل
من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتي من خلقي
فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

من أكون معه كما
أكون وحدي فأدأب
الصحة وحقوق
الأخوة كثيرة
والحكايات في ذلك
يطول نقلها وقد رأيت
في كتاب الشيخ أبي
طالب المكي رحمه الله
من الحكايات في هذا
المعنى شيئا كثيرا قد
أودع كتابه كل شئ
حسن من ذلك وحاصل
الجميع أن العبد ينبغي له
أن يكون لمولاه ويريد
كل ما يريد لمولاه
لأنفسه وإذا صاحب
شخصا تكون محبته
إياه لله تعالى وإذا أحببه
الله تعالى يجتهد له في كل
شئ يزيد عند الله
زلفى وكل من قام
بحقوق الله تعالى يرزقه

قال نعم قال فشبهت قال نعم قال ثم تمت طيبا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدين والنفس تنفع بهذا القدر ومصر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبلا قال له يا عبد الله أَرْضَيْتَ مِنَ الدِّينِ بِهَذَا قَالَ لَا أَدْلَكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بَشَرًا مِنْ هَذَا قَالَ بَلَى قَالَ مَنْ رَضِيَ بِالدِّينِ عَوْضًا عَنِ الْآخِرَةِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَخْرُجُ خَبْرًا يَأْسَا فِيهِ بِالْمَاءِ وَيَأْكُلُهُ بِالْمَلْحِ وَيَقُولُ مَنْ رَضِيَ مِنَ الدِّينِ بِهَذَا لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى أَحَدٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَنْ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى ثُمَّ لَمْ يَصْدُقُوهُ ثُمَّ قَرَأَ - وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ - الْآيَةَ . وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ لَهُ أَجْلِسْ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَاللَّهُ مَا فِي الْبَيْتِ هَفَةٌ وَلَا سَهْفَةٌ فَقَالَ يَا هَذِهِ إِنْ بَيْنَ أَيْدِيْنَا عَقِبَةٌ كَثُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ غَنَفٍ فَرَجَتْ وَهِيَ رَاضِيَةٌ وَقَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الْكَفَرِ ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ مَا مَالُكَ فَقَالَ التَّجَمُّلُ فِي الظَّاهِرِ وَالْقَصْدُ فِي الْبَاطِنِ وَالْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَرَوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ الْمَزُولَةِ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَكَ لَيْكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَوْتُ فَإِذَا أَنَا أُعْطَيْتُكَ مِنْهَا الْقَوْتُ وَجَعَلْتُ حَسَابَهَا عَلَى غَيْرِكَ فَأَنَا عَمَّنْ إِلَيْكَ وَقَدْ قَبِلَ فِي الْقَنَاعَةِ :

اضرع الى الله لاتضرع الى الناس واقنع بياس فان العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذى رحم إن النقي من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والهدى يرمقه	بمقدرا أئى باب منه يضلعه
مفكرا كيف تأتبه منيته	أغاديا أم بها يسرى فطرعه
جمعت ما لا تقل لي هل جمعت له	يا جامع المال أيا ما تفرقه
للك عندك عزون لو ازمه	ما للمال مالك إلا يوم تنفقه
أرعه يبال فنى يمدو على ثقة	أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالمرض منه مصون ما يدنس	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يهلل بساحتها	لم يبق فى ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على النقي

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيذ والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء النقي الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيذ دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته عنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والنقي إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : أما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أوراض بالاضافة إلى غنى منفق ماله في الخيرات ليس حريصا على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من النقي الحريص المسك وأن النقي المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن النقي أفضل من الفقير لأنهما تساويا في ضيف الحرص على المال والنقي متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما النقي المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فسلمهم كلمات في التوبيخ وذكر لهم أنهم يبالغون بها فوق ما ناله الأغنياء فلم يلبس الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعبودها ويصرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة وبفقهه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبت النفس وعدم تركيتها وبقائه صفاتها عليه فان صحبت ظلمت بالافراط نارة بالتفريط أخرى وتهدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايات وللواعظ والآداب وصماعها لا يعمل في النفس

فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١) وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الثنى أفضل لأنه وصف الحق أماديله الأول ففيه نظر لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الثنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال «بثت الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال إني رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحبون ولا تقدر عليه ويتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا بشوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الثنى سبحان الله والمحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الثنى بالفقير ولو اتفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا (٢) فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الثنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أتري أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فاقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات الصودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا يبغي أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته (٣)» وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنها من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الثنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضها إذ كما يناقض قول من فضل الثنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الثنى لأنه وصف للعبد بالعلم والعزفة فانفرد وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد له بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والله تعالى يستغذرة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوب لعينه لكن لأنه فيه قد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل — وكمن غنى لم يشغله الثنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكمن فقير شغله الفقر وصرفه عن القصد وغاية القصد في الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بثت الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحبون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والعروف في هذا الثنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى قراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا مبشر الفقراء ألا أجزكم أن قراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري تقدم في العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون
كبر يقلب فيه اللاء
من فوقه فلا يمتك فيه
ولا ينتفع به وإذا
أخذت بالتقوى والزهد
في الدنيا نبع منها ماء
الحياة وتفقهت وعلمت
وأدت الحقوق وقامت
بواجب الآداب
بتوفيق الله سبحانه
وتعالى .

[الباب السادس
والحسنون في معرفة
الانسان نفسه
ومكاشفات الصوفية
من ذلك]

حدثنا شيخنا أبو
النجيب السهروردي
قال أنا الشريف نور
الهدى أبو طالب الزيني
قال أنا كريمة للرواية
قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا إن فرضت لارغبين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من قده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لاسيلا للفقر وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقه الآدميين كلهم إلا الشاذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب التسرع مع الكل لامع ذلك النادر «الضراء» أصح لكل دون ذلك النادر زجر التسرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال للشيخ عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم ينهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تغليب الأموال يعص حلاوة الإيمان وفي الخبر «إن لكل أمة مجلا ومجلا هذه الأمة الدينار والدرهم» (١) وكان أصل مجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء اللال واللآلئ والذهب والحجر إنما يتصور لأنبياء عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا «إليك غنى» (٢) إذ كانت تمثل له زينتها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري وبياضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولأن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى للطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس» (٣) وإذا كان ذلك بعيدا فاذا الأصلح لكافة الخلق قد لال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشمار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهمها انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لاهالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره قد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلها مثل الشرق والقرب فانهما جبهتان فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فاذا فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا موزلة قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

(١) حديث لكل أمة مجل ومجلا هذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إيلك غنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

النكش مني قال أخير

أبو عبد الله القريري

قال أنا أبو عبد الله

البخاري قال ثنا عمر

ابن حفص قال ثنا أبي

قال ثنا الأعمش قال

زيد بن وهب

قال ثنا عبد الله قال

ثنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو الصادق

للصدوق قال «إن

أحدكم يجمع خلقه في

بطن أمه أربعين يوما

نطفة ثم يكون علقه

مثل ذلك ثم يكون

مضغة مثل ذلك ثم

يمش الله تعالى إليه

ملكاً بأربع كلمات

فيكتب عمله وأجله

ورزقه وشق أم سعيد ثم

ينفخ فيه الروح وإن

الرجل يعمل بعمل

عن المال ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقد فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً فكم من رجل باع سرية لله لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتملت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغروراً وأن العشق كان مستكناً في القواد استكناً النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدينا أضعف وقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيبته وعبادته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعينها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتنثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من العمر بالسلك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصر وأحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضرت بي العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فإن دعائك أفضل من دعائي وكان يقول مثل التقي المتعبد مثل روضة على منزلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحساء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء . وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الدلالة عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن قد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال التقي أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حانوناً على باب المسجد ولا تخطئي فيه صلاة وذكر وأربع كل يوم خمسين ديناراً وأصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس و فراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن التقي وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعنده جميعاً بأن يستوى عنده كلاًهما فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقاءه فلا يضاهاه غناء غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الردّ عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى بريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له أي يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فليق به ، نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأمور

أهل النار حتى ما يكون
بينه وبينها إلا ذراع
فيسبق عليه الكتاب
فيعمل بعمل أهل الجنة
فيدخل الجنة وإن
الرجل يعمل بعمل
أهل الجنة حتى
ما يكون بينه وبينها
إلا ذراع فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل
أهل النار فيدخل النار
وقال تعالى - ولقد
خلقنا الإنسان من
سلالة من طين ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين -
أي حرز لا استقرارها
فيه إلى بلوغ أمدها ثم
قال بعد ذكر قلبها تمسك
أنشأناه خلقاً آخر - قيل
هذا الانشاء نفع الروح
فيه - واعلم أن الكلام
في الروح صعب الرام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتليس فلي
العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والطمع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانسان
أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محففة
لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولا تقة به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان
موقوف على الحاجة وليس يدري الحاجة كيف تكون وكيف تنفق فلجهله بذلك وجب أن لا يستند
لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يختم للكافر بالإيمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به
لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه من
صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم قصصا في حقه إذ ليس
من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الأمور التي لا تضر فيها هي التي تصور في العبد من صفات
الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذن لو استوى عنده وجود
السال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو
فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .
[المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص] ونفرض هذا في شخص واحد
هو طالب المال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأى حالته أفضل فنقول :
نظروا فان كان مطلوبه ما لا يد منه في العيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه
فحال الوجود أفضل لأن الفقير يشغل بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والتدبر إلا قدر تم دخوله
بشغل والسكنى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » وقال « كاد
الفقر أن يكون كفرا » أي الفقر مع الاضطراب فيما لا يد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان
المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح
لأنهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق
الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمصيبة بسبب الفقر والغنى ولكن افرقا في أن الواحد
يأمن بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون
الدنيا عنده كالسجن الذي يفي الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما
أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لا محالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد
أنسه بالدنيا وقد قال ﷺ « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »
وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو
الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك
تعبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذما في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر
من أنس الفاقدها وإن كان حرصا عليها فاذن تدانك كشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل
والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود
والعدم فيكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم والثاني الفقر عن
مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يفي حياته
ثم يستعين بهوته وحياته على الكفر والمعاصي ولومات جوعا لكانت مصابه أقل فالأصلح « أن يموت
جوعا ولا يهدم ما يضطر إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على

والامساك عن ذلك
سبيل ذوى الأحلام وقد
عظم الله تعالى شأن
الروح وأسجل على
الخلق بقلة العلم حيث
قال - وما أوتيتم من
العلم إلا قليلا - وقد
أخبرنا الله تعالى في كلامه
عن إكرامه بنى آدم
قال لو قد كرمنا بنى
آدم - وروى « أنه لما
خلق الله تعالى آدم
وذكرته قالت الملائكة
يا رب خلقتهم يا كلون
وهم يرون وينكحون
فاجعل لهم الدنيا ولنا
الآخرة فقال وعزنى
وجلالى لأجل فريضة
من خلقت يدي كمن
قلت له كن فكان « فلع
هذه الكرامة واختياره
سبحانه وتعالى بإمام على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .

طلب المال ليس له هم ضواء وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال
لوقته كتنجيع الفقير بقمره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تنجيهما
لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تنجيهما بفقدته والمعلم عند الله تعالى فيه .

(بيان آداب الفقير في قمره)

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره وعنايته وأفعاله ينبغى أن يراعيها فأما أدب باطنه فإن لا يكون
فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لا يكون كارهها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله
إن كان كارهها للفقر كالمحبوم يكون كارهها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهها فعل الحجام ولا كارهها
للحجام بل ربما يتفقه منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب وتحيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو
معنى قوله عليه السلام «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من فلوكم تنظروا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع
من هذا أن لا يكون كارهها للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعله يتوالت
الغنى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقاه في قدر ضرورته أنه يأتيه لاحتالة ويكون كارهها
لزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه «إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن
علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ولا يشكو حاله» يشكر الله تعالى على
قمره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويصمى به بترك طاعته ويكثر الشكاية
ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر
ويرضى لعله بشمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ على ثلاثة أثلاث: شغل ومطول
حساب . وأما أدب ظاهره فإن يظهر التمعف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر قمره ويستر أنه
يستره في الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير التمعف أبا العيال» وقال تعالى «بحسبهم الجاهل الأغنياء من
التمتع» وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند الحاجة وقال بعضهم ستر الفقر من كذا وزير . وأما في أعماله
فأدبه أن لا يتواضع لشيء لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير
رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها
أن لا يخاطب الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير
الأغنياء فاعلم أنه مرء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء
انحلت عروته فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق
مداينة للأغنياء وطعماً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فإن لا يفترب بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك قليل
ما يفضل عنه فإن ذلك جهد للقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل
وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل
درهماً من درهمين لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف (١)»
وينبغي أن لا يدخر ما لا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات إحداها أن
لا يدخر إلا اليوم وليته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل
في طول الأمل وقد فهم العلاء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال
أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في
الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسل .

الملائكة لما أخبر عن
الروح أخبر عنهم بقلة
العلم وقال - ويستلونك
عن الروح قل الروح
من أمر ربى - الآية قال
ابن عباس قالت اليهود
لنبي عليه السلام
أخبرنا ما الروح وكيف
تمدب الروح التي في
الجسد وإنما الروح
من أمر الله ولم يكن
نزل إليه فيه شيء فلم
يجيب فأتاه جبرائيل
بهذه الآية وحيث
أمسك رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن
الإخبار عن الروح
وما هيته بأذن الله تعالى
ووحيه وهو صلوات
الله عليه معدن
العلم وينبوع الحكمة
فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة التقيين والثالثة أن يدخر لسته وهي أقصى للراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فتنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهم كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهم قوت أربعين يوما وبعضهم يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس اللالو غرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو التذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزجها ببقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فإن كان فيها منة فالأولى تركها فإن علم أن بعضها مما عظم فيه للمنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال « لقد هممت أن لأتهدب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي » (٤) وقيل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح اللوصلي صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أتاه رزق من غير مسألة فرده قائما يرده على الله » (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزما من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من ممن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وإمام الله لا قبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يسكنون مهاجريا الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالعمدة (٤) حديث لقد هممت أن لأتهدب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسل من أناه رزق من غير وسيلة فرده قائما يرد على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلخ معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده قائما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من أتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ الحديث .

الحوض فيه والاشارة
إليه لاجرم لما تناقضت
الأنفس الانسانية
للتطلعة إلى الفضول
المتشوقة إلى للعقول
المتحركة بوضعها إلى
كل ما أمره بالسكون
فيه وللصورة محورها
إلى كل تحقيق وكل
تمويه وأطلقت عنان
النظر في مسارج
التفكير وخاضت غمرات
معرفة ماهية الروح
ناهت في التيه
وتنوعت آراؤها فيه
ولم يوجد الاختلاف
بين أرباب النقل
والعقل في شيء
كالاختلاف في ماهية
الروح ولو زومت النفوس
حدها معرفة بجزءها
كان ذلك أجدر بها

وفدكان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه
وبعرض عليه غيرهم للثمن فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول أركه عندك
وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل من قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا ، وأما هذا
أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى المنفعة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم
أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط
شيئا إلا سرى السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم
ببقيته عنده فأكون عوناً له على ما يحب ، وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله وسأله أن يأكله
فقال أفرقه على الفقراء . فقال ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه
في الحل والبقول بل في الحلوات والطيبات فقبل ذلك منه . فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن على
منك ، فقال الجنيد ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجد وذلك صدقة
وزكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد
ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يطيه لدينه فليُنظر إلى باطنه ،
فإن كان مقارفا لمصلحة في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لفرط طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق
عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة
فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ،
إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ، ويقول : لو علت أنهم
لا يدكرون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أرد
صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط
أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه
فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ . قال النبي
صلى الله عليه وسلم « ما للمعطي من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله
عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله
إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يسطو وقد
كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فردّه مرة ، فقال له السري :
يا أحمد احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ما قلت فأعاده ، فقال أحمد
مارددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر فأحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فأفذه إلى ، وقد
قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما
إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يغلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء
والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه
إن كان طالبا لطريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان
أوداع إليه ، ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في الملاينة

(١) حديث ما للمعطي من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا للطيراني من حديث ابن عمر
وقد تقدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو
رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يرد تقدم قبل هذا بحديث .

وأولى فأما أقول
من ليس متمسكا
بالشرائع فنزله
الكتاب عن ذكرها
لأنها أقوال أبرزتها
العقصول التي ضلت
عن الرشاد وطغت
على الفساد ولم يصبا
نور الاهتداء ببركة
متابعة الأنبياء فهم كما
قال الله تعالى - كانت
أعينهم في غطاء عن
ذكرى وكانوا
لا يستطيعون سمعا - .
وقالوا قلوبنا في
أكنة مما تدعونا
إليه وفي آذاننا وقر
ومن بيننا وبينك
حجاب - فلما حببوا
عن الأنبياء لم يسمعوا
وحيث لم يسمعوا لم
يهدوا فأصروا على

ويرد في السر أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمه الله فأنما كان لاستثنائه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرش لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره فإن في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعدتها للإتقاف في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي أما جائع كما ترى عريان كما ترى لها ترى فيها ترى يامن يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خفقان لاتسكاد قواريه قلت في نفسي لا أجد لدرأهمي موصلا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال « أربعة ثمن مؤثرين ودرهم أخقه ثلاثا فلا حاجة بي إلى الباقي فردته . قال فرأيت اليلة الثانية وعليه مؤثران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخذه خش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فوهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأن هذه أقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة « نعمة ، وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رقتا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب (١) » فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تمس الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للمقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك قلة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بمحقوق الفقراء وتمهد جماعة من الصالحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحاو في قلبك فتصمكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتعم في اللطم والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فإن رزقه الله ممن حلال قضاءه وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى ■ وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يفر للقرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وخسبوا
بالمقول عن المأمول
والعقل حجة الله تعالى
يهدي به قوما ويضل
به قوما آخرين فلم
تنقل أفوالهم في الروح
واختلافهم فيه . وأما
المتهم بكون الشرائع
الدين تكلموا في الروح
قعود منهم بطريق
الاستبدلال والنظر
وقوم منهم بلسان
الدوق والوجد
لا باستعمال الفكر
حق تكلم في ذلك
مشايخ الصوفية أيضا
وكان الأولى الامساك
عن ذلك والتأدب
بأدب النبي عليه الصلاة
والسلام ، وقد قال
الجنيد : الروح شيء
استأثر الله بصله ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .

ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله - قبل معناه ليعب أحد توبه وقيل معناه فليستقرض
بجاهه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم إن الله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم والله عباد ينفقون
على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله ثلاث طوائف الأقوياء والأغنياء والأغنياء
قيل من هؤلاء . قال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل حسن الظن بالله
تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط في وفي المال وفي
المعطي فليأخذه وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي لأن المعطي واسطة قد سخر للعطاء وهو
مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات . وقد حكى أن بعض الناس دأبهم
في خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائة حسنة فلما تصدق لأصحابه إن هذا الرجل يقول من لم يرى
صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام قماموا كلهم وخرجوا إلا ما باعهم كان ذنبهم في الدرجة
قال صاحب الترتل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أخبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى
عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغدوني هذا يوما وشيئني هذا ليلة
فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا
فيهم فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر ما جور من الله تعالى نساء الله حسن التوفيق لما يرضاه .
(بيان تحرير السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير للضرر فيه)

اعلم أنه قد وردت منه كثيرة في السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذا قال صلى الله عليه
وسلم : «السائل حق ولو جاء على فرس» (١) وفي الحديث «ردوا السائل ولو بظلف عرق» (٢) ولو كان
السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة للتمدى على عدوانه والإعطاء إعانة فالكاشف للنطاء فيه أن السؤال
حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قرية من الضرورة فإن كان عنها بد فهو حرام
وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشكوى من الله
تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عن هو عين الشكوى وكما أن العبد للملك
لو سأل لكان سؤاله تشييعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشييع على الله تعالى وهذا ينبغي أن
يحرم ولا جعل إلا للضرورة كما فعل لليلة . الثاني أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس
لغيره من أن يدل نفسه لغير الله بل عليه أن يدل نفسه لمولاه فإن فيه عزه فأما سائر الخلق فانهم
عباد أمثاله فلا ينبغي أن يدل لهم إلا للضرورة وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى السؤال . الثالث
أنه لا ينفك عن إيذاء للسؤال غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب منه فإن يدل
حياء من السائل أورياه فهو حرام على الأخذ وإن منع ربما استجبا وتأذى في نفسه بالمنع إذ
يرى نفسه في صورة البخل في البخل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل
هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا للضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي
وفي الأول يدل على أن يحيى جبهه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما
أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه ينافي عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث
تدور في الأمواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث
الحسين بن علي في مسنده (٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف عرق أبو داود والترمذي وقال
حسن صحيح والنسائي واللفظ له من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

تجاوز العبارة عنه
بأكثر من موجود
ولكن نجعل للصادقين
محلا لأقوالهم وأفعالهم
ويجوز أن يكون
كلامهم في ذلك بمثابة
التأويل لكلام
الله تعالى والآيات
المتروكة حيث حرم
تفسيره وجوز تأويله
إذ لا يوسع القول في
التفسير إلا لثقل وأما
التأويل فتقتد
القول إليه بالباع
الطويل وهو ذكر
ما تحتل الآية من
الغنى من غير القطع
بذلك وإذا كان الأمر
كذلك فالقول فيه
وجهه ومحل . قال
أبو عبد الله النجاشي
الروح جسم بلطف

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها» (١) فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كإباحة شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم» (٢) «ومن سأل وله ما يفيده ما جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتققع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه» (٣) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» (٥) وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى» (٦) «ومع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عشى الرجل فغناه ثم صمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عشى الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فإذا تحت يده محلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ الخلة وثرها بين يديه إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولأن سؤاله كان حراما لما ضرب به ولا أخذ محلاته ولعل الفقيه الضعيف للثة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استجداد مصدره التصور في الفقه فأين يظهر قبحه الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأطاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أقرى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة وأعلم ذلك ولكن أقم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعيها نبي الله وهبها فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذي لاح فيه أنه رأى مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالا لا مالك له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعطفها من الصالح ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ المولى بقوله إني علوى وهو كاذب فإنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفي الصالح الذي يسطى لصلاحه وهو في الباطن مقارفا لمعصية لوعرفها العطف لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة ولمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثر وأنما يسأل جمر الحديث وللبرار والطبراني من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفي إسناده لين ولشبهخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفيده كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم في الزكاة (٤) حديث بايع قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه وبقيمهم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البرار والطبراني من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله في حديث فتففوا ولو يحزم الخطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ.

عن الحسن ويكبر عن الناس ولا يجبر عنه بأكثر من موجود وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه . وقال ابن عطاء خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى - ولقد خلقناكم - يعني الأرواح - ثم صورناكم - يعني الأجساد . وقال بعضهم الروح لطيف قائم في كسيف كالبرجوه ر لطيف قائم في كسيف وفي هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يحمل على معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يعلكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بفعلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن اتقى إيمان أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال . أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح ومما وجدت بقية الشروط في السئول بكونه مباحا والسئول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطلال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالورقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذا طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فمكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا فيص نخها في الشتاء وهو تأذي بالبرد تأذي لا ينتهي إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشئ بمشقة فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذي أذى أطيعه ولكن يشق على فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الحروق من ثيابه عن أعين الناس وكن يسأل لأجل الأدم وهو واحد للخبز وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واحد كراء الحمار أو يسأل كراء الحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شئ من المذورات الثلاثة من الشكوى والدلل وإيذاء السئول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المذورات وإن لم يكن فيها شئ من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فإن قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المذورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الدلل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخي الذي قد أعد ماله لكل هذه الكرام فيخرج بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عند الدل بذلك فإن الدل لازم للنة لا محالة . وأما الإيذاء فسييل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تمرضا يقي له سبيلا إلى التعاقل إن أراد فإذا لم يتعافى مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغي أن يسأل من لا يستجيب منه لورده أو تخاف عنه فإن الحياء من السائل يؤدي كأن الرياء مع غير السائل يؤدي . فإن قلت فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولا لما ابتدأ به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة
الحي كالخلق صفة
الخالق وقال قتل الروح
من أمر ربى - وأمره
كلامه وكلامه ليس
بمخلوق أى صار إلى
حيا بقوله كن حيا
وعلى هذا لا يكون
الروح معنى في الجسد
فمن الأقوال ما يدل
على أن قائله يستفد قسم
الروح ومن الأقوال
ما يدل على أنه يستفد
حدوثه ثم إن الناس
مختلفون في الروح الذى
مثل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عنه
فقال قوم هو جبرائيل
وتدل عن أمير المؤمنين
على أن طالب رضى
الله عنه أنه قال هو
ملك من الملائكة ■

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قدرضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »^(١) فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجح أن كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أقنوك وأقنوك فإن الملقى معكم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفاتيح القلوب هم علماء الآخرة وبفتوهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يشبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن هديته فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فإن قلت فهذا أمر باطن بعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أن مرض ولا يكون هو في الباطن راضيا . فأقول لهذا ترك التقون السؤال رأسا لما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرج بخروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا لأن الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح أكل لحم الخنزير وأكل لحم البنية فكان الامتناع طريق الورع ومن أبواب القلوب من كان وانما يصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بضا ويرد بضا كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لأن أبواب القلوب علوا أن الطلب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا بأخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم فإذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال . وحده إباحة السؤال أن تعلم أن السئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا يتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويسلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سحت وتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الاتم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فإن قوى الحرس وضعفت الفطنة رأى له ما يوافق غرضه فلا يشغلن لقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه »^(٢)

سبعون ألف وجهه
ولكل وجه منه
سبعون ألف لسان
ولكل لسان منه
سبعون ألف لغة يسبح
الله تعالى بتلك اللغات
كلها ويخلق من كل
تسبيحة ملكا يطير مع
اللائكة إلى يوم
القيامة . وروى عن
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما أن
الروح خلق من خلق
الله صورهم على صورة
بنى آدم وما نزل من
السما ملك إلا ومعه
واحد من الروح وقال
أبو صالح الروح كهيئة
الإنسان وليسوا بناس
وقال مجاهد الروح على
صورة بنى آدم لهم أيد
وأرجل . وروى

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلا وكذا قال المزني لما سئل عنه.

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

وقد أوتي جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته يأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فقت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلال أنت أو مورثك فاذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يحنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير .

(بيان مقدار النفي المحرم للسؤال)

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فأجاب سأل جراً فليستقل منه وأليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حد النفي مشكل وتقديره عسير وليس إلينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث « استغنوا بغير الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداً يوم وعشاء ليلة ^(١) » وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب قد سأل إلخافاً ^(٢) » وورد في لفظ آخر « أربعون درهماً » ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبى أن يقطع بوزودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير مجتمع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم عليه وثوب يوارى به عورته ويبت يكتنه فإزاد فهو حساب » فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للسافر إذا كان لا يقدر على الشيء وكذلك ما يجري مجراه من اللهجات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالاته كالدابة أيضاً . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومدراس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكفي فيه الخرف فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعر والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالسكية إضرار في طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأنه ما يجزى من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة إلى الأوقات لما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يكتنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداهما ما يحتاج إليه في غد . والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً . والثالثة ما يحتاج إليه في السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفيه . ولما لا إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فإن ذلك غاية النفي وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث فإن خمسة دنائير تكفى للفرد

(١) حديث استغنوا بغير الله قالوا وما هو قال غداً يوم وعشاء ليلة تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما يفتيه قال ما يفتيه أو يفتيه ولأحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة . (٢) حديث من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب قد سأل إلخافاً وفي لفظ آخر أربعون درهماً تقدماً في الزكاة .

ياكلون الطعام وليسوا
بلائكة وقال سعيد
ابن جبير لم يخلق الله
خلقاً أعظم من الروح
غير العرش ولوشاء
أن يبلغ السموات
والأرضين السبع في
لقمة لصل صورة
خلقه على صورة
اللائكة وصورة
وجهه على صورة
الآدميين يقوم يوم
القيامة عن عرش العرش
واللائكة معه في صف
واحد وهو بمن يشفع
لأهل التوحيد ولولا أن
بينه وبين اللائكة
ستراً من نور لحرق
أهل السموات من
نوره فهذه الأقاويل
لا تكون إلا قتلاً وسماً
بلفهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما للميل فربما لا يكتفي بذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادرا على السؤال ولا نفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكتفي به يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يسطيه لو أخر فتباح له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يجنيه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مألجه السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يحل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي اللذة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا قبل الضبط وهو منوط باجتهاد المبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستغنى فيه قلبه ويسمى به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بجبري الرزق في المستقبل ثم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك **الله** ولعلك إلا من ضعف اليقين والاصفاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافونم وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفتشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - والسؤال من الفتشاء التي أيجت بالضرورة وحال من يسأل حاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاما مباحا في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بطلفه وكرمه .

(بيان أحوال السائلين)

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القرين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط الرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا وظن أنهم لما وسفهم ترك السؤال قد أتى عليهم غاية التناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا وقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة أقسامها واختلاف درجاتها فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يرتقي إلى أعلى عليين ومن لا يعز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وإنما الشك فيمن عرف ذلك فإنه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا إسحق النوري رحمه الله عديده ويسأل الناس في بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستجبته له فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فإن النوري لم يسأل الناس إلا لمطيمهم وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المولى هي العليا (١) » فقال بعضهم يد المولى هي يد الآخذ للمال لأنه يسطى الثواب والقدره

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح للسؤل عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح التي في الجسد فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يمر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه الدلالة قيل فمن أى شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامة وسياها بكلامه

(١) حديث يد المولى هي العليا مسلم من حديث أبي هريرة .

لما يأخذهم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على السائفة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهول وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرّة إلى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنا لأقبل منك أنت شيئاً وأخذ مازاد على السائفة قال فزاد تسجي فسأله فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الجبل بطرفيه وزن للسائفة لنفسه طلباً للتواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن ثم عز وجل فأخذت ما كان الله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكي وقال أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الحمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتناؤه حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للسبيل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين وبمشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في اللطم والملبس والسكن والأثاث وضروب العيشة وبيان علامة الزهد .

(بيان حقيقة الزهد)

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً ليعنه وإن لم يكن صادراً عن حال مسمى إسلاماً ولم يسم إيماناً والملم هو السبب في حال يجري مجرى الثمر والعمل يجري مجرى الثمرة فلذلك الحال مع كلاً طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فأنما عدل عنه لرغبته عنه وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فحاله بالإضافة إلى المدول عنه يسمى زهداً بالإضافة إلى المدول إليه يسمى رغبة وحبا فإذا نبتدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً إذا تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً وإنما يسمى زاهداً من ترك الدرامم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع إلا وللشترى عنده خير من البيع فيكون حاله بالإضافة إلى البائع زهداً فإليه وبالإضافة إلى الموضع عنه رغبة فيه وحاول لذلك قال الله تعالى - وشروه بضمن نحس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهو معتق من ذلك كن
وسئل أبو سعيد الخراز
عن الروح أغلوقة هي
قال نعم ولولا ذلك
ما أقرت بالربوبية
حيث قالت بلى والروح
هي التي قام بها البدن
استحق بها اسم الحياة
وبالروح ثبت العقل
وبالروح قامت الحجة
ولو لم يكن الروح
كان العقل معطلاً
لا حجة عليه ولا
وقيل إنها جوهر مخلوق
واسكنها الطف
المخلوقات وأصق
الجواهر وأتورها وبها
تراءى للغيث وبها
يكون الكشف لأهل
الحقائق وإذا حجب
الروح عن مراعاة
السر أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يغلو لهم وجه أيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بنحسب اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن عيّل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للبل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحفظوظ في الآخرة بل طمع في الخور والقصور والأنهار والقواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي ترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي ترك المال دون الجاه أو ترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك اللباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض اللباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللتقصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك اللباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في الرغبة فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في الرغبة عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فضاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو مشعر لهذه الحال فهو العلم بكون التروك حقيرا بالاضافة إلى الأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن يزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من التلج مثلا . ولا يصير على مالك التلج يبعه بالجواهر والآلى . فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالتلج للوضوح في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر التي لا تفتأ له فيقدر قوة اليقين والصرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والماملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا ، إما لضعف علمه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بعوايد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم إلى أن يحتطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الموت وإلى تعريف خسارة الدنيا بالإشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف خسارة الآخرة بالإشارة بقوله عز وجل - وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير - فيه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو الرغبة عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بماوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . فالرجل في دعائه « اللهم أرني الدنيا كما راها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تنقل هكذا ولكن قل أرني

للأدب ولذلك صارت
الروح بين تجل واستار
وقابض ونازع وقيل
الدنيا والآخرة عند
الأرواح سواء وقيل
الأرواح أقسام أرواح
تجول في البرزخ وتبصر
أحوال الدنيا والملائكة
وتسمع ما تحدث به
في السماء عن أحوال
الآدميين وأرواح
تحت العرش وأرواح
طيارة إلى الجنان
والى حيث شاءت على
أقدارها من السمي
إلى الله أيام الحياة .
وروى سعيد بن السبب
عن سلمان قال أرواح
للمؤمنين تنهب في
برزخ من الأرض
حيث شاءت بين السماء
والأرض حتى بردها

الدنيا كأثرها الصالحين من عبادك (١) وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع القرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن القرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه فيرى السكل في درجة واحدة بالاضافة إلى جلاله ويراه متفاوتاً بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك للزهد فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلاقتها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظايف الطاعات وإلا كان كمن سلم للبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وقع بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشرط يبيعه الذي يبيع به فإن الذي يبيعه بهذا البيع وفي بالعهد فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إلى الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - ليوسف وأخوه أحب إلى أئنا مناه وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فتركه ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند الهرم على إخراجه بل عند التسليم والبيع فضلاً الرغبة الإمساك وعلامة الزهد الإخراج فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بضروره ويغيب إليك أن الدنيا وإن لم تأتلك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بعجل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تتق بالقدرة على الترك عندها فكمن ظان بنفسه كراهة العاصي عند تمذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المخطورات فإياك أن تثق برعدها في الساحات والوثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا دعت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر فانها سريرة النقص للعهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالاضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تنق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو لكن أعلم أن الدنيا فدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لنعلمناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تنقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصور ولم يخرج له (٢) حديث قال السلفون إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لنعلمناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم - الآية لم أفهم له على أصل .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء اتقوا وتعبدوا وتساءلوا وركل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعمتد إلى الله ظاهراً عنه فإنه لا أحد أحب إليه العبد من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل شيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لملك عمارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهي من اللال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستغفالا لما في حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استبدال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أتته الدنيا راحة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاءه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون أنسا بغير الله ومحالما سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراير والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك للطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تبصر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن مافي الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا لعمالات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى - نخرج على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى الطماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرا مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قبل معناه أيهم أزهدهم فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - وقال تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستجيبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك ففهموه أن المؤمن هو الذي يتصف بتقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات إذ ذبح الدنيا من المهلكات ونحن الآن نتصر على فضيلة بعض الدنيا فإنه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل قمره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه »

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - الآية البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

وتزداد وجوههم ياضا وإشراقا ■ فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر ■ إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأفاربكم من لالوتي فإن كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتنهم حتى تهديهم كما هديتنا ■ وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بمعان وأعراض ، مثل الواسطي لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ■ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التمسكين والاستقرار الأنراه يقول « كنت

فانه يلقي الحكمة (١) وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله يبيع الحكمة في قلبه وأنطق به لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال: قلنا يا رسول الله أي الناس خير؟ قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال التقى التقى الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة (٢) ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا (٣)» فجعل الزهد سببا للحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل اللقائمات ومفهومه أيضا أن حب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الإيمان والحياة أقاما فيه وإلا ارتد (٤)» ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي جبرها وزهبي وكأني بالجنة والنار وكأني برش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فأزمت» عبد نور الله قلبه بالإيمان (٥) فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالإيمان «ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقيل ما هذا الشرح؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفتح قلبه لرسول الله ﷺ وقل ذلك من علامة؟ قال نعم التجافي عن دار القرور والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل زوجه (٦)» فانظر كيف جعل الزهد شرطا للإسلام وهو التجافي عن دار القرور وقال صلى الله عليه وسلم «استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبشرون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون (٧)» فيبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى «ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهادة بالحسنة إذا زلت بالأعداء فقال صلى الله عليه وسلم إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبشرون ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون (٨)» فجعل الزهد تكة لإيمانهم وقال جابر رضى الله عنه «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتي صفتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلد بسنده ضيف (٢) حديث قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال التقى التقى الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد للذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الإيمان والحياة أقاما فيه وإلا ارتحل لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك الحديث البزار من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه - الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر .

نبياء وآدم بين الروح والجسد» أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - ولم يدرك أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي للطاقي تسمى بالعلم كما ينمو البدن بالنداء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والختار عند أكثر متكلمي الإسلام أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان والسموت يدمهما وأن الروح هي الحياة بينهما صار

قال : من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه على كرم الله وجهه ، وقال : بآي أنت وأمي يا رسول الله ما يخلط بها غيرها ۖ صفة لنا فسرنا لنا ، قال : حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويصلون عمل الجبابرة ۖ فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة (١) . وفي الخبر : السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك (٢) . وقال أيضا : السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار (٣) . والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والثناء على القرة ثناء على الثمر لاحالة . وروى عن ابن السيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام » (٤) . وروى أنه صلى الله عليه وسلم : « مر في أصحابه بشار من التوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأتقيا عندهم لأنها تجمع الظهر والجمع واللين والوبر ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى - وإذا العشار عطلت - قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به - (٥) » الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت « قلت يا رسول الله ألا تستظم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، قال يا عائشة والذي قسى يده لو سألت ربي أن يجرى مني جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض ولكي اخترت جوع الدنيا على شبعها وقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا لا تنفي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكفني ما كلفهم ، قال - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله » (٦) .

البدن بوجودها حيا
وبالاعادة إليه في القيامة
يصير حيا وذهب بعض
متكلمي الاسلام إلى أنه
جسم لطيف مشبك
بالأجسام العكيفة
اشتباك الماء بالسود
الأخضر وهو اختيار
أبي العالي الجويني
وكثير منهم مال إلى
أنه عرض إلا أنه رد
عن ذلك الأخبار
الصالحة على أنه جسم
لما ورد فيمن الروح
والهبوط والتردد في
البرزخ حيث وصف
بأوصاف دل على أنه
جسم لأن العرض لا
يوصف بأوصاف إذ
الوصف معنى ولعن
لا يقوم بالعرض واختار
بعضهم أنه عرض .

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أر من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب فم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسل ولا ينعى في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله بها ما يبيع الحكمة من قلبه على لسانه قال حديث منكر قال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضيفة (٥) حديث مرفي أصحابه بشار من التوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك - الآية لم أجده أصلا (٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستظم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث . وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد ابن عباد عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق » و مر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة ألت تعلين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير » وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دونه ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثبتت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعموني قيام الليلة بهذه العبادة اثنوها بائنتين كما كنتم تثنونها » وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارا ورداء ومشت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفه إلى عنقه فصرى كذلك فما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لي

من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاهد مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدري متروك الحديث وللقزويني من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشأه أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخاري من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللقزويني في الثمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم : مسح ثيابه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنتين الحديث وتقدم في آداب المعيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا أعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاستناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة السكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة قد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى الله عليه وسلم في قصة قد عقد عليها زاد الفطري في جزئه المشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل لا أين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لجها إذا مرضت . وقال بعض من يتم بالعلوم الردودة المذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حيث مطالعة المعاني والمخسومات لأن

صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقهما وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلني أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد كان الأنبياء قبل يئس أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليتلى بالقلم حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم ^(١) » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من المزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال : « لما نزل قوله تعالى - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - قال صلى الله عليه وسلم تبا الدنيا تبا للدينار والدرهم قلنا يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شيء ندخر فقال ^(٢) : ليتخذ أحدهم لسانا ذا كرا وقلبا ذا كرا وزوجة سالحة تبنيه على أمر آخرته ^(٣) » وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاثا لا يشارك قلبه أبدا وقلبه لا يستقي أبدا وحرصا لا يشبع أبدا ^(٤) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة ^(٥) » وقال المسيح ^(٦) الدنيا قطرة فاعبروها ولا تمروها وقيل له يا بني الله لو أمرت أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بئان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم عشي وجبريل - فصد على الصفا فقال له النبي ^(٧) يا جبريل والذى بشك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن مع هذه من السماء أفضته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يئس أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة الحديث بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم ليتلى بالقلم (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكنزون الذهب والفضة - الآية قال تبا للدينار والدرهم الحديث وفيه فأى شيء ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبا للدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وإسناد الصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي المال يتخذ كافي رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التاط منها ثلاث شقاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منتهاه وفي آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرتة لم أجده استادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسلا لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج له ولمه في مسند الفردوس وعلي بن أبي طلحة أخرجه له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذن معضل .

نجردها من هيات
البدن عند الفارقة
غير يمكن وهي عند
اللوت شاعرة بالموت
وبعد اللوت متخيلة
بنفسها مقبورة
وتصور جميع
ما كانت تعتقد حال
الحياة وتحس بالثواب
والعقاب في القبر قال
بعضهم أسلم اللغات
أن يقال الروح شيء
مخلوق أجرى الله تعالى
العادة أن يحس البدن
مادام متصلا به وأنه
أشرف من الجسد
يذوق اللوت بفارقة
الجسد كما أن الجسد
يفارقه يذوق اللوت
فان الكيفية والماهية
يتعاضى العقل فيهما
كما يتعاضى البصر في

القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرائيل فقال إن الله عز وجل مع ما ذكرت فبعضى بمفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فضلت وإن شئت نينا ملكا وإن شئت نينا عبدا فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال نينا عبدا ثلاثا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه» (٢) وقال رسول الله ﷺ «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيها في أيدي الناس يحبك الناس» (٣) وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتبه الله علما بغير علم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الجحيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه الصييات» (٥) وروى عن نينا وعن النخعي عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء» (٦) وإبراد جميع الأخبار الواردة في مدح بخص الدنيا وضم جها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيها أوردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الآثار: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما تنقص من دنياهم وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال تابنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتى أن أرى علما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنني لأشتى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون على دين ولا على عظمي لحم فأعطى ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالك هذه فبكي الفضيل وقال أتندرون ما مثلي ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يمرثون عليها فلما هربت ذبحوها لأجل أن يفتقروا بمجدها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث في نزول إسرائيل وقوله إن أحببت أن أخبر معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فيه في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتبه الله علما بغير علم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الجحيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب (٦) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم .

شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كذا ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فما أحسن الإمساك عن القول فيها هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب السكي في كتابه يدل على أنه يعيل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب

أنتم أردتم ذبحي على كبرسي موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تدبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير
 كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشتر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا يمت فخر به ولا
 يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد
 من الطعام والثياب والخطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد . ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم
 الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحنن لم لا تحمل ثيابك قال الأمر أهمل من ذلك .
 وقال إبراهيم بن آدم قد حبيت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب
 الفرح بالموجود والحزن على اللقود والسرور بالمدح فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص وإذا حزنت
 على اللقود فأنت ساخط والساخط مغضب وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل .
 وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين
 إلى آخر الدهر أبدا سرمد . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيها صرف عنا أكثر من نعمته فيها
 صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعمي عبده المؤمن الدنيا وهو محجبه
 كما نعمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه »^(١) فإذا فهم هذا علم أن النعمة في النعم في اللقود
 إلى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدى إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار اتواء لا دار استواء
 ودار ترج لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء . وقال سهل لأشخاص العمل المتعبد
 حتى لا يفرح من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما
 وصحت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ولا أسفون على شئ منها أدبر ولمى كانت
 في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له
 قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بسنة طعام قط فإذا كان الليل قيام على
 أقدامهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم كانوا إذا
 عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحرزتهم وسألوا الله أن يفرجها
 لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما ملأوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمفطرة رحمة الله عليهم ورضوانه .
 (بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى الرغبة عنه وإلى الرغبة فيه)

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى وهي السفلى
 منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفت ولكنه يجاهد ما يكفها وهذا
 يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد وللتزهد يذيق
 أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أو لا يذيق كيسه ثم يذيق نفسه في الطاعات لافي الصبر على ما فارقوه والتزهد
 على خطر فانه ربما تطلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير .
 الدرجة الثانية : التي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالقوى يترك درهما
 لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى
 لأهالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع للبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن
 في نفسه أنه ترك شيئا عظيما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة وهي العليا أن
 يزهد طوعا وبزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون
 كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله
 تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كاللحرفة

(١) حديث إن الله يعمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

وله لك فيهم الخير
 عند ذلك وتحرك
 لشر ومن حركتها
 تظهر ظلمة في القلب
 فيرى الشيطان الظلمة
 فيقبل بالاغواء ويحيث
 وجدت أقوال للشايع
 تشير إلى الروح
 أقول : ما عسدى في
 على معنى ما ذكرت
 من التأويل دون
 أن أقطع به إذ ميل
 في ذلك إلى السكوت
 والامساك فأقول والله
 أعلم : الروح الانساني
 العلوي السأوى من
 عالم الأمر والروح
 الحيواني البشري من
 عالم الخلق والروح
 الحيواني البشري
 هل الروح العلوي
 وموسوع والروح

ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في أي شيء تتكلم ؟ قال في الزهد قال في أي شيء ؟ قال في الدنيا ففض يده وقال ظننت أنه يتكلم في شيء والدنيا لا شيء . يش زهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب العمورة بالمجاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغفه بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته أقرى أنه يرى لنفسه بدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فقدتها في حال الضغ وتنفى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنهى إلى التأن والقدر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمره مائة سنة بالإضافة إلى نعم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للتناهي إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تسامى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدر غير صافية فأى نسبة لها إلى نعم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذه تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات إذ قصر للزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة للعجب زهده بقدر التفاته إلى زهده . وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى الرغبة فيه فهو أيضا على ثلاث درجات: الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بغير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم. الدرجة الثانية أن زهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمدا لا آخر له. الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق في المحبة بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو هو ثم واحد وهو للوحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله قد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفي وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف قوة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالحور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بغير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إن حبست بعدك محبسا فظيما كريها ما وصلت إليك حتى سال من العرق ما لو ورده ألف بغير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه تدريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيوانى جيبانى لطيف
حامل لقوة الحس
والحركة ينبعث من
القلب أعنى بالقلب
هنا الضفة الحمية
المروقة الشكل للودعة
في الجانب الأيسر
من الجسد وينشر
في تجايف العروق
الضوارب وهذه
الروح لسائر الحيوانات
ومنه تفيض قوى
الحواس وهو الذى
قوامه بأجراء سنة الله
بالقضاء غالبا وتصرف
بسلم الطب فيه
باعتدال مزاج الأخلاط
ولورود الروح الانساني
المولى على هذا
الروح تجنس الروح
الحيوانى وبيان
أرواح الحيوانات

والنظر إلى نفس القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أطل وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى للرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل الذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: للرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل وتفصيله مراتب بعضها أشرح لأحد الأقسام وبعضها أجمل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والتعصب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، وإذا أُمُوال وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كأن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها قال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه وإذافهم طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفرقه في الشرح مرة والإجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لاحالة لأنه إنما يريد البقاء ليمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئا أزد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال الناقصين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوصوا واستظفروا إحدى الحسين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة تعيب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى صار قسما محلا للنطق والالهام قال الله تعالى - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها - فتسويتها بورود الروح الانساني عليها واقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الأدنى من الروح العلوي في عالم الأمر كنكون حواء من آدم في عالم الخلق وصار بينهما من التألف والتماسق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يفوق للآخر

وأما للناقصون ففروا من الزحف خوفا من الموت قليل لهم - إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم - فإثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارتحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ظاهراً أو أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا بيمينهم الذي بايعوا به فهذا بيان للزهد فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره للتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحم الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فيقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي الشهوة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضاً الزهد هو ترك الطلب للضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمقول والزهد إتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّلوها حتى ينقضى عمر الإنسان في الاشتغال بها أحدها ما اضطر الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأن هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل ورأى ما نقلناه فلم نرفق قلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رأها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الزهنية التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخيرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب العيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّاً للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله بقلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لفرغ قلوبهم من همومها للآخرة . فهذا بيان أقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض وحل وسلامة كما قاله إبراهيم بن أدهم فالعرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

بغارقة صاحبه قال الله تعالى وجعل منازوجها ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانساني العاوي إلى الروح الحيواني وصيره نساء وتكون من سكنون الروح إلى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التي عملها المصنعة الاحمية فالمصنعة الاحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون النورية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا الساكنة بين الزوجين الذين أحدهما النفس ما تكون القلب فن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل للمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تتمتع به النفس في الحطرات والقطرات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاى فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدا لك قال وما الذي تجد قال توسدك الحجر . أى تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذ معك ماركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس السوح حتى تقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حتى اللبس فسأته أمه أن يلبس مكان السوح جبة من صوف فعمل فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكي وتزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهد أويس يبلغ من العز أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما الذي أنت إنما أقامنى القى لم يرض لى أن أتم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شعبة ومحظور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبه والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكريا ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا بقاء إلا بضروريات النفس فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستمانة بالبدن على العبادة لم تكن مشغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه فالمشتغل بملف الناقه وسبقها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تتم ناقتك بالهدايا بل غرضك مقصور على دفع للمهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش للمهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد للمهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد وأن أتقذ بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتشم الأسحار وصوت الأطياف ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة لما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضع لا يصيبه فيه نيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد قلة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فعدته قريبة والاحتناء مدة يسيرة للتنعم على التأيد لا يتقل على أهل المعرفة القاهرين لأنهم سياسة الشرع للعنصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ما الناس منهم يكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالحيل السوسة مثلا وإفغال الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى مبال إليه وهو القلب للؤيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رواه خديجة رضى الله عنه قال : القلب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والصديق فأى اللادتين

إنما يقتنيا لترفه ركوبها وهو قادر على الشيء واللهم كالأكل والشرب ولنا قدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري واللهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه وللهامات ستة أمور : الطم واللبيس والسكن وأثامته والتسكع والسال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من مجلتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ونحن الآن نتحصر على بيان هذه الهامات الستة [الأول المطم] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم عليه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طول له وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طول له فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طول له فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند عدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فإذا استغنى بما تناوله لم يدخر من غذائه لغدائه وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا اعتماد من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلامه واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام السكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الحبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والقدرة وأعلاه خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التتم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الأدم فأقله للحم أو البقل والحل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلاه اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم واليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ليلة ولا يشرب وأعلاه أن يتم إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع للمهلكات ولنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وتركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالأسودين القرو الماء ^(١) » وهذا ترك اللحم والرقعة والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويتعل الخوص ويلقى أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجاس كما تجلس العبيد ^(٢) » وقال السبع عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب القردوس غلب الشعير له والنوم على الزايل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعين ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشعر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولا محمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

غلبت عليه حكم
بها والقلب للتكوس
ميال إلى الأم التي هي
النفس الأمارة بالسوء
ومن القلوب قلب
مرتد في ميته إليها
وبحسب غلبة ميل
القلب يكون حكمه
من السعادة والشقاوة
والعقل جوهر الروح
العلوي ولسانه والدال
عليه وتديره للقلب
المؤيد والنفس الزكية
للطمئنة تدبير الوالد
للولد البار والزوج
للزوجة الصالحة
وتدبيره للقلب
للتكوس والنفس
الأمارة بالسوء تدبير
الوالد للولد العاقل
والزوج للزوجة السبحة
للتكوس من وجه

ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر (١). وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا صيرة الأنبياء والسلف في الطعام والشرب في ربيع المهلكات فلا نعبد له ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بسل فوضع القدح من يده وقال «أما إني لست أحرمه ولكن أركه تواضعاً لله تعالى» (٢) وأتى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولبسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والله كره رقيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفه والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [المهم الثاني] اللبس وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر الدورة وهو كساء يغطي به وأوسطه قميص وفلسوة ونعلان وأعلى أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث القدر فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلبسه القمود في البيت فإذا صار صاحب قميص وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث القدر، أما الجنس فأقله المسوح الجشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلىه القطن الفليظ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوماً حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهداً بل كان عباً للدنيا لينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٣) وقال صلى الله عليه وسلم ■ إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس (٤) وقال عمرو بن الأسود العنسي لا لبس مشهوراً أبداً ولا أنام بليل على دثار أبداً ولا أركب على ما تور أبداً ولا أملاً جوفى من طعام أبداً قال عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود (٥) وفي الخبر ■ ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يترعه وإن كان عنده جيباً (٦) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم (٧)

الحديث تقدم ذوقه قوله إنما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس لم أجده أصلاً (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود برواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده جيباً (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال

ومنجذب إلى تديرها من وجه إذ لا بد له منها وقول القائلين واختلافهم في عمل العقل فمن قائل إن عمله الدماغ ومن قائل إن عمله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في عدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البارتارة إلى العاقب أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاقب فإذا روى في تدير العاقب قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدير البار قيل مسكنه القلب فالروح الملقى بهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحسوا وتزها

وكانت قيمة ثوبه عشرة (١) . وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا (٢) . «اشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣) . وكان يلبس فملتين يضاوين من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما كنا ندرم (٦) فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهدها إليه القوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من التركيين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحریم كما لبس خاتما من ذهب يوم مات ثم نزع (٧) فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشتراطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته صعد عليه السلام للتبر لحرمه وكما أباح للثمة ثلاثاً ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيمته لها علم فلما سلم قال شغافى النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهم والتوتى بأبي جانيته (١٠) بنى كساءه فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شركه قد أنشأ فبذل بغير جديد صلى فيه فلما سلم قال أعيدوا الشرك الحلقى وانزعوا هذا الجديد فأنى نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حيث كان إزاره أربعة أذرع ونصفا أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع . وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للمعروف أنه اشترى بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس فملتين يضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشعلة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيت في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل الجن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي والبراز من حديث قدماء الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عرف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بن سند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما كنا ندرم أهدها له القوقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشتراطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح للثمة ثلاثاً ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خيمته لها علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة.

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يشكك عليه الشارح فليظروا .

عن الأكواع ومن
الأهكوان القلب
والنفس فإذا ارتقى
الروح يحبو القلب إليه
حنو الولد الحنين
البار إلى الوالد وحن
النفس إلى القلب الذي
هو الولد حينئذ الوالدة
الحنينة إلى ولدها وإذا
حننت النفس ارتقت
من الأرض واتزوت
عروقها الضاربة في
العالم السفلي وانطوى
هواها وانحسرت
مادته وزهدت في الدنيا
وتجافت عن دار
الغرور وأثابت إلى دار
الخلود وقد تخلد النفس
التي هي الأم إلى
الأرض بوضعها الجبلي
لتسكنها من الروح
الحيوانى الجنس

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على للنبر نظرة فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم» (١). «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال : أهيبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمتقني ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه» (٢). وعن سنان بن سعد قال حيك لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أتمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما ألينها قال قدامي أعرابي فقال يا رسول الله هب لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يدخل به قال فدفعا إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكاة» (٣). وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الأبل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي حرارة الدنيا لنعيم الأبد فأزل الله عليه وسوف يعطيك ربك فترضى» (٤). وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني للآل الأئمة قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤثما على الناس خيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأقنادهم عند العرش» (٥). فلهذا كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللباس «وقد أوصى أئمة عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستق بسنني» (٦) وقال «عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» (٧) وقال تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبيكم الله» (٨) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال إن أردت الحقوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعه» (٩). وعنه على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم. ولبسه وهو في الخلافة وقطع كية من الرمنين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه. وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ولا يعفرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليرى وأنا أصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دواقي. وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم من رقى ثوبه برق دينه

ومستندها في ركونها إلى الطباع التي هي أركان العالم السفلي . قال الله تعالى - ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتباع هواه - فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب للنكوس انجذاب الولد إلى والدته والوالدة للموجة النافضة دون الوالد الكامل للستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فمذ لك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على للنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حيك لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أتمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد قوله وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني للآل الأئمة قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستق بسنني تقدم في التكايف (٧) حديث عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت الحقوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مائين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومثرتعته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول الفسك الزى وفي الخبر « البذاعة من الايمان » وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في ثغرات الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأولياي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي وانظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب التماسق وكان عليه ثياب رفاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزمه فجعل يشككم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به قنضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تشككم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقنطى بهم النوى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقنطى به للسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التمتع وقال « إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعين (١) » ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أنعت حافيا قبيلا له أنت الأمير وتعمل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء وأمرنا أن نحتفي أحيانا (٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارع القميص ونكس الإزار واخشف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر . وقال على كرم الله وجهه من زيا زى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمي الدين غدوا بالنعم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشددون في الكلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا (٤) » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمي إلا مرأ أو أحرق (٥) » وقال الأوزاعي لباس الصوف في السفرة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة مادماك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تحبني فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي أو تقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذ الله إبراهيم خلبلا أوحى إليه أن وار هورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل فإنه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التمتع وقال إن الله عبادا ليسوا بالمتنعين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء [١] وأمرنا أن نحتفي أحيانا أبو داود بإسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمي الدين غدوا بالنعم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضيف سيكون رجال من أمي يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمي وقد تقدم (٤) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمي إلا مرأ أو أحرق لم أجده إسنادا .

[١] الإرفاء بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بقاء التدهن والتجليل كل يوم . وقيل التوسع في الطعام والمشرط برفهان .

- تقدير العزيز -
الطيب - . وقد ورد
في أخبار داود عليه
السلام أنه سأل ابنه
سليمان أين موضع العقل
منك قال القلب لأنه
قالب الروح والروح
قالب الحياة . وقال
أبو سعيد القرشي
الروح روحان روح
الحياة وروح المات فاذا
اجتمعا عقل الجسم
وروح المات هي التي إذا
خرجت من الجسد
يصير الحي ميتا وروح
الحياة ما به مجارى
الأغصان وقوة الأكل
والشرب وغيرها ،
وقال بعضهم الروح
نسيم طيب يكون به
الحياة والنفس ريح
خلة تكون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلطان الفارسي رضي الله عنه مالك تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي ، وقال الحسن للفرقد السبخي تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا ، وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الحرق من المزابل ويغسلها ويلبسها قلت إنك تنكس خيرا من هذا قال ماضرم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة لجعل يحيى بن معين يحدث بها ويسكن [اللهم الثالث] للسكن وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خوص أو ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو بإجارة فإن كان قدر سعة السكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد فإن طلب التشديد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالسكينة حد الزهد في السكن فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والفرض من السكن دفع للطر والبرد ودفع الأعين والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشديد يعني بالتدريز كلف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلا والتشديد هو البنيان بالجص والآجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) وقد جاء في الخبر : يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود الجمانية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها (٢) ، ومروا عليه السلام بمجنونة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير (٣) ، وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ولا نصبة على نصبة (٤) .

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كلف فروى الطبراني الحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كلف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء في الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبله للمسجد وجعلوا عظامه الحجارة الحديث ولهم من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوقك للمسجد (٢) حديث أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بمجنونة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والجنينة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة الحديث ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مر سلا والطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عن أوسره أن ينظر إلى فلان ينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لينة على لينة الحديث وإسناده ضعيف .

الحركات للذمومة
والتمهات ويقال
فلان حار الرأس وفي
الفصل الذي ذكرناه
يقع التنبيه بماهية
النفس وإشارة للشايع
بماهية النفس إلى
ما يظهر من آثارها
من الأفعال للذمومة
والأخلاق للذمومة
وهي التي تعالج بحسن
الرياضة وإزالتها
وتبديلها والأفعال
الرديئة زوال الأخلاق
الرديئة تبدل . أخبرنا
الشيخ العالم رضي الله
عن أحمد بن إسماعيل
القزويني قال أنا إجازة
أبو سعيد محمد بن أبي
العباس الحلبي قال أنا
القاضي محمد بن سعيد
الفرخزادي قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده شرا أهلك ماله في الماء والطين»^(١) وقال عبد الله ابن عمر «مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصالا فقال ما هذا قلنا نحن لنا قدوهي فقال أرى الأمر أعجل من ذلك»^(٢) واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب قيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قدمال عليه قيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة»^(٣) وفي الخبر «كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفق في الماء والطين»^(٤) وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم «كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنّ من حراً» أو برد^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم لرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله «اتسع في السماء»^(٦) أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص وأجر فسكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هامان على الطين - يعني به الآجر ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالحص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبارة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيت مبنيا من رصاص ثم رأيت مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرصاص وكان أصحاب الرصاص خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصرأهله وزهده في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الخشب والجلود وهي عادة العرب الآن يلاذ اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد
ابن إبراهيم قال أنا
الحسين بن محمد بن
عبد الله السفياني
قال حدثنا محمد
ابن الحسن القطيفي
قال حدثنا أحمد بن
عبد الله بن يزيد
المعيني قال حدثنا
صفوان بن صالح قال
حدثنا الوليد بن مسلم
عن ابن لهيعة عن
خاله بن يزيد عن

ورأى آخر يشرب من التمر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إنما يراد لقصود فإذا استغنى
 فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل
 ما يكفي فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان القصد يحصل به وأوسطها أن يكون
 أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذى معه قصعة يأكل
 فيها ويشرب فيها ويحفظ الناع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء لتخفيف
 وأعلائها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فإن زاد في العدد أوفى قلته
 الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف^(١) . وقال الفضيل ما كان
 فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف ، وروى : وأن عمر بن الخطاب
 رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس
 فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فسمعت عينا عمر قال : النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك
 يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وماهما فيه من اللك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه
 ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا
 ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك^(٢) ، ودخل رجل على أبي ذر فجلس بقلبه بصره
 في بيته فقال يا أباذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح
 متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن
 سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معي عصا أتوكأ عليها وأتدل
 بها حية إن لقيتها ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ومعى قصعة أكمل فيها وأغسل فيها رأسي وثوب ومي
 مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهورى للصلاة لما كان بهذا من الدنيا فهو تبع لمامي فقال عمر صدقت
 رحمك الله ، ووقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها
 سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع
 القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبي أنت قد أحسنت^(٣) .

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها
 ليف أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى
 الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف الترمذي في الشائل من حديث حفصة
 بقصة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث
 دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى
 أثر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل
 على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولأبي داود
 وابن ماجه من حديث صفينة بإسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب
 فرأى القرام قد ضربت في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلنا نظر فارجه الحديث والنسائي من حديث
 ثوبان بإسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب الحديث

النفس لطيفة مودعة

في القالب منها الأخلاق

والصفات اللذومة كما

أن الروح لطيفة

مودعة في القلب منها

الأخلاق والصفات

المحمودة كما أن العين

عمل الرؤية والأذن

عمل السمع والأنف

عمل الشم والعم عمل

الدوق وهكذا النفس

عمل الأوصاف للذومة

والروح عمل الأوصاف

المحمودة وجميع

أخلاق النفس وصفاتها

من أصلين أحدهما

الطبيعي والثاني الشره

وطبيعتها من جعلها

وشهرها من حرصها

وشبهت النفس في

طبيعتها بكثرة مستديرة

على مكان أملت

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترًا فتهتكه وقال «كلار آيت مذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان»^(١) وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدًا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فازال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعدي العباءة الخلقه ونعني هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة^(٢) وكذلك أتته دنائير خمسة أوستة ليلًا فبيتها فسر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنهما فنام حينئذ حتى صممت غبطه ثم قال «ما ظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده»^(٣) وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار مالا أحدم إلا توبه وما وضع أحدم بينه وبين الأرض ثوبًا قط كان إذا أراد النوم يامسح الأرض بحمسه وجعل توبه فوقه [الهم الخامس] التكهك وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل التكاح ولا في كثرتة وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد جيب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف زهدنهن وواقعه على هذا القول ابن عينة وقال كان أزه الصباغة على بن أبي طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم والرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فطره ولكن ترك النكاح احترازًا عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله وترك ذلك من الزهد فإن علم أن للرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تنزهه إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فبيعت فأعترت بشمها عبداً فأعتقه فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار^(١) حديث رأى على باب عائشة سترًا فتهتكه الحديث الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها^(٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدًا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش حشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجاهد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة التقدم ذكره من الثمالي^(٣) حديث أتته دنائير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسر ليلته الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الحجة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أتقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنائير وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غام [١] الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع فقلت ياني الله مالك غام الوجه قال من أجل الدنائير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في ضمم الفراش وفي رواية أمسينا ولم تنفقا .

[١] غام بالمعجمة متغير يقال شهم تغير عن حاله لغرض اه .

مصوب لا تزال متحركة
يجلبتها ووضعها وشبهت
في حرصها بالفراش
الذي يلقي نفسه على
ضوء الصباح ولا يتقنع
بالضوء اليسير دون
المهجوم على جرم الضوء
الذي فيه هلاكه فمن
الطيش توجد الصجلة
وقلة الصبر والصبر
جوهر العقل والطيش
صفة النفس وهواها
وروحها لا يئلبه إلا
الصبر إذ العقل يجمع
المهوى ومن الشر
يظهر الطمع والحرص
وهما اللذان ظهرا في
آدم حيث طمع في
الحلود لحرص على أكل
الشجرة وصفات النفس
لها أصول من أصل
تكونها لأنها مخلوقة

نفسه فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا معناه سهل لا محالة
ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا يشغله
كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بأصلاحهن^(١) والاتفاق عليهن^(٢) فلامعنى زهدهن فيهن^(٣) حذر من مجردة
الواقع والنظر ولكن أي يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان
فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهم أو جمال
للرأة فليترك واحدة غير جميلة ويراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان : الزهد في النساء أن يختار للرأة البدون
أو التي تهيئ على الرأة الجميلة والشريفة . وقال الجنيد رحمه الله أحب للمريد للتبذير أن لا يشغل قلبه بثلاث
والإتيار حاله : التمسك بطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع
لهمه فإذا ظهر أن لذة النكاح كلفة الأكل لما شغل عن الله فهو محذور فيها جميعا [اللهم السادس]
ما يكون وسيلة إلى هذه المحنة ، وهو المال والجاه : أما الجاه فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها يتوصل
به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وانقر إلى
من يخدمه انقر إلى جاء له محالة في قلب خافه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته وقيام
القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتعاضد به إلى هاوية لا عمق لها ومن حل
حول المحي يوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لطلب نفع أو دفع ضرر أو خلاص
من ظلم فأما النفع فينبغي عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر وإنما
يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل
فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بعمل له في قلوبهم أو محل له
عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضب لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والحائض
في طلب الجاه سالك طريق الملاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله
بالدين والعبادة يمهده من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين
المسلمين فأما التوهمات والتشديدات التي تمحجج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام
كاذبة إذ من طلب الجاه أيضا يخل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أولى من
علاجه بطلب الجاه ، فأذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته
أشد من ضراوة الحمر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه
فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بضمهم إذا اكتسب حبتين
رفع سفعه وقام . هذا شرط الزهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكتفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضغف
الزهاد وأقربائهم جميعا وإن كانت له ضيقة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي
ريشه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته
ولكن يكون من ضغف الزهاد فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أبو إسحق القرني رحمه الله فلا يكون هذا
من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نفي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من القامات
المحمودة لا يناله إلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر للتفرد في
جميع ذلك أخف من أمر العيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يهوى الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه
فإن أجابوا أو أنكرهم وفضل بنفسه ما شاء معناه أن التضييق الشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل
ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يحجبهم أيضا فخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

من تراب ولها بحبه
وصف وقيل وصف
الضعف في آدمي من
التراب ووصف البخل
فيه من الطين ووصف
الشهوة فيه من الحمأ
للسنون ووصف الجهل
فيه من الصلصال
وقيل قوله كالقمار فهذا
الوصف فيه شيء من
الشيطنة لدخول النار
في القمار فمن ذلك
الخداع والحيل والحمد
فمن عرف أصول
النفس وجبلاتها عرف
أن لا قدرة ■ عليها
إلا بالاستعانة بيارها
وقاطرها فلا يتحقق
البعد بالإنسانية
إلا بعد أن يدبر
دواعي الحيوانية فيه
بالعلم والعدل وهو

(١) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بأصلاحهن والاتفاق عليهن تقدم في النكاح .

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذا ما اضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سماً قاتلاً فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعاً ولكنه قليل الضرر والسم محذور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشقة أمره فمن احتاط فأنما يحتاط لنفسه ومن تساهل فأنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه وردّ نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لأجملة ، والمقتصر على قدر الضرورة وللمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، وبدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه فرجع مهموماً فأوحى الله تعالى إليهموسألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت منك الدنيا خفت أن أسألك منها شيئاً فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فأذن قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدل فيه ، وظاية سعادته به أن يسلم لورثته فيما كونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستمينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد عقالاً فيموت وبهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فأنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاء والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فالخطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولوترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جرمها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معاقبة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومخالب ملك الموت قد عانت بروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجازبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل للؤلؤ ييدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أنزه فما ظنك بأنم يتمكن أولاً من صميم القلب خصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أمي عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسالطة إلا على محبوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فرب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، ففسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نمت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحب من أحببت فانك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

(١) حديث ثبت في روعه أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم

رعاية طرفي الافراط
والتعريط ثم بذلك
تتقوى إنسانيته
ومعناه ويدرك صفات
الشيطة فيموال الأخلاق
الذمومة وكال
إنسانيته ويتقاضاه
أن لا يرضى لنفسه
بذلك ثم تتكشف له
الأخلاق التي تنازع
بها الربوية من
الكبر والعز وروية
النفس والسجب وغير
ذلك فيرى أن صرف
الصبودية في ترك
النازعة الربوية
والله تعالى ذكر النفس
في كلامه القديم
بثلاثة أوصاف :
بالطمأنينة
- يا أيها النفس
الطمئنة - وسهاها الوامة

كحدود كحدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالسكينة حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالحسب والرخاء لو رأيتهم قلمت عيائين . ولورأوا خياركم قالوا ما هؤلاء بمن خلاق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لاهلالة يخاف من فسادة والذين أمارت حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى - ورفضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز وجل - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا - . وقال تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احمني معك في سياحتك ، فقال أخرج مالك والحقني . فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بمجب يدخل النقي الجنة أرقال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر . ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط محسكا تلقا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وأبنوا للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا اطول الحساب .

(بيان علامات الزهد)

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب للدج بالزهد فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وإنما سره أحدهم معرفة الناس حاله ونظرم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطمة بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثيراب الرقيقة كما قال الخواص في وصف الدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يوهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى للساكنين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجؤوا إلى الضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا تنذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فقلبتهم فادعوا حالهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى - لكيلا تأمروا على ما فأنكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالصد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويخرج بنفسه . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كاللحم والهواء في القدر فإلما إذا دخل خرج الهواء ولا يهتمان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يقتل بشبهه

قال - لا أقسم يوم
القيامة ولا أقسم
بالنفس اللوامة -
وسماها أمارة ، فقال
- إن النفس لأمارة
بالسوء - وهي نفس
واحدة . ولها صفات
متغيرة ، فإذا امتلأ
القلب سكينة خلع
على النفس خلع
الطمأنينة لأن السكينة
مزيد الإيمان وفيها
ارتضاء القلب إلى مقام
الروح لما منح من
حظ اليقين وعند
توجه القلب إلى محل
الروح تتوجه النفس
إلى محل القلب ، وفي
ذلك طمأنينتها وإذا
ازدهت من مقام
جسالاتها ودواعي
طبيعتها منتقلة إلى

ولذلك قيل لبعضهم إلى ماذا أفنى بهم الزهد فقال إلى الأنس بالله . فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المروة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لهما ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان من شغل نفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لابد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده للدخ والعدم والوجود والعدم ولا يستدل بما سلكه قليلا من السال على قد زهده أصلا . قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فنفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يملك الدنانير ، فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرا كفافه للصبح عليه السلام ، ففسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل فإن أمثالنا لا يستجريء على الطمع في غايته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاطى شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود الجاوز لكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمسخ والدم وذلك لعلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لاحتمال : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من للكل . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف عالم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصراني : الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا ريلة . وقال أيضا الزاهد أنه يسهطك الخلق والخرذل والعارف يشمك السك والعزير وقال له رجل متى أدخل خانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأصدمع الزاهدين ، فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضف في نفسك . فأما ما بلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها ويتف شعرها ويغرق ثوبها ، والعارف يشغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري ما رست كل شيء من أمر الزهد فلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطلقه . وقال الفضيل رحمه الله جل الله الشركه في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخبز كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

مقار الطمانينة فهي
لواصة لأنها تعود
باللأمة على نفسها
لتنظرها وعلها يجعل
الطمانينة ثم انجذابها
إلى محلها التي كانت
فيه أمانة بالسوء .
وإذا أقامت في محلها
لا يشاها نور العلم
والعسرة فهي على
ظلمتها أمانة بالسوء
فالنفس والروح
يتطاردان ، فتارة
يملك القلب دواعي
الروح ، وتارة يملكه
دواعي النفس . وأما
السر فقد أشار
القوم إليه ووجدت
في كلام الصوام أن
منهم من جعله بعد
القلب وقبل الروح ،
ومنهم من جعله بعد

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالهزة والجبروت الرافع للساء بغير همد القدر فيها أرزاق
العباد الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب
ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعداء والاعتماد على مدبر سواه فلم يبدؤا إلا بإدعاء بأنه الواحد القهر
الصمد الإله وتحققا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا ينتفى عنهم الرزق وأنه ما من ذرة
إلا إلى الله خلقها ومامن دابة إلا إلى الله رزقها فلما تحققت أنها لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا
عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قانع الأباطيل الهادى إلى سواء السبيل وعلى
آله وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات اللوقين بل هو من معالي درجات
القرين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث
الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتناقل عنها بالكلية طعن في السنة
وقبح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تتغير في وجه العقل وانغماس في
غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية
العموض والصعوبة لا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء لإحسان الطاء الذين اكتحلوا
من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث
استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر
الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

(بيان فضيلة التوكل)

أما من الآيات فقد قال تعالى - على الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - على الله فليتوكل
التوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب المتوكلين -
وأعظم بمقام موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملايه فمن الله تعالى حسبه
وكافيه وعجه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يهذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى -
أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فانه سؤال
في معرض استنطاق الحق كقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا -
وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم - أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضع
من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تديره وقال تعالى
- إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته
مثل حاجتك فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين يصدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - ولله خزائن السموات والأرض ولكن لناغيين
لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد
فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

الروح وأعطى منها
وألطف وقالوا السر
عمل للشاهدة
والروح عمل المحبة .
والقلب عمل العرفة
والسر الذي وتمت
إشارة القوم إليه غير
مذكور في كتاب
الله وإنما للذكر
في كلام الله الروح
والنفس وتنوع صفاتها
والقلب والقوادر والعقل
وحيث لم نجد في كلام
الله تعالى ذكر السر
بالمعنى المشار إليه ورأينا
الاختلاف في القول
فيه وأشار قوم إلى أنه
دون الروح وقوم إلى
أنه ألطف من الروح
فنقول والله أعلم الذي
صحه سرا ليس هو
شيء مستقل بنفسه

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود وأريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل فأهبطني كثيرهم وهبأتهم قبيل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يا رسول الله؟ قال الذين لا يكتون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة (١) وقال صلى الله عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تمدو أجناسهم وتروح بطنانهم (٢) وقال صلى الله عليه وسلم : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكفه الله اليها (٣) وقال صلى الله عليه وسلم : من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه (٤) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربِّي عز وجل قال عز وجل - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - (٥) الآية وقال ﷺ : لم يتوكل من استرقى وأكتوى (٦) وروى أنه لما قال جبريل لأبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمجنين أنك حاجة قال أما إليك فلا فواف به حسي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأنزله الله تعالى - وإبراهيم الذي وفى - وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود مامن عبد يتصم في دون خلقى فتكبه السموات والأرض إلا جعلت مخرجاً - وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغني عن قرب فأقسمت على أمي لتسترقين فتأولت الرأى بدى التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى - وتوكل على الحى الذى لا يموت - إلى آخرها فقال ما ينفعي لأجد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى. وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك الضمون لك من الرزق عن القروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولاتنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ في وجود الصبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطاب العبد. وقال إبراهيم بن آدم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سئل ربى من أين يطعمنى. وقال هرم بن حيان لأويس القرنى أين تأمرنى أن أكون فأومأ إلى الشام قال هرم كيف العيشة قال أويس أف

(١) حديث ابن مسعود أريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذى والحاكم ومحمد بن حنبل من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن بن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربى قال تعالى - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيعدهما عن جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى وأكتوى الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبير والطبرانى واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث الثوري بن شعبة وقال الترمذى من أكتوى أو استرقى قد برى من التوكل وقال النسائى ما توكل من أكتوى أو استرقى.

له وجود وذات كالروح
والنفس وإنما
صفت النفس وتزكت
انطلق الروح من وثاق
ظلمة النفس فأخذ في
المروج إلى أوطان
القرب واترج القلب
عند ذلك عن مستقره
متطلعا إلى الروح
فأكتسب وصفًا إذا
على وصفه فأنجم على
الواجدين ذلك الوصف
حيث رأوه أصفى من
القلب فسموه سرا
ولما صار للقلب وصف
زائد على وصفه بطله
إلى الروح أكتسب
الروح وصفًا إذا
في عروجه وأنجم
على الواجدين فسموه
سرا والنسائي زعموا أنه
الطيف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

(بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا تنظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو الراد باسم التوكل . فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو للسمى إيمانا في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى حتى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك « لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالله وحده لا شريك له » الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ثم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والألفا توحيد هو البحر الحضم الذي لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب القلب وإلى قشر وإلى قشر القشر ونمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته الطيا فان « قشرتين وله لب ولب دهن ولب القلب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد الناقبين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام القرين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم يرفسه لكونه مستغفرا بالتوحيد كان ثانيا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه في عن رؤية نفسه والخلق فالأول موجد بمجرد اللسان ويسمى ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موجد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما اعتقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه إشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده ولهذا العقد حيل يقصدها تضعفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلم وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يغص للتكلم باسم للوحد من حيث إنه يحصى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موجد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والتكلمين إذ لم يفارق التكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موجد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر اللذاق وإن نظر إلى باطنه فهو كرهية للنظر وإن أخذ

متصفه بوصف أخص
بما عهدوه والذي سموه
قبل الروح سر هو قلب
اتصف بوصف زائد
غير ما عهدوه وفي مثل
هذا الترقى من الروح
والقلب ترقى النفس
إلى محل القلب وتتخذ
من وصفها فصيرتها
مطمئنة ترتد كثيرا
من مرادات القلب من
قبل إذ صار القلب يريد
ما يريد مولاه متبرئا
عن الحصول والقوة
والارادة والاختيار
وعندها ذاق طعم
سرف العبودية حيث
صار حرا عن إرادته
واختياره وأما العقل
فهو لسان الروح
وترجمان البصيرة
والبصيرة للروح بمثابة

حطيا أطفأ النار وأكبر الدخان وإن ترك في البيت ضيق السكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر معصوم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد للتناقض يصون بدنه عن سيف القزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيد فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فانها تصون القلب وتحمسه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينفع بها حطاب الكفا نازلة القدر بالاضافة إلى القلب وكذلك مجرد الاعتماد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف وللشاهدة التي تحصل بانسراج الصدر وانساجه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وكأن القلب غيبس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكله القصد ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا - فاعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم العامة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك تمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من للشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التف إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والتفت إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخرى سواء كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق القرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبياً كان لك نصيب منه بقوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عز نزول إلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فباذنت فقال أدور في الأسفار لأصح حالتي في التوكل وقد كان من التوكلين فقال الحسين قد أنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الوجدان في التوحيد على سبيل الاجمال . فان قلت فلا بد لهذا من شرح بقدر ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه . فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانها ليس التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والعقل بشهادة
اللسان . وقد ورد في
الحبر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
قال لا يروى عن الله
الله العقل فقال له أقبل
فأقبل ثم قال له أدبر
فأدبر ثم قال له اقتصد
فقتصد ثم قال له انطق
فانطق ثم قال له اصمت
فصمت فقال وعزني
وجعلني وعظمي
وكبريائي وساعاتي
وجبروتي ما خلقت
خلقا أحب إلي منك
ولا أكرم علي منك
وبك أعرف وبك
أحمد وبك أخذ وبك
أعطي وإياك أعاتب
ولك الثواب وعليك
العقاب وما أكرمك

الابتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم المانع بابتداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الأفراد دون غيره وما سواه مسخرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا انفتحت لك أبواب الكاشفة انفتح لك هذا اتساحا آتم من الشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتنبى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على الطرفين خروج الزرع ونباته ونعائه وعلى النيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع النيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجانا ومن انكشف لك أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالنجات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي النجات من أخذ لحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الجبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا يحكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والجبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والقيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فإذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيسر عن مزج توحيده بهذا الشرك فأنت في الهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبته بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبته وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا ، نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو السخر له وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كوز الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضمائم كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضمائم في ذلك كغلط الخلة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يعتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو السواد للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدتها فكذلك من لم ينسرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصر بصرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقه في الطريق

جوى أفضل من
الصبر ■ وقال عليه
السلام ■ لا يهجمكم
إسلام رجل حتى
تعلوا ما عقده عقله
وسألت عائشة رضي
الله عنها النبي صلى الله
عليه وسلم قالت قلت
« يا رسول الله بأي شيء
يتفاضلون الناس ؟ قال
بالعقل في الدنيا
والآخرة قالت قلت
أليس يهزمى الناس
بأعمالهم ؟ قال يا عائشة
وهل يعمل بطاعة
الله إلا من قد عقل
فقدر عقولهم يعملون
وعلى قدر ما يعملون
يجزون » وقال عليه
السلام ■ إن الرجل
لينطلق إلى المسجد
فيصلي وصلاته

على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسيبها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بالأحرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعنى به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك في قولنا لا قدر لما يشارك فيه الهائم وإنما أريد به مما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فإن قلت فهذا أهوية لا يقبلها العقل صف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت ووقدت وكيف شهدت على نفسها بالعجز . فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا يحصر وله يتناهى فانها كالكلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له قل لو كان البحر ممدادا لكلمات ربي لنفد البحر - الآية ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لئلا يطلع على صدور الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوحى بغيره فنادى بغيره على ملائمة الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لما صلى الله عليه وسلم «لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما انتهى عن إفشاء السر القدر (٢) ولما قال «إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا» (٣) ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات ما نمان : أحدهما استحالة إفشاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والتهاية ولو كننا في اللال الذي كفافه وهي حركة القلم تحكى من مناجاتها قدرا يسيرا فيهم بمطال الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفها وأصواتها ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقدر آه اسود وجهه بالخبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه قال الكاغد ما أنصفتني في هذه اللقاة فاني ما سودت وجهي بنفسى ولكن سل الخبر فانه كان مجموعا في الهبة التي هي مستقره ووطنه فها فر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماء وعدوا فقال صدقت فسأل الخبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فاني كنت في الهبة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطعمه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جعبي وبددني كاتري على ساحة يضاء فالسؤال عليه لاهي فقال صدقت ثم سألت القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الخبر من أوطانه فقال سل اليد والأصابع فاني كنت قصبا ثابتا على شط الأنهار متمزها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين فتحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنا وبين ثم برتني وشقت رأسي ثم غشقتني في سواد الخبر ومرارته وهي تستخدمني وتخشيني على قمة رأسي ولقد ثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنتع عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سألت اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو حسما يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبي فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي تردني

(١) حديث لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النبي عن إفشاء سر القدر ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره انظروا أبي نعيم وقال ابن عدي لا تكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف وقد تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبراني وابن جبان في الضعفاء وقد تقدم في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

لا تعدل جناح بموضه
وإن الرجل ليأتي
المسجد فيصلي وصلاته
تعدل جبل أحد إذا
كان أحسنهما عقلا
قيل وكيف يكون
أحسنهما عقلا ؟ قال
أورعهما عن محارم
الله وأحرصهما على
أسباب الخير وإن
كان دونه في العمل
والتطوع . وقال :
عليه الصلاة والسلام
«إن الله تعالى قسم
العقل بين عباده
أشتاتا فإن الرجلين
يستوى عليهما
وبرهما وصومهما
وصلاتهما ولكنهما
يتفاوتان في العقل
كالقدرة في جنب أحد»
وروى عن وهب بن

وتجول في نواحي الأرض أما ترى للدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي الوحي تساوي في صورة الاحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزهي من ركني فقال صدقت ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبي فكم من لأم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمرى وكيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبته وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني ميتة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أتحرك حتى جاءني موكل أزهي وأرهنني إلى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا هو كل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزهي من غمرة النوم وأرهنني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيت فقال صدقت ثم سألت الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة الطمئة حتى صرقتها إلى التحريك وأرهنها إليه إرهابا لم نجد عنه غلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تميل على فعل لما عذرا وأنت تلوم فإني ما انتهضت بنفسى ولكن انتهضت وما انتهضت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بعثته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصها باضطراب فإني ميكنة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقعت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكفى أدري أنني في دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقعت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبق لي — مهما جزم حكمه — على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتخير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجز حكمه أزيمت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عن عتابك فإني كما قال القائل :

مضى رحلت عن قوم وقد قدروا أن لا يفارقهم فالراحلون م

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا لإيماهم على استنواض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكني أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكني بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقش في يياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند ذلك تمنع السائل ولم يقنع جواب وقال قد طال عني في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكني كنت أطيع تسابكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في القواد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطني قلم فلست أفهمه فإني لأعلم قلم الأمن القصب واللوحة الأمن الحديد والحنجب ولا خط إلا بالحجر ولا سراج إلا من النار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا أسمع جمجمة ولا أرى طعنا فقال له القلم إن صدقت فياقلت بضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن الهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه لما هذا بمشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى القصد فألق صمك وأنت شهيد . واعلم أن الموال في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان السكاغد والحجر والقلم اليد من هذا العالم وقد تجاوزت

منه أنه قال إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهية رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا. واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا قال قوم : العقل من العلوم فإن الحالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الحالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من

تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو رائي فاذا جاوزتني انتهت إلى منزله وفيه للمهامه والقيح والجبال الشاهقة والبحار للفرقة ولا أدري كيف تلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والساء فلاهي في حد اضطراب الساء ولاهي في حد سكون الأرض وثباتها وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته إلى أن يعجز على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى إلى أن يمشي على الساء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تنعق فان كنت لا تقدر على المشي على الساء فانصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الساء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام «لوازداد يقينا لشي على الهواء» (١) لما قيل له إنه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدرى أطبق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فان ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذا نزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قسبا ولا خشبا ولا أعلم قسما إلا كذالك فقال العلم لقد أبعدت النجمة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأبدى ولا قلبه الأقالم ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأبدى ولا قلبه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا جبره زاج وعصى فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك إلا غشنا بين حذوة التنزيه وأتونة التشبيه مذبة بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكأن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلبس بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصار لا بالأبصار فكأن منزها صرفا ومقدسا فلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فاعلمك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودى به موسى - إن أنا ربك - فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه غثث بين التشبيه والتنزيه فاشتغل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تحسه نارا لما تقع فيه العلم بمحدثه اشتغل زيتته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتم الآن هذه الفرصة واخضع بصرك لملك تجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى يمشي على الماء قال لوازداد يقينا لشي على الهواء تقدم .

شرط ابتداء النظر
تقدم كمال العقل فهو
إذن من العلوم
الضرورية وليس هو
جميعها فان صاحب
الحواس الخمسة عاقل
وقد عدم بعض
مدارك العلوم
الضرورية. وقال بعضهم
العقل ليس من أقسام
العلوم لأنه لو كان منها
لوجب المحكم بأن
الداهل عن ذكر
الاستحالة والجواز
لا يتصف بكونه عاقل
ونحن نرى العاقل في
كثير من أوقاته ذاهلا
وقالوا هذا العقل صفة
يتبها بها درك العلوم .
ونقل عن الحرث بن
أسد الهامسي وهو من
أجل الشايخ أنه قال

فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له قضى منه العجب وقال نعم الرفيق في العلم جزم الله تعالى عن خيرا إذا الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا لأقلام فعد هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا طامع على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فاسفر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى القددورات فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وصممت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسئل عن شأنى للملقب يمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يردنى وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم آدمي في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن عين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسماوات مطويات بيمينه - قال نعم قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يردى فاسفر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائب ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحصى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ويد لا كالأيدي وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم عركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة إذ لا بد لا حكم لها في نفسها وإنما عركها القدرة لاهالة فاسفر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمد على الوصفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادات الحضرة - لا يسئل عما يغفل وهم يسئلون - فثبته هبة الحضرة غفر صغاف اضطرب في غشيته فلما أفاق قال سبحانه ما أعظم شأنك ثبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بآئك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بك من عقابك وبرضائك من سخطك ومالي إلا أن أسألك وأنضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لي صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأننى عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزبد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فلا آذاك نخذه وما نهاك عنه فانته عنه وما قاله لك فقله فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال سبحانه لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) فقال إلهي إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فأرجع إلى الصديق الأكبر فاقنديه فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراك فكيف نصيما من حضرتنا أن نعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالاتنا وجلالاتنا فنحن هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعايباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة ما بعدها أقبلوا عذرى فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة لما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبح عندي عذركم وانكشف لي أن للتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فلما أتم الامسحون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الأول والآخر وهو وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس ياطن فقال هو الأول بالإضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحد بعد واحد وهو الآخر

(١) حديث سبحانه لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

العقل غريزة يتربأ بها
درك العلوم وعلى هذا
يتقرر ما ذكرناه في
أول ذكر العقل : أنه
لسان الروح لأن
الروح من أمر الله
وهي المتحملة للأمانة
التي أبت السموات
والأرضون أن يحملنها
ومنها يخض نور
العقل وفي نور العقل
تنشكّل العلوم فالعقل
لعلوم بمثابة الروح
للكتب وهو صفته
منكوس متطلع إلى
النفس تارة ومنتصب
مستقيم تارة فمن كان
العقل فيه منكوسا
إلى النفس فرقه في
أجزاء الكون وعدم
حسن الاعتدال
بذلك وأخطأ طريق

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في الشاهدة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصرة الباطنة النافذة في عالم لللكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في القمل - أعني من انكشف له أن الفاعل واحد - فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يتنى على الإيمان بعالم لللكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجمده فطريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم لللكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت ، وم الدين حصرو العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فاني لأهتدي إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بأوراء الحواس الخمس كانكار الموقسطانية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلمنا نراه في المنام ، فان قال وأنا من جملتهم فاني شاك أيضا في المؤسسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجمد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم لللكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود قبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بقتيته اشتغال الكمال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك ولللكوت شهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا فدوة التوحيد إلى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضا توحيدا إذ يعلم كل أحد أن للنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأمرين فيقال له على حد عقله إلى العالم واحد والمدير واحد إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق مارآ في عالم الشهادة فيفسد اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وذلك نزل القرآن بلسان العرب على - عاديهم في المحاورة - فان قلت فكل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يضيض ويقتصر إلى الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف النطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا - طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ومماثال للكاشفين والمتقين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطالبين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقوله فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التغير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثمان فلما نظروا إلى عجل السامري ومعموا خواره تغيروا ومعموا قوله - هذا إلهم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قول ولا يملك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصرة التي هي لروح بمثابة القلب واهتدى إلى للكون ثم عرف الكون بالكون مستوفيا أقسام المعرفة بالكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله إقباله في أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله في أمر دله على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجنب مساخطه وكلما استقام العقل وتأيد بالبصرة كانت دلالاته على الرشد ونبيه عن التي . قال بعضهم : العقل على

ضربين ضرب يصبر
به أمر دينه وضرب
ببصره أمر آخرته .
وذكر أن العقل الأول
من نور الروح والعقل
الثاني من نور الهداية
فالعقل الأول موجود
في عامة ولد آدم والعقل
الثاني موجود في
المؤمنين مفقود من
الشركيين . وقيل إنما
سمى العقل عقلا لأن
الجهل ظلمة فإذا غلب
النور بصره في تلك
الظلمة زالت الظلمة
فأبصر فصار عقلا
والبطل . وقيل عقل
الإيمان بسببته في
التصديق وتمتعها في
المستور بين عيني
الفراد والذي ذكرناه
من كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية فلاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيها له في إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبثق الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحرق رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لقد الإرادة الداعية للشخصة للقدرة وإنما قدت الإرادة لأنها تنبثق بحكم العقل أو الحس يكون العقل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردده بين شر الشرين فإن ترجع له بمد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبثق له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فإنا هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلاً ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لأمته ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذ هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنما كان فإنا كما واثموا فيه بكتاب الله تعالى قسموه كتباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تمييز وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم وبطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وإن أبيت ذلك فإمعن في ترتيب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنهه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك بطول ولكن بعض التقديرات مترتب على البعض في الحدوث ترتيب للشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكلاهما يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدم مقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والفرق وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلدين علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقت السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد
ليس هو على ضربين
ولكنه إذا انتصب
واستقام تأيد بالبصيرة
واعتدل ووضع
الأشياء في مواضعها
وهذا العقل هو العقل
المتنقى بنور الشرع
لأن انتصابه واعتداله
هداه إلى الاستقامة
بنور الشرع لكون
الشرع ورد على لسان
النبي المرسل وذلك
لقرب روحه من
الحضرة الإلهية
ومكاشفة بصيرته التي
هي للروح بمثابة القلب
بقدرته الله وآياته
واستقامة عقله بتأيد
البصيرة فالبصيرة
تحيط بالعلوم التي
يستوعبها العقل والتي

لاعين . ما خلقناها إلا بالحق - فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخراً لا ينتظر شرطه وللشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدير وتفهم ذلك عسير ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلاً لا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن نقدر إنساناً محدثاً قد اتقن في الماء إلى رقبته فالحديث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرفع وهو ملاقه فقدرة القدرة الأتلية حاضرة ملاقة للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل لرفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أنه الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيه إذ يقول كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً ولما لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فإذا غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء لللاق لها بالنفس الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأتلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤثته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم أنظله على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فإن قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول من فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجزئاً لمرادد بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتل الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى الجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى الله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمضى كون الله تعالى فاعلاً أنه المحترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلول بالعلو وارتبط المحترع بالمتحرف وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلاً فكيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً لأن القتل ارتباط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمى فعلاً لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بينهما مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل يتوفاكم ملك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها - وقال تعالى - أفرايتم ما تعجلون - أضاف إليهم قال تعالى - أنا صبينا الماء صبائهم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حبا وعنباً - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم باروخاً فممثل لها بشر أسوياء - ثم قال تعالى - ففققنا فيها من روحنا وكان النافع جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التي يفقد البحر دون نقادها والعقل ترجمان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطراً كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر بعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الاستمضاء بنور الشرع حظى بحلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أبواب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فاذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى - قاتلواهم يعذبهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلواهم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه ومارميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون البعد به راميا . إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه البيان - وقال - ثم إن علينا ياناه - وقال - أفرأيتم ما نعنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك ^(١) » وفي لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفع فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » . وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم . ولذلك سمى روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الحي والميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين في الخبر « أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا الميت والحي لا يميت ولا يحيي سواي ^(٢) » فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله النخلة « خذها لولم تأتها لأنتك ^(٣) » أضاف الاتيان إليه وإلى النخلة ، ومعلوم أن النخلة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال الثائب أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم « عرف الحق لأهله ^(٤) »

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا الحديث البرار وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فقامن شيء . لا وهو يخلق معه في الرحم وفي مسنده جهالة وقال ابن عدى إنه منكر . وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه ^(٢) حديث إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا ^(٣) حديث قال للذي ناوله النخلة خذها لولم تأتها لأنتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح ^(٤) حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والقول دون الجامدين
على مجرد القول دون
البصائر وقد قال بعضهم
إن العقل عقلان عقل
للهداية مسكنه في القلب
وذلك للمؤمنين المؤمنين
ومتعمله في الصدرين
عيني الفؤاد والعقل
الآخر مسكنه في الدماغ
ومتعمله في الصدرين
عيني الفؤاد قبل الأول
يدبر أمر الآخرة .
وبالثاني يدبر أمر
الدنيا والذي ذكرناه
أنه عقل واحد إذا
تأيد بالبصيرة .
الأميرين وإذا تفرد
دبر أمرا واحدا وهو
أوضح وأبين . وقد
ذكرنا في أول الباب
من تديره للنفس
للطمشة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو التجوز والستير في كلامه والتجوز وجه كما أن الحقيقة وجهها واسم الفاعل وضعه واضع اللفظ للمخترع ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فيها فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبته إلى الجلال فلهذا انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعه أي الغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولنيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه الغوى له ولما جرى حقيقة للفق على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» (١) أي كل ما لا تقوم له بنفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لا حق بالحقيقة إلا الحق القيوم الذي ليس كمثل شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت قد ظهر الآن أن الكل جبر فامعني الثواب والعقاب والنصب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بأعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والإيمان بالرحمة وسعها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يترتب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينا لا ضغف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تختمه نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لامشئ لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وغفلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بموضنة ولا أن ينقص منها جناح بموضنة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن بلى به ولا أن يزيل صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارأوا فيها من مخاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وهجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي والقدر الذي ينبغي وليس في الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يفضل بفضله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان هجرا يناقض الألوية بل كل فقر وضرفي الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا الرض لماتتم الأصحاء بالصحة ولولا النار

ما ينبت الإنسان به إلى كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله اللهم للصواب [الباب السابع] والمحسون في معرفة الحسائط وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب للسروردي قال أخبرنا أبو الفتح المهروري قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الحمداي عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قالته الرب بيت لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**

متفق عليه من حديث أبي هريرة بلنظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كفة تكلمت بها العرب

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكأن فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس
بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على
أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل
ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحسنة
خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فناء كامل
بنقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور
فيه وحق لا لب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في
السمعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غرض لا يقفه إلا العالمون
ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره الكاشفون . والحاصل
أن الخير والشر مقضى به وقد كان مقضى به واجب الحصول بعد سبق الشيئة فلا راد لحكمه
ولامعقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن
ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه الرموز من علوم المكاشفة التي هي أصول
مقام التوكل ولترجع إلى علم العامة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ
في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والامل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل
في دفع الضرر وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله البوق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة
عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرة وقد أكثر الخاضعون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم
كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار
فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه
واعتمد عليه فيه ويسمى للوكول إليه وكلا ويسمى للفوض إليه متوكلا عليه ومتوكلا عليه مهما
اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمة فيه بتقصير ولم يستغنى عنه في عاجز وقصورا فالتوكل عبارة عن
اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة
بتلبس فوكيل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس
بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة
أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يغنى عنه من غوامض الحيل شيء أصلا وأما القدرة
والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يخجل فانه ربما يطلع على وجه
تلبس خصمه فيجتمه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف الضعفة للقلب عن
التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل
ما استجرا القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة
التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعتبار ما على بذل كل ما يقدر عليه في حق من المجهود فان قدرته
لا تغني دون الناية به إذا كان لايهمه أمره ولا يبالى به فظهر خصمه أو لم يظهر هلك به حقه أو لم يهلك فان
كان شاكا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أو كمل منه
لمطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي مزعج القلب مستغرق في المم الحيلة والتدبير ليدفع ما يحذر من قصور

رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم «إن الشيطان لمة
بأن آدم ولله لمة
فأما لمة الشيطان فإبعاد
بالشر وتكذيب بالحق
وأما لمة الملك فإبعاد
بالخير وتصديق بالحق
فمن وجد ذلك فليعلم
أنه من الله فليحمد الله
ومن وجد الأخرى
فليتهود بالله من
الشيطان ثم قرأ
الشيطان يعدكم الفقر
ويأمركم بالفحشاء - »
وإنما يتطلع إلى معرفة
الدين وتمييز الخواطر
طالب مريد يتشوق إلى
ذلك تشوق العطشان
إلى الماء لما يظم من
وقع ذلك وخطره
وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال التوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدلولوك وهو الذي يسمى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل بتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقوام بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصور الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال قس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم تلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيه أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وإنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فإن القلب قد يزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما تضرطه وتغدر عليه تناوله ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الليث في قبر أو فراش أو بيت تضرطه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جمد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يغيره الآن ولا يغيه وإن كان قادراً عليه كأنها مطردة بأن لا قلب القلم الذي في يده حية ولا يقبل السور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الليث في فراش أو الليث معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يغلو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذا نائم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكيف من يقين لاطمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الليث بيمينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس للطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً ولكن من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب اللل والذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذا ن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كما أن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة لملعون من تمت إنسان مثله وقد قال ^{عليه السلام} «من استعز بالعبيد أذله الله تعالى» (١) وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكل فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

(١) حديث من اعترز بالعبيد أذله الله العقيلي في الضمراء وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر أوردته العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن جبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالخطوة صفو اليقين ومنع اللوثين وأكسر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والخط ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتعيين الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

الدرجة الأولى : ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفائته وعنايته كحال في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يغفلها وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يأمأه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فاتها مفرعه فإنه قد وثق بكفالتها وكفائتها وعفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتميز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوّل بتفصيل هذه الحاصل لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً فذهبه ولكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كاف به كأيكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والسكسب وليس فانياً عن توكله لأن التفاتاً إلى توكله وشعور به وذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاه أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الليث بين يدي الغامل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغامل الليث وهو الذي قوى يقينه بأنه يجري للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن لا يحدث جبراً فيكون باثناً عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويسعدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تغامحه وتحميه وهذا اللقائم في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يستل فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون اللقائم الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجه فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجه عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تمنح عن ظاهر البشرة الحرارة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فإن البشرة ستر رقيق تترامى من وراء حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالسكسية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوماً ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكّم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فإن قلت فهل يبقى مع العبد تدين وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدين رأساً مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمجهول والمقام الثاني ينفي كل تدين إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والانهال كتدين الطفل في التعلق بأمه فقط والمقام الأول لا ينفي أصل التدين والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الحصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضاً لتوكله عليه إذ ليس هو فزعاً عنه

عصيت الله وهذا حال
عبد استقام قلبه
واستقامة القلب
لطمأنينة النفس وفي
طمأنينة النفس يأمن
الشیطان لأن النفس
كلما تحركت كدّرت
صفو القلب وإذا
تسكدر طمع الشيطان
وقرب منه لأن صفاء
القلب مخوف بالتذكر
والرعاية ولذلك نور
بقية الشيطان كاتقاء
أحدنا النار . وقد
ورد في الخبر إن
الشیطان جائم على
قلب ابن آدم فإذا
ذكر الله تعالى تولى
وخفس وإذا غفل
التقم قلبه فخدمه ومنه
وقال الله تعالى ومن
يشي عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحاجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر قوله وأما المعلوم من عادته واطرادته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الحسم إلا من السجل فقام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون محولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يعمل السجل مع نفسه إليه عند خاصته فاذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولوترك شيئاً من ذلك كان قصراً في توكله فكيف يكون فعله تصافيه « نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقد ناظراً إلى حاجته فقد يقتهى إلى القام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمجهول ينتظر لا يخرج إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعاً إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا الطمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسبأ في تفصيله في الأعمال فإذا فزع التوكل إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً بلا جدوى فاذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله معتمداً لم حاجته وعرفه ذلك بإشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإتمامه في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهم مفيدين إذ جعلهم حاشراً طامساً يخلقهم من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله (١) وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بفهمهم لفظها وهيئات قائماً ذلك جزاء على هذه الشهادة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد خسراناً ولين فكذلك لهذه الكلمة ولها ثواب الكلمات وأكثر الخلق قبدوا بالخشين وماتوا قوماً إلى اللين وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله صادقاً من قلبه غلصاً وجبت له الجنة (٢) » وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالطلق هذا القيد كما أضاف المفردة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع والمراد به القيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب بأصاحبه ولكنه حديث نفس وإيماناً الصدق والإخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك إلا للقرينين وهم المخلصون، ثم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اللين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهى إلى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القرينين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقاً غلصاً من قلبه وجبت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الرحمن تقيض له
شيطاناً فهو له قرين -
وقال الله تعالى - إن
الذين اتقوا إذا مسهم
طائف من الشيطان
تذكروا فإذا هم
مبصرون - فبالنقوى
وجود خالص الذكر
وبها يفتح بابها ولا
يزال العبد يتقى حتى
يغمى الجوارح من
اللكاره ثم يغمى من
الفضول وما لا يرضيه
فتفسير أقواله وأفعاله
ضرورة ثم تنتقل
تقواه إلى باطنه ويظهر
الباطن ويقيده عن
اللكاره ثم من الفضول
حتى يتقى حديث النفس
قال سهل بن عبد الله
أسوأ المعاصي حديث
النفس ويرى الإصغاء

سرر موضونة متسكين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار الحور العين وكل ذلك من لذات النذور والشروب والمأكل والنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذات الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ولو كان لهذه الالذات قدر لها وصمت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم وهي مسية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف الماء كولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى السكالك مغبوظة من أحوال الملائكة في سرورهم تقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيئات هيئات مأبعد عن النجس من إذا خير بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي تزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالسكتاب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة فهو بالبهايم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة فتركها الطاب للعجز ، وأما الإنسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل السكالك أخرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكالك. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله فلو قال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوز أقلية الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة آدميين بل هما من خالق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرها على المعزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يصدق النظر في الرأي والمقول حتى يشق الشعر بمعدة نظره فهي مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أفتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان . إحداهما : النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات . والثانية : النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها وبقطعها كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجعها فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الديلمي قلت لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن عينك ويسارك ما تمرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتمتعون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذا ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا يميز بين أهل النار

إلى ما يحدث به النفس
ذنباً فيتحبه ويتقصد
القلب عند هذا الاتقاء
بالذكر اتقاء السكواكب
في كبد السماء وصير
القلب سماء عنفوا بزينته
كواكب الذكر فاذا
صار كذلك بمسد
الشیطان ومثل هذا
العبد يسر في حقه
الخواطر الشيطانية
ولماته ويكون له
خواطر النفس ويحتاج
إلى أن يتقيها ويميزها
بالعلم لأن منها خواطر
لا يضر - إمضاؤها
كطالبات النفس
بحاجاتها وحاجاتها
تنقسم إلى الحقوق
والحظوظ ويتميز
التمييز عند ذلك واتهام
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر وأبو يزيد قد استكمل إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احتراز أبو بكر رضي الله عنه في الفار إذ سدت منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لأمر يرجع إلى نفسه وللنظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فإن احتراز لم يكن استكاله على تديره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه قبيل له زدنا فقال إلقاء النفس في البودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دائن دين لم تأمن أن تموت ويقتك دينك في عتقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة وأن في القدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولي لذلك فالأول مقام المقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يقضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخزاز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه وإبتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو على الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعده والسلم يكتفي بملئه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقاويل شتى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والقل فهذا ملحق بحال التوكل والله الموفق برحمته وطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم بمرث الحال والحال يشمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكالحم على الوضع وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل تكشف الغطاء عنه وتقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بملئه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالسكب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم يزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضار قد نزل به

الحظوظ قال الله تعالى
- يا أيها الذين آمنوا
إن جاءكم فاسق بنبأ
فتبينوا - أي فتبينوا
وسبب نزول الآية
الوليد بن عقبة حيث
بعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى بني
المصطلق فكذب عليهم
ونسبهم إلى الكفر
والعصيان حتى تم
رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقتلهم ثم
بعث خاله إليهم فسمع
أذان المغرب والعشاء
ورأى ما يدل على
كذب الوليد بن عقبة
فأنزل الله تعالى الآية
في ذلك فظاهر الآية
وسبب نزولها ظاهر
وصار ذلك تنبيهاً من
الله عباده على التثبت

(١) حديث إن أبا بكر سدت منافذ الحيات في الفار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالنفاذ من الرض فتمسود حركات العبد لاتعدو هذه العنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .
 [الفن الأول : في جلب النافع] فنقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لا تتق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به . وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت للسبب بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تعد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أفعالي الحنك على أساقفه فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيئا دون الحيز أو يخلق في الحيز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت صريم عليها السلام فشكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج ، وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويقتل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى من يهلكك عليه أو يبعث حية تزحفك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتقول فإذا كان هذا حاله وعلمه فليجد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن السبب لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطررها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان بفعله الخواص فان قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقارب به بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يفتق من الأشياء الحسية فبعد هذين الشرطين لا يغلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو يتنهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجيبه به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يمول الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الإبرة والقراض والحبل والركوة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون للآء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر بغير دلو ولا حبل ولا يفلج وجود الحبل والدلو في البوادي كما يفلج وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في هذه الآية الفاسق الكذاب والكاذب صفة النفس لأنها تمسلى أشياء وتسل أشياء على غير حقائقها فتعين التثبت عند خاطرها وإقامتها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولا يستغفزه الطبع ولا يستجمله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إزاله الخاطر بحرك النفس وخالفها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد القراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب أو يسطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسميه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام محضوطا إلى فيه فيبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا قولوا انحاز إلى عصب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا بطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لأسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي فقدم سبعا فكاد يموت ولم يأت به رزق فقال يارب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزني لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتصدقين الناس فدخل مصر وقد خفاه هذا بطعام وهذا شراب فأكل وشرب وأوجس نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي فإذا التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في التوكل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب. فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قدينا أخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت ففند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لا بمحالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا وقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لا رازق ولا ميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تخذو خماسا وروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال» (١) وقال عيسى عليه السلام «انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم. فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي التوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون. وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فانه إذا أتى بهذا الأدب يثاب وإيمان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان لاحق أمضاء وإن كان لاحظ نفاذ وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسمه في محنته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطره الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويمضي خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدمنا قريبا دون هذه الزيادة فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل بإسناد فيه لين لو عرقتهم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب السكي مرسلًا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

بذل كالسؤال وبعضهم تعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتنان كالصانع وبعضهم بمزكالصوبة يشهدون
 العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوكل
 إفضاؤها إلى السبب من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب
 ووجوهه وذلك يخرج بالسكينة عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أغنى من اكتساب
 بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية
 الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يخفى أن ذلك يطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي
 نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضرر فإن النبي صلى الله عليه
 وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد
 شيئاً بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوتق بها في السبب مما يكثر
 فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يعجبهم عن نفسه
 وإنما عجبهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى تدبير دون
 الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب متقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا
 يخرج وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل
 عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل .
 وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على
 ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرانه وهو الذي يدور في البرادي غير زاد ثقة بفضل الله تعالى
 عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه أو تفسير حشيش له أو قوت أو تثبيت على الرضا بالموت إن
 لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعاً فذلك يمكن مع
 الزاد كما أنه يمكن مع فقده . المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأصاار وهذا
 أضف من الأول واسكنه أيضاً متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معوله على فضل الله
 تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالعمود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن
 ذلك من الأسباب الجلية إلا أن ذلك لا يطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخره سكان البلد
 لا يصل رزقه إليه لا إلى مكان البلد إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى
 بتعريفهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتساباً على الوجه الذي ذكرناه
 في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السبب لا يخرج أيضاً عن مقامات التوكل
 إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في
 لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسر أعباءه له بل يرى كسبه وبضاعته
 وكفايته بالإضافة إلى قدر الله تعالى كإبري القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب
 الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يميل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسباً لبياله أو لفرق
 على الساكنين فهو يبدنه مكتسب وقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل
 على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن
 الصديق رضي الله عنه لما يبيع بالخلافة أصبح أخذاً الأبواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق
 يتنادى حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أتمت الخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي
 فاني إن أضعتهم كنت لـمـا سوامم أضيع حق فرضوا له قوداً هل بيت من المسلمين فلما رآه بذلك رأى
 مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله
 وهو علم السعة لبيد
 مأذون له في السعة عالم
 بالأذن فيمضي خاطر
 الحظ والمراد بذلك
 على بصيرة من أمره
 يحسن به ذلك ويليق
 به عالم بزيادته وتقصانه
 عالم بحاله يحكم لحكم
 الحال وعلم القيام
 لا يقاس على حاله ولا
 يدخل فيه بالتقليد
 لأنه أمر خاص بعبد
 خاص وإذا كان شأن
 العبد تميز خواطر
 النفس في مقام تخلصه
 من لسات الشيطان
 تكثر لديه خواطر
 الحق وخواطر الملك
 وتصير الخواطر الأربعة
 في حقه ثلاثاً ويسقط
 خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادّخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دافعا ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرتة وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل للكاتب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يعمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك قد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت لما الأفضل أن يمدنى بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فأعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان التوكلون يأخذون ما استشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر الروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه فردده فلما ولي قال له أحمد الحق وأعطه فانه يقبل فالحق وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأبى فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الخضر ورضى بصحبي ولكن فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلتي فاذن للكاتب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فان قلت لما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو تنوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقدته ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المنازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استمنت على رزقك بالمنازل أرايت إن أخذ الله سمكك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آله المنازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب جبر بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الدين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فمترقت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادرا لضيق مكانه من
النفس لأن الشيطان
يدخل بطريق اتساع
النفس واتساع النفس
باتباع الهوى والإخلاص
إلى الأرض ومن ضائق
النفس على التميز بين
الحق والحظ ضاقت
نفسه وسقط محل
الشيطان إلا نادرا
لدخول الابتلاء عليه
ثم من المرادين المتعلقين
بمقام المقرئين من إذا
صار قلبه سماء مزينا
بزينة كوكب الذكر
بصر قلبه سماويا يترقى
ويعرج بباطنه ومعناه
وحقيقته في طبقات
السماوات وكلما ترقى
تضائل النفس المطمئنة
وتبعد عنه خواطرها
حتى يجاوز السماوات

أن الله لا يعمل به إلا ما فيه صلاحه فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلهذا لو تركه كان سبباً لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وفاته أن يموت جوعاً فينبغي أن يعتد أن الموت جوعاً خيراً له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيباً حزينا يتطير بحاربه وابن عمه من سبقي من دهاني وماهي إلا رحمة الإرحمة رحمه الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا بألى أصبحت غنياً أو فقيراً فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل بقلبه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فاني ما شئمت منه رائعة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولم له أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتصناه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبئ على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً - فان الانسان بطبعه مشغوف بسباع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشقيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضف القلب ومشاهدة التكاثر على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضاً تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له مملوك قال له الإمام لو اكتبته لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقاً في ضمانه فكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النفس في التوحيد كان خيراً لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل؟ قال يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعاً كما روى عن حذيفة الرعشى وقد كان خدماً إبراهيم بن آدم قميل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً ثم دخلنا الكوفة فأوتينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فحفت به إليه فكتب :
بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعراً :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جداً نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشراف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

بروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهرة قلبه فإذا استكمل الخروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضاً لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعي وجوداً وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخواطر

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
 هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكمن الضمين لنصفها يابارى
 مدحى لتبرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت
 فأول من لقيت كان رجلا على بئلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب
 هذه الرقعة قتل هو في المسجد الفلاني فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته
 عن ركب البئلة فقال هذا نصراني خفت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يحبس
 الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم بقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب
 الأنطع البصري : جئت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثني نفسي بالخروج فخرجت إلى
 الوادي لعل أجد شيئا يسكن ضعفي فرأيت ساجدة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة
 وكأن قائلا يقول لي جئت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت للمسجد
 وقعدت فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جالس بين يدي ووضع قطرة وقال هذ لك قتل كيف
 خصصتني بها قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فندرت إن خلصني
 الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته قتل
 اقتحمها ففتحها فإذا فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كهاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا
 وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك من
 عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي . وقال ممشاد الدينوي : كان على دين فاشتغل قلبي بسببه
 فرأيت في النوم كأن قائلا يقول يا عجيل أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا
 العطاء لما حاسبت بعد ذلك بقالا ولاقصا ولاغيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت في طريق
 مكة أجي من مصر ومعى زاد فجاءتني امرأة وقالت لي يا بنان أنت حمال تعمل على ظهرك الزاد وتوم
 أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم أكل فوجدت خالخالا في الطريق فقلت في نفسي
 أحمله حتى يجي . صاحبه فريما يعطيني شيئا فأرده عليه فإذا أنا بملك المرأة فقالت لي أنت تاجر تقول
 عسى يجي . صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمت لي شيئا من الدراهم وقالت أنفقها فاكثفت بها إلى
 قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له عنها وقالوا
 هو ذا يجي . النفير . فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له
 فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة
 من ممرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة . وقيل كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص
 فقال إن أكلته مات فوكل الله عز وجل به ملسكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره
 فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سعيد الخراساني : دخلت
 البادية بغير زاد فأصابني فاقة فرأيت الرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أتى
 سكنت واتسكنت على غيره وآليت أن لأدخل للرحلة إلا أن أحمل إليها فخرت لنفسي في الرمل
 حفرة وواريت جسدي فيها إلى صدرى فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا بأهل الرحلة إن لله
 تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية . وروى
 أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقاتل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى
 اذهب فقل القرآن فانه سيحبك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتى في لمكان
 القرب وخطر النفس
 بعد عنه بعد النفس
 وخطر الملك خلف عنه
 كتحلف جبريل في ليلة
 للعراج عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 حيث قال . لو دونت
 أعلة لا حترقت . قال
 محمد بن على الترمذي
 المحدث والكلم إذا
 تحقفا في درجتهما لم يخافا
 من حديث النفس
 فكما أن النبوة
 محفوفة من إلقاء
 الشيطان كذلك عمل
 للكلمة والمحادثة
 محفوف من إلقاء النفس
 وقتلتها وعجروس بالحق
 والسكينة لأن السكينة
 حجاب للكلم والمحدث
 مع نفسه . وصحبت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني فقال إني قرأت القرآن فأغنانني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله الذي وجدت فيه فقال وجدت فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون - فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فبكي عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراساني حجبت سنة من السنين فبينما أنا مشى في الطريق إذ وقعت في بئر فإزعتني نفسي أن أشتيت فقلت لا والله لا أشتيت فإستتممت هذا الحطرحي مر برأس البئر جلان فقال أحدهم للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموار رأس البئر فهممت أن أصبح قعلت في نفسي إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشئ جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في مهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني فاذا هو سبع فرس وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيتك من التلف بالتلف فشيت وأنا أقول:

نهاني حياتي منك أن أكشف الهوى وأغنيني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبدت شاهدي إلى غايي واللطيف يدرك باللطيف
ترأيت لي بالقيب حق كائنما تبشرنى بالقيب أنك في الكف
أراك وبني من هيبتي لك وحشة فتؤاسني باللطيف منك وباللطيف
ونحسي محبا أنت في الحب حشفه وذا هجب كون الحياة مع الخلف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوى الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فاللوت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه، ثم التوكل بهذه الأحوال والشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل العبد

اعلم أن من له عيال فحكه يفارق الفرد لأن للفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الإيمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأت رزقه علما بأن رزقه اللوت والجوع وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فهذا يتم التوكل للفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندم الإيمان بالتوحيد وأن اللوت على الجوع رزق مضبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الإيمان فاذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل للكسب وهو القيام الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكل في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكل في حقهم فهذا حرام وقد يفرض إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتنشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روي أن أبا تراب النخعي نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ يأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصالح لك التصوف أزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو علي الروذباري إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فأزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر مدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شئ واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبو أحمد بن
عبد الله البصري
بالصورة يقول الحواطر
أربعة : خاطر من
النفس وخطر من
الحق وخطر من
الشیطان وخطر من
الملك فأما الذي من
النفس فيحس به من
أرض القلب والذي
من الحق من فوق
القلب والذي من الملك
عن يمين القلب والذي
من الشيطان عن يسار
القلب والذي ذكره
إنما يصح لعباد أذاب
نفسه بالتقوى والزهد
وتصفى وجوده واستقام
ظاهره وباطنه
فيكون قلبه كالمرآة
المجولة لا يأتيه
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تغلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يدعوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيق أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز البدر رقة وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلب الحب والشفقة على الأم لتكفله به شاءت أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن من يرضع به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند اتصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواظبه الغذاء الكثيف أثبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسره أسباب التعلم وسلك سبيل الآخرة ، فحينئذ بعد البلوغ جهل بعض لأنه ما قصت أسباب معيشته يلوغ به زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفردة جدا فكان يطعمه يسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلب الله الشفقة واللودة والرقوة الرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحسن بمحتاج تألم قلبه ورقى عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان الشفق عليه واحدا والآن للشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ولو رأوه يتما سلب الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في سبي الحبس يقيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان الشفق واحدا والشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكأن من يقيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التعم والاعتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جري قلم القضاء بما يكون فيسان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثلنا فليجهد لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فلا للبطال والتوكل وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفلونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويصره فإذا اسود القاب وعلاه الرين لا يصير الشيطان . روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إن العبد إذا أذنب نكث في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صفل وإن عاد زيد فيه حتى تملأ قلبه قال الله تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال الحديث في باطن الإنسان والخيال الذي تراه لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر

في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يخلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وما رؤى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار لمات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد رزقني الله من قبله فأن كان الله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب نعم ما دبره تديرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيب السمان والياب الرقيقة والحيل النخيلة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تديرا يصل إلى كل مشغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناول له لا محالة والقالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب ترك التوكل إلا لرغبة النفس في التمتع على الدوام وليس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من اقتضت بصيرته فذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والملكوت تديرا لا يحاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فإذا انكشف هذا الأمر وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاس من الإفلاس عن وجود المقام ذوقا والإفلاس عن الإيعان به علماء فاذن عليك بالقناعة بالزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا يحتسب فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية - لأنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذات الأطعمة فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضمامن وأطمأن إلى ضمانه فإن الذي أحاط به تدير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مدخل الرزق لا يحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسأل الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه قالوا ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الحراز كنت في البادية فأتني جوع شديد فقلتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال التوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفتني بـ ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نصيح من أنانا

ويسألنا على الإلتار جهدا حكامنا لا نراه ولا يرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتما بالله عز وجل فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كإتاني من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تحرر فسأته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس مناعة ومعادنات وتألفا وتوددا وكلا انطلقت النفس في شئ بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وحمل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاشبة للنفس وذكر النفس عينا من فعلها وقولها كاللحم للنفس والمغالب لها على ذلك فإذا كان الحاضر أول الفصل

ليس مطمئناً فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب واللهى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقاً بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تمكن في توكلك منتظراً للأسباب بل بسبب الأسباب كالأنسكون منتظراً لقلم الكاتب بل لقلم السكاتب فإنه أصل حركة القلم والهرلك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم واليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ونوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه أضافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والتصور فإن اشتد به سبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الحامل مع الاكتساب فلا اهتمام بالرزق فيبيع بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع عن السير بالسكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يسطيع أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطي على نيل الثواب ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكماً عن الأحق للرزق والعاقلة المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولائقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلمكن إذن من جهلن البهائم

(بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال)

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يسطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفاً رغيفاً ويحتدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر منادياً حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعاقوا بغلماناً إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم ماء ورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالغلان وأدام وأخذ رغيفين فإذا فتح باب البستان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلاً به إلى أن أتقدم لعقوبته في مياد مع ما هو عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فأنى أختصه بغلعة سنية في العباد للذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن أخطأ غلماناً فما أوصلوا إليه شيئاً فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان ولا تلاميته أوصل إلى رغيفاً فأنى غدا أستوزره وأفوض ملكي إليه فالتسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الوعدة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فأدوم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في العباد المذكور فقدموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين فلبت الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا إنا نجلس بمراءى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن تأخذ إذ أعطونا رغيفاً واحداً ونقع به فلعنا فنوز بالخلعة ففازوا بالخلعة وقسم رابع اختفوا في زوايا البستان وأخفوا عن مراءى أعين الغلمان وقالوا إن اتبعونا وأعطينا رغيفاً واحداً وإن

ومفتحه فمرفعه من
أم شأن العبد لأن
الأضال من الخواطر
تنشأ حتى ذهب بعض
العلماء إلى أن العلم
للقترض طلبه بقول
رسول الله صلى الله
عليه وسلم وطالب
العلم فريضة على
كل مسلم هو علم
الخواطر قال لأنها أول
الفعل وبفسادها فساد
الفعل وهذا لصمري
لا يتوجه لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أوجب ذلك على كل
مسلم وليس كل المسلمين
عندهم من التريفة
والعرفه ما يعرفون به
ذلك ولكن يعلم
الطالب أن الخواطر
بغاية البذر فمنها ما هو

أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلمنا تقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما تفهم ذلك إذ اتبعهم العلماء في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار العلماء وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم لثالثا تعرضنا للعلماء وأخذنا طعاما فقلنا نطبق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة في الدنيا وباب الميدان الموت والعباد المجهول يوم القيامة والوعود بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهادة أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالعلماء هو التعتدي في الأسباب والعلماء المسخرون هم الأسباب والجالس في ظاهر الميدان يرى العلماء هم القيعون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمنحرفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الدور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتغالهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك في الأمصار السالفة وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التمرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارثا وكسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل كل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذ ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية القابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من التوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والخملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المأمور للوعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الحواصص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السبكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أصاقل درجات السابقين فلامعنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالممتنع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقسام ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود ممن يؤمل سنة وتقيده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا» (١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمير كان موقوفا على مدتها ما ذكر فإذا من مآورا

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بذر السعادة ومن
ما هو بذر الشقاوة .
وسبب استنباط
الخواطر أحد أربعة
أشياء لا خامس لها إما
ضعف اليقين أو قلة العلم
بعرفة صفات النفس
وأخلاقها أو متابعة
الهوى بختم قواعد
التقوى أو محبة الدنيا
جاهها ومآلها وطلب
الرفعة والمنزلة عند
الناس فمن عصم
عن هذه الأربعة
يفرق بين لمة الملك
ولمة الشيطان ومن
ابتلى بها لا يعلما
ولا يطلما وانكشف
بعض الخواطر دون
البعض لوجود بعض
هذه الأربعة دون
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخر له إلا بعينكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بأحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فإن أسباب الدخل في الارتفاعات والركوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن آخر لأقل من سنة فله درجة بحسب نصر أمه ومن كان أمه شهرين لم تسكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو ينه في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، إن ضعف قلبه فكما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقدروى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامه أن يسأله فسأله وكفناه يردته فلما دفنه قال لأصحابه « إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية . » وماهى يارسول الله ؟ قال كان صوامقا وما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أوثيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(١) الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما قوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أبدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار أولى بل لو أمسك ضيقة يكون دخله واقيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجدد ذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محدودة لوجودها ولا عديمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخاره قدر حاجته كأن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم الفرد ، فأما العليل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة ليماله جيرا لضعفهم وتسكين قلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليماله قوت سنة ^(٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخره شيئا لقد ^(٣) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخارها ليفطر عليها فقال ^(٤) « أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا » ^(٥)

ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جدا وهو باطل (١) حديث أنه قال في حق القبر الذي أمر عليا أو أسامة فسأله وكفنه يردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أوثيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا . (٢) حديث ادخر ليماله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة (٣) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لقد تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها (٤) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

بتميز الحواطر وأقوهم
بمعرفة النفس ومعرفتها
صمة النال لا تكاد
تبسر إلا بعد
الاستقصاء في الزهد
والتقوى . واتفق
لشايخ على أن من
كان أكمله من
الحرام لا يفرق بين
الالهام والوسوسة .
وقال أبو على الدقاق
من كان قوته معلوما
لا يفرق بين الهام
والوسوسة وهذا لا يصح
على الإطلاق إلا بقيد
وذلك أن من المعلوم
ما يقسمه الحق سبحانه
وتعالى لعبداذن يسرق
إليه في الأخذ منه
والتقوى به ومثل هذا
المعلوم لا يحجب عن
تميز الحواطر إنما ذلك

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ » (١) اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لعل لأبائه » (٢) وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذا كان لا يثق بما أدخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليلاً لأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لعلها سنة لا تضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٣) تطيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والضوط فيتركون اليسور من الخير عليهم بمجزم عن منتهى الدرجات لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي لما وجد له كفن فقال عليه السلام فقتلوا توبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان » (٤) وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى - تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقير والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس. والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون الضعفاء من درجة كاله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فإن كل ما يغلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدرة من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن الدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن جبر قال الحسين المغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أصغر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيتك قام لأحد غيره قال ودفع إليّ كفاً من دراهم وقال اشترئنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال بحثت بالطعام فوضعت فأكل معه وما رأيتك أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شيء كثير فأخبرني الرجل وجمعه في توبه وحمله معه وانصرف فبعثت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح الوصلى زارنا اليوم من الموصل فأنما أراد أن يطلعنا أن التوكل إذا صح لم يضر مع الادخار [الف الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أمامي النفس فكان نوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادي أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . فم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة ترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقية

يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار لأنه يتعجب لموضع اختياره والذي أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه للمعلوم وفرقوا بين هو اجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ في الحاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الحاطر الأول

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة . حديث الق الله فقيراً [١] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لأبائه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمرو وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[١] قول المراق حديث الق الله فقيراً الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فلمه بنسخته تأمل.

فان السكى والرقية قد تقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة - ول
 الله صلى الله عليه وسلم لم يصف للتوكلين إلا بترك السكى والرقية والطيرة ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى
 موضع بارد لم يلبسوا جبة والحجة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم
 الاستظهار يأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تنهيجا لقوة الحرارة من الباطن ربما
 يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتحويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الحجة وترك الأسباب
 الدافعة ، إن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والقشفي
 فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى - فاعننه وكبلا واصبر على ما يحولون - وقال تعالى -
 ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل التوكلون - وقال عز وجل - ودع أذا هم وتوكل على الله -
 وقال سبحانه وتعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وقال تعالى - نعم أجر العاملين الذين
 صبروا وعلى ربهم يتوكلون - وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والقاربات
 فترك دفعا ليس من التوكل في شيء ، إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعاقته على
 الدين وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب المنافع فلا تطول بالاعادة وكذلك في الأسباب
 الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب
 عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهل البعير
 وقال توكلت على الله «اعقلها وتوكل» (١) وقال تعالى - خذوا حذركم - وقال في كيفية صلاة الخوف
 - وليأخذوا أسلحتهم - وقال سبحانه - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - وقال تعالى
 لموسى عليه السلام - فأسر ببأدى ليلا - والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب
 واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر (٢) وأخذ السلاح في الصلاة
 ليس دافعا قطعا كقتل الحية والمقرب فإنه دافع قطعا ولكن أخذ السلاح بسبب مظنون وقد بينا أن
 للمظنون كالتطوع وإعسا الوهم هو الذي يقتضى التوكل تركه . فان قلت فقد حكى عن جماعة أن
 منهم من وضع الأسد يده على كنفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وصغروه
 فلا ينبغي أن يترك ذلك المقام فإنه وإن كان مهيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير
 بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .
 فان قلت وهل من علامة أعلم بها أن قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن
 من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى التفض فلا يزال
 يحضك ويضرب غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بأشارتك وكان مسخرا
 لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع وكلب دارك أولى بأن يكون
 مسخرا لك من كلب البوادي وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فإذا لم يسخر لك الكلب
 الباطن فلا تطمع في استسغار الكلب الظاهر . فان قلت فإذا أخذ التوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق
 بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن يطلق فبأي اعتبار يكون متوكلا . فأقول يكون متوكلا
 بالعلم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يدفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يدفع إلا بدفع الله
 تعالى إياه فكم من باب يفاق ولا ينفع وكم من بعير يحقل ويموت أو يفات وكم من آخذ سلاحه يقتل

لأنه إذا بقي رجع صاحبه
 إلى التأمل وهذا شرط
 العلم . وقال ابن عطاء
 الثاني أقوى لأنه ازداد
 قوة بالأول . وقال
 أبو عبد الله بن خفيف
 هما سواء لأنهما
 من الحق فلا مزية
 لأحدهما على الآخر قالوا
 الواردات أعم من
 الخواطر لأن الخواطر
 تختص بنوع خطاب
 أو مطالبة والواردات
 تكون تارة خواطر
 وتارة تكون وارد
 سرور ووارد حزن
 ووارد قبض ووارد
 بسط . وقيل بنور
 التوحيد يقبل الخاطر
 من الله تعالى وبنور
 للعرف يقبل من
 لللك وبنور الايمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذي من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في
 التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد قيدها (٢) حديث اخفى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

أويشك فلا تشكك على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب كما حضر بنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يشكك على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سيطرتك وأنا راض بحكمك فاني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية وودعة فتستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزقي غيري وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصناً من قضائك وتسخطا له بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بقول البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجد بل وجده مسروقاً نظراً إلى قلبه فإن وجد متاعاً أو فريضة أو فريضة أو فريضة عالمياً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا بمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكوه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذي قلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب يده قد كانت السرقة مزبناً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع اللقائم وكذبته في جميع الدعاوى فبمعهذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاؤها ولا يتدلى بحبل غرورها فإنها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير. فإن قلت فكيف يكون للتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول للتوكل لا يغلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإنما يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج السكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في المال كونه في كل مال زاد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء التوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكثران والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطاً في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والقراض والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأبرار. فإن قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي له حاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة في أن يكون ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن تكون خيرة في أن يتلى بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط الله تعالى تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرهما مسبب الأسباب عناية وتلطفاً وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم إليه الدواء فرح وقال لولا أنه

ينهى النفس وبزور
الاسلام يرد على العدو
ومن قصر عن دربك
حقائق الزهد وتطلع
إلى تمييز الخواطر بين
الحاطر أولاً بعين
الشرع فما كان من
ذلك تفلأوفر ضاعضيه
وما كان من ذلك محرماً
أو مكروهاً يتفيه فإن
استوى الحاطران في
نظر العلم نفذ أقربهما
إلى مخالفة هوى
النفس فإن النفس قد
يكون لها هوى كامن
في أحدهما والغالب من
شأن النفس الاعوجاج
والركون إلى الدون
وقد يلم الحاطر بنشاط
النفس والعبد يظن أنه
يروض القلب وقد
يكون من القلب تفاق

يسرف أن الغداء ينفعني وقد قويت على احتياله لما قربته إلي وإن أخر عنه الغداء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغداء يضرن ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتده للريض في الوالد للشفق الحافق لم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أهله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أي الأسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لأدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا يبالي للتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدري أيهما خيره في الدنيا أوفي الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا .

(بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم)

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يضاق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق وبكمه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يترك بابا له ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شدته أيضا . الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا يعرض عليه السارق فيكون هو سبب محصتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى للفقيرة إلى مالك بن دينار ركة قال خذها لأحاجة لي إليها قال لم . قال يوسوس إلى العدو أن الأس أخذها فكأنه احترز من أن يصيب السارق . ومن شغل قلبه بوسوس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا لما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن يهوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : أحدهما أن يكون ماله مانعا له من العصية فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بدمه وقد زال عصيانها بكل الحرام لما أن جعله في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما يتو حراسة مال غيره بمال نفسه أو يتو دفع العصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتنل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »^(١) ونصر الظالم أن تمنحه من الظلم وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويخير القضاء الأزلي ولكن يتحقق بالزهد نيته فان أخذ ماله كان له كل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش قتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له^(٢) لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خاف لكان ثوابه على فعله وفعله لم يعدم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يعجز بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الحيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

بسكونه إلى النفس
يقول بعضهم منذ
عشرين سنة ما سكن
قلبي إلى نفس ساعة
فيظهر من سكون
القلب إلى النفس
خواطر تشبه بخواطر
الحق على من يكون
ضعيف العلم فلا يدرك
غلق القلب والخواطر
التولدة منه إلا العلماء
الراسخون . وأكثر
ما يدخل الآفات على
أرباب القلوب
والأخذين من اليقين
واليقظة والحال
بهم من هذا القبيل
وذلك لقلة العلم بالنفس
والقلب وبقاء نصيب
الهوى فيهم . وينبغي
أن يعلم العبد قطعا
أنه مهما بقي عليه أثر

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجده أصلا .

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جمعه في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك الية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ثاقته فطلبها حتى أعيأ ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن ثاقتك في مكان كذا فليس فقه وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقبل له ألا تذهب فتأخذها فقال إن كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته قلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض على منازل فيها فرأيتهما قال وهو مع ذلك كئيب حزين قلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتتفسر الصعداء ثم قال نعم إنى لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إنى لما رأيت منازل في الجنة رفعت لى مقامات في عليين مارأيت مثلها فيها رأيت فقرحت بها فلما همت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل ، قلت وما إمضاء السبيل ؟ قيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيتها لك . وحكى عن بعض المباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فاقبته الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانه فذكر له لحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخفوا الهميانه مزاحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذوه حللا طيبا فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبحث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ففكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجة فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأذيه على مافات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فبأصيب به ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد اتصر (١) » . وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ولم يزعج اطلبه فجاءه قوم بيزونه ، فقال أما إنى قد كنت رأيته وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلى من ذلك يعني الصلاة فعملوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فاني قد جعلتها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قبل أن أرى لورد عليك قال لا أخذه ولا أنظر إليه لأنى كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمنى أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه المسكين ظم نفسه حتى أزيده شرا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظامه ، فقال لا تفرق في شتمه فإن الله تعالى ينصف للحجاج ممن اتهمك عرضه كما ينصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويبسه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظالم (٢) » . السادس أن يتم لأجل السارق وعصيانه وترسه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا في دنياه لا نقصا في دينه فقد شكك بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد اتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويبسه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

من الهوى وإن دق
وقل يبق عليه بحسبه
بقية من اشتباه
الخواطر ثم قد يخلط
في تمييز الخواطر من
هو قليل العلم ولا
يؤاخذ بذلك ما لم يكن
عليه من الشرع
مطالبة وقد لا يسامح
بذلك بعض اللطيفين لما
كوشفوا به من دقيق
الحناء في التمييز ثم
استعجالهم مع عليهم
وقلة التثبت . وذكر
بعض العلماء أن لمة
الملك ولمة الشيطان
وجدنا لحركة النفس
والروح وأن النفس
إذا انحركت اتحدت من
جوهرها ظلمة تنكث
في القلب همه سوء
فينظر الشيطان إلى

قال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك لما نصحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي وبغض قال أطل الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن على للسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل بعضهم ادع من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين .

[القرن الرابع في السعي في إزالة الضرر كدواوة للرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب الزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزيل لضرر العطش والحبز للزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتصد والحجامة وشرب الدواء السهل وسائر أبواب الطب أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الوهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكي ويليها الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والافتكاك إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة المتوسطة وهي المقتونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء فعمله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الوهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التدأوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله قد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام (١) » يعني الموت وقال عليه السلام « تدأوا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء (٢) » . « وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله (٣) » وفي الخبر المشهور « ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمك بالحجامة (٤) » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يبيخ بك الله فيقتلكم (٥) » فذكر أن تبيخ الدم سبب الموت وأنه قاتل يأذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج القرب من تحت الثياب وإخراج الحبة من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة مجمل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب فيه فاتها رد بخلاف مأمور أو على وفق منهى ومنها ما يكون فيها فضيلة إذا وردت بمباحات . وذكر أن الروح إذا تحركت انتدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه إلى آخره وإسناده حسن والترمذي وصحه من حديث أسامة بن شريك إلا الحرم والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تدأوا عباد الله الترمذي وصحه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورهه الترمذي بلفظ إن خبر ما تجتمعون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيخ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولا بن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر الحديث.

هو كسب الماء على النار لإلقائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الحروح عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحمية (٢) وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لمليّ رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين «لاتأكل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك (٥)» يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصبيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرًا وأنت أرمد فقال إني آكل من الجانب الآخر فبسم صلى الله عليه وسلم (٦)» . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنن الكلى . وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من القرب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يخلفه بالحناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب وصي طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بطة فدخل عليه بنو إسرائيل فغرفوا علاته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن جبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على روايته في الصحابي وكلاهما فيه زيد المسمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه تداؤوا الحديث وسيأتي في قصة على وصبيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد في أكلكه نفسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعدين زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لمليّ وكان رمداً لاتأكل من هذا الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم النضر (٦) حديث قال لصبيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال إنه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من القرب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسبرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تمشح كما من غونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بماء من فيه جابر الجعفي ضعه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيخلفه بالحناء الزاير وابن عدى في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث مسلم قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت به تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان التي منه أوكانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم يده هكذا وضع سفيان بن عيينة الراوى سبأته بالأرض ثم رفعها وقال بسم الله حربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا .

ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بفرض أمر به أو بفضله نذب إليه وإما بمباح يعوده صلاحه إليه وهذا الكلام يدل على أن حركة الروح والنفس هما اللوجيتان للمتين . وعندى والله أعلم أن اللتين يتقدمان على حركة الروح والنفس لحركة الروح من الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح يركه لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهي من عوَم لمة الشيطان فاذا وردت اللتان ظهرت الحركة

فقالوا له لوتداويت بكذا لبرئت فقال لأتداوى حتى يافنى هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له إن
دواء هذه العلة معروف مجرب وإن اتتداوى به فبرأ فقال لأتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه
وعزنى وجلالى لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكره لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فدأوه فبرأ
فأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقابر
منافع الأشياء غيرى . وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاه علة يجدها فأوحى الله
تعالى إليه كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيها القوة قيل
هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم فتح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم
أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد . ويضع ذلك فى الشهر الثالث والرابع إذ فيه
يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنساء الرطب فهذا تبين أن مسبب
الأسباب أجرى سنته ربط للسبب بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى
كسائر الأسباب فكما أن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالكسجين دواء الصفراء والسقمونيا
دواء الاسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحبز جلى واضح
يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالكسجين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق
فى حقه بالأول : والثانى أن الدواء يسهل والكسجين يسكن الصفراء بشروط أخرى الباطن وأسباب
فى الزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يغوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن
الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقديتفق من العوارض ما يوجب
دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين
والإفالسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخير
وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر للتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب
والدواء فقد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الداء والدواء ؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء ؟
قال يا كلون أرزاقهم ويطيون نفوس عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى فاذن معنى التوكل مع التداوى
التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس
شرطا فيه . فإن قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب
الظاهرة مثل القصد والحجامة وشرب المسهل وسقى البردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثلما فى الظهور
لما خلت البلاد الكثيرة عنه ولما يئس السكى فى أكثر البلاد إنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب
فهذا من الأسباب الوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستغناء
عنه فإنه مأمون وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء يفتى عنه ليس فيه إحراق فلاحراق بالنار جرح محرب
للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف القصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدما
غيرهما ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى (١) وكل واحد منهما بعيد
عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه
الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع
ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

وظهر سر العطاء
والإسلاء من معط
كريم ومبل حكيم وقد
تكون هاتان اللتان
متداركتين وينمى أثر
إحداهما بالأخرى
وللتفطن التيقظ
ينفتح عليه بمطالعة
وجود هذه الآثار فى
ذاته باب أنس ويتق
أبدان متقد أحالة مطالما
آثار اللتين . وذكر
خاطر خامس وهو
خاطر العقل متوسط
بين الخواطر الأربعة
يكون مع النفس
والدواء لوجود التمييز
وإثبات الحجة على
البدل ليدخل العبد فى
التقى بوجود عقل إذ
لو فقد العقل سقط
العقاب والعقاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس
وأنهى أمى عن السكى ، وفى الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الرقية من كل ذى حمة .

فرد الله تعالى عليه ما كان يحمد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره ببقائها فاذن السكى وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثم هو مضموم ويدل ذلك على عدة ملاحظة الأسباب وعلى التعقق فيها والله أعلم .

(بيان أن ترك التداوى قد يحمده في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل)

وأن ذلك لا يناقض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

يكون مع الملك والروح
ليوقع الفعل مختاراً
ويستوجب به
الثواب . وذكر
خاطر سادس وهو خاطر
اليقين وهو روح
الإيمان ومزيد العلم
ولا يبعد أن يقال الخاطر
السادس وهو خاطر
اليقين حاصله راجع
إلى ما يرد من خاطر
الحق وخاطر العقل
أصله تارة من خاطر
الملك وتارة من خاطر
النفس وليس من
العقل خاطر على
الاستقلال لأن العقل
كما ذكرنا غريزة ينهياً
بها إدراك العلوم وينهياً
بها الانجذاب إلى
دواعي النفس تارة
وإلى دواعي الملك تارة

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التداوى أيضاً جماعة من الأكابر فربما يظن أن ذلك قصار لأنه لو كان كالأثر تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله . وقد روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له لو دعونا لك طبيباً فقال الطبيب قد نظر إلى وقال إنى فعال ما أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبي قيل فما تشبهى قال مغفرة ربى قالوا ألا ندعوك طبيباً قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه لودا وبنهما قال إنى عنهما مشغول فقيل لو سألت الله تعالى أن يهلكك فقال أسأله فإيه هؤم على منها . وكان الريح ابن خنيم أصابه فالج فقبل له لوتداوى فقال قد همت ثم ذكرت عاداً وعموداً وأصحاب الرس وقرودنايين ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك التداوى والتداوى ولم تكن الرقى شيئاً . وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر للطبيب بها أيضاً إذا سأله . وقيل لسهل متى يصح لعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنفس في ماله فلم يلتفت إليه شغلاً بهالة ونظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوى ورااه ومنهم من كرهه ولا يوضح وجه الجمع بين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلا بمصر السوارف عن التداوى . فنقول إن ترك التداوى أسباباً . السبب الأول : أن يكون المريض من الكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون **الله** معلوماً بحجته تارة برؤيا صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوى من هذا السبب فإنه كان من الكاشفين فإنه قال لما تشبهى رضي الله عنها في أمر اليراث إنما من أختك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأننى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضاً بأنها حامل . ولا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله **ﷺ** تداوى وأمر به . السبب الثاني : أن يكون للمريض مشغولاً بهالة وبخوف عاقبه وإطلاع الله تعالى عليه فيفسد ذلك ألم المرض فلا تغرق قلبه التداوى مشغولاً بهالة وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال إنى عنهما مشغول . وكلام أبي الدرداء إذ قال إنما تشكى ذنوبي فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالحائف الذي يعمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذ قبل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكاراً لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمناً فيمن أكل وقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل لما القوت فقال هوذا كراخى القيوم فقيل إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك عن النذاء قال النذاء هو الذكر قيل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولاً يتولاه آخر إذا دخل عليه علة فردته إلى صانه أما رأيت الصنة إذا عيبت ردها إلى صانها حتى يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علة موهوم النفع جار مجرى السكى والرقية فيترك التوكل وإليه يشير قول الريح بن خنيم إذ قال ذكرت عاداً

ونمود وفيهم الأطباء فهلك للتداوى والتداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يظن على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستند لهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكي والرقى فيتركه توكلًا . السبب الرابع . أن يقصد العبد ترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر قد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف البلاء » (١) وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمن خرج كالذهب الإبريز لا يرد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا » (٢) وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فإن صبر اجتنابه فإن رضى اصطفاه » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالطير الضالة لا تمرضون ولا تسقمون » (٤) وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصبح شيئا قلبا وأمراضه جسا وتجد المنافق أصبح شيئا جسا وأمراضه قلبا . فلما عظم الله البلاء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له على غيرها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويسلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغل المرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلامع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتى » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » (٦) . قيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تسكروها شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان إذا رأى العبد يصلى من

وإلى دواعى الروح تارة
وإلى دواعى الشيطان
تارة فعلى هذا لا يزيد
الخواطر على أربعة
ورسول الله صلى الله
عليه وسلم لم يذكر غير
المتين وهاتان اللتان
هما الأصل والخواطران
الآخران فرع عليهما
لأن لمة الملك إذا حركت
الروح اهتزت الروح
بالهمة الصالحة قربت
أن تهتز بالهمة الصالحة
إلى حظائر القرب فورد
عليه عند ذلك خواطر
من الحق وإذا تحقق
بالقرب يتحقق بالفناء
فتثبت الخواطر الربانية
عند ذلك كما ذكرناه
قبل لموضع قربه
فيكون أصل خواطر
الحق لمة للملك ولمة

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث طى ولم يخرج له ولده في مسنده والطبراني من حديث أبي غنبة إذا أراد الله بعبده خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه ابتلاه لا يترك ما لا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالطير الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى الحديث الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء قائما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف. ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل لأنه إن أخذ عينا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لهم بأن فذة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا ينفع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله على الأجسام رحمة وعلى القلوب عقوبة . السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى للرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام « لا تزال الحمى والليل بالبعد حتى يمسي على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة » (١) وفي الخبر « حمى يوم كفارة سنة » (٢) فقيل لأنها تهدأ قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا تدخل الحمى في جميعها ويحمد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأله يزيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمومًا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم (٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم « من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة » (٤) قال فلقد كان من الأنصار من يتعمى العمى وقال عيسى عليه السلام : لا يكون عالما من لم يفرح بدخول اللصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاد فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أكره أي به أكره ذنوبه وأزيد في درجاته . السبب السادس أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والظن أن تطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يماجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والظن أن تطول الأمل والتسوية في تدارك الفائت وتأخير الحيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي وأقلها أن تدعو إلى التمسك في المباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبده خيرا لم يخله عن التنبيه بالأمراض واللصائب ولذلك قيل لا يغلو

(١) حديث لا تزال الحمى والليل بالبعد حتى يمسي على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها وأسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاة في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأله زيد بن ثابت أن لا يزال محمومًا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بأسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض تصيننا ما لنا فيها قال كفارات قال أبي وان قلت قال فان شوكا فما فوقها قال فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجري الحسنات على صاحبها ما احتلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجي في سبيلك ولا خروجي إلى بيتك ولا مسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله علي بن المديني (٤) حديث من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم للرفع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتعمى العمى .

الشیطان اذا حرك
النفس هوت بجباتها
الى مرکزها من
الفسریة والطبع
فظهر منها لحركتها
خواطر ملائحة لفرزتها
وطبیعتها وهواها
فصارت خواطر النفس
نتیجة لمة الشیطان
فأصلها لثان ویتجان
آخرین وخاطر الیقین
والعقل مندرج فیها
واقه أعلم

[الباب الثامن
والخون في شرح
الحال واللقام والفرق
بينهما]

قد كثر الاشتباه بين
الحال واللقام واختلفت
إشارات الشيوع في
ذلك ووجود الاشتباه
لمكان تشابههما

الؤمن من علة أو قلة أو زلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى وللرض قيدي أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في للرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي قد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بعدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تمس الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من العصية ماعوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة البسط بالسراق في يوم عيد ما هذا الذى أظهروه؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدكم فقال كل يوم لا يسمى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم ماتحبون - قيل الموافق - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هاتم الذات (١)» وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكرة له ودافع للتسوف ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك الموت يا غافل جاءك من رسول بعد رسول فلم تهب ، وقد كان الملف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يغفل المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها . وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة لحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها مامرست قط ، فقال لا حاجة لى فيها (٢)» . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما عرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٣)» لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار (٤)» . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٥)» وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فتحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أن تقسم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التدأوى قصانا وكيف يكون قصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

(١) حديث أكثروا ذكر هاتم الذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرست قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما عرفه فقال إليك عنى الحديث أبوداود من حديث عامر البرام أخى الحضرمي [١] بنحوه وفي إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البراز من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو نمير والبيهقى فى مسند القردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟

[١] الحضرمي : نطن من محارب بن خصفة .

في نفسهما وقد اخلهما قراءى لبعض الشيء حالا وتراعى لبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمي حال التحول والقام مقاما لثبوته واستقراره وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاما مثل أن يثبت من باطن العبد داعية الهاسية ثم تزول الداعية بقلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال الهاسية يتماهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

(بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال)

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره وإلا فهو حال الضعفاء ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجابة والفصد عند تبليغ الدم . فإن قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن غسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإن قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجلية وهذا لا قائل به . ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ، ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فاتهم لما قصدوا الشام واتموا إلى الحجابة بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وباء ذريعا فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلتقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ولا تهرب من قدر الله تعالى ولا تفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه . فقال ترجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ! قال عمر نعم نعم نعم من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، قال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداها نخسة ، والأخرى مجدبة أليس إن رعى النخسة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يأمر المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر قال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ^(١) » ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الحجابة بالناس ، فاذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل . فإن قلت فلم ينهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر ، والهواء هو الضر فلم يرخص فيه ؟ . فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهي عنه ، إذ الحجابة والفصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على القصد ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحك من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس اللوهومات كالرقى والطيرة وغيرها ، ولو تجرد هذا المعنى لكان منقضا للتوكل ولم يكن منهيًا عنه ولكن صار منهايا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأشخاص في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقدمهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وقعدوا التمهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم ينجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا وخلاصهم منتظرًا

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد (١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الحجابة وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى .

إلى أن تداركه
المعونة من الله الكريم
ويغلب حال المحاسبة
وتستقهر النفس
وتتضبط وتتملكها
المحاسبة فتصير المحاسبة
وطنه ومستقره ومقامه
فيصير في مقام المحاسبة
بعد أن كان له حال
المحاسبة ، ثم ينزله
حال المراقبة ، فمن
كانت المحاسبة مقامه
يصير له من المراقبة
حال ، ثم يحول حال
المراقبة لتناوب السهو
والغفلة في باطن العبد
إلى أن ينقشع ضباب
السهو والغفلة وتدارك
الله عبده بالمعونة
فتصير المراقبة مقاما
بعد أن كانت حالا ولا
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأصحاء منتظر فلما قاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين والسلمون كالبقيان يشد بعضه بضواؤهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداهى إليه سائر أعضائه فهذا هو القدي يتفدح عندنا في تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بد على البله فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البله حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبله إلا مطعونون وانفجروا إلى التمهدين وقدم عليهم قوم فربما كان يتفدح استجباب الدخول ههنا لأجل الامانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن قبة المسلمين، وبهذا شبه القرار من الطاعون في بعض الأخبار بالقرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيا في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتقاضى عنده أكثر ماسمه وغلط الصباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التدوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التدوى لبنال الفضل ؟ . فنقول فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طينان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لتلبة الله أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لتصوره عن مقامات الراضين والتوكلين أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف للنافع حتى صار حقه موهوما كالرقى أو كان شغفه بحاله يمنعه عن التدوى وكان التدوى يشغله عن حاله لضغفه عن الجمع فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التدوى وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق وقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه اللقائات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وحيمة واحدة عند وجود الأسباب وقد دعا فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضرب الأسباب كما أن الرغبة في المال تقص والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا تقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أو كل من الحرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء اللحد والذهب عنده وكان لا يمسكه لتطعيم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن ترقه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيها لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك بعظم ضرره، نعم التدوى لا يضرب إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يضربه الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهى عنه والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الحبز مشبعا فحكم التدوى في مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التدوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التدوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

قراره إلا بانزل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بانزل حال المشاهدة فإذا منع البعد بانزل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يصحكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما وتتخلص نفسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزیادات وترفیات من حال الى حال أعلى منه كالتحقق بالقضاء والتخلص إلى البقاء والترقى من عين اليقين الى حق اليقين وحق اليقين نازل يخرق شفاف القلب وذلك أعلى فروع

(١) حديث تشبيه القرار من الطاعون بالقرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها فهدم ولقطه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك الوهومات كالسكى والرقى فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالتوكلين .

(بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكنهاته)

اعلم أن كنهان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أعلى اللقائات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكنهاته أسلم عن الآفات ومع هذا فلاظهار لأبأس به إذا صحت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لافي معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يضرب بأمراض يمجدها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى في . الثاني : أن يصف لعبد الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك مجزه وانقاره إلى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلى في مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أعجله على الله . فأحب أن يظهر مجزه وانقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم . لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) . فهذه النيات يرخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كاذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لعل الله تعالى فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزید في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه في حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الافشاء . وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله - فبصر جليل - لا شكوى فيه ، وقيل ليحقوق عليه السلام ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحران فأوحى الله تعالى إليه : ففرغت لشكواي إلى عبادي فقال يارب أيوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أن ين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أبواب عليه السلام إلا أنينه في مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفي الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بخير دعواه وإن شكا وذكر شرا قالَا كذلك تكون (٢) » . وإنما كره بعض المباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهي أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنه أجمعين .

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده الحديث تقدم .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب نجو . وفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجوف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المهيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة المعلوم المهيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرفت شفاف

كل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفق .

﴿ كتاب الحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربيع للنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للكموف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلالة حتى تاهت في يدهاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت للملاحظة كنه الجلال غشها من الدهش ما أغبر في وجه الفل وبصيرته ، وكلما تمت بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجمال صبر أيها الآيس عن نيل الحق بجهله ومجملته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكامل نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[أما بعد] فإن الحبة لله هي الغاية القصوى من اللقائات والقدرة العليا من الدرجات لما بعد إدراك الحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل الحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر اللقائات إن عز وجودها فلم تغل القلوب عن الإيمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكربعض العلماء إمكانها . وقال لا معنى لها إلا الواظبة على طاعة الله تعالى . وأما حقيقة الحبة فحال الإمع الجنس والمثال ولما أنكروا الحبة أنكروا الأنس والشوق ولقد للناجة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف النطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في الحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذته النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب للقوية لطلب الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لاتنافض وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للذابين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

(بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى)

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب وبدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل - يحبهم ويحبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أهدى - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي « يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون

القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق البقين هي أسنى المطايا وأعز الأحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كمنسبة الأجر من التراب إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم أجرا فالشاهدة هي الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع . ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لا تكسب سميت كل المواهب من الدوازل بالعبد أحوالا لأنها غير مقدورة

الله ورسوله أحب إليك مما سواهما (١) وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما (٢) وفي حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣) وفي رواية « ومن نفسه » كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهبة فقال « أحبوا الله ما يفتنكم به من نعمة وأحبوني لحب الله إياي (٤) » وروى « أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك فقال ﷺ : استمد للفقر فقال إني أحب الله تعالى قال استمد للبلاء (٥) »

وعن عمر رضي الله عنه قال « نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل ألقى نور الله قلبه لقد رأيت بين أبيه يندوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون (٦) » وفي الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن فأقبض (٧) » وهذا لا يعده إلا عبد يحب الله بكل قلبه - فإذا علم أن الموت سبب اللقاء أنزعج قلبه إليه ولم يكن محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحببك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد (٨) » وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب (٩) » قال أنس لما رأيت المسلمين فرحوا حتى بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عز جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزبن العقيلي أنه قال يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يا رسول الله لأنك أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما يفتنكم به من نعمة الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك فقال استمد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تخفيفا دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله الحديث لم أجد له أصلا (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

للعبد يكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوخ أن القامات مكاسب والأحوال مواهب وطى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محضو بالمواهب وللواهب محضوقة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والقامات طرق المواجيد لكن في القامات ظهر الكسب وبطنت الواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت الواهب فالأحوال مواهب علوية صماوية والقامات طرقها وقول أمير المؤمنين طي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا . وروى
أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى
فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا
وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم
جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم الرائ من النور فقال ما الذي بلغ
بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أتمم القربون أتمم القربون أتمم القربون . وقال عبد الواحد بن زيد
مررت برجل قائم في التاج فقلت أمتجد البرد فقال من شغل حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي
تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد غير
المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تتخلع فرحا . وقال هرم
ابن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه
لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة .
وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق القلوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه
يدهش العقول فكيف وده ووده ينسي مادونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب عبدى أنا وحقك لك
عجب فبحق عليك كن لي محبا . وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين
سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بفنائك صغيرا أخذتني إليك وسر بلنتي
بمرفقتك وأمكننتني من لطفك وتقتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا
وحبا تسقني من حياضك ونهملني في رياضك ملازما لأمرك ومشغوبا بقولك ولما طرت شاربي ولاح
طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنه
وبالضراعة إليك مهمة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد
في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما التعموض
في تحقيق معناه فلنشتغل به .

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن الطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها
ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأقول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا
بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جاد بل هو من
خاصية الحى المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلبته وإلى
ما ينافيه وينافره ويؤله وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاهم وإلذا فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب
عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف
بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذيذ محبوب عند الملتذبه ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه
ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذ فان تأكد
ذلك الميل وقوى سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمي مقتنا فهذا
أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك
والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات
ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع
التي هي لذة العين في الأبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور اللطيفة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في
المنغنيات الطيبة الموزونة ولذة الشم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللس في اللبن والنعومة

السموات فاني أعرف
بها من طرق الأرض
إشارة إلى اللقائات
والأحوال فطرق
السموات التوبة والزهد
وغير ذلك من اللقائات
فان السالك لهذه
الطرق يصير قلبه
سماويا وهي طرق
السموات ومتمثل
البركات وهذه
الأحوال لا يتحقق بها
إلا ذو قلب سهاوي .
قال بعضهم الحال هو
الذكر الخفي وهذا
إشارة إلى شيء مما
ذكرناه وسمعت الشايع
بالعراق يقولون الحال
ما من الله فكل
ما كان من طريق
الاكتساب والأعمال
يقولون هذا ما من
العبد فاذا لاح للمريد

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملقة كانت محبوبة أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرعة عيني في الصلاة» (١) فسمى الطيب محبوا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلى البصر والشم دون الشم والتذوق والسمع وسمى الصلاة قرعة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يجب فاذن قد بطأت خاصية الإنسان وما عيّن به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيئات البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لآلة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الليل إلى ما في إدراكه لئلا كما سيأتي تفصيله فلا ينسركر إذ حب الله تعالى إلى ما من قد به القصور في درجة البهائم فلم يحاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأقسامها وبيان أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو اللذات المحب وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه من الموت ولا مجرد الخذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يجب الموت والعدم المحض إلا المقاساة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فلهلاك والعدم محموت ودوام الوجود محبوب وكان دوام الوجود محبوب فكأن الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر القعود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم محموت في الصفات وكأن الوجود كما أنه محموت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطبع بحكم سنة الله تعالى - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكأله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لأعنياتها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكأله بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل للشاق لأجله لأنه يخلفه في الوجود بدمعه فيكون في بقاءه له نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

شيء من اللواجب
وللواجب قالوا هذا
ما من الله ومحموه حالا
إشارة منهم إلى أن
الحال موهبة . وقال
بعض مشايخ خراسان
الأحوال موارث
الأعمال . وقال بعضهم
الأحوال كمال البروق
فان بقي لحديث النفس
وهذا لا يكاد يستقيم على
الاطلاق وإنما يكون
ذلك في بعض الأحوال
فانها تسطرق ثم تستلبها
النفس فأما على الإطلاق
فلا والأحوال لا تخرج
بالنفس كالدهر
لا يخرج بالماء .
وذهب بعضهم إلى
أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه الحق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه
لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكالمهم فان العشرة والمال والأسباب
الخارجة كالجنح السكل للانسان وكال الوجود ودوامه محبوب الطبع لامحالة فاذا المحبوب الأول عند
كل حي ذاته وكال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب السبب الثاني:
الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها
وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لنا جلا على» بدا في حبه قلبي^(١) إشارة إلى أن حب القلب للمحسن
اضطرار لا يستطيع دفعه وهو جبة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وهذا السبب المحبب للانسان الأجنبي
الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال
والعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكال الوجود وحصول الحفظ التي بها يتبها الوجود
إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين السكل المطلوب فأما المحسن
فليس هو عين السكل المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة
الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها
والطبيب محبوب لاقادته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم
محبوب لذاته والأستاذ محبوب لمحبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير
محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذا رجع الفرق إلى
تفاوت الرتبة وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فمما أحب
ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو قص قص
الحب ولو زاد زاد ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه السبب الثالث أن
يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ
الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك
لحين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لانفرتها ولا تنظر أن حب
الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذته أخرى قد تحب الصور الجميلة
لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذته فيجوز أن يكون محبوا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة
والباء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري^(٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ
النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن
الانسان لتنفرج عنه الغموم والمهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملدة
وكل لذته محبوب وكل حسن وجمال فلا يغفل إدراكه عن لذته ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا
بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال»^(٣).

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المعبوس في مضيق الخيالات والموسسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافرا على بدا في حبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث
معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في
الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء
الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

إلا إذا دامت فأما إذا
لم تدم فهي لوائح
وطوالع وبوادروهي
مقدمات الأحوال
ولست بأحوال .
واختلف الشايع في أن
العبد هل يجوز له أن
ينتقل إلى مقام غير
مقامه الذي هو فيه
قبل إحكام حكم مقامه .
قال بعضهم لا ينبغي
أن ينتقل عن الذي هو
فيه دون أن يحكم حكم
مقامه . وقال بعضهم :
لا يكمل للقائم الذي هو
فيه إلا بعد ترقيه إلى
مقام فوقه فينظر من
مقامه العالي إلى مادونه
من القائم فيحكم أمر
مقامه . والأولى أن يقال
والله أعلم : الشخص في
مقامه يعطى حالا من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الحلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوّاً مقدراً فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لثمة فلم يكن محبوباً وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الحلقة وامتزاج البياض بالحمرة فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن المعين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ باستماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقيبح فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعمامة الأطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء بمجمله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به للممكن له فإذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كركر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده لحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فإن قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والروءة وسائر خصال الخير وهي من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الحسن بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطبايع محبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحملة ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخطر بروحه في قتال من يظن في إمامه ومتبوعه فكيف من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسنه الذي حملة على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بعبد الله والدين وانتهاضه لفائدة علم الشرع ولتشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبابكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله وينصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقاً وهي الصفات الحمودة التي هي مصادر السير الجميلة فكان الحب باقياً

مقامه الأعلى الذي سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أولاً يرتقى فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات والأحوال مواهب ترقى إلى المقامات التي يخرج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب رقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزيادة الأحوال فلي ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بغير شهوائه فجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين « وهما غير مدركين بالحس » ومحلها من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوا لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة « وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي الخلى وطبعه إذا أردنا أن نجيب إليه غائبا أو حاضرا حبا أومينا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فلهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبعض أبى جهل وبعض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن والقابح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حائما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله الحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أنظار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين ليمد الزار ونأى الديار ، فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط إحسانه إلى الحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتذكر الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ففتان بين من يحب تقشا مصورا على الحائظ للجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الخفية بين الحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « لما تعارف منها ائتلف وماتنا كرمها اختلف »^(١) وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب « وهو حب الانسان وجود نفسه وكاله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويسعى على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته » سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلما اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب وتسكون قوة الحب بمد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها « فان كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات » فلتبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الخيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالاً ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يقتوب بطروق حال التوبة حتى ينوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الاتقياء من الغفلة فيرده إلى اليقظة فإذا تسقط أبصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث لما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة .

(بيان أن الستحق للمحبة هو الله وحده)

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبتته إلى الله لذلك لجهله وتصوره في معرفة الله تعالى واجب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بمجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ، وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضفاء العقول والقلوب من استعالة حب الله تعالى تحقيقاً وبيان أن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الإنسان نفسه وبقائه وكآله ودوام وجوده وبضه لهلاكه وعدمه وتقصانه وتواطع كآله فهذه جيلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكآله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المخترع للوجود له وهو البقى له وهو الكل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصول إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف له لا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالبقاء ، وهو ناقص بتد لوجوده لولا فضل الله عليه بالتكامل لحقيقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا اليوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب اللقيد لوجوده والديم له إن عرفه خالقا موجدا ومخترا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد بالعدمها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها هو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع القابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وهى وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا يحبه لمن به قوامه وأولاد واه ثانيا في أصاه وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا نه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم بالشهادة التى يشاركه بها فى التمتع به والاتساع فيه دون عالم المسكوت الذى لا يبطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم الزجر ضياء فى القلب يصير به خطأ قصدوا الزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق السلم وزجر من طريق العسل وزجر من طريق الآيات فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالبسد ظهور هوى النفس يحويه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا فى الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تربيته فى ترك الاشتغال بالدنيا وتبجح له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونه وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى فانه لو عرف حق المعرفة لعم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبده فلست أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنهم عليك بجميع خزائنه وممكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذي أنعم بحلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أن صلاح دينه أودنياء في الإحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط عليه الدواعي وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودنياء في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذي اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة للرغبة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطراب مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فانه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبذل ماله إلا لنفرض له في البذل إما أجل وهو الثواب وإما عاجل وهو اللذة والاستسغار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة وكما أن الإنسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان إلا لنفرض له فيه وذلك القرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فمستغرق في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما يبذله من ماله أو عوضاً هو أرحح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجل ذلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسلط الله الدواعي عليه فلا قدر له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الأمير فانه لا يرى محسناً بتسليم خزمة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أن حظه ديناً ودينياً في بذله فبذله لذلك . والثاني أنه معتاض عما يبذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما يبذله فكما لا يبعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما يبذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متولوا بل الحظوظ كلها أعوض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فانه يتعالى عن الأغراض فللفظ الجود والاحسان في حق غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله

فدمجو أثر حاله بدلالة
شره النفس وحرصها
على الدنيا ورؤية العاجلة
حتى تتداركه المعونة
من الله الكريم فيزهد
ويستقر زهده ويصير
الزهد مقامه ولا تزال
نازلة حال التوكل تفرغ
باب قلبه حتى يتوكل
وهكذا حال الرضا حتى
يطمئن على الرضا ويصير
ذلك مقامه وههنا
لطيفة وذلك أن مقام
الرضا والتوكل يشبه
ويعلم يقائمه مع وجود
داعية الطبع ولا يحكم
بقاء حال الرضا مع
وجود داعية الطبع
وذلك مثل كراهة
بجدها الراضى بحكم
الطبع ولكن علمه
بمقام الرضا يفرض حكم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على
الانسان بشرط الجهول بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن
لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق
بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر
ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فأنك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد
في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آتس من خير الأول
وآمن من شر الثاني لا تقطع طمعك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن
نقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا
إلا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن إلى الكفاة والتفضل على جميع أصناف الخلائق
أولا بأجسادهم وثانيا بتكليفهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثا بترفيهم وتنعيمهم
بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ورابعا بتجديدهم بالمزاي
والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجية عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء
الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين
وحمرة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري
من النعم الخارجة عن بدن الانسان الساء والغذاء ومثال الحاجة السواء واللحم والفواكه والأطعمة التي لا تنخرم
والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولقائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم
بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل
صنف من أصناف الخلق من فدوة العرش إلى منتهى القرض فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره
محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق المحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان
وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه الملة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه
الملة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لقائذ الجمال لاحظ ينال منه وراء إدراك
الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين
الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم
والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل
جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة
حب الأنبياء والمعلماء وذوى السكارم السنية والأخلاق للرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة
الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره
الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبه إلا الحسن ما ظهر له
منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي
مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف الصنف وحسن
شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة
التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان العلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة
كان العلم أشرف وأجل وكذا القدر كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل
رتبة وأشرف قدرا وأجل المعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهر حكم
الطبع في وجود
الكراهية المقصورة
بالعلم لا يخرج عنه
مقام الرضا ولا يمكن
حال الرضا لأن الحال
تجردت موهبة أحرقت
داعية الطبع فيقال
كيف يكون صاحب
مقام الرضا ولا يكون
صاحب حال فيه والحال
مقدمة المقام والمقام
أثبتت تقول : لأن المقام
لما كان مشوبا بكسب
العبد احتمل وجود
الطبع فيه والحال لما
كانت موهبة من الله
تزهت عن مزج الطبع
بحال الرضا أصلا ومقام
الرضا أمكن ولا بد
للمقامات من زائد
الأحوال مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويغتمس به فشرقه على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين نحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور : أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة . والثالث تفرغهم عن الرذائل والنجاسات والشهوات الغالية الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتهم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكته في تفصيل خلق نملة أو بوضعة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علوه كما قال تعالى - خلق الإنسان علمه البيان - فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية . وأما صفة القدرة فهي أيضاً كال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لذيذ حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على خاله رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصايف في قابه اهتزازاً وفرحاً وإرتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتعصف به فانه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوامهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقهرهم لحبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره مامتهى قدرته وإنما غابته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الناس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضرراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسمانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عداً ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متماعق قدرته فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه بل الله خالقها وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط جوساً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس له بعد قدرة إلا بتسكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إنا مكنا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتسكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدبرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدبرة ثم تلك العبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فيبتدئ بتسكين أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرة تهو سياسته وتمكينه واستيلائه وكما قال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا
تفرد للمقامات دون
سابقة الأحوال . وأما
الأحوال فمنها ما يصير
مقاماً ومنها ما لا يصير
مقاماً والسر فيه
ما ذكرناه أن الكسب
في المقام ظهر والوهبة
بطنت وفي الحال ظهرت
للوهبة والكسب
بطن فلما كان في
الأحوال للوهبة غالبية
لم تتقيد وصارت
الأحوال إلى ما لا نهاية
لها ولطف سنى
الأحوال أن يصير مقاماً
ومقدورات الحق غير
متناهية ومواهبه غير
متناهية ولهذا قال
بعضهم لو أعطيت
روحانية عيسى وكلمة
موسى وخلة إبراهيم

القاهر العليم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يصب بخلقها ولا يسه لغب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والمظنة والكبرياء والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التزهد عن العيون والنقائص والتقديس عن الرذائل والجباث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والجباث فلا يتصور كمال التقديس والتزهد إلا بالواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله وليس في القدور أن ينعم بتمتئى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو التفرد بالكمال التزهد عن النقائص القدوس عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتزهد في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم السكاشفات فلا يطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقة إلهه وكمال غيره وتزهده لا يكون مطلقا بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا كما أن للفارس كالا بالاضافة إلى الجمار وللإنسان كالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شمل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان ؛ فاذن الجليل محبوب والجليل المطلق هو الواحد الذى لا ند له الفرد الذى لا ضد له الصمد الذى لا منازع . النفى الذى لا حاجة له القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأتلى الذى لا أول لوجوده الأبدى الذى لا آخر لبقائه الضرورى الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجاد والحيوان والنبات التفرد بالعزة والجبروت المتوحد الملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذى تحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة الذى كمال معرفة المعارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وقال سيد الصدّيقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن إدراك الإدراك إدراك سبعان من لم يجعل للخلاق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقّقا وبجمله مجازا أينسك أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والمظنة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بشار العيان غيره على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الجاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارج المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يلهون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها ، وفي الزبور : من أظلم بمن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك لأن مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستئزال بركة الزيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزد فيه علما فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم » وفي دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف فيه

عبدني لجنة أوتار لولم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع . ومريم عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا تخاف النار وترجو الجنة فقال لهم مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتهم ، ومريم قوم آخرين كذلك فقالوا نبيهم جباله وتعظيماً لجلاله فقال أتم أولياء الله فقام معكم أمرت أن أفهم وقال أبو حازم إنني لأستحي أن أعبد للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ولا كالأجير السوء إن لم يعمل لم يعمل ، وفي الخبر ولا يكون أحدكم كالأجير السوء إن لم يعمل أجراً لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ^(١) . وأما السبب الخامس للحب فهو للنسبة والشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه ويختر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالخريف وأنس التجار بالتجار أكثر من أنسه بالهلاج ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصلوة فليطلب منه وإذا كانت النسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كنسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فالعارف هو التناكب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى للنسبة باطنة لا ترجع إلى الشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يتر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالتدبير يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان واللاطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يومية إليها قوله تعالى - ويشتلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته وبشيره إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته ^(٢)» حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله عن أن يشبه المالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعدي» فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدني فلان فلم تعده ولو وعدته وجدته عنده ^(٣) وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على التوابع بعد إحكام القرائن كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالتوابع حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وأسانه الذي ينطق به ^(٤)» وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

عمل ولم يبلغه نيق وأمنيق من خير وعدته أحداً من عبادك أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه» فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي يفند البحر دون قنادها وتنفذ أعداد الرمال دون أعدادها والله النعم المعطى .

[الباب التاسع والخمسون في الاشارات إلى اللغات على الاختصار والابحار] أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب المهروردي رحمه الله قال أنا أبو منصورين

(١) حديث لا يكون أحدكم كالأجير السوء إن لم يعمل أجراً لم يعمل لم أجده أصلاً (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدي وقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالتوابع حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

تخرب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو إلهه وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السرف فهم الأقول ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لازلت أنزل من وداك منزلا تحير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبا وبقي أصوله حتى تشقت قدما وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا ، فهذه هي الملوحة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان المقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كاله ولا يفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذا أصل المحبة والكمال المحبة استحقاقا لا يسام فيه أصلا .

(بيان أن أجل الذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم)

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والفرائز وكل قوة وغريزة للذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فان هذه الفرائز ماركبت في الانسان عشا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم فلا تغلو غريزة من هذه الفرائز عن أم ولذة بالاضافة إلى مدرجاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسماء فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب للمعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة ما يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كما إدراكه خلق العالم وأفقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تدم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور وكلها لمقتضى طبعها للمعرفة والطم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الفرائز هو لذتها وليس يغنى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتعبد به في الأشياء الحفيرة فالعالم بالعب بالشرع ينجح على حسنة لا يطبق السكوت فيه عن التعليم ويطلق لسانه بذكر ما يطمع وكل ذلك لقرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا
أبو محمد الحسن بن
على بن محمد الجوهري
إجازة قال أنا أبو عمرو
محمد بن العباس بن
محمد قال أنا أبو محمد
يحيى بن ساعد قال أنا
الحسين بن الحسن
الروزي قال أنا عبد الله
ابن المبارك قال أنا
الهيثم بن جميل قال أنا
كثير بن سليم المدائني
قال سمعت أنس بن
مالك رضى الله عنه
قال آتى النبي صلى الله
عليه وسلم رجل فقال
يا رسول الله إني رجل
ذرب اللسان وأكثر
ذلك على أهلي فقال له
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أين أنت من
الاستغفار فإني أستغفر الله

من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا انتهى عليه بالتكامل وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحراثة والحياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أمور الحلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكنه وملبكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره فى رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده والأمن علمه بأسرار الرئيس فان كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده والأمن علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجهه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها وأشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل فى الوجود شئ أجل وأعلى وأشرف وأكل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومديرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادئ جلالها ومعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغي أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الالهية المحيطة بكل الوجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وهذا تبين أن العلم لذيد وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والنضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً كخالف لذة الوقاع لذة السماع ولذة المعرفة لذة الرياضة وهى مختلفة بالضعف والقوة كخالف لذة الشبق المغنم من الجماع لذة الفائز للشهوة وكخالف لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائز الجمال لذة النظر إلى مادونه فى الجمال وإعناشرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان الخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا خذار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة القلبية فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنموده نقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذة الرياضة والقلبية والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للمعين ولا للأنف ولا للأذن ولا لللس ولا للذوق والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياضة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان الخير خسيس المهمة ميت القلب شديد التهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على المهمة كامل العقل اختار الرياضة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختاره لرياضة بدل على أنها ألد عنده من المطعومات الطيبة ، نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يسمد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياضة وكما أن لذة الرياضة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعنه فلهذا معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

فى اليوم واليلة
مائة مرة « وروى
أبو هريرة رضى الله عنه
فى حديث آخر « فأنى
لأستغفر الله وأنوب
إليه فى كل يوم مائة
مرة » وروى أبو بردة
قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم « إنه
ليغان على قلبي فأستغفر
الله فى اليوم مائة مرة »
وقال الله تعالى - وتوبوا
إلى الله جميعا أية
للمؤمنون ولكم
نفلحون - وقال الله
عز وجل - إن الله يحب
التوابين - وقال الله
تعالى - يا أيها الذين
آمنوا توبوا إلى الله
نوبة نصوحا - التوبة
أصل كل مقام وقوام
كل مقام ومفتاح كل

أسرار الأمور الإلهية أله من الرياسة التي هي أعلى الذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعدهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والعكس والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحق الخلق الذين برأسهم له الله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصور الخلق عنها وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عِلِينَ إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن الزاحمات والكدورات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن القدرات فلانها لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انتطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني مماوئياً بما الموت بغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخلصها من حبسها فأما أن يهدمها فلا ولا تحبش الذين الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية - ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر ■ إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء (١) فاذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثله من غير أن يضيق بضيقهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة متزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبيحة ولا لصبي ولا لمتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لدوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار مملكته أعظم لذة من الرياسة فهذا يخص معرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحان على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية قد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات والخلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالتذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقول مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم فيه وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء الحديث .

حال وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإنى يبلغ على وقدر وسعى وجهدى اعتبار المقامات والأحوال ومخترها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها في إفادة الولادة للعنوية الحقيقية بمثابة الطابع الأربع التي جعلها الله تعالى بأجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلجج ملكوت السموات

القدر ينهك على أن معرفة الله سبحانه الله الأشياء وأنه لالذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العباداة والانتفاع عن الخلق فسكت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته نساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفالك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتي مشغوقا بطلب الرب تعالى فقد ظلم ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان وبشر بن قت فأنت قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الموفق قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة ومساكن عن يمينه وشماله بلبامه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بضا ويرد بضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شغف بغيره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان ليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لأربعة ما حقيقة إيمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه . وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لداكا
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي المحب حق أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بعموظ العاجلة وبعبه لما هو أهل له الحب لجلاله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما والأذمة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) وقد تعجل بعض هذه الذات في الدنيا بل انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يا رب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماء الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عتوهم فيرون ما يقولون جنونا أو كفرا فتمتد المارفين كلامهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها وإذا حصلت التمجيد المموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلحاح المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجهه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لو عدا الله تعالى به عبادته وذكرا أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن الذات للفرقة بالشهوات المختلفة كلها تطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى التراتيب ويغني عن جميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت فأحد الثلاث بمد الإيمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقلبية من غير فتور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

كانت لقي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأيتك العيين أهواي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوري مذ صرت مولاي
تركت للناس دينام ودينهم شغلا بذكرك ياديني ودنياي
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إشار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والتكاح فان
الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره
وهو أن الصبي في أول حركته وتميزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده
ألذة من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة
اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة
الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلو انما الحياة
الدنيا لمب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها
لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو
الآخير إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد
العشرين وحب العلوم يقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب
ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة
ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون
فسوف تعلمون - .

(بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا)

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور التخيلية والأجسام للتلونة والمشكلة من
أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بحسم كالعلم والقدرة
والارادة وغيرها ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها
ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين
لأن الصورة المرئية تكون مواقة للتخيلة وإنما الاقتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة
المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً وهو كشخص يرى في وقت الاسفار قبل اتقشار ضوه
النهار ثم رؤى عند تمام الضوه فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف، فاذن
الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه
غاية الكشف لا لأنه في الدين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر
مثلاً استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً
في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من
التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين التخيل والرؤى فيسمى الثاني أيضاً بالاصطفاء إلى الأول
مشاهدة واقعا ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة
الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجناف يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر
والرؤى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل
فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محبوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام
وقلة المنام والاعتزال
عن الناس . واتفق
العلماء الزاهدون
والشايخ على أن هذه
الأربع بها تستقر
القامات وتستقيم
الأحوال وبها صار
الأبدال أبدالاً بتأييد
الله تعالى وحسن
توفيقه ونبين بالبيان
الواضح أن سائر
القامات تدرج في
صحة هذه ومن ظفر
بها فقد ظفر بالقامات
كلها أولها بعد الإيمان
التوبة وهي في مبدإ
صحتها تنفقر إلى أحوال
وإذا صحت تشتمل
على مقامات وأحوال
ولا بد في ابتدائها
من وجود زاجر

وما غاب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتمى إلى الشهادة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجنان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجابا بطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن ترانى - وقال تعالى - لا تدركه الأبصار - أى في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الحب والصدأ فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الحب جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبدا الآباد نعمود بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يجمع منه الحب الذى هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كالوردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا وبصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ «ن حملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت «هم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول ففند ذلك يشتغل بصفائه وقائه عن الكدورات حيث لا يبرق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة إلى ماعله كانكشاف تجلى للرآة بالاضافة إلى ما تجليه ، وهذه الشهادة والتجلى هي التى تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التى تستكمل فتباغ كال الكشف والوضوح «تقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة « والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية « فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر الطلاء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . وحدث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكرا . وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر رأيت نورا إلى أراه ورجال إسناده رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمى الحديث وفيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الخافى مالى أراك مهموما . قال لأنى ضال ومطلوب ظللت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به « ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتى وليس لى منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعى « رأيت أعرايا بالبصرة يشتكى عيذه وهما يسيل منها المساء فقاتله ألا

الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هي بمنها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كأن الصورة المرئية هي التخيّل بمنها إلا في زيادة الكشف وإليه الإشارة بقوله تعالى - يسمي نورهم بين أيديهم وبأيامهم يقولون ربنا آتّم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ولهذا لا يجوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل له الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف له محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة» (١) فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشره عشرة إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشرة ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل له محالة بتجلّي انفرده به وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على الطعوم والنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى النكوح والطعوم والشروب جميعاً فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى الطعوم والنكوح وهؤلاء بينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إشارته لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة للنكوح والطعوم والشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرياسة ماتقولين في الجنة فقالت الجارم الدار فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ولا يموت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف النظام فتضاعف اللذة به كما تضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة الممشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان. فان كانت فائدة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها. فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بملائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فلما عارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والشاهدة كما لا نسبة للذة خيال الممشوق إلى رؤيته وللذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها وللذة المس باليد إلى لذة الوقوع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فتقول

(١) حديث إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدي من حديث جابر . وقال باطل بهذا الإسناد وفي الميزان للذهبي أن لدار قطي رواء عن المهاملي عن علي بن عبيدة وقال الدارطني إن علي بن عبيدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تمسح عينيك فقال لا لأن الطبيب زجرني ولا خير فيمن لا يزرع فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الزجر يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق اتقه. وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا كر نفسه افتقر وإذا كر ذنبه استغفر إذا ذكر الدنيا اء ر وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى اقشعر . وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المشوق ونقصانه فان اللذة في النظر إلى الأجل أكمل لا محالة . والثاني كمال قوة الحب والشفوة والعشق فإيس التذامن اشتد عشقه كالتذامن من ضعف شهوته وجهه . والثالث كمال الإدراك فليس التذامن برؤية المشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذامن بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراكه للذات الضاحية مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشهوة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذامن الصحيح القارخ للتجرد للنظر إلى المشوق كالتذامن الخائف للذمور أو الرريض للتألم أو للشغول قلبه بهم من الهمات قد قدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه مشوقا ومن وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته . حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذي به وتلهي به وتشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يغلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقة فلوطرأت على القبة حالة الهتك بها الستر وأشرق بها الضوء وانفتح عنه اللوذيات وبقي سلبا فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف . حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة العرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزناير مثال الشهوات للتسلط على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والتم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال قصور النفس في الدنيا وقصبتها عن الصوق إلى اللأ الأعلى والتفتتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والفتاة إلى الحب بالمصفور والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يغلو عن هذه اللذات ولا يتصور أن يغلو عنها البتة نعم قد تصف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال العرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلم يدوم بل يمرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى اللوت وإنما الحياة الطيبة بعد اللوت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب اللوت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في العرفة فإن العرفة كالبنر وبهر العرفة لاساحل له فالاحاطة بكنهه جلال الله محال فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر التمسك في الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البنر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البنر إلا في الدنيا ولا يزرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله (١) لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتنسج في العمر الطويل ب مداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والاتقطاع عن علائق الدنيا والتجرد لا طلب ويستدعي ذلك زمانا لا محالة فمن أحب الموت أحببه لأنه رأى نفسه واقفا في العرفة بالنار إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل العرفة . وأما سائر الخلق فنظروا مقصور على شهوات الدنيا وإن اتسعت

التيقظ فإذا تيقظ
ألزمه تيقظه الطالب
لطريق الرشدي يطلب
وإذا طلب عرف
أنه على غير سبيل الحق
فيطلب الحق ويرجع
إلى باب توبتهم يعطى
بإتباعه حال التيقظ.
فارس : أوفى
الأحوال التيقظ
والاعتبار . وقيل :
التيقظ تبيان خط
السلك بعد مشاهدة
سبيل النجاة . وقيل :
إذا صحت اليقظة كان
صاحبها في أوائل
طريق التوبة . وقيل :
اليقظة خردة من
جهة الولي لقلوب
الخائفين تدلهم على
طلب التوبة فإذا تمت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن أبي عمير عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في محبة ولا أحد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الانابة والتمسك من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا اللوت وكل ذلك حرمان وخسران معسره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها للذم سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما تكمن الرياسة الله من الطعومات عند الصبيان . فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن اللبقة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمور ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ماظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر بالضرر وتحويلها على علم

(بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى)

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فان الآخرة معناها التقدم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبداً الأبد من غير منقوص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء - ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - وكما الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومبادم يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فيقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - وبقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أي لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو القيد والمعبود هو القيد به وكل عيب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرأيت من اتخذ إلهه هواً - وقال ﷺ « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله خلاصاً دخل الجنة » (٢) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالله تعالى - بجنه لأنها مأمنة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب لما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه مشوقه وتغادى عنه حبسه غلى من السجن وممكن من المحبوب وروح بالأمن أبداً لا يبادأ أحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا وحب أهل والمال والولد والأقارب والمعار والدواب والبساتين والمتنزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله خلاصاً دخل الجنة تقدم .

يقضته قل بذلك إلى
مقام التوبة فهذه
أحوال ثلاثة تقدم
التوبة ثم التوبة في
استقامتها تحتاج إلى
الحاسبة ولا تستقيم
التوبة إلا بالحاسبة .
قل عن أمير
المؤمنين على رضى
الله عنه أنه قال :
حاسبوا أنفسكم قبل
أن تحاسبوا وزنوها
قبل أن توزنوا
وتزينوا للمعرض
الأكبر على الله يومئذ
تعرضون لا تخفى
منكم خافية - فالحاسبة
بحفظ الأتقاس وضبط
الحواس ورعاية
الأوقات وإثارة المهمات
ومسلم العبد أن

حق إن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنه باق ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من للشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها فالدنيا والآخرة ضربتان وهما كالشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لدى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والاعتقاد إليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من القامات كالنوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميع طهارة القلب عن غير الله قطع حتى يتسع بعده لزول معرفة الله وجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «الطهور شطر الإيمان» (١) كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب - أي المعرفة - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالحادم وإتمام العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إقامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإتمام الأول علم العاملة وغرض العمل وغرض العاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم الكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعديلاً المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يرقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وبقوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - ومنه نظر بعضهم حيث قيل - بم عرفت ربك - عرفت ربى ربى ولولا ربى لما عرفت ربى وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية وبقوله عز وجل - أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - وبقوله تعالى - قل انظروا ماذا في السموات والأرض - وبقوله تعالى - الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حير - وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واليلة رحمة منه لعله سبحانه يسهل عليه كي لا يستعبده الهوى وتستره الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويسد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرقابة ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل المقدمات القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في

(١) حديث الطهور شطر الإيمان - سلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .

ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى الهبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالخلق سبحانه على سائر الخلق فهو فاضل والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واعتغالها بجهوات الدنيا وحفظ النفس وللنافع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشغال أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أطي السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنهجه وجلاله وعظمته وذلك مما لا ينشأه - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في بحر علوم لا تكشفه ولا يمكن أن يتطفل به على علوم العامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الابتجاز ليقع التنبيه لجنسه . فتقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتتسكلم فيها ولترك الأعلى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فتطلب أقلها وأخفها وأصغرها ولننظر في عجائبها فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعنى بالإضافة إلى اللائكة وما كوت السموات فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة وثلاثين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى قلبها التي هي مركزها فيه فانه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلق في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث القادير وما أحر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار فقد **قال رسول الله ﷺ** «الأرض في البحر كالأصطبل في الأرض» (١) ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الأديم المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للقليل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات وركب فيما من القوى الفاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والمضامة ماركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أثبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو معد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشره الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يفرز فيه الخرطوم وكيف علمه اللس والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته عجوا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتسنى إلى بطنه وينتشر في سائر أجزائه وينفذه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بيده منه فيترك اللس ويهرب ثم إذا سكنت اليد جود ثم انظر كيف خلق **حديثين** حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حذقة كل حيوان صغير لما لم تحتل حذقته الأجنان لصغره وكانت الأجنان مصقلة لمرأة الحذقة عن القذى والنباح خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالأصطبل في الأرض لم أجده أصلا .

القلب نكتة سوداء
وتعقد عليه غفلة
والثفقد المحاسبين
الباطن للصلاة بضبط
الجوارح ويعتق مقام
المحاسبة فيكون
ذلك لصلاته نور يشرق
على أجزاء وقته إلى
الصلاة الأخرى فلا تزال
صلاته منورة تامة بنور
وقته ووقته منورا
معمورا بنور صلاته .
وكان بعض المحاسبين
يكتب الصلوات في
قرطاس ويدع بين كل
صلتين يابضا وكما
ارتكب خطيئة من
كلمة غيبة أو أمر آخر
خط خطا وكلماتكم
أو تمرك فيها لا يمينه
تقط قطعة ليصير
ذنبه وحركاته فيها

فتراه على الدوام يمسح حدقيه يديه وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع القبار الذي يلحق الحدة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتبشكها عند هيجان القبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول القبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصفلتين من غير أجفان وعليها كيفية التصفيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهات على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الوضع المضي فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لتقصانها وجهلها فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الأكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينفمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فأنها باعترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تهافت الفراش» (١) فهذه لمعة عجبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يبرشون وكيف استخراج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملةاها أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى إنه يقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر للعجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطوك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل السدس فلاتبني بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية في الشكل السدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فإن الربع يخرج منه زوايا ضائقة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك الربع حتى لا تضيق الزوايا فبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقى خارج البيوت فرج ضائقة فإن الأشكال للمستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافته قد

لا يعبه لضيق المحاسبة
محاربي الشيطان
والنفس الأمارة بالسوء
لموضع صدقه في حسن
الافتقاد وحرصه على
تحقيق مقام المباد وهذا
مقام المحاسبة والرعاية
يقع من ضرورة محبة
التوبة قال الجنيد: من
حسن رعايته دامت
ولابته . وسئل
الواسطي: أي الأعمال
أفضل قال مراعاة السر
والمحاسبة في الظاهر
والمراقبة في الباطن
ويكمل أحدهما بالآخر
وبهما تستقيم التوبة
والمراقبة والرعاية حالان
شريفان وصيران
مقامين شريفيين
يصحان بصحة مقام
التوبة وتستقيم التوبة

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تهافت الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة أثبت ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتحون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله وسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتنون من يدي .

لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه لينها بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمة اليسيرة من محنرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات فإنَّ القدر الذي يلقه فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علما إلى ما أحاط به الماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلومه بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا لسعادة لقاء الله تعالى فانفذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فمساك تعطى منها بقدر يسير ولكن تال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)

اعلم أنَّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاغترابهم في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسد بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم القريبون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من القرابين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فان كنت لانهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلا فنقول أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العوام يعرف علمه مجالا واقفيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وجبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاهالة ومال إليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاهالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعة ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير إذا فقه عن التصنيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاهالة لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والصنف والعالم بحملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويمتدحه وأما البصير فانه يطالع خصيل صنع الله تعالى فيه حق يرى في البعوض مثلا من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ويثير فيه له ويزداد بسببه لاهالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلا ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدلل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة قوله حبا وبجر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له وما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب المحممة التي ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعا عليه ولم يحبه لذاته ضغفت محبته إذ تتغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنماء وأما من يحبه لذاته ولا يتمسحق للحب بسبب كاله وجماله ومجده وعظمته فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فلهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوتهم في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - ولا آخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا -

على الكمال بهما
فصارت الحاسبة
والرأفة والرعاية من
ضرورة مقام التوبة .
أخبرنا أبو زرعة بإجازة
عن ابن خلف أبي بكر
الشيرواني قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت الحسن
الفارسي يقول سمعت
الجريري يقول أمرنا
هذا مبنى على فضيل
وهو أن تلزم شك
للمراقبة لله تعالى ويكون
العلم على ظاهره قائما .
وقال للربيعي : للرأفة
مراعاة السر للاحطة
الحق في كل لحظة
ولقطة قال الله تعالى
- ألن هو قائم على
كل نفس بما كسبت -
وهذا هو علم القيام

(بيان السبب في تصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)

اعلم أن أظهر الوجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسماها على العقول وترى الأمر بالصدق من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإنما قلنا إنه أظهر الوجودات وأجلها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الوجودات لحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه ومحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفة له عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد جميع مافي العالم شواهدنا طاقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته وللوجودات للمدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله إذ كل ذرة فأنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وإنما تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أول تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فأنبرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تنصرف عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إصباره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره بسبب خفائه فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تسبقان بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس الشرق على الأرض فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزل عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكانت ناطقة لاهية في الأجسام إلا ألواتها وهي السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الحواطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الحواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الحواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التسوية لأن من حصر الحواطر كفى مؤنة الجوارح لأن بالمراقبة اصطلاح عروق إرادة الكار من

فأنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت للواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلنا أن الأجسام كانت قد امتضت بضوء وانصفت بصفة قارتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعده وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصير شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به ندرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهاام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك واللكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشئين في الدلالة ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تصف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل وينهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه خبر وعفص وزاج رقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقوله من قال كنا بنا فثنينا فثنينا بل نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للعرض إلى الأفهام أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعينهم فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند قد العفل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق فيهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وأهملها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطمة لا يحس بشهادتها لطول الأس بها ولو فرض أنه بلغ عاقلًا ثم انغمست غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعه واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب الخالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسموات في بحارها الواسعة فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به النمل إذا كان راكبًا للحمار وهو يطلب حمارة والجليات إذا صارت طلوقة صارت معتامة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعسرف القمر
لكن بطن بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالحاسة
استدراك ما انفلت
من المراقبة . أخبرنا
أبو زرعة عن ابن
خلف عن السلمي قال
سمعت أبا عثمان الغري
يقول أفضل ما يلزم
الإنسان في هذا
الطريق المحاسبة
والمراقبة وسياسة
العمل بالعلم وإذا صحت
التوبة صحت الانابة
قال إبراهيم بن آدم
إذا صدق العبد في
توبته صار منيلا لأن
الانابة ثانی درجة
التوبة وقال أبو سعيد
القرنبي المنيب الراجع
عن كل شيء يشغله
عن الله إلى الله وقال
بعضهم الانابة الرجوع
منه إليه لا من شيء

(بيان معنى الشوق إلى الله تعالى)

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن ثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيسكن في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر وللوجود لا يطلب ولكن ياتيه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه فأما لا يدرك أصلاً فلا يشاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكامله لا يشاق إليه وكال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً فلنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعاقب بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثل من الشهادات . فنقول مثلاً من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو انمى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمضى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد رآه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ونعم الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له أعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوحيان جميعاً متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الانضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فإن الخيالات لا تفر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات هي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا فاعلم كمال الوضوح بالمشاهدة وتماها في التجلّي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة بوجوب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح انضاحاً ما الثاني أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية لقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن آدم من الشواقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضر بي القلق قال قرأت في النوم أنه أوفى بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في حبك فلم أدرك ما أقول فأعفرتني وعلمني ما أقول فقال قل اللهم رضى بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشتاق أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف له بعد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال العبد طالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لا يذوقه لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

فيه فمن رجع من غيره إليه ضيق أحد طرفي الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواء فرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوعه فبقية شجاعت لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة بتحقيق الرعاية والراقبة . قال أبو سليمان ما استحييت من نفسي عملاً فأحتسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

أطراف الكشف والظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبداً لا يباد وتكون لذة ما يتجدد من أطراف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفاً على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آتِنا نورنا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأعمام النور مهما زود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى - انظرونا نقبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا - يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزاد في الآخرة إشراقاً فلما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم يتكشف لنا فيه بعد ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً وبرئنا الحق حقاً فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار **ك** أكثر من أن تحصى فما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: **« اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك »** (١) وقال أبو الدرداء: لكعب أخبرني عن أخيه آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقاءهم لأعبد شوقاً قال ومكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله **ﷺ** يقول هذا وفي أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فارضوا يا أهل الأرض ما أتم عليكم من غرور هاو لهوا إلى كرامتي ومصاحبي ومجالستي واتنسوا بي أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم فاني خالفت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبيي ومحمد صفيي وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويدكرونني وأذكرونهم وينظرون إلى وأنظر إليهم فان حدثت طريقهم أحبتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب فإذا جنم الليل واختلط الظلام وغرشت القرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى جوههم وناجوني بكلامي **« تملقوا إلى باضامي فبين صارخ وبالك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد يعني ما يتحملون من أجل وبسمعي ما يشتكون من حي أول ما أعطيهم ثلاث : أئذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة أقبل بوجهي عليهم قري من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه يادود إلى كم تذكر الجنة ولا تنساني الشوق إلى قال يارب من المشتاقون إليك قال إن المشتاقين إلى الذين صفتهم من كل كدر ونهبهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى واني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سماي ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا**

(١) حديث أنه كان يقول في دعائه اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات .

إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانياً ومن لم يكن فيه عيزان الصديق فيأله وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الانابة وهو في تحقيق مقام التوبة ولا تستقيم التوبة إلا بصديق المجاهدة ولا يصديق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر. وروى فضالة بن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المجاهد من جاهد نفسه ولا يتم ذلك إلا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بكوف الهم عليه وصديق المراقبة له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لي فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكن دعونكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى
وأباهي بكم أهل الشوق إلى فان قلوبهم لتضي في سماءي للامتداد كما تضي الشمس لأهل الأرض.
يادادوني إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فأنخذهم لنفسي عهدي
وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادوني في
كل يوم شوقا . قال داود يارب أرني أهل محبتك ، فقال يادادوني جبل لبنان فان فيه أربعة
عشر نفسا فيهم شيان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فأقرتهم مني السلام وقل لهم إن ربكم
يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم
وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة
الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، قال داود إني رسول الله
إليكم جيشكم لأبليكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى
الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادوني
أسمع صونكم وكلامكم فانكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر
إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشقيقة الرفيقة . قال جبرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم
سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاعف لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من
أعمارنا . وقال الآخر . سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر
فيما بيننا وبينك . وقال الآخر . سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أنيجتري على
الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدمن لنا لزوم الطريق إليك وأنعم بذلك المنة
علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بمجودك . وقال الآخر : من
نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أنيجتري على الكلام من هو مشغل بعظمتك
متفكر في جلالك وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كنت ألسنتنا عن دعاتك لعظم شأنك
وقربك من أوليائك وكثرة متك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك
وفرغتنا للاشتغال بك فاعف لنا تقصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي
النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجتري العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بمجودك فهب
لنا نورا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا
وتدبنا عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال
الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر :
أألك من ينهم أن نعي عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال
الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء
دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببت فليفارق
كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سريبا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري
وجلالتي . فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها والحلوات بي
ومناجاتهم لي وإن هذا منزل لا يناله إلا من رضى الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وافرغ قلبه لي
واختارني على جميع خلقي فعد ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى
ينظر إلى نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقره من نور وجهي . إن

الحواطر والصبر
ينقسم إلى فرض
وفضل فالفضل كالصبر
على أداء المفترضات،
والصبر عن المحرمات
ومن الصبر الذي هو
فضل الصبر على الفقر
والصبر عند الصدمة
الأولى وسكان
المصائب والأوجاع
وترك الشكوى
والصبر على إخفاء
الفقر، والصبر على كتم
النسج والكرامات
ورؤية العبر والآيات
ووجوه الصبر فرضا
وفضلا كثيرة وكثير
من الناس من يقوم
بهذه الأقسام من
الصبر ويضيق عن
الصبر على الله بلزوم
حصة المراقبة والرعاية

مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشفيفة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا
فعلت ذلك به يادود عجت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحبها إليه لا يفتقر عن الاشتغال بي .
يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى
غيره . فلو رأيت يادود وقد ذابت نفسه وتحمل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانحلخ قلبه إذا سمع
بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزتي وجلالى يادود لأقصدته في
الفرديوس ولأعفين صدره من النظر إلى حق يرضى وفوق الرضا . وفي أخبار داود أيضاً : قل
لبادى للتوجهين إلى محبى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورقعت الحجاب فيما بينى وبينكم
حتى تنظروا إلى بيوت قلوبكم وما ضرركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما
ضرركم مسخطة الخلق إذا التحتم رضائى . وفي أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم
أنك تحبى . فان كنت تحبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لا يجتمعان في قلب .
يادود خالص حبيبى محالصة وخالط أهل الدنيا محالطة ودينك قلديته ولا تقلد دينك الرجال ، أما
ما استبان لك مما وافق محبى فتمسك به ، وأما ما عكس عليك قلديته فحاشى أنى أسارع إلى
سياستك وتقويك ولا تكن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعنيك على الشدائد
وإن قد حلفت على نفسى أنى لا أنيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين
يدي وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزعته الله والوحشة عنك وأسكن النقى قلبك
فانى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبدى إلى نفسه ينظر إلى فضائلها إلا وكلته إليها أنصف
الأشياء إلى لا تضاد عملك فكون متعباً ولا يتنفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حداً فليس
لها غاية ، ومعنى طلبت منى الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة منى حداً ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه
ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عنى أجمع لهم مالا عين رأت ولا
أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى يصر قلبك ولا تقتر بعينك
التي في رأسك إلى الدين حجب عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطاع ثوابى عنها فانى حلفت
بمزي وجلالى لا أتحس ثوابى لبد دخل في طاعنى للتجربة والتسويق تواضع لمن تملنه ولا تطاول
على الريدن ، فلو علم أهل محبى منزلة الريدن عنى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يادود
لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عنى جهيدا ، ومن كتبتك عنى
جهيدا لا يكون عليه وحشة ولا . إلى الخلقين . يادود : تمسك بكلامى وخذ من قسك
لنفسك لا تؤثمن منها فأحجب عنك محبى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فائما
أبعت الشهوات لضعفة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فاتها تنقص حلاوة مناجاتى ،
وإنما عقوبة الأقوياء عنى فى موضع التناول أدنى ما يصل اليهم أن أحجب عقولهم عنى فانى
لم أرض الدنيا لحبيبى ونزته عنها . يادود : لا تجعل بينى وبينك عالماً يحجبك بسكره عن
محبى . أولئك قطاع الطريق على عبادى للريدن استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ،
وإياك والتجربة فى الإفطار فان محبى للصوم إيمانه . يادود تحب إلى بمعاذة نفسك امنمها الشهوات
أنظر اليك وترى المحب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت
عليك به وأنى أحبه عنك وأنت متمسك بطاعنى . وأوحى الله تعالى إلى داود يادود لو لم يدبرون عنى
كيف انتظارى لهم ورقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما نوا شوقا لى وتقطعت أوصالهم من محبى

ومنى الخواطر ، فاذن
حقيقة الصبر كائنة
فى التوبة كينونة
للمراقبة فى التوبة
والصبر من أعز
مقامات المؤمنين وهو
داخل فى حقيقة
التوبة . قال بعض
العلماء : أى شئ
أفضل من الصبر
وقد ذكره الله تعالى
فى كلامه فى نيف
وتسمين موضعا وما
ذكر شيئا بهذا العدد
وحدة التوبة تحتوى
على مقام الصبر مع
شرفه . ومن الصبر
الصبر على النعمة ،
وهو أن لا يصر فيها
فى معصية الله تعالى
وهذا أيضا داخل
فى صفة التوبة

ياداوود هذه إرادتي في التدبيرين عنى فكيف إرادتي في القباين على ياداوود أحوج ما يكون العبد إلى إذا صنفى عنى وأرحم ما يكون بعدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإتمام تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - يحبهم ويحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله تعالى - قل فلم يذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ■ إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضوه ذنب والثائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) ■ ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمعصية غفران الذنب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ■ إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ■ من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) وقال عليه السلام ■ قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٤) الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : عمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من أن الله اظالمه خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الليل الغالب المقروط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود التبعي ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلق ، وهذا التباعد في سائر الأسماء

(١) حديث أسى إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والثائب من الذنب كمن لا ذنب ■ ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود تقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصححه إسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن أبي عمير (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء نصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحول والتواضع والتدل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وتركيتها بالتوبة

أظهر كالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضح اللفظ إنما وضع هذه الأسماء أولا للخلق فان الخلق أسبق إلى العقول والأنفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمهبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلذذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال يمكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجرده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله قسط وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الليثي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأفعاله وتسايف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل حبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المتقضي له كما قال تعالى ولا يزال عبيدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى واطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرابه فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لالارتفاع به ولا للاستعجاب به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والحاصل الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافرالحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحاصل الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحجب نفسه إلى الملك فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا لفحص قريبا قد تغير قريبا يظن بهذا أن القرب لما تجدد قد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الأزال ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحريكهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالقول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم فلا يزال دائما في التغير والترق إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت
بالتوبة النصوح زالت
عنها الشراسة الطبيعية
وقلة الصبر من وجود
الشراسة للنفس وإياها
واستعصائها والتوبة
النصوح تلين النفس
وتخرجها من طبيعتها
وشراستها إلى اللين
لأن النفس بالشراسة
والرابة تصفو وتطهر
نيرانها التساجعة
بعبادة الهوى وتبلغ
بطمأنينتها محل لرضا
ومقامه وتطمئن فيه
بحارى الأقدار قال
أبو عبد الله التاجي
الله عباد يستحيون
من الصبر ويتلقفون
مواضع أقداره بالرضا
تلقفا ، وكان عمر بن
عبد العزيز يقول

الذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله تعالى فإنه لا نهاية لأكماله وسلك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حد محدود لا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذن محبة الله للعبد تقريه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه. وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشاق إلى مافات له وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى. فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالاً»^(١) فعلامه محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره. قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حميراً فتركه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغاني عن نفسه بحمار، وفي الخبر «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه فان رضى اصطفاه»^(٢) وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد بصافيك، وقال بعض المريدين لأستاذهم قد طولت بشئ من المحبة فقال يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواء فأثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يسطيعها عبداً حق يلو، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبداً جعل له وأعظا من نفسه وزاجراً من قلبه بأمره ونهيه»^(٣) وقد قال «إذا أراد الله بعبده خيراً أبصره بيبوب نفسه»^(٤) فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله. وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الشير عليه والدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمتمعمل لجوارحه والسدد لظواهره وباطنه والجامع همومه ما واحداً وللبض الدنيا في قلبه والوحش له من غيره والمؤنس له بلادة الناحية في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فانها أيضاً علامات حب الله للعبد.

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد وما أسهل الدعوى وما أعز للمنى فلا ينبغي أن يفتر الإنسان بتأبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ونمازها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفاضلة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير قارٍ منه فان الحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم.
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجوه ولله في مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له وأعظا من نفسه الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة باسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً أبصره بيبوب نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس زيادة فيه باسناد ضعيف.

أصبحت ومالي سرور
إلا ما وقع القضاء قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم لابن عباس
حين وصاه «اعمل لله
باليقين في الرضا فان لم
يكن فان في الصبر
خيراً كثيراً» وفي الخبر
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم «من خير
ما أعطى الرجل الرضا
بما قسم الله تعالى له»
فالأخبار والآثار
والحكايات في فضيلة
الرضا وشرفه أكثر
من أن تحصى والرضا
ثمرة التوبة النصوح
وما تخلف عبد عن
الرضا إلا تخلفه عن
التوبة النصوح فاذن
تجمع التوبة النصوح
حال الصبر ومقام الصبر
وحال الرضا ومقام

ليقيم بشهادته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى الشهادة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (١) وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفزع من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود قدم حب الله على السجود وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لم يرض الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تمجزه ، وروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله نفلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلتقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجده أنفي وأذني ويقر بطنى فإذا لقيت غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنيك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وإن أنه وأذنه لم يلقا في خيط (٢) قال سعيد بن المسيب أرجو أن يرى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره الموت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد أحب الموت فكانته توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته وتلا قوله تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - فقال الرجل قد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يتمنين أحدكم الموت » (٣) فقال إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة للموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ﷺ أشد عليهم من ضلوه فقالوا وكيف وهى أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﷺ من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلي نظر إلى سالم (٤) فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله نفلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلتقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجده أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد (٣) حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﷺ من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلي نظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية الرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

الرضا والخوف والرجاء
مقامان شريهان من
مقامات أهل اليقين
وهما كائنان في صلب
التوبة النصوح لأن
خوفه حمله على التوبة
ولولا خوفه ما تاب
ولولا رجاءه ما خاف
فلرجاء والخوف
يتلازمان في قلب المؤمن
ويستبدل الخوف
والرجاء لا تائب المستقيم
في التوبة . دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
على رجل وهو في
سياق الموت فقال
« كيف تجدك قال
أجدني أخاف ذنوبي
وأرجو رحمتي فقال
ما اجتمعا في قلب عبد
في هذا الوطن إلا أعطاه
الله ما رجا وآمنه بما

بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .
وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره
مجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الخبر بقدوم
حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليبيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما بهواه فارغ القلب
عن الشواغل خفيف الظهر عن المواقف فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته
الدروب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يهيه
في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويحجب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم
الحاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى
فمحبوبه ما بهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتى ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قبح الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة واقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه
نهارا فتدافعه إلى الليل فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى التهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت أما إذا كان الله تعالى
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فمنها سكنت إليه ؟ فاذن من أحب الله
لا يصيبه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تمنى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هوته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب الناهي وهو **قال** لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاها ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا
يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله
بأه نصيرا - فان قلت فالصبيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى
« أن نسيان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في مصيبة يرتكبها إلى أن
آتى به يوما فحده فلحنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه
وسلم لا تلتنه فإنه يحب الله رسوله ^(١) » فلم يخرج به بالمصيبة عن المحبة، نعم يخرج به بالمصيبة عن كمال الحب

(١) حديث آتى نسيان يوما فحده فلحنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلتنه فإنه يحب الله
ورسوله البخاري وقد تقدم .

يخاف هوجاء في تفسير
قوله تعالى سولاً تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة
هو العبد يذنب
الكبائر ثم يقول قد
هلك لا ينفعني عمل
فالتائب خاف ذناب
ورجال الفجرة ولا يكون
التائب تائبا إلا وهو راج
خائف ثم إن التائب
حيث قيد الجوارح عن
السكران واستعان بنعم
على طاعة الله فقد
شكر النعم لأن كل
جائحة من الجوارح
نعمة وشكرها قيدها
عن العصية واستعمالها
في الطاعة وأي شاكر
للنعم أكثر من التائب
المستقيم فإذا جمع مقام
التوبة هذه المقامات
كلها فقد جمع مقام

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حيا متوسطا فاذا دخل سويده القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قبل لك أنحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك . ومنها أن يكون مستترا بذكر الله تعالى لا يفتخر عنه لسانه ولا يغلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلمة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب كلب محله فالحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى (١)» وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت خلاوة الناجاة في صن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم تجفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عناي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي . وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله حب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة حب بعض الدنيا وعلامة حب بعض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادها وبلغة إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويستتم هذه الليل وصفاء الوقت باقظاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتتم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الله عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل من ابن أبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلقي فاني إنما أقطع عن رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسيت فرضي بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يسجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلي فهو . وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيبة دهر طويلا فنظر إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوى إليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت أنس بصوت هذا الطائر

(١) حديث أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة الحديث تقدم .

التوبة حال الزجر
وحال الانتباه وحال
التيقظ ومخالفة النفس
والتقوى والمجاهدة
ورؤية عيوب الأفعال
والانابة والصبر والرضا
والمحاسبة والمراقبة
والرعاية والشكر
والخوف والرجاء وإذا
صحبت التوبة النصح
وزكك النفس انجات
مرآة القلب وبان قبح
الدنيا فيها فيحصل
الزهد والزهد يتحقق
فيه التوكل لأنه لا يزهد
في الوجود إلا لاعتماده
على الوعود والسكون
إلى وعد الله تعالى هو
عين التوكل وكلما بقي
على العبد بقية في تحقق
للقامات كلها بسد
توبته يستدركه

قال قفل فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطتك درجة لا تاتلها بشيء من عملك أبدا . فاذن علامة المحبة كالأنس بمنجاة المحبوب وكال التمس بالخلوة به . وكال الاستيعاش من كل ما ينقص عليه الخلوة ويعوق عن لقاة للناجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا ببللة النجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة بعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشمر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشمر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع المصوم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على صممه مرارا مثل العاشق الوطنان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص حجة الله شغفه . عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر الحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبي إذا جنة الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فيها أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما يغوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على القاتل فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك ملينهم تاما ومأشاه كان فما كان لهم فهو واصل إليهم ومافاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق الحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويستغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتنني بنفسى وبمناجاة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير الحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل السك بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر إلا ما فيه خيره ويذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - ومنها أن يتم بالطاعة ولا يستقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة الحب دوام النشاط والدروب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ما اشتغى محب لله من طاعته ولو حلل بحظير الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في الشهادات فإن العاشق لا يستغل السهم في هوى معشوقه ويستغل خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تماوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فمكذبا يكون حب الله تعالى فإن كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبه أحب إليه من السكسل ترك السكسل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت مريض عني بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فإيش تنفق على قال يا سيدي أملكك ما أملكك

يزهده في الدنيا وهو
ثالث الأربعة . أخبرنا
شيخنا قال أنا أبو منصور
محمد بن عبد الملك بن
خيرون قال أنا أبو محمد
الحسن بن علي الجوهري
إجازة قال أنا أبو عمر
محمد بن العباس قال أنا
أبو محمد عبي بن ساعدة
قال حدثنا الحسين بن
الحسن السروزي قال
حدثنا عبد الله بن
الليبارك قال حدثنا
الحسين بن جميل قال أنا
محمد بن سليمان عن
عبد الله بن بريدة قال
« قدم رسول الله صلى الله
عليه وسلم من سفر
فبدأ بغاطمة رضي الله
نهما فرأها قد أحدثت
في البيت سرا وزوائد
في يديها فلما رأى

ثم اتفق عليك روحى حتى تهلك فقات هذا خلق الخلق وعبد اميد فكيف بعد لميود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يخاف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أعداء على الكفار رحماً بينهم - ولا تأخذهم لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكفون عني كما يكلف الصبي بالصبي . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة ويخضون لمحارمه كما يخضب النمر إذا حرد طانه لا يبالى قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلف بالصبي لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فإن قام أخذه معه في ثيابه فإذا انتبه عاد ونمستك به ومهما فارقته بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه وأحبه وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تمت في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب القربين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لى نعيم - ثم قال - يستقون من رحيق مختموم ختامه مسك وفى ذلك فليقتنافس المتنافسون ومزاجه من تسليم عينا يشرب بها القربون - فإذا طاب شراب الأبرار لشرب الشراب الصريف الذى هو لامة قربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لى عليين - ثم قال - يشهده القربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده القربون وكان أن الأبرار يجدون الزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من القربين ومشاهدتهم لهم - كذلك يكون حالهم فى الآخرة - ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة - كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقا - أى وافق الجزاء أعمالهم فقبول الخالص بالصرف من الشراب وقبول المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته فى الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يخلب عايه إلا حبه بالخالص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتعمون فى الجنان مع الخور العين والولدان والقربون ملازمون للحضرة ما كفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها يقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالة أقولم آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب (١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والمعظم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لتيرم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الإبعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب البراز من حديث أنس بن مالك مقتصرا على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحواري وأعله أدرج فيه .

ذلك رجع ولم يدخل
ثم جلس فجعل ينكت
فى الأرض ويقول
مالى وللدنيا مالى
وللدنيا فرأت فاطمة
أنه إنما رجع من أجل
ذلك الستر فأخذت
الستر والزوائد
وأرسلت بهما مع بلال
وقالت له اذهب إلى
النبي صلى الله عليه وسلم
قل له قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فأتى
بلال إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال قالت
فاطمة قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم
بأبى وأمى قد فعلت
بأبى وأمى قد فعلت
اذهب فبه و قيل
فى قوله تعالى - إنا
جعلنا ما على الأرض
زينة لها لنولم أهم

الحسين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - وإنما أعظم هيبته البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد في حق البعدين يشيب جماعه أهل القرب في القرب ولا يمن إلى القرب من ألف البعد ولا يسكن لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وطلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون (٢) وكذلك قال عليه السلام إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة (٣) وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على القصور في الطريق والاتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أنصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فأما الخصوص فيحبهم عن الزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مباديء اللطف وذلك هو السكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد قوته . مع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فالت فهب ما فالت منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرات عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان الحب يلزمه الشوق والطلب الخبيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه وأوسبب رجته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله للسكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويفتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكرواليان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحسنة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات السكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو اللطف والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبرواتباضه عن دوام الله كروملا له لوظائف الأوراد أسباب هذه اللعاف ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام اللقت نمود بالله منه وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء للراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لامحالة فقد فلا يغلو الحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلقه فالحب لا يغلو عن خوف والخائف لا يغلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

(١) حديث شيعتي هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقالت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أحسن عملا - قيل
الزهد في الدنيا . مثل
أمير المؤمنين على بن
أبي طالب رضي الله
عنه عن الزهد فقال
هو أن لا يتألى بمن
أكل الدنيا مؤمن أو
كافر . ومثل الشبلي
عن الزهد فقال ويلكم
أني مقسدار الجناح
بعوضة أن يزهد فيها .
وقال أبو بكر الواسطي
إلى متى تصول بترك
كيف وإلى متى تصول
يا أعراضك عما لا وزن
عند الله جناح بعوضة
فاذا صح زهد العبد
صح توكله أيضا لأن
صدق توكله مكنه من
زهده في الوجود فمن
استقام في التوبة
وزهد في الدنيا وحقق

حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فاعلم الخوف بعده ويخفف وقته على القلب فقد روي في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك ففهم في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا يفتنع بشيء ولا يفتنع به شيء فسأل الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من الذرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة فذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا فأخبرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيها سألت أعطيتهم كما أعطيتهم فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانه يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيت فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأجرار منهم والعييد
غريب الوصف ذو علم غريب كان فؤاده زبر الحديد
عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد في الأوقات تجري في كل يوم ألف عييد
ولالأجباب أفرح بعيد ولا يجد السرور بعيد

وقد كان الجليل رحمه الله ينشد آياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان لا يجوز إظهاره وهي هذه الآيات :

سرت بأناس في التيوب قلوبهم خلوا بقرب الحاجد التفضل
عراسا بقرب الله في ظل قدسه تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردم فيها على المز والتهى ومصدرم عنها لما هو أكمل
تروح جز مفرد من صفاته وفي حلل التوحيد تنشى وترقل
ومن جد هذا ما تدق صفاته وما كنتم أولى لديه وأعدل
ما كنتم من على به ما يصونه وأبذل منه ما أرى الحق يذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى النع بفضل
على أن لرحمن سرا يصونه إلى أهله في السر والصون أجل

وأما هذه العارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من . لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لحربت الدنيا بالحكمة تقتضي فحول الغفلة لممارسة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحربت الدنيا لهدم فيها وطلبت الأسواق وللمايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن الله تعالى فيها هو شرف في الظاهر أسرار وحكم كما أن في الخير أسرار وحكم ولا منتهى لحكمته كما لا قابلية قدرته . ومنها كتابان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهية منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المني ويزيد عليه فيكون ذلك من الاقتراء وتعظم العقوبة عليه في العقاب وتسجل عليه البلوى في الدنيا نعم قد يكون للمحب سكرة في جبهته حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين اللامين استوفى
سائر اللامات وتكون
فيها وتحقق بها ترتيب
التوبة مع الرقابة
وارتباط إحداها
بالأخرى أن يتوب
العبد ثم يستقيم في
التوبة حتى لا يكتب
عليه صاحب النكال
شيئا ثم يرتقى من
تطهير الجوارح عن
للماضي إلى تطهير
الجوارح عما لا ينبغي
فلا يسمع بكلمة فضول
ولا حركة فضول ثم
ينتقل للرعاية والمهاسبة
من الظاهر إلى
الباطن وتستولي
الرقابة على الباطن
وهو التحقق بعلم
القيام بمحو خواطر
الصعبة عن باطنه

فيظهر عليه جبه فان وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه متهور وربما تشتت
من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فضانه فالقادر على الكتمان يقول:
وقالوا قريب قلت ما أنا صانع بحرب شعاع الشمس لو كان في حجري
لما لي منه غير ذكره بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدرى
والعاجز عنه يقول :

يغنى فيسدى السمع أسرارى ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم
وقد قال بعض المارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به
في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو محقوت عند الهيبين والصلحاء بالله عز وجل
ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى يلاذ فقال لا يحبه من وجد
ألم ضربه فقال الرجل لكني أقول لا يحبه من لم يتم بضربه فقال ذو النون ولكني أقول لا يحبه من شمر
نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة منتهى القامات وإظهارها إظهار للغير
فماذا يستنكر فاعلم أن المحبة محمود وظهورها محمود أيضا وإنما الذموم التظاهر بها لما يدخل فيها
من الدعوى والاستكبار وحق الحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أفعاله وأفعاله وينبغي
أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغي أن يكون
قصد الحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فترك في الحب وقادح فيه كما ورد في الإنجيل
إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك فالتى يرى الحفيات يحزبك الآية وإذا صمت
فاغسل وجهك وادهن رأسك لا تعلم بذلك غير ربك فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب
سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض
المجانين ما استجبه له فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبوب صغار
وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيت من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان
عارفا وعرف أحوال اللائكة في جهنم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترقون
ولا يبعثون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكاف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه
من أخس الهيبين في مملكته وأن حبه أقص من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من الهيبين
عبث الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل اليهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت
أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها فبلغت صفا
من اللائكة بعد جميع ما خلق الله من شيء قلت من أنتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا
منذ ثلثة ألاف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالي فوهبتها
لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم فاذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحياته حق الحياء
خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته
كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها صييا
فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه
بول عاشق قال الجنيد فصمت وغطى على ووقت القارورة من يدي ثم رجعت إلى السرى فأخبرته
فتبسم ثم قال قاله الله ما أبصره قلت بأستاذ وتبين المحبة في البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول
فأذا تممكن من
رعاية الخطرات عصم
عن مخالفة الأركان
والجوارح وتستقيم
توبته قال الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه
وسلم - فاستقم كما
أمرت ومن تاب
معك - أمره الله
تعالى بالاستقامة في
التوبة أمرا له ولا يتبعه
وأمرته وقيل لا يكون
للريد مريدا حتى
لا يكتب عليه صاحب
الشمال شيئا عشرين
سنة ولا يلزم من
هذا وجود الصمة
ولكن الصادق الثابت
في النادر إذا ابتلى
بذنوب يمتحن أثر الدين
من باطنه في

لو شئت أقول ما ليس جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ثم غشى عليه وتدل الفشية على أنه
أوضح في غلبة الوجد ومقدمات الفشية فهذه مجامع علامات الحب ونمائه . ومنها الأنس والرضا كما
سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يشمره الحب فهو اتباع الهوى وهو
من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون
لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا
ذلك بمحبتهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم قتل محبتهم وتكرر
على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم التقدير والقدرة والعلم والحكمة والتفرد
بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذ استحق عندهم المحبة بذلك
لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدوا لله إبليس وهو مع ذلك
يلبس على نفسه بحكم الضرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى قدت فيه هذه
العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وحممة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف
ذلك ككلامه السوء وقراءه السوء أولئك بضياء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال
يادوست أى يا حبيب قليل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال فى أذن القائل سرا: لا يخلو
إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب
إبليس وقد قال أبو تراب النخشي فى علامات المحبة آياتا :

لا تخدعن فلا حبيب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بحر بلائه	وسروره فى كل ما هو فاعل
فالتنع منه عطية مقبولة	والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبعا	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متشفا	متحفظا من كل ما هو

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا	فى خرفتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	جوف الظلام لما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا	نحو الجهاد وكل فصل قاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى	من دار ذل والنجم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باهكيا	أن قد رآه على قبيح فاضل
ومن الدلائل أن تراه ملما	كل الأمور إلى ليليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا	بملكك كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكك بين الورى	والقلب محزون كقلب الثائر كل

(بيان معنى الأنس بالله تعالى)

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب
نظره وما يلقب عليه فى وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر
نصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج لهو حاج إليه وتسمى هذه الحالة

الطف حافة لوجود
النم بالله باطنه
على ذلك والتدم توبة
فلا يكتب عليه
صاحب التوال شيئا
فاذا تاب توبة نصوحا
نم زهد فى الدنيا
حتى لا يهتم فى غذاه
لشاهه ولا فى عشاءه
لغذائه ولا يرى الادخار
ولا يكون له تعلق
م بصد قد جمع
فى هذا الزهد
والفقر والزهد أفضل
من الفقر وهو فقر
وزيادة لأن الفقير
عادم لشيء اضطرابا
والزاهد تارك لشيء
اختيارا وزهده
يعتق توكله وتوكله
يعتق رضاه ورضاه
يعتق الصبر وصبره

في الازعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر قائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم البلالة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشمار فيسمى تأله خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس من هذه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما قاب له وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما غير ملتفت إلى ما بقي في الامكان من مزايا اللطاف ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أقل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه النسيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعاؤه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبني مستأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لراية بن ميمون قلت هل من الغزاة قالت بتركي مالا يعني وأنسى عن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم فقلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت العاملة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع لهم فصارها واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور محالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلأنوا ما استوعر الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون محبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهلل الأمل أولئك خلفاء الله في أرضه والدةاة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهنـه علامته وهذه شواهدـه وقد ذهب بعض التكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال اللذرات بالبصار أكمل من جمال البصرات ولله معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بسلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والمشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فقير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

بحق حبس النفس
وصدق المجاهدة
وحبس النفس لله
بحق خوفه وخوفه
بحق رجاءه ويجمع
بالتوبة والزهد كل
القامات والزهد
والتوبة إذا اجتمع مع
حمة الإيمان وعقوده
وشروطه يميز هذه
الثلاثة رابع بتمامها
وهو دوام العمل لأن
الأحوال السنية
يتكشف بعضها بهذه
الثلاثة وتيسر بعضها
متوقف على وجود
الرابع وهو دوام
العمل وكثير من
الزهاد المتحققين بالزهد
للتقويمين في التوبة
تخلفوا عن كثير من
سنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطلان وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم مصفوة لله عمال
(بيان معنى الانبساط والادلال الذى ثمره غلبة الأنس)

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكّم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر
نوعاً من الانبساط فى الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه
من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل بمن أقيم فى مقام الأنس ومن لم يتم فى ذلك المقام ويتشبه بهم
فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كلمه موسى
عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام
ليستسقى لهم فى سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم
سرائرهم خبيثة بدعوني على غير يقين ويؤمنون مكري أرجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له
يخرج حق أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق
إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه فصرفه موسى
عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما سمك فقال اسمى برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين
أخرج فاستسقى لنا فخرج فقال فى كلامه ما هذا من فعلك ولا هذا من حلك وما الذى بدالك أتقصت
عليك عيونك أم عانت الرياح عن طاعتك أم قد ما عندك أم اشتد غضبك على الذين ألت كنت
غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم تربنا أنك ممتنع أم تخشى الموت فتجعل
بالعقوبة قال فابرح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبئت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ
الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاسمت ربى كيف أنصفتنى
فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن
قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقي فى وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر
بذلك فبعث إلى صاحب الحصن قال فأتى بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال إني أقسمت على
ربى عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضى الله عنه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« يكون فى أمى قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبره » (١) قال ووقع حريق بالبصرة
فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق النار فقال إني أقسمت على
ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ قال فزعم عليها فطفت وكان أبو خص
يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو خص ما أصابك فقال ضل حمارى ولا أملك غيره
قال فوقف أبو خص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حمارى قال فظهر حماره فى الوقت ومرّ
أبو خص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجرى لدى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله
أهل الأنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة لوصيها
العموم لكفروهم وهم يمدون الزيد فى أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تغالجهم زهو بسيدم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولا تستبدون رضاه عن العبد بما يفض به على غيره مهما اختلف مقامهما فى القرآن تنبيهات على

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون فى أمى قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله

لأبره ، ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

عن هذا الرابع ولا
يراد الزهد فى الدنيا
إلا لكمال الفراغ
الاستمان به على إدامة
العمل لله تعالى والعمل
فه أن يكون العبد
لا يزال ذا كرا أو تاليا
أو مصليا أو مراقبا
لا يشغله عن هذه إلا
واجب شرعى أو مهم
لا بد منه طبعى فاذا
استولى العمل القلبي
على القلب مع وجود
الشغل الذى أداه إليه
حكم الشرع لا يفتقر
باطنه عن العمل
فاذا كان مع الزهد
والتقوى متمسكا
بدوام العمل فقد
أكل الفضل وما آلى
جهدا فى العبودية

هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها
بين الاعتبار فأنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام
وإبليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم للعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتناء والعصمة . أما إبليس
فأبليس عن رحمة . وقيل إنه من البعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه - وعصى آدم ربه
فغوى ثم اجتنبه ربه فتاب عليه وهدى - وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الاعراض
عن عبد والاقبال على عبد وما في العبودية بيان ولكن في الحال مختلفان . فقال - وأما من
جاءك يسمى وهو يخشى فأنت عنه تلهى - وقال في الآخر - أما من استغنى فأنت له تصدى -
وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، قال عز وجل - وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام
عليكم - وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال - وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض
عنهم - حتى قال - فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - وقال تعالى - واصبر نفسك مع
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون
بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام - إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء
وتهدى من تشاء - وقوله في التمليل والاعتذار لما قيل له - اذهب إلى فرعون - فقال - ولهم
على ذنب - وقوله - إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى - وقوله - إننا
نخاف أن يفرط علينا أو أن يظنى - وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى
أقيم مقام الأنس بلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض
والهية فوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة - لولا أن
تداركه نعمة من ربه لبذ بالراء وهو مذموم - . قال الحسن العراء هو القيامة ، ونهى نبينا
صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ
نادى وهو مكظوم - وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والقامات وبعضها لما سبق في
الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين
على بعض - وقد قال - منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فكان عيسى عليه السلام من
الفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال - والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا -
وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم
مقام الهية والحياة فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، قال - وسلام عليه - وانظر كيف احتمل
لإخوة يوسف ما فعلوه يوسف . وقد قال بعض العلماء - قد عدت من أول قوله تعالى - إذ قالوا
ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا
وأربعين خطبة بعضها أكبر من جص وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ففهر
لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل عفى من ديوان النبوة
وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكبر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان
آصف من السرفين وكانت مصيئته في الجوارح فضا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان
عليه السلام يارأس العابدين وياابن عجة الزاهدين إلى كم يصيبني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه
مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لأن أخذته عصفة من صفاني عليه لأتركه مثله لمن معه ونكالا
لن جده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :

من خرج من قالب
العبودية صنع به ما
يصنع بالآبق . وسئل
سهل بن عبد الله
التستري : أى منزلة إذا
قام العبد بها مقام
العبودية قال إذا ترك
التدبير والاختيار فاذا
تحقق العبد بالتوبة
والزهد ودوام العمل
لله يشغله وقته الحاضر
عن وقته الآتى ويصل
إلى مقام ترك التدبير
والاختيار ثم يصل إلى
أن يملك الاختيار ،
فيكون اختياره من
اختيار الله تعالى لرواى
هواه ووفور علمه
واقطاع مادة الجهل
عن باطنه . قال يحيى
ابن معاذ : الرازى مادام

كثيما من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تقب على وكيف أستعصم إن لم تصمني لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفي الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على الهلكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضل والتقديم والتأخير على ما سبق به للشبهة الأزلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل لنا في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يعرف إليهم بالتقديس فيقول - قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وتارة يعرف إليهم بصفات جلالة فيقول - للك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر - وتارة يعرف إليهم في أفعاله المحفوظة للرجوة فينبؤ عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول - ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات الجناد - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - ولا يبدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقدسيه ومعرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس واقرنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال « من قرأ سورة الإخلاص قد قرأ ثلث القرآن » (١) لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور : لا يكون حاصل منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصل منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يولد ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله - ولم يكن له كفوا أحد - ويجمع جميع ذلك قوله تعالى - قل هو الله أحد - وجعلته تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تنتهي أمثال هذه الأسرار في القرآن - ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه نوروا القرآن والتموا غرائب فيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يفرقه إلا من طالع في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار فكان حرصا على استنباطها ليتكشف لك فيه من العجائب ما تستعجز معه العلوم الزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو عمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

(القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته)

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات القربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقمته في الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وأن يمدح بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والقسوة وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى « ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم قمه في الدين وعلمه التأويل » (٢)

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص قد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي العرداء نحوه (٢) حديث دعاه لابن عباس اللهم قمه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

العبد يتعرف يقال
لا تختر ولا تكن مع
اختيارك حتى تعرف
الله اعرف وصار عارفا
يقاله إن عشت اختر
وإن عشت لا تختر
لأنك إن اخترت
فباختيارنا اخترت
وإن تركت الاختيار
فباختيارنا تركت
الاختيار فانك بنا في
الاختيار وفي ترك
الاختيار والعبد
لا يتحقق بهذا المقام
العالي والحال العزيز
الذي هو الناية والنهاية
وهو أن يملك الاختيار
بعد ترك التدبير
والخروج من الاختيار
إلا بإحكامه هذه
الأربعة التي ذكرناها
لأن ترك التدبير فناء
وتخليك التدبير

فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

(بيان فضيلة الرضا)

أما من الآيات قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى - ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولله أكبر - فكما أن مشاهدة للذكر في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعل من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » (١) فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقة وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب عما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقة إذ تنصرف أقسام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادرأكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فاعلموا الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمان لما ظفروا به من النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولله ينمى زيد - قال بعض للفرسين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزبد ثلاث نخف من عند رب العالمين : إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى - سلام قولاً من رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والسلام فذلك قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أى من النعم الذي هم فيه فهذا أفضل رضا الله تعالى وهو عمر رضا العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا مؤمنون فقال ما علامته إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة » (٢) وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء » (٣) وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفاً ورضى به » (٤) وقال عليه السلام « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » (٥) وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فان صبر اجتناباً فان رضي اصطفاً » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فنقول لهم

والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره وباطنه في العبودية وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل متمسكة بالاستسكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تنكفى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع اكلائي كلامة

(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك البراء والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقكم وعدى وآمنت عليكم نعمتى وهذا عمل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو جلى بلفظ ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا مؤمنون فقال ما علامته إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضاً (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفاً ورضى به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل رويناه في أمالى المحاملى بإسناد ضعيف من حديث طى بن أبى طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى في مسند الترمذوس .

للالائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأيانا حسابا فتقول لهم هل جزئتم الصراط فيقولون ما رأيانا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأيانا شيئا فتقول لللائكة من أمة من أئمة فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه للزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نصيبه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول لللائكة بحق لكم هذا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قركم وإلا فلا» (٢) . وفي أخبار موسى عليه السلام إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن ففناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم ، ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ماله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه» (٣) وفي أخبار داود عليه السلام مالأولياء والمهم بالدنيا إن المهم يذهب حلالة مناجاتي من قلوبهم . ياداود إن عبق من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون . وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلي على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه : إن رضائي في كرهك وأنت لاتصبر على ما تكره . قال يارب دلي عليه . قال فإن رضائي في رضاك بقضائي . وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك ؟ قال من إذا أخذت منه الم محبوب سألني قال فأبى خلقك أنت عليه ساخط . قال من يستخيرني في الأمر فاذا قضيت له سخط قضائي . وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي» (٤) ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا مني حتى يلقيني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقيني» (٥) وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقت له الشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف» (٦) وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقميل عشر سنين لما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكروا هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطفرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف . وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماله عنده الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بإفظ منزلة ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجده بهذا اللفظ للطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عني .

[الباب الستون :

في ذكر إشارات

الشايخ في القامات

على الترتيب]

قولهم في التوبة قال

روى معنى التوبة أن

يتوب من التوبة قيل

معناه قول رابصة

أستغفر الله العظيم

من قلة صدق في قولي

أستغفر الله . وسئل

الحسن الغزالي عن

التوبة ، فقال تسألني

عن توبة الانابة أو

عن توبة الاستجابة

فقال السائل ما توبة

الانابة ؟ فقال : أن

تخاف من الله عز

وجل من أجل

قدرته عليك . قال

لما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أقرير أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما أحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لأن تلجج هذا في صدرك مرة أخرى لأهونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يحمل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده يا أبت : أمارى ما يصنع هذا بك لونهته عن هذا فقال يا بني : إني رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تعلموا إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار السكامة إلى دار الهوان ومن دار النعم إلى دار الشقاء فأخاف أن أعرك أخرى فيصيني ما لا أعلم . وقال أنس بن مالك رضي الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لما قال لي شيء فقلت لم فعلته ولا شيء لم أقوله لم لأفعله ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ولا في شيء لم يكن ليته كان وكان إذا خاصني عناصم من أهله يقول دعوه لوقضي شيء لكان (١) » . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أمهنتك فما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد . [وأما الآثار] فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر . وقيل له ماتشهي ، فقال ما يقضي الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : ليس الشأن في أكل خبز الشعير والحل ولا في لبس الصوف والشعر ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول شيء كان ليته لم يكن أو شيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني . وروى في الاسرائيليات أن طابدا عبد الله دها طويلا فأرى في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة ، فقال أمالك عمل غير ما رأيت ، قالت ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خبيثة واحدة هي في إن كنت في شدة لم آمن أن أكون في رخاء وإن كنت في مرض لم آمن أن أكون في صحة وإن كنت في الشمس لم آمن أن أكون في الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خبيثة هذه والله خبيثة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أورشاء . وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عني فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر ابن سليمان الضبي لمي يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده النعم والعطاء فقد رضي عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قدر ضي من عبيده بما رضى العبيد من موالهم السنة عن أبي أمامة باسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لي شيء فقلت لم فعلته ولا شيء لم أقوله لم لأفعله ولا قال في شيء كان ليته لم يكن أو شيء لم يكن ليته كان .

قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلزمه سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . قال ذوالنون توبة الصوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من النعمة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم . مثل أبو محمد سهل عن الرجل

قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن محبة نعمه عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحسنه وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) » .

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فاعلم أن من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغرق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يطل الحساس بالألم حتى يجرى عليه الإؤلوم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بمحبة كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهته بحيث يدهش وينشئ عليه فلا يحس بما يجري عليه . فقد روى أن امرأة فتحت الوصل عثرت فاقطع ظفرها فضحكت قليل لها أما تجددين الوجع ؟ قالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقليل له في ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعز بمقله وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتمس من القصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من القصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجري عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجملة راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا يخفى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد توأفها للتوأمفون في نظمهم وشرهم ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فساهو الإجلد والحلم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بدايته من نقطة ملرة ونهايته جيفة قلرة وهو فيما بين ذلك يعمل المذرة وإن نظر إلى المدرك

(١) حديث إن الله يحسنه وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بقطعه وقد تقدم .

يتدرب من الشيء
ويتركه ثم يخطر ذلك
الشيء بقلبه أو يراه
أو يسمع به فيجد
حلاوته فقال الحلاوة
طبع البشرية ولا بد
من الطبع وليس له حيلة
إلا أن يرفع قلبه إلى
مولاه بالشكوى
وينكره بقلبه ويلزم
نفسه الانكار ولا
يفارقه ويدعو الله أن
ينفيه ذلك ويشغله
بغيره من ذكره
وطاعته قال وإن غفل
عن الانكار طرفة
عين أخاف عليه أن
لا يسلّم وتعمل الحلاوة
في قلبه ولكن مع
وجدان الحلاوة يلزم
قلبه الانكار ويحزن
فانه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحساسة التي تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعد قريبا والقيبح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا ينتهي لكأله الدرك بين البصرة التي لا يمتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد اللوت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار وشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سرييا السقطي هل يجد الحب ألم البلاء قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فخبته فقلت له لم ضربت ؟ قال لأنني عاشق فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأن معشوقا كان يحذاني ينظر إلى فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال فزعت زهقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهب عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم فما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفست رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذي يدخل بيني وبين ربى لو قطعت إربا إربا ما زددت له إلا حبا . قال بشر فما رأيت بعد ذلك رقعة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو ومحمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا انظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مدية وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول:

يوم الفراق من القيامة أطول والوت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل قلت لست براحل لكن مهجنى التي ترحل

ثم بقر بالمدينة بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لي أنه كان يهوى ففى بعض الملوك حجب عنه يوما واحدا ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلتى على أعبد أهل الأرض فدلته على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب فسمعه وهو يقول : إلهى متمتنى بهما ماشئت أنت وسلبتنى ماشئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشنا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الفلام حدث فمات الفلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضىنا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالدريك يوقظهم للصلاة والحمار يتقنون عليه الماء ويعمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فخرنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ثم جاء ذئب ففارق بطن الحمار فقتله فخرنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وقوام قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد حصة توبته . والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدته وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله . ومثل السوسى عن التوبة فقال التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مامدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لأنه لا بقاء

والخير والديكة فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفي
 لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . و يروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد
 مضروب الجنبين بفالج وقد تآثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا
 من خلقه فقال له عيسى يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله تأخير بمن لم يجعل
 الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها
 وأفضلهم هيئة وقد أذهب عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير
 رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وإني كنت أخذت
 لقد أبيت ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ثم لم يدع رده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والنفي
 مطيتان ما أتالي أيتهما ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان النفي فإن فيه البذل . وقال
 أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالي منه إلا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل
 الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال
 أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لو جعلني جسرا على جهنم عبر الخلائق على إلى الجنة ثم ملائي
 جهنم ثم حلقه لقسمة وبدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم
 أن الحب قد استغرق همه حتى منه الاحساس بألم النار فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في
 استتماعه حصول رضا محبوبه بالقائه إياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان
 بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن
 ما هو عاجز عنه يصجز عنه الأولياء . وقال الروذباري قلت لأبي عبد الله بن الجلاء المسمى قول فلان
 وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامنه فقال يا هذا إن كان هذا من
 طريق التعظيم والاجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال
 ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم
 ولا يقعد قد قب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء
 فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ قال لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فإن أحبه
 إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحدثك شيئا لم ألق الله أن ينفك به وإني أكنم على حتى أموت إن اللاتمة
 تزورني فأخس بها وتسلم على فأسمع تسليحها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إلهي سبب هذه
 النعمة الجليلة فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن منبجة
 نعوده فرأينا ثوبا ملقى لما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت امرأته أهلي فداؤك ما نطعمك
 ما نسقيك فقال طالت الضجة ودبرت الحرافيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسقي شربا منذ كنا
 فذكر أياما وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة وقد
 كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فإذ هو لهذا وكان مجاب
 الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيناه وأنا غلام فتعرفت إليه فمررتي وقال أنت قاري أهل مكة ؟
 قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها فقلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك
 بصرك فبسم وقال يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير
 ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضه عليه فيما قضى أشد
 على من ذهب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة
 وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل وما هو ؟ قال قلت مرة لكى كان لبيته

لجهل مع العلم كالإبقاء
 قليل مع طلوع الشمس
 وهذا يستوعب جميع
 أقسام التوبة بالوصف
 الخاص والعام وهذا
 العلم يكون علم الظاهر
 والباطن بتطهير الظاهر
 والباطن بأخص
 أوصاف التوبة وأعم
 أوصافها . وقال
 أبو الحسن التوري
 التوبة أن تتوب عن
 كل شيء سوى
 تعالى . قولهم في الورع
 قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « ملاك
 دينكم الورع » أخبرنا
 أبو زرعة إجازة عن
 أبي بكر بن خلف عن
 أبي عبد الرحمن السلي
 إجازة قال أنا أبو سعيد
 الحلال قال حدثني

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه . وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة قصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قممت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فاعلم أن من يدرك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملك خمسين سنة مدخولة وممنه أنك لم يفتح لك باب القلب فتتري إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت بمدف طبقات أصحاب اليمين لأن من يدرك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال لمن أتم ؟ قالوا محبوبك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريوا فقال ما بالكُم ادعيتُم محبي إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، والشبلي رحمه الله تعالى :
 إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا وله قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصبح من ذهب ظل يثير بها ولو كان بها شلل ظل يوارى بها يعني بذلك أن النهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقبل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت هبة عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالحظ وراعه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له قد يغلب الحب بحيث ينغمز مراد الحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاء وتقوى وإرادته ولو في هلاك روحه كما قيل : فما الجرح إذا أرضاكم ألم . وهذا يمكن مع الاحساس بالألم وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من تقدم من نفسه لأنه إنما تقدمه لفقده سيئه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف محائبه فلهما جبين محائب أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فصريرت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على الماشقين البكا

ولاسيا عاشق إذا لم يجد مشكيا

فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفأذنين لي أن أموت فقالت مت راضدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له الهبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى ذال التفاني الذي تظهر لي فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال إن كنت صادقا فقلت قال فتعشى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال صennon الحب كان في جيراننا رجل وله جارية بهيها طاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدعش الرجل وسقطت للامتنين يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا جبة عن أبي بكر بن أبي مرزوق عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توشأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يلقه الله عز وجل قوما يفهمهم . قال عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف السرخسي احتفظ لسانك من اللدح كما تحفظه من القم . نقل عن الحرث بن أسد المحاسي أنه كان على طرف أصبحه الوسطى عرق إذا مديده إلى

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فحملوه ميتا فهذا أو مثاله قد يصدق به في حب الخلق والتصدق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال، نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنعيمات للوزونة فالذي فقد القلب لا بد أن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك الرق .
سئل الشيلي عن الورع فقال الورع أن تتورع أن ينشقت قلبك عن الله طرفة عين . وقال أبو سليمان النخعي عن الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا . وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على العلم من غير تأويل . سئل الخواص عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما رضى الله تعالى . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلمي قال سمعت الحسن بن أحمد

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة للعاصي ومقت أهلهم ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للترين وزعم أن للعاصي والمعجور والكافر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تبعدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تمثل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى اللقائمات من الرضا وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله لا يرد دعواته غابور هاديا أما إنكار العاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تبعد الله به عبادته وذهبهم على الرضا به فقال السورضو بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . وقال تعالى - رضوا بأن يكونوا مع الخوارج وطبع على قلوبهم - وفي الخبر للشهيد من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد **١** وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله **(١)** » وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن التكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك ؟ قال يلفظه فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمعرب كان شريكا في قتله **(٢)** » وقد أمر الله تعالى بالحدود للنافسة في الحيرات وتوقى الشرور فقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا أحد إلا في اثنين رجل آتاه الله حكمة فهو يبينها في الناس ويظهرها ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق **(٣)** » في لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاه الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتاني هذا لعمت مثل ما فعل **(٤)** . وأما بعض الكفار والقجار والانكار عليهم ومقتهم لما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء هؤلاء بعضهم على بعض كراهة - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا - وفي الخبر « إن الله تعالى أخذ اليثاق على كل مؤمن أن ينفذ كل منافع وعلى كل منافق أن ينفذ كل مؤمن **(٥)** » وقال عليه السلام « للره مع من أحب **(٦)** » وقال « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة **(٧)** » وقال عليه السلام « أوتق

(١) حديث الدال على الشر كفاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا (٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله لم أجده له أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدي من حديث أبي هريرة من حضر مصيبة فكرها ففكأتمنا غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأتمنا حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا أحد إلا في اثنين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ اليثاق على كل مؤمن أن ينفذ كل منافع الحديث لم أجده له أصلا (٥) حديث للره مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرة من زاد ابن عدي يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف .

عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصلوة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيد. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت المعاصي بقضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد. إن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة أمضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حق رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا وممونه حسن الخلق وهو جهل محض بل قوله الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو وعدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك العصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسلياً للملك إلى مالك الملك ورضاً بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه محموقاً عند الله وبغضاً عنده حيث سلط عليه أسباب البعد ولتقت فهو من هذا الوجه منكراً ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال فلنفرض محبوا من الخلق قال بين يدي محبيه إنني أريد أن أميز بين من يحبني ويخضعي وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدواً لي فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوي وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة خلق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول أما تدبرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إيائه للبغض والعداوة فأنا عجب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فأنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الوجوب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاً في تدبيرك وتوقيفاً في مرادك وأنا كاره مرادك ولكن من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو رادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحبه له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضاً ببغض له لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبياً واعدوه عدواً وأما بغضك فاني أراضه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك للبغض وكسبه وفعله وأمته لذلك فهو محموق عندى لمقتة إياك وبغضه ومقتة لك أيضاً عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت
محمد بن داود الدينوري
يقول سمعت ابن الجلاء
يقول أعرف من أقام بمكة
ثلاثين سنة ولم يشرب
من ماء زمزم إلا من
ماء استقاه بركوته
ورشائه ولم يتناول من
طعام جلب من مصر
شيئاً. وقال الخواص:
الورع دليل الخوف
والخوف دليل المعرفة
والعرفة دليل القربة
قولهم في الزهد: قال
الجنيد: الزهد خلو
الأيدي من الأملاك
والقلوب من التبع.
وسئل الشبلي عن الزهد
فقال لا زهد في الحقيقة
لأنه إما أن يزهد فيها
ليس له فليس ذلك
زهداً أو يزهد فيها هو له

(١) حديث أوثق عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصلوة
(٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله بقسطه جمل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدري الخير حيث كان ثم رضى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب العصية ويجره الحب إلى فعل العصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً يجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بعض الشتم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي العصية عليه يدل على أنه سبق مشيئته بإبعاده ومقتة فواجب على كل عبد محب لله أن يخضع من أبغضه الله ويعتق من مقته الله ويعادى من أبغده الله عن حضرته وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنه يبيد مطرود وملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والبعيد عن درجات القرب ينفى أن يكون مقبلا بغيره إلى جميع المحبين موافقة المحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتفليظ عليهم وللبالغة في مقهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في الشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إلهما جميعا منه من غير إقرار في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف النطاء عنه غير مأذون فيه فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تنشوه» (١) وذلك يتعلق بعلم للكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب الدينية على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا لكشف وسبب لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رغبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء بسبب رغبة الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن الحسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستغنياءه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أي في معرض الشكوى وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة السنة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والملئكة لما تكلموا بقوله ما قاله عمر رضي الله عنه : لا تأبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لأدري أيهما خير لي .

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تنشوه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاما ضيف .

فكيف يزهد فيه وهو
معه وعندة فليس
بالظلف النفس وبذل
مواساة ، يشير إلى
الأقسام التي سبق بها
الأعلام وهذا لو اطرده
هدم قاعدة الاجتهاد
والكسب ولكن
مقصود السبيل أن يقال
الزهد في عين اللذات
بالزهد ■ يقرر به .
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «إذا
رأيت الرجل قد أوتي
زهدا في الدنيا ومنطقا
فأقربوا منه فإنه يلقي
الحكمة» وقد سمى الله
عز وجل الزاهدين
علماء في قصة قارون
فقال تعالى - وقال
الذين أوتوا العلم ويلكم
نواب الله خير - قيل

(بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومنعتها لا يقدح في الرضا)

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أن يخلو فتح هذا الباب لا رحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا تمتد لهم فيه لكون هؤلاء وضرا ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذ عرفت للمعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست منمومة لما زال السلف الصالح يتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب لما رأيت بها شرًا من بغداد قبل وكيف قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه مصيبة الله ولما قم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيتها بها إلا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارًا لكل يوم دينار كفارة لقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحمري وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قبض الله قرينًا من البلاء وذكر كعب الأحمري يومًا قال قال فيه تسعة أعشار الشر وفية البلاء الضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشر وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فقام مصوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال ببغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدم في زى الرهبان فإذا سأناه أين تسكن قال في عوى الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال للتميد ببغداد مثال للتبذير في الحبس وكان يقول لا تهتدوا بي في اللقائم هاسم أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في بقى قبل وأين تختار السكنى قال بالقصور وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد إذا هدموا زاهد وشيخ يرمي شرير فهذا يدل على أن من يلى يلهة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في اللقائم بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فان منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون مزعج القلب منها فالتلا على السوءم - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل الطبعين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة - فاذن ليس في شيء من أسباب قص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها محال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل القامت الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا أختر شيئا بل أروى

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألق اسم ولكل اسم منه ألق اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا . وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر «اللقاء أمنا الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فاذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم» وجاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا ما هم من دنياهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف فيه .

بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه السألة إلى بعض المارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقبلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال للثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما أخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لمي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا قليل لو هيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الحكمة .

(بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

قيل لبعض المارفين إنك محب فقال لست محبا إنما محروب والمحبة مشحوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من الصبية فقال أنا كل الصبية وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأنبي يزد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأحد عجائبتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . وحكي عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذنقه على صدره شاخصا بعينه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم الشيء على الماء والشيء في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم على الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذمق أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في لللكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتها إلى الترى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أحبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبيدي حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفغان بك ولأنمان قد ذكر أشياء ، قال يحيى فهاتني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لأسألك العرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لأحب أن يعرفه سواء . وحكي أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد فقال وبحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغضاني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويلك تعتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبنت الذي من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحب للنزلة عند الناس وحب المودة والثناء وسئل الشبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في

عند الله قد ظهر له على مقداره فصرف ما قلت فقال اسمعني إليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننظره
ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع قال فرأينا وقد قلب فروة على ظهره قلت
لأخي هذا أبو يزيد فانظر إليه فانظر إليه التي تصحق فركناه فإذا هوميت فحماونا على دفته قلت
لأخي يزيد ياسيدي نظره إليك قتله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم يكشف
له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاقت عن حمله لأنه في مقام الضياء للربدين فقتله ذلك.
ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى
دفعهم فسكت ثم قال إن الله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم
إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله
أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يحمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها
فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يغلو عن التصديق والإيمان بامكانها فإن القدرة واسعة والفضل
عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومفردات الله تعالى لانهائية لها وفضله على عباده الدين اصطفى
لأغاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب
ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حببتك به وهذا بلاء مثلم
ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء
رأيتن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشن ويتثنى ممهن فنظرت
إليهن نظرة فوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقتن في الحسن والجمال،
وقيل لي انظر إليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت أعوذ بك
بماسواك لأحاجة لي بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني . فأما هذه المكاشفات لا ينبغي
أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه
القاسي اضاق بحال الإيمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات وتيل مقامات كثيرة
أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم
مكاشفة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن المحلولة فهذه أوائل سلوككم وأقل مقاماتهم
وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق بغيب
عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى
يجري إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت وتقيت وصقلت وصورت
بصورة للرآة فنظر للنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو
لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف الرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك
غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند إلا قصوره عن ذلك
وقصوره من رآه وبشئ المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يتم روائع المكاشفة من
سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأي شيء بلغت هذه للزلة قال كنت أكرم الله
تعالى حالي معناه أسأله أن يكتم علي ويغني أمرى . وروى أنه رأى الخضر عليه السلام ، فقال له
ادع الله تعالى لي ، فقال بسر الله عليك طاعته . قلت : زدني قال وسترها عليك ، فقبل معناه
سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال أفلقي
الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئا كان أهم الأشياء
علي . قال فرأيت أنه لما غلب على همي ولا همي إلا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئا إذا قلته حجت عن
قلوب الخليفة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل : اللهم أسبل علي كسيف

زهدهم في الدنيا
لهوانها عندهم وعندي
أن الزهد في الزهد
غير هذا وإنما الزهد
في الزهد بالخروج من
الاختيار في الزهد لأن
الزاهد اختار الزهد
وأراد به إرادته تستند
إلى علمه وعلمه قاصر
فاذا أقيم في مقام ترك
الارادة وانسلخ من
اختياره . كاشفه الله
تعالى . فاسترك
الدنيا عن راد الحق لا يريد
نفسه فيكون زهده
بالله تعالى حيثئذ أو
يعلم أن مراد الله منه
التلبس بشيء من
الدنيا فما يدخل بالله
في شيء من الدنيا
لا يقص عليه زهده
فيكون دخوله في

سترك وحط على سرادقات حبيبك واجعاني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أراه ولم أشتق إليه بعد ذلك فمازلت أقول هذه الكلمات في كل يوم فحكى أنه صار بحيث كان يستدل ويمتن حتى كان أهل الدمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلعه وخوله فمكث حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمغرورون إن غما يطلبونهم تحت الرقعات والطيا السقوف المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأتي بالإخفاء كما قال تعالى: أوليائي تحت قباني لا يعرفهم غيري ، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه العال القلوب الشكرية العجبة بأنفسها المستشرة بميلها وعلوها وأترب القلوب إليها القلوب النكسرة المستشرة ذل نفسا استشارا إذا ذل واهضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولا فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر بأضمار عدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع الطبع صفة ذات لئلا هذا القلب يرجي له أن يستشقي مبادئ هذه الروائح فإن قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأنه لمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤنبا لهم فمضى أن يحضر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل ابن يثب الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تثبت الحكمة إلا في قاب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطينا بأذلال النفس إلى منتهى الضعة والحسة حتى روى أن ابن الكربي وهو أستاذ الجند دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولوردتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة ففرت فيها بالصلاح فتشقت على قلبي فدخلت الحمام وعبدت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقتي فوقها وخرجت وجعلت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فزعوا مرقتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فمكثا كانوا يروون أن أقسم حتى غاصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان اللتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بهر وتحال حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ، ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يخارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لأفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقت لي ليها ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء ؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لا تقبله ، قال فاذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفني صفة أعطته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند اليهود وعند من يرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

التي من الدنيا بالله
وباذن منه زهدا
في الزهد والزاهد
في الزهد استوى عنده
وجود الدنيا وعدمها
إن تركها تركها بالله
وإن أخذها أخذها
بالله وهذا هو الزهد في
الزهد وقد رأينا من
المعارفين من أقيم في
هذا المقام . وفوق هذا
مقام آخر في الزهد وهو
لمن يرد الحق إليه
اختياره لسمه عليه
وطهارة نفسه في مقام
البقاء في زهد زهدا
ثالثا ويترك الدنيا بعد
أن مكن من ناصيتها
وأعيدت عليه
موهوبة ويكون تركه
الدنيا في هذا المقام
باختياره واختياره

وما سبعت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتني على غيره فقال ابتدى بهذا قبل كل شيء فقال لأطبقه
قال قد قات لك إنك لا تقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض
بنظر الناس إليه ولا يتجنى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطبق الدواء فلا ينبغي أن
ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات
الصحة الإيمان بإمكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جليلة في الشريعة واضحة
وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشريعة قد قال **عليه السلام** «لا يستكمل العبد الإيمان
حتى تكون **الشيء أحب إليه من كثرته** وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف **(١)**» وقد
قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله
وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا **(٢)**» وقال عليه
السلام «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا
رضى لم يدخله رضاء في باطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له **(٣)**» وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن
فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الفنى والفقر وخشية الله في السر
والعلانية **(٤)**» فهذه شروط ذكرها رسول الله **ﷺ** لأولى الإيمان فالمعجب ممن يدعى علم الدين
ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يحمد ما لا يكون إلا بعد
مجاورة مقامات عظيمة عالية وراء الإيمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إيماناً أخذ
لخلق من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر حتى شيئا من خلقى وإن حرق بالنار لم يجد
لحرق النار وجها وإن قطع بالمشاير لم يجد لمس الحديد ألماً . فمن لم يبلغ إلى أن يقبله الحب إلى هذا الحد
فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان
ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه
«إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمقى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من
ولد آدم **(٥)**» وفي حديث آخر «إن الله تعالى ثلاثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال
أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبهم إلى الله السخاء **(٦)**» وقال عليه السلام

من اختيار الحق قد
يختار تركها حيناً تأسياً
بالأنبياء والصالحين
ويرى أن أخذها في
مقام الزهد رفق أدخل
عليه لموضع ضعفه عن
درك شأواً الأقوياء من
الأنبياء والصديقين
فيترك الرفق من الحق
بالحق للحق وقد يتناوله
باختياره رفقاً بالنفس
بتدبير يسوسه فيه
صرح السلم وهذا
مقام التصرف لأقوياء
العارفين زهدوا ثالثاً
بالله كما رغبوا ثانياً بالله
كما زهدوا أولاً بالله .
[قولهم في الصبر]
قال سهل: الصبر انتظار
الفرج من **الله** وهو
أفضل الخدمة وأعلاها
وقال بعضهم: الصبر

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف
أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلي هذا فهو معضل فلي
ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجده أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه
لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم
الرازي ضعفه ابن ميمون والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد
حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بل فقط ثلاث
من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود العدل في الرضا
والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه
قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمقى الحديث أبو منصور الديلمي في
مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث
إن الله تعالى ثلاثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط
من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقت بضعة عشر وثلاثاً خلق من جاء بخلق منها مع شهادة
أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلاثاً شرعية وثلاث عشرة شرعية

« رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجعت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم (١) ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلق مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لانخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها)

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دواء الله كرو قال غيره إشار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم تعرضوا لها ، وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قهر للقلوب عن إدراكه وتمتع الأسن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحبة فقال العارف إن تكلم هلك والمحبة إن سكنت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد العكريم حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم
هبت لمن يقول ذكرت إلي وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمني وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كلما بعد كأس فما نقد الشراب وما رويت
قلبت خياله نصب ليعنى فان قصرت في نظري عمت

وقالت رابعة المدوية يوما من يدلنا على حبيبنا قالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلمت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم ممنون يوما في المحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فأت وقال إبراهيم بن آدم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأستنى بذلك وفرغتنى للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحمق يزدو وروح في لاش والعاقل عن عبوبه فئاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم قالت والله إنى لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وتيل المحبة أن أعجو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحترق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجعت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لانخذت أبا بكر خليلاً الحديث متفق عليه وقد تقدم.

أن نصبر في الصبر
أى لا تطالع فيه
الفرج . قال الله تعالى
والصابرين في البأساء
والضراء وحين البأس
أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون .
وقيل : لكل شيء
جوهر وجوهر الإنسان
العقل وجوهر العقل
الصبر فالصبر عرك
النفس وبالعرك تلين
والصبر جار في الصابر
مجرى الأنفاس لأنه
يحتاج إلى الصبر عن
كل مذهب ومكروه
ومذهب وظاهر وباطن
والعلم يدل والصبر
يقبل ولا تنفع دالة العلم
بغير قبول الصبر ومن
كان العلم سائمه في
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة الحب على أربع منازل على المحبة والمحبة والحياة والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين اللزمتين يقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرها وقال هرم بن حبان للأؤم من إذا عرف ربهم عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحصر في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من للتعبات تقول وهي باكية والدموع على خدائها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحباله قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحي إياه وحسن ظني به أقرأ بعذبي وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم اللدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما تروا شوقا إلى وقفطت أوصالهم من محبتى يا داود هذه إرادتى في الدبرين عنى فكيف إرادتى في القلبين على يا داود أخرج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى وقال أبو خالد الصغار لقي نبي من الأنبياء طاب الله قال له إنكم معاصر العباد تعملون على أمر لنا معشر الأنبياء نعمل عليه أتم تعملون على الحروف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلى رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكركم وكنى وجنتى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فله ومن اشتاق إليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله يكى بونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا منى إليك وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداى والرضا غنىمى والعجز غنىمى والزهد حرقى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حى والجهد خلقى وقرة عيني فى الصلاة (١) وقال ذوالنون سبحة من جعل الأرواح جنودا مجندة فأرواح المارفين جلالية قدسية فذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح اللؤميين روحانية فذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الفاذلين هوائية فذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض الشايع رأيت فى جبل السكام رجلا أعمى اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها مافى قلوبهم من الخواطر والارادات والبوارى والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله للوفق للصواب ثم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان المؤمنين ونقر بوحديته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث على سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى الحديث ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

الله إلا إذا كان الصبر مستقرا وممكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الفريزة العقلية وهما متقاربان لا تتحد مصدرهما وبالصبر يتعامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال وباتصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح ويان ذلك بدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القريبين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فالحق إلا الدين الخالص التين . فانه أغنى الأغنياء عن شركة الشاركون والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] قد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة فالتاس كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا المحاصون والمحاصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهول لفاق كفاء ومع المصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً بمغموراً - وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - وليت شعري كيف يصح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب الخاص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [الباب الأول في النية] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيراً من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالقعدة والعشى يريدون وجهه - والراد تلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينسكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمي أصحاب الفرش ورب قليل بين الصنفين الله أعلم بنيه (٢) » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاًحاً يوفى الله بينهما - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد يعمل أعمالاً حسنة فتصعد للملائكة في صحن عذبة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعلت كما يعمل فيها في الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخطى بحمله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فيها في الوزر سواء (٥) » ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمي أصحاب الفرش ورب قليل بين الصنفين الله أعلم بنيه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد يعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علماً ومالاً الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر بغير حساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنبيه - واصبر واصبر واصبرك - الإياك - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبل فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبل وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبل صرخة كاد أن تلتف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ذلك «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موطننا يحيط الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا نفقة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوهم بحسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر ينتهي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منافس كان يسمى مهاجر أم قيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا يزومني فقال لاحق تجهل لي جعلاً فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مريكباً من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاماً لسممت بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك. وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدق به ، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهى ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشاً يخسف بهم البداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم السكبر والأجير فقال يحشرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل المقتتلون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجهه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإحلالاً وتنطبق بصبرته خجلاً وذوباناً ويتغيب في مفاوز استكاثته وتخفيه لإحساسه بمظلم أمره المتجلى وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تكتحل بصبرتها باستلحاق نور الجلال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر

من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس بن مالك بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصراً وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر ينتهي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منافس كان يسمى مهاجر أم قيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لم أجده أصلاً في المصطلحات وأما رواه أبو اسحق الفراء في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى النساء من حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلاً يزومني فقال لاحق تجهل لي جعلاً فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيراً للفرز وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي ممي (٦) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أرهد ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل المقتتلون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبي هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم وفيه لبث بن أبي سليم مختلف فيه .

هي العليا فهو في سبيل الله (١) وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «يمت كل عبد على مامات عليه» (٢) وفي حديث الأحنف عن أبي بكره «إذا التقى المسلمان بسيفهما فقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه» (٣) وفي حديث أبي هريرة «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدائه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو حارق» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنف من الحيفة» (٥) . وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز أعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن قصت قصص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لا أحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله قليل . قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا قرت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كماله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعدوها ولكن أصبحوا توايين وأمساء توايين يفرر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن نامت ولا تهم بصية وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يمشون يوم القيامة على قدر نياتهم . وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ أو نبلو نكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد يقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فإن صلاح نيته في الخير أن يصلح دون ذلك ، فاذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بمائق .

(بيان حقيقة النية)

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها (١) حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) حديث جابر يمت كل عبد على مامات عليه رواه مسلم (٣) حديث الأحنف عن أبي بكره إذا التقى المسلمان بسيفهما فقاتل والمقتول في النار متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدائه فهو زان أحمد من حديث صبيب ورواه ابن ماجه مقتصر على قصة الدين دون ذكر الصداق (٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى ذلك .
وقال أبو الحسن بن
سالم هم ثلاثة متصبر
وصابر وصبار فالمتصبر
من صبر في الله فترة
يصبر ومرة يجزع
والصابر من يصبر في
الله وقه ولا يجزع
ولكن تتوقع منه
الشكوى وقد يمكن
منه الجزع وأما الصابر
فذلك الذي صبره في
الله والله وبالله فهذا لو
وقع عليه جميع البلاء
لا يجزع ولا يتغير من
جهة الوجود والحقيقة
لأن جهة الرسم
والحلق وإشارته في
هذا ظهور حكم العلم
فيه مع ظهور صفة
الطبيعة . وكان
الشبل يمثل بهذين
البيتين

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الإنسان ما لا يملكه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلازم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب اللذات الموافقة إلى نفسه ودفع الضرر المناقبة عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يهتد بالضرورة ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يهتد بالنار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغداء وعرف أنه موافق له فلا يكتفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المرض يرى الغداء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والليل ولقد الداعية المحركة إليه فخلق الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعني به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكتفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا غفلت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبثت الإرادة وتحقق الليل فاذا انبثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة والانبعاث النفس بحكم الرغبة والليل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل فالحرك الأول هو الفرض المطلوب وهو الباعث والفرض الباعث هو المقصد للنوى والانبعاث هو المقصد والنية والانبعاث القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاء القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعا في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملبا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهى عاضدا له ومعاون فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الحرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه فانتهت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الفرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأل فقير حاجة فقيرة فقيرة فقره وقرابته وعلم أنه لو لا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لو لا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مراقبة للباعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الهب من
ألم الشوق

ق وخوف الفراق

يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث

به الصبر

ر فصاح الهب للصبر

صبرا

قال جعفر الصادق

رحمه الله أمر الله تعالى

أنبياءه بالصبر وجعل

الحظ الأعلى للرسول

صلى الله عليه وسلم

حيث جعل صبره بالله

لأن نفسه فقال

وما صبرك إلا بالله -

وسئل السري عن

الصبر فكلم فيه فذب

على رجله عقرب فجعل

يضربه بإبرته فقبل له لم

لا تدفعه قال أستحي

من الله تعالى أن أتسكلم

ولكن قوى مجموعهما على إنهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه النبي فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الشاء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لاثواب في التصديق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أو رثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا ولو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يتعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يقتر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيعا أو شريفا أو مبعوثا ومنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكامها في نفسها وإنما الحكم للتبوع .

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم «نية المؤمن خير من عمله» (١))

اعلم أنه قديظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر وعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير وقديظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والمعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيره من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بالنية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا والنية بمجرد خيره وظاهر الترجيح للمشركين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أي لكل واحد منهما أثر في القصد وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرا فهذه معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخير من الفاكهة قائما بمعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن القصد مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواص ابن مسمان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف
ما أتاكم فيه . أخبرنا
أبو زرعة بإجازة عن
أبي بكر بن خلف بإجازة
عن أبي عبد الرحمن
قال سمعت محمد بن خالد
يقول سمعت الفرغاني
يقول سمعت الجنييد
رحمه الله يقول إن الله
تعالى أكرم المؤمنين
بالإيمان وأكرم الایمان
بالعمل وأكرم العقل
بالصبر فالایمان زين
للمؤمن والعقل زين
للایمان والصبر زين
للعقل وأنشد عن
ابراهيم الخواص
رحمه الله :
صبرت على بعض
الأذى خوف كله
ودافعت عن نفسي
نفسى فمرت

فالتطاعات غذاء للقلوب ، وللقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى . فالتقصود لذة السعادة ببقاء الله قطع ولن يتنعم ببقاء الله إلا من مات عبدا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأمن بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الفكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا . ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإعما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوط بها كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعله بأن سلامته فيها . وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فإن اللواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتزوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فان اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه التزوع وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانحرق بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على التزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الليل ويكون ذلك زبرا ودفا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه ويتفجع وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا والآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بلمه يموت عزيز من أعزته أو يهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل المتنوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والاتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو للقصود والأعضاء آلات موصلة إلى للقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ^(١) » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصالح الراعي والرعية ^(٢) » وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب . فمن هذا الوجه يجب لاحتمال أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته . . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكتب على الفكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الفرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كإمكان للعدة إذا تأملت فقد تدأوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتدأوى بالكرب والهواء الواصل إلى للعدة . فالكرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

وجرحها للكره

حتى تدرجت

ولولم أجزعها إذن

لاشأزت

ألأرب ذلساق للنفس

عزة

وبأرب نفس بالتذلل

عزت

إذا ما ددت الكف

ألقى النفي

إلى غير من قال

اسألوني فشلت

سأصبر جهدي إن في

الصبر عزة

وأرضى بدنياي وإن

هي قلت

قال عمر بن عبدالعزيز

رحمه الله : ما أنعم الله

على عبد من فقه

اتزاعها ففاضه عما

اتزاع منه الصبر

إلا كان ماغاضه خيرا

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصالح الراعي والرعية تقدم ولم أجده .

إلى المدة ، فما يلقى عين المدة فهو خير وأضع فهكذا ينبغي أن نفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ للطلوب منها تغير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه مسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيده الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كدمه وما سوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض للطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كدمه بل زاده شرافته لم يؤكد الصفة للطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة للطلوب فمعها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو سبيله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاتمام بالعمل يزيد بها تأكيدها فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلك إثارة لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاقب عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى هنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فرقهم بالأبدان لموافق تخص الأسباب الخارجية عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني نفهم جميع الأحاديث التي أو رداها في فضيلة النية فأعرضها عليها ليكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

(بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات. القسم الأول: للأحاديث وهي لا تغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يفتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رابطا بمال حرام وقصد الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصد الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طاب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان سائلا إلى طاب الجاه وأستماله قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل، قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما انتزع منه وأنشد
لسمنون :

تجرعت من حاله
نعمي وأبؤسا

زمانا إذا أجرى عزاليه
احتسى

فكم غمرة قد جرعتني
كثوسها

فجرتهم من بحر صبري
أكوسا

تدرعت صبري
والتحفت صروقه

وقلت لنفسي الصبر أو
فاهلكي أسي

خطوب لوان الشم
زاحن خطبها

لساخت ولم تدرك لها
الكف ملسا

[قولهم في الفقر] قال
ابن الجلاء : الفقر أن

لا يكون لك فإذا كان
لك لا يكون لك حتى

فان من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكتب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم ، وقد قال الله سبحانه - فاستلوا أهل الله كثر إن كنتم لاتعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يضر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه ^(١) » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين مهمهم على ممارسة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والساكين فان هؤلاء إذا تملوا كانوا قاطع طريق الله وانهمض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى العلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعومه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألني سنة وطوبى لمن إذا مات مات مع ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لأمي وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجليلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الخيل والرباط والقوة للقراءة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو المعاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ^(٢) » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم يجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذل لا ح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمد به غيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لندياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيرا في نقل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجره ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تميز جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وماتعوزوا من الفاجر الجاهل . حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو

نؤثر . وقال الكنانى
إذا صح الافتقار إلى
الله تعالى صح الفنى
بالله تعالى لأنهم أحالان
لا يتم أحدهما إلا بالآخر .
وقال النورى : نعت
العقراء السكون عند
العدم والبذل عند
الوجود . وقال غيره :
والاضطراب عند
للوجود . وقال الدراج
فتشت كنف أستاذى
أريد مكحلة فوجدت
فيها قطعة فتجبرت
فما جاء قلت له : إنى
وجدت في كنفك هذه
القطعة . قال قد
رأيتها ردها ثم قال
خذها واشتر بها شيئا
فقات : ما كان أمر
هذه القطعة بحق
معبودك فقال مارزقي

(١) حديث لا يضر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يضر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

لا يذكره حتى قال بلغني أنك طبقت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو
 أمثلة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فكذلك كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا
 وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان «إن كانوا أرباب الطيالة والأحكام الواسعة وأصحاب
 الألسنة الطويلة والفضل الكثير» أعني الفضل من العلوم التي لا تشمل على التحذير من الدنيا
 والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعاقب بالخلق ويتوصل بها إلى جمع
 الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يخص
 من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون العامى إذا طاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب
 معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً نعم لنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف
 إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة. القسم الثاني الطاعات
 وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى
 لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة
 يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل
 حسنة عشر أمثالها (١) كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات
 كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال التقيين ويبلغ به درجات القربين أو لها أن يعتقد أنه بيت الله
 وأن داخله زار الله فيقصده زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال
 «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زائره» (٢) وثانيها أن ينتظر الصلاة
 بعد الصلاة في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى - وربطوا - وثالثها الترهيب
 بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فإن الاعتكاف كفو هو في معنى الصوم وهو
 نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمي القعود في المساجد» (٣) ورابعها
 عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد
 وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر
 الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» (٤) وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف
 ونهى عن منكر إذ المسجد لا يغلو عن من يرى في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده
 إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراته. وسابعها أن يستفيد أخاً
 في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة وللمسجد معشى أهل الدين المحبين لله وفي الله. وثامنها
 أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالى وحياءً من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضى هناك الحرمة،
 وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما «من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع
 خصال أخا مستفاداً في الله أو رحمة مستترلة أو علماً مستظرفاً أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه

الله تعالى من الدنيا
 صفراء ولا يضاء
 غيرها فأردت أن
 أوصي أن تشد في كفي
 فأردها إلى الله وقال
 إبراهيم الخواص الفقر
 رداء الشرف ولباس
 المسلمين وجلباب
 الصالحين. وسئل
 سهل بن عبد الله عن
 الفقير الصادق فقال
 لا يسأل ولا يرد ولا
 يحبس. وقال أبو علي
 الرودباري رحمه الله
 سألتني الزقاق فقال
 يا أبا علي لم ترك الفقراء
 أخذ البلقي في وقت
 الحاجة قال قلت لأنهم
 مستغنون بالمعطى عن
 العطايا قال نعم ولكن
 وقع لي شيء آخر فقلت
 هات أفدني ما وقع لك

(١) حديث تضعيف الحسنة بمشتر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى
 وحق على المزور إكرام زائره ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من
 رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدم ما في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمي القعود
 في المساجد لم أجده أصلاً (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل
 الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويته في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث
 أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلّمه كان له كأجر حج تاماً حجة وإسناده جيد
 وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أوراخ أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راخ

عن ردى أو يترك الذنوب خشية أوحيا فلهذا طريق تكثير النيات وتسببها سائر الطاعات واللباحات
إذ ما من طاعة إلا ولا تختم نيات كثيرة وإنما تخضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير
وتشمره له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث الباحات] وما من شيء
من الباحات إلا ولا يختم نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات لما أعظم
خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى الهائم للمهمة عن سهو وغفلة ولا يذنب أن يستحق العبد
شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده
هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب»^(١)
وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى
عن كل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه»^(٢) وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى
جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغيره الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثى من
الجيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية . فإن قلت لما الذى يمكن أن ينوى بالطيب
وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات
يتصور أن يقصد التعم بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران أو يقصد به
رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية
إذا كان مستحلاً للنظر إليهن ولأمور آخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فذلك يكون
أنثى من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه
ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يذب عليه في الآخرة ولكن ينقص
من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يقضى ويغتر زيادة نعيم لا يقضى وأما النيات
الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة^(٣) وينوى بذلك أيضا
تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة وأن يقصده ترويح
جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه
التي تؤدى إلى إيذاء مخالطيه وأن يقصد حمم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة
فيحسون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن
التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه
بالفكر فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا
كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالباً على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعيم الدنيال تخضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ إن العبد ليسأل يوم القيامة
عن كل شيء حتى عن كل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجده إسناداً
(٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة
وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي
داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما طي أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي
مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله
لو اشتريت هذه فلبستها يرم الجمعة الحديث .

قال لأنهم قوم لا ينفعهم
الوجود إذ الله فاقهم
ولا تضرهم الفاقة إذ الله
وجودهم قال بعضهم
الفقر وقوف الحاجة
على القلب ومحوها
عما سوى الرب وقال
السوحي الفقير الذي
لا تخيه النعم ولا تفقره
الحزن . وقال يحيى بن
معاذ حقيقة الفقر أن
لا يستغنى إلا بالله ورحمه
عدم الأسباب كلها
وقال أبو بكر الطوسي
بقيت مدة أسأل عن
معنى اختيار أمهاتنا
لهذا الفقر على سائر
الأشياء فلم يجبني أحد
بحجاب يقنعى حق
سألت نصر بن الحامى
فقال لى لأنه أول
منزل من منازل

وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء
والباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداً ولهذا قال بعض العارفين من
السلف إنني لأستحجب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلى وشربى ونومى ودخولى إلى الخلاء
وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من
مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التفرغ إلى العبادة ومن الوقاع تحصيل دينه
وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يصب الله تعالى بعمده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان
عليها بأكله ونسكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير متمنع لمن غلب
على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله وإذا بلغه
اغتيال غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستقل إلى ديوانه حسناته ولن يذو ذلك بسكوته عن
الجواب في الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من
الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه
أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك (١) » وفي الخبر « إن العبد ليؤا في القيامة بحسنات أمثال الجبال
لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص له من حسناته ولهذا من
حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيته حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه
من سيئاتهم ثم صكوا له صكاً إلى النار (٢) » وبالجملة فإياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تحترز
من غرورها وشروورها ولا تصد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد بما يلفظ
من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتاباً وأردت أن أثربه من حائط جارلي فتخرجت
ثم قلت تراب وما تراب قربة فتفت في هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غداً من سوء الحساب
وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فدب إليه ليصاحبه ثم قبضها فلم يسوئه فسأله عن ذلك
فقال إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة
فيقول يبي وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت ابنة من حائطي وأخذت خيطاً من
نوبي فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فإن كنت من أولى العزم والنهي ولم تكن من اللعنين
فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن
ولا تتحرك ما لم تأمل أولاً أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك
من الآخرة وبما إذا ترجع الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأعرض عزمك وما خطر
ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدله من نية
صحبة فلا ينبغي أن يكون الداعي هو خفي لا يطلع عليه ولا يفرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات
وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراض قد دروي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل
في حائط بالطين وكان أجيرا لقوم قدموا له رغيفاً إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من
الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور
الدبلي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوي مختصراً إن العبد
ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعلمها فيقال بما
اغتابك الناس وأنت لا تشمر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليؤا في القيامة بحسنات أمثال
الجبال وفيه ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد فتمت بذلك
وسئل ابن الجلاء عن
الفقر فسكت حتى صلى
ثم ذهب ورجع ثم قال
إني لم أسكت إلا لدرهم
كان عندي فذهبت
فأخرجته واستحييت
من الله تعالى أن أتكلم
في الفقر وعندي ذلك
ثم جلس وتكلم .
قال أبو بكر بن
طاهر عن حكم الفقير
أن لا يكون له رغبة
فإن كان ولا بد لا تجاوز
رغبته كفايته . قال
فارس قلت لبعض
الفقراء مرة وعليه أثر
الجوع والضر لا تسأل
فقطعوك ؟ فقال إني
أخاف أن أسألهم
فيمنعوني فلا يفلحون
وأنشد بعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتمججوا منه لما علموا من سخاوتهم وزهدهم وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لأتقوى به على عملهم فلما كلمهم لم يكفكم ولم يكفى وضعت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضغفه عن العمل قصص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام قصص في فضل ولا حكم للفوائد مع الفرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل لما كفى حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين التفريق وبالتالي تعريضه أخاه لما يكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقسم ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار .

(بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بعزل من جميع ذلك وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشيخان نويت أن أشتى الطعام وأميل إليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبث النفس إلى الفعل إجابة لغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد قائما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوراف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمظم فضله لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بمظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنغرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فإذا فعل ذلك ربما انبثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد فإذا انتهت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات الدرى قالت أجيء بالمرأة فسكت ساعت ثم قال نعم قبيل له في ذلك فقال كان لي في الدرى نية

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

قالوا غدا العيد ماذا

أنت لابسه

فقلت خاخصة ساق

عبد الجرجا

فقر وصبرهما ثوبان

تحتهما

قلب يرى ربه الأعياد

والجما

أحرى اللابس أن تلقى

الحبيب به

يوم التزاور في التوب

الذي حلما

الدهر لي مأمّن إن غبت

يا أملي

والعيد مادمت لي

مرأى ومستعما .

[قولهم في الشكر]

قال بعضهم الشكر

هو الغيبة عن النعمة

برؤية النعم . وقال

يحيى بن معاذ الرازي

لست بشاكر مادمت

تشكر وغاية الشكر

ولم تحضرني في المرأة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة قيل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عما من أعمال البر يقول إن رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث ولا يسأل فيتدبر قيل له في ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرني نية فعلت. وحكي أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فظفر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فأظهر فيه بين الخبر إنما نظرت فيه بين العمل فانتفعت قال أحمد فردته على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذته ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجده نية. وقال بعضهم أنا في طاب نية لزيادة رجل منذ شهر لما صحبت لي بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه النساء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفرح من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في القرص إلا بمجهود جهده وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فرجما تنبث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيتته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بساط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتنظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواء فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعد في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فأنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جبالها وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكداً وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى النكوح والطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر للمتعم بالنظر إلى الحور العين مما يتمتع بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البيعية الشهوانية لقضاء الوطرن من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإقبالها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعلى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهي على الخنفساء عن إدراك جمال النساء فانها لا تشمر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لا تحسنت عقل من يأنف إليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم -

التعجب وذلك أن
الشكر نعمة من
الله يجب الشكر
عليها وفي أجار داود
عليه السلام إلهي
كيف أشكرك وأنا
لا أستطيع أن
أشكرك إلا بنعمة
ثانية من نعمك فأوحى
الله إليه إذا عرفت
هذا فقد شكرتني
ومعنى الشكر في اللغة
هو الكشف والاعتراف
يقال شكر وكشر
إذا كشف عن ثمر
وأظهره فشر النعم
وذكرها وتصادها
باللسان من الشكر
وباطن الشكر أن
تستعين بالنعم على
الطاعة ولا تستعين بها
على العصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون من الجنة إلا بأزيد
فإن يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلي .
ورؤى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطلبني على الدعوى بالبرهان إلا على قوله
واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض
أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها
ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت
له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه بقية
لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضر نية في الانتصار
دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى
على العبادات في المستقبل ليس تنبئ نية في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له
بل لو مل العبادات لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو تره ساعة بلم وحدث عاد
نشاطه فالله أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشئ من الله وفيكون ذلك عوننا
لى على الحق وقال على كرم الله وجهه وروحوا القلوب فانها إذا كرهت عمت وهذه دقائق لا يدركها
إلا بمسيرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يبالغ المحرور بالحكم مع حرارته ويستبعده
القاصر في الطلب وإنما ينبغي به أن يعيد أولا قوته ليحتمل العالجة بالفسد والحاذق في لعب الشطرنج
مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب
منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه وبولي دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر
عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الوقف
يقف فيها على لطائف من الحيل يستعملها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضرر إنكارا على ما يراه من شيخه
ولا لا تعلم أن يتعرض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالها يسلمه
لها إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .
(الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقائقه ودرجاته)

(فضيلة الاخلاص)

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - لا إله إلا الله - وقال تعالى - فمن كان يرجو لقاء ربه
فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - نزلت فيمن يعمل لله ويجب أن يعبد عليه وقال
النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله ^(١) » وعن مصعب بن
سعد عن أبيه قال « ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبي صلى الله
عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم ^(٢) » وعن الحسن
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

(الباب الثاني في الاخلاص)

(١) حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذي وصححه من حديث
النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم
وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ هل تتصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

الذمة . وصحت شيخنا

رحمه الله ينشد عن

بعضهم :

أوليتي نعماً أبوح

بشكرها

وكفيتني كل الأمور

بأسرها

فلا شكرنك ما حيت

وإن أمت

فلتشكرنك أعظمي

في قبرها .

قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم

« أول من يدعى إلى

الجنة يوم القيامة الذين

يحمدون الله في السراء

والضراء . » وقال

رسول الله صلى الله عليه

وسلم « من ابتلى فصر

وأعطى فشكر وظلم

فغفر وظلم فاستغفره

قيل فما باله قال « أولئك

أحببت من عبادي (١) « وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل بحزك منه القليل (٢)» وقال عليه السلام «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت بنائيس الحسكة من قلبه على إسنانه (٣)» وقال عليه السلام «أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله ما لا يقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فإذا صنعت فيقول يارب كنت أنصدق به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد قتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خطب رسول الله ﷺ على نفذي وقال يا باهريرة أولئك أول خلق تسمر نار جهنم بهم يوم القيامة (٤) « فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكي حتى كادت نفسه تزهي ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ قاسمه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحلك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذلك تركت عبادتك واشتغلتك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلك ققام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبد بها أنت وما عليك من غيرك وفيه تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فإذا به للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فجزى إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنتع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لاشيء لك إنما أنت كل على الناس يحولونك ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهم فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أقنع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرض مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها ففكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي رويناه في جزء من مسلات القزويني مسلا يقول كل واحد من رواه سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل بحزك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

لهم الأمن وم
مهتدون . . وقال
الجنيذ فرض الشكر
الاعتراف بالنعمة بالقلب
واللسان . وفي الحديث
«أفضل الذكر لا إله
إلا الله وأفضل الدعاء
الحمد لله» . وقال بعضهم
في قوله تعالى - وأسبغ
عليكم نعمه ظاهرة
وباطنة - قال الظاهرة
الموافي والغني والباطنة
السلوى والفقر
فان هذه نعم أخروية
لما يستوجب بها من
الجزاء . وحقبة
الشكر أن يرى جميع
القضى . به نعم غير
ما يضره في دينه لأن
الله تعالى لا يقضى للعبد
للؤمن شيئا إلا وهو
نعم في حقه فإما عاجلة

وما ذكره أكثر من نفعه فاعاده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينار بن عند رأسه فأخذهما وكذلك القدر ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سليل لك إليها قل فتناوله العابد ليفعل به كفاؤا أول مرة فقال هيرأت فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالصنوبر بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال لتتبين عن هذا الأمر أولا وعلقتي الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لا يوهنه لمة غضبت لنفسك وللدينا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص ولذلك كان معروف السرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان طوبى لمن سمحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلعت نيتك كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص النية في أمالك يكفك القليل من العمل . وقال أبووب السخني : تخليص النيات على المال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام قبيلا كيف وجدت ؟ عمداك . فقال كل شيء عملته لله وجدت حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى حرة ماتت . رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيتها في كفة السيئات وكان قد تقى حماري قيمته مائة دينار فمأريت . ثوبا قتل موت سنور في كفة الحسنات وموت حماري فيها قيل لي إنه قد وجّه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال وكنت قد صدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لأعلى ولألى . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه قد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من القث والهم ، وقيل كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفقش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال إن نجوت من هذه الفضيحة لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بمد المصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدان فساره بشي فقال أبو عبيد لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك . فقال سألتني أن أحج معك قلت لا قلت فملا فعاتت . قال ليس لي في الحج نية وقد زويت أن أتم هذه الأرض الصبية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنني أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . وروى عن بعضهم قال غزوت في البحر ففرض بضنا حلاة فقلت اشتريها فأنفّع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك البلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الفزاة فأملى عليه خرج فلان منزهة وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت

يعرفها ويفهمها وإما
أجله بما يقضى له من
الكاره فاما أن تكون
درجة له أو تمجيدا أو
تكفيرا فاذا علم أن
مولاه أنصح له من
نفسه وأعلم بمصالحه
أن كل ما منه نعم فقد
شكر .

[قولهم في الخوف]
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «رأس
الحكمة مخافة الله»
وروى عنه عليه
الصلاة والسلام أنه قال
«كان داود النبي عليه
السلام يعود الناس
يظنون أن به مرضا
وما به مرض إلا خوف
الله تعالى والحياة منه»
قال أبو عمر الدمشقي
الحائف من يخاف من

الله في أمرى ماخرجت البحر وما مئى تجارة البحر فيها ماخرجت إلا للزوق قال يا شيخ قد اشتريت
أمس حلازة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لا تسكتوني تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال
اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه حلازة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى.
وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب
سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نجات الأبد ولكن الاخلاص عزيز
ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أنقض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنه
ثلاثا أعطاه محبة الصالحين ومنه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنه الاخلاص فيها وأعطاه
الحكمة ومنه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلاق الاخلاص فقط . وقال
الجنيد : إن لله عبدا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب
البر أجمع . وقال محمد بن سعيد للروزي : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له
فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سمعت بهذين وفزت في الدارين .

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل
الصفى المحاص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فرت ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين - فاعلموا خلوص
اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرت ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص بضاده
الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات فالإخلاص في التوحيد بضاده التشريك
في الإلهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب
فمحله القلب وإنما يكون ذلك في التصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة
البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد مسمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى النوى
فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو محاص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص
ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب
كما أن الاتحاد عبارة عن الليل ولكن خصصته العادة بالليل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء
فهو معرض للهلاك ولنا تشكك فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربح المهلكات
وأقل أموره ماورد في الخبر من ■ إن الراى يدعى يوم القيامة بأربع أمام يأمرائى يا عبادعيا مشرك
يا كافر (١) ■ وإنما تشكك الآن فيمن انبثت قصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر
إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع
قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصحب مزاجه بحركة السفر
أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوه في منزله أو يتبرم بأهله ولده أو يشغل
هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليفزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهينة
الساكر وجرها أو يصلى بالليل وله غرض في دفع الناس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتم
العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عززا بين المشيرة أو ليكون مقامه أو ماله محروما
بمن العلم عن الأظاع أو اشتغل بالدريس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث
أو تكفل بخدمة الملأ والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال بمرقا في الدنيا

(١) حديث إن الراى يدعى يوم القيامة يا مرائى يا عبادع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة
والاخلاص وقد تقدم .

نفسه أكثر مما يخاف
من الشيطان . وقال
بعضهم ليس الخائف
من يبكى ويمسح
عينيه ولكن الخائف
التارك ما يخاف أن
يعذب عليه . وقيل
الخائف الذى لا يخاف
غير الله قيل أى
لا يخاف لنفسه إنما
يخاف إحلالا له
والخوف للنفس خوف
العقوبة . وقال سهل
الخوف ذكر والرجاء
أنهى أى منهما تولد
حقائق الإيمان . قال
الله تعالى - ولقد
وصينا الدين أوتوا
الكتاب من قبلكم
وإياكم أن اتفوا -
الله - . قبل هذه الآية
قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفاً ليجود باللواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء أو تواضعاً ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلم الاستناد أو اعتسكف في السجد ليخفف كراء السكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويدكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى والسكن انضاف إليه خطرة من هذه الحطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويعيل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجما وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيها إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة اللواقعة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفس مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا لا يتصور إلا من يحب الله مستمراً بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يغيب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجيلة فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلقاً باعده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل بجميع النية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلاً حتى يرجع لله - ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان درجة الخاصية فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الدور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتمت حركاته الاعتيادية صفته وصارت إخلاصاً فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتمت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً فإذا نزل علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا ذاك تيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في السجدة في الصف الأول لأن تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعتزتي خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرئاً وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من ينزهه للإيمان وقله الله تعالى والمؤمنون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .
وقيل إن الله تعالى جمع
للخائفين ما فرقه على
المؤمنين وهو الهدى
والرحمة والعلم
والرضوان فقال تعالى
- هدى ورحمة للذين
هم لربهم يرهون -
وقال - إنما يخشى الله
من عباده العلماء -
وقال - رضى الله عنهم
ورضوا عنه ذلك لمن
خشى ربه - . وقال
سهل: كمال الإيمان بالعلم
وكمال العلم بالخوف .
وقال أيضاً: العلم كسب
الإيمان والخوف
كسب المعرفة . وقال
ذوالنون: لا يسقى الحب
كأس المحبة إلا من بعد
أن ينضج الخوف قلبه .
وقال فضيل بن عياض

ويقوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وأشدّ الخلق تضرعا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للأكثرين على نشر العلم لهذه الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسره من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا اللهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو انعطوا بقولك لكنت أنت المتأبى وَاغْتَامَكَ ثَوَابُ التَّوَابِ مَحْمُودًا لَا يَدْرِي السَّكِينُ أَنْ اتِّقِيَادَهُ الْحَقُّ وَتَسْلِيمُهُ الْأَمْرَ أَفْضَلَ وَأَجْزَلَ ثَوَابًا وَأَعُوذُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ انْفِرَادِهِ ، وَلَيْتَ شَعَرِي لَوَاعَيْتُمْ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَصَدُّعِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لِلْإِمَامَةِ أَكَانَ غَمَّهُ مَحْمُودًا أَوْ مَذْمُومًا وَلَا يَسْتَرِيبُ ذَوْدِيْنُ أَنْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَكَانَ مَذْمُومًا لِأَنْ اتِّقِيَادَهُ الْحَقُّ وَتَسْلِيمُهُ الْأَمْرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَصْلَحُ مِنْهُ أَعُوذُ عَلَيْهِ فِي الدِّينِ مِنْ تَكْفَلِهِ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ بَلْ فَرَحَ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِاسْتِقْلَالِ مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْهُ بِالْأَمْرِ ، لَمَّا بَالَ الْعُلَمَاءُ لَا يَفْرَحُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ يَنْخَدِعُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بَفُرُورِ الشَّيْطَانِ فَيَحْدِثُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَوْ ظَهَرَ مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْهُ بِالْأَمْرِ لَفَرَحَ بِهِ وَإِخْبَارَهُ بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ قَبْلَ التَّجَرُّبَةِ وَالِامْتِحَانِ مَحْضُ الْجَهْلِ وَالْفُرُورِ فَإِنَّ النَّفْسَ سَهْلَةَ الْفِيَادِ فِي الْوَعْدِ بِأَمْثَالِ ذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِ الْأَمْرِ ، ثُمَّ إِذَا دَهَاهُ الْأَمْرُ تَغَيَّرَ وَرَجَعَ وَلَمْ يَفِ بِالْوَعْدِ وَذَلِكَ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ وَطَالَ اشْتَغَالُهُ بِامْتِحَانِهَا ، فَحَقْرَةُ حَقِيقَةِ الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ بِهِ عَمْرٍ عَمِيقٌ يَفْرُقُ فِيهِ الْجَمِيعَ إِلَّا الشَّاذَّ النَّادِرَ وَالْفَرْدَ الْقَدَّ وَهُوَ الْمُسْتَقْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ - فَلْيَكُنِ الْعَبْدُ شَدِيدَ التَّفَقُّدِ الْمُرَاقِبَةَ لِهَذِهِ الدَّقَائِقِ وَإِلَّا لَتَحْقُقْ بِاتِّبَاعِ الشَّيَاطِينِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ .

(بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص)

قال السوسى : الإخلاص فقد روية الإخلاص ، فان من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه محب ؛ وهو من جملة الآفات . والحال : ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالفرض وفي معناه قول إبراهيم بن آدم « الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقبل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين » وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والمأبد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معمل بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما للطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

إذا قيل لك تخاف الله
اسكت فانك ان قلت لا
كفرت وان قلت نعم
كذبت فليس وصفك
وصف من يخاف .
[قولهم في الرجاء] قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم « يقول الله
عز وجل أخرجوا من
النار من كان في قلبه
مثقال حبة من خردل
من إيمان ثم يقول
وعزني وجسالي
لأجعل من آمن بي
من ساعة من ليل
أو نهار كن لا يؤمن
بي » . قيل « جاء أعرابي
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال من بي
حساب الخلق » فقال
الله تبارك وتعالى قال
هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو السموات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء . وهذا لا يبعده الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والناجاة وملزمة الشهود لحاضرة الألهية سرًا وجهرا جميع نعم الجنة لاستحقاقه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط . وكذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : ما استر عن الخلائق وصفا عن الملائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لميسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب للشوشة للاخلاص . وقال الجنيد : الاخلاص تصفية العمل من السكدرات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام الرقابة ونسيان الحفظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقوال في هذا كثيرة . ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي يان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الاخلاص قال : أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

(بيان درجات الشوائب والآفات السكدرية للاخلاص)

اعلم أن الآفات الشوشة للاخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلى مهم ، من مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر عين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتاك فتخضع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المتدئين من الريدن . الدرجة الثانية يكون الريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان قبليه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك فخيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فمساء يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغصن من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللمنزى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لى فى الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فتبسم الأعرجي فقال
النبي صلى الله عليه
وسلم م ضحكك
يا أعرجي ؟ فقال
إن الكريم إذا قدر
عفا وإذا حاسب
سامح . وقال شاه
الكرمانى : علامة
الرجاء حسن الطاعة .
وقيل : الرجاء رؤية
الجلال بين الجلال .
وقيل : قرب القلب
من ملاطفة الرب .
قال أبو طي الروذباري :
الخشوف والرجاء
يكنى الطائر إذا
استوى استوى الطائر
وتم في طيرانه . قال
أبو عبد الله بن خفيف :
الرجاء ارتياح القلوب
لرؤية كرم المرجو .
قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم
لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا بعض التلبس
بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستقام قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما
عذا فمحص النفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويصاقب على إظهاره
من نفسه ما ليس متصفا به . الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد
الشیطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمجاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون
صلاته في الخلوة مثل صلاته في اللأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا
زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في اللأ ويصلي في اللأ
أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء النامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في اللأ فلا يكون قد
فرق بينها فالتفاتة في الخلوة واللأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة الهائم لصلاته ومشاهدة
الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي
من نفسه أن يكون في صورة للرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلوة وللأوهيات
بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا واللاجيا وهذا من شخص
مشغول اللهم بالخلق في اللأ والخلأ جميعا وهذا من السكايد الخفية للشیطان . الدرجة الرابعة أدق
وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف
أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تحمك في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه
واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه ويظن أن
ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والخذاع فان خشوعه لو كان نظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة
تلازمه في الخلوة ولكان لا يهتم بحضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون
هذا الخاطر مما ياله في الخلوة كما ياله في اللأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون
حضور البهيمة سببا لما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن
صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب
التملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من
دق نظره وسعد بصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشیطان ملازم للمتشمخين لعبادة الله تعالى
لا ينفصل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب
وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لا يرتبط نظر
الحاق بها ولا ستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تركها
وتكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص
بسيه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يتكف في مسجده مور نظيف حسن
العمارة بأنس إليه الطبع فالشیطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك
الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة للسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد
المسجدين أو أحد اللوامين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشوائب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب التملة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة
تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لا اعتدلا .
والخوف والرجاء
للإيمان كالجنحين
ولا يكونان خافيا إلا
وهو راج ولا راجيا
إلا وهو خائف لأن
موجب الخوف الإيمان
وبالإيمان رجاء
وموجب الرجاء الإيمان
ومن الإيمان خوف
ولهذا المعنى روى
عن لقمان أنه قال
لابنه خف الله تعالى
خوفا لا تأمن فيه
مكره وارجه أشد من
خوفك ، قال فكيف
أستطيع ذلك وإني
لي قلب واحد قال
أما علمت أن المؤمن
لقدو قلبين يخاف
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري النفس الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فيها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل ذلك ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش الغاب ودغل الشيطان وخبت النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركنان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يغلب عنها فان الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واعتزازه بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مفتشوش زائف في نفسه وقبراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه القر العبي فهكذا متفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليتنفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

(بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس قد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب للعقاب والعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في للشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه والذي يتقدم لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقتا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأثير صفاتها فداعية الرياء من الهلكات وإنما غذاء هذا الهلك وقوته العمل على وقته وداعية الخير من اللطيفات وإنما قوتها بالعمل على وقته فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدرة تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحجارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكا لا يضيع مثقال ذرة

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث أبي أمامة باسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والدكر ماله فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللمتدنى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجزان أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

بالآخر وهذا لأنهما

من حكم الإيمان .

[قولهم في التوكل]

قال السري : التوكل

الانحلال من الحول

والقوة . وقال الجنيد

التوكل أن تسكون لله

كما لم تكن فيكون الله

لك كما لم يزل . وقال

سهل : كل المقامات

لها وجه وفقا غير

التوكل فانه وجه بلا قفا

قال بعضهم يريد توكل

الناية لا توكل الكفاية

والله تعالى جعل التوكل

مقرونا بالإيمان فقال

- وعلى الله فتوكلوا وإن

كنتم مؤمنين - وقال

- وعلى الله فليتوكل

المؤمنون - وقال للبيه

- وتوكل على الحى

الذى لا يموت - وفل

من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يصح مثال ذرة من الخبز والشر ولا ينفك من تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء ما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عفيه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأنيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما اشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثوابه وما عدى أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها التنازع وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والزعج القوي هو إغلاء كلمة الله تعالى وإعلاء الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعة فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة . فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مصطنع المعروف أوقال يتصدق فيجب أن يعمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - » (٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره ممن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فأشرك معي غيره ودعت نصيبا لشريك» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له» (٦) فنقول هذه الأحاديث لاتناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعبد من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مصطنع المعروف أوقال يتصدق فيجب أن يعمد ويؤجر فنزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسل وقد تقدم في ذم الحياه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيره تركه وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله (٥) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله .

ذوالتون: التوكل ترك

تدبير النفس والانهلاك

من الحول والقوة .

وقال أبو بكر الرقائي :

التوكل رد العيش إلى

يوم واحد وإسقاط

هم غد . وقال أبو بكر

الواسطي: أصل التوكل

صدق الفاقة والافتقار

وأن لا يفارق التوكل

في أمانيه ولا يلتفت

بسرء إلى توكله لحظة

في عمره . وقال بعضهم

من أراد أن يقوم بحق

التوكل فليحفر لنفسه

قبرا يدفنها فيه وينس

الدنيا وأهلها لأن حقيقة

التوكل لا يقوم لها أحد

من الخلق على كماله .

وقال سهل أول مقامات

التوكل أن يكون العبد

بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركه حيث ورد مطلقا للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم إن الإنسان عند الشركه أبدا في خطر فانه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاولى ولذلك قال تعالى - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أى لا يرجى اللقاء مع الشركه التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص في الغزو وبعبارة أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزهجه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنية وقدر على غزوطاقتين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنية لا ثواب له على غزوه ألبته ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل للبأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على التدور فيكون تأثير هذا في هوان الثواب فأما أن يكون في إحباطه فلا، نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى غاية الحفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والالاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لا أعتد بما ظهر من عملى وقال عبد العزيز بن أبي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحابست نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولا طى ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ القصد أن لا يموت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسعيد الحراز ويغف في أعماله فكلم أبو سعيد في الاخلاص يوما يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يفتدقابه عند كل حركة ويطلبه بالاخلاص فتهذر عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» (١) ويكفى في فضيلة الصدق أن الصدق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض اللدخ والنساء فقال - واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا - وقال - واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا - وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال جرير بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث في الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهدي إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

صليت بين يدي
الفاصل بقلبه كيف أراد
ولا يكون له حركة
ولا تدبير وقال حمدون
التقاصر : التوكل هو
الاعتصام بالله . وقال
سهل أيضا : اعلم كل باب
من التمسك والتعبد كله
باب من الورع والورع
كله باب من الزهد
والزهد كله باب من
التوكل . وقال :
التقوى واليقين مثل
كفك البرزخ والتوكل
لسانه به تعرف الزيادة
والنقصان ويقع لي أن
التوكل على قدر العلم
بلوكل فكل من كان
أتم معرفة كان أتم
توكلا ومن كل توكله
غاب في رؤية الوكيل
عن رؤية توكله ثم إن

استوحى من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل فقلت له أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال الصدق وأصبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان أجمل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل للحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي السكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا صادقين ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يداود من صدقي في سريره صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت فيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب الطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها . لاكثر أنفع من العلم ولا مال أرفع من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أسمى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قهر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد الروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة يديك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ قال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعواوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا تعيل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة قليل زدنا فقال التقي والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق»^(١) وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والأرادة وصدق في المزم وصدق في الوفاء بالمزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار وينبئ عليه والخبر إيمان أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة المعرفة فيصدق
العلم بالعدل في القسمة
وإن الأقسام نصبت
بأزاء للقسوم لهم عدلا
وموازاة فإن النظر
إلى غير الله لوجود
الجهل في النفس وكل
ما أحس بشيء يندفع
في توكله يراه من
منبع النفس فقصاص
التوكل يظهر بظهور
النفس وكاله يثبت
بنية النفس وليس
للأقوياء اعتداد
بتصحيح توكلهم وإنما
شغلهم في تقييد
النفس بتقوية مواد
القلب فإذا غابت
النفس انحسرت مادة
الجهل فصح التوكل
والصدق غير ناظر
إليه وكلا تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن المعارض ضد قبل للمعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك محتمس إليه الحاجة وتقتضيه الصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجرى مجرام وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن إطلاعهم على أسرار تلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويتقضيه الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد لادته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره^(١) وذلك كي لا يتهمى الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا^(٢)» ورخص في النطق على وفق للصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فلهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجه خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناسب بها ربه كقوله - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله - إياك نعبد وإياك نستعين - إذا ما تصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طوّل يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحميقه فانه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تس عبد الدينار تس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخيصة^(٣)» فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وإتعا العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لحقت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبعبادته وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته في من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتقضي إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفعودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى لم يبق فيه متع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تس عبد الدينار الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

النفس بقية برد على ضميرهم سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيطلب وجود الحق الأعيان والأشياء ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا التوكل ما يقصد في توكل الضمفاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائل لأنه يرى الأسباب موثقا لحياته لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة. [فولهم في الرضا] قال الحارث الرضا سيكون

لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لانه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله
فدرجات الصادقين وبمدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا
ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثانی : في النية والأرادة ورجع ذلك إلى الاخلاص
وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس
بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كبروينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين
يشكل العالم ما عملت فيها علمت ؟ فقال فعملت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال
فلان عالم (١) فانه لم يكذبه ولم يقل لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق
صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك
لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لأن من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب
يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يتقدم ما يقول
فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ف يرجع أحد
معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مختصا . الصدق الثالث :
صدق العزم فان الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعه
أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلته وإن أعطاني الله تعالى ولاية
عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة
جائزة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق
هنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لقنلان شهوة صادقة وبها حال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم
تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق
والصديق هو الذي تصادف عزمته في الحيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل
تسخو نفسه أبدا بالعزم الصمم الجازم على الحيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فضرب
عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه أو كذا كذا بما ذكره من القتل . ومراتب
الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى
ورأيه لم يقدم ولو ذكر حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والؤمنين من لو خير بين أن
يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق . الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم
فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق
وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد
الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس «أن
عمة أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول
مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرايت الله مشهدا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما صنعت قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال
يا أبا عمرو إلى أين قال وإها لرجع الجنة إلى أجد ريحها دون أحد فقابل حتى قتل فوجد في جسده
ضعف وثمانون مائين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخي إلا بيناته ، فتركت
هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (٢) . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيها علمت الحديث تقدم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

القلب تحت جريان
الحكم وقال ذوالنون
الرضا سرور القلب
القضاء . وقال سفيان
عند رابعة اللهم ارض
عنا فقالت أما
تستحي أن تطلب رضا
من است عنه براى
فسألها بعض الحاضرين
مق يكون العبد راضيا
عن الله تعالى فقالت
إذا كان سروره
بالمصيبة كسروره
بالنعم . وقال سهل إذا
اتصل الرضا بالرضوان
اتصلت الطمأنينة
- فطوبى لهم وحسن
مآب - وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
«ذاق طعم الايمان من
رضى بالله ربا» وقال
عليه السلام إن الله

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقفت قلنسوته . قال الراوى « فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو في الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عمله الصالح والآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملا من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فزلت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يشكروا به قتل - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بغلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسب عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التحكم وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يشغل عليها ذلك فتخبر عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخزاز رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء قتلا لى ما للصدق قلت الوفاء بالعهد فقال لى صدقت وعرجا لى السماء . الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء لأن للرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذه أفعال صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مراثيا لإيام ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والملاينة بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر وليس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا ن محالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت زياه وبغوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

النظر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لا يفتان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فبرى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس بنال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خير من علانيي واجعل علانيي صالحة » (١) وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريره أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريره فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في اللؤم استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق ومفشوشه الردود لا يقتضى الثنا

وقال عطية بن عبد الغافر إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به اللائكة بقوله هذا عبدي حقا . وقال معاوية بن قرة من يدلى على بكاء بالليل بسام بالهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أنامل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الراهد يقول إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويبيى ، وقال أبو يعقوب التهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهادة الصادقة وقال الله تعالى - إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألتك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية » (٢) ولنضرب للتخوف مثلا لما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرسه ويتنصص عليه عبسه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفا من ذلك المهدور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان نصية عليه ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها » (٣) فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبده حظه بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى فإذا قوى ممي صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأنا فتنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقه النبي ﷺ مفشبا عليه فأفاق وقد عاد

(١) حديث اللهم اجعل سريري خير من علانيي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي فراس أنه عن الإيمان فقرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - رواه محمد بن نصر اللوزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده إسناده .
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم .

جبريل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعل كاهله وإن رجله قد مرقتا تحت نجوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع ^(١) ، يعني كالصغور الصغير ، فانظر ما الذي يشاهد من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلحلى البالي من خشية الله تعالى » ^(٢) يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا يلبثوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما إن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حق في دين الله . وقال مطرف ما من الناس أحد إلا وهو أحق فيا بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب » ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير ^(٣) ، فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهائية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن أقوى وفيها سواهن ضعيف ما صليت صلاة منذ أسلمت خدعت نفسي حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة خدعت نفسي بغير ما هي قائمة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقتها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن السيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكل قوم من جهة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبوا الجنائز ولم يلبثوا هذا للبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات للأئمة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تعرض إلا لأحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لامة للؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيطة بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتباكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنني إذا أحببت عبدا ابتليته بيلابا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وإن وجدته جزوعا بشكوى إلى خلقي خذته ولا أبالي فاذن من علامات الصدق كتمان الصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها . ثم كتاب الصدق والاخلاص ، يتلوه كتاب البراقة والمحاسبة والحمد لله .

يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول « من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال على رضي الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال . وقال يحيى يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فضل منه بك وفضل

- (١) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطبق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (٢) حديث مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلحلى البالي من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل (٣) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجده أصلا في حديث مرفوع .

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت المطلع على ضياء القلوب
إذا هجست الحبيب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يجزب عن علمه مثقال ذرة في السموات
والأرض تهركت أو سكنت المحاسب على التقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خضيت
المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت التطول بالغفور عن معاصيهم وإن كثرت وإنما محاسبهم
لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا
لشقيت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها الزجاجة
لحابت وخسرت فصبحان من عمت نعمته كافة العباد وفعلت واستغرقت رحمة الخلائق في الدنيا
والآخرة وغمرت فينفحات فضله أسمع القلوب للإيمان وانثرت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح
بالمبادات وتأذبت وبمحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقضت وبتأييده ونصرته
انقطعت مكاييد الشيطان واندفعت وبلطيف عنايته ترجع كافة الحسنات إذا فعلت وببسيرو
تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه العطاء والجزاء والاباء والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة
والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

[أما بعد] فقد قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال
حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين
مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا معاملا
حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه
والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال
ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون -
وقال تعالى - يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا
ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه - فصر فأرباب البصائر من
جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمناقبهم والدر من الحطرات
واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس
في الأتقاس والحركات ومحاسبتها في الحطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي في القيامة
حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن من قلبه وما به ومن لم يحاسب نفسه هامت حسراته وطالت في عرصات
القيامة وقناته وقادته إلى الحزى والقتل سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله
وقد أمرهم بالصبر والرابطة فقال عز من قائل - يا أيها الذين آمنوا صبروا واصبروا ورابطوا - فربطوا
أنفسهم أولا بالشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في المراقبة
مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل
حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الحسرة المعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله
التوفيق .

(المقام الأول من الرابطة للشارطة)

اعلم أن مطلب للتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكان التاجر

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

منك له قرضي بما
عمل وتخلص فيما تعمل
وقال بعضهم الراضى
من لم يندم على فائت
من الدنيا ولم يتأسف
عليها . وقيل ليحيى
ابن معاذ بن يعقوب
إلى مقام الرضا قال إذا
أقام نفسه على أربعة
أصول فيما يعمل به يقول
إن أعطيتى قبلت
وإن منعتى رضيت
وإن تركتى عبت
وإن دعوتى أجيبت
وقال النبي رحمه الله
بين يدي الجنيد لا حول
ولا قوة إلا بالله . قال
الجنيد قولك ذابني
صدر فقال صدقت قال
فضيق الصدر ترك
الرضا بالقضاء وهذا
إنما الله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما
مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أقبلت من زكاتها وقد خاب من
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستخرها
فيما يزكياها كما يستعين التاجر بشريكه وعلامة الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا
يحاذيه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويحاسبه أو يماثله رابعا فكذلك
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويحصر عليها الشروط ويرشدها إلى
طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يرمها
إلا الحيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلاه الجؤ واتخذ بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربها الفردوس الأعلى وبلوغ سدره للنسي
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها
مختصرة بالاضافة إلى نعم العقبى ثم كيفما كانت قصيرها إلى التصرم والاقتضاء ولا خير في خير لا يدوم بل
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا قطع بقي الفرح باق طاعة دائما وشر لا يقضى
الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انتهى الخير ولذلك قيل :

أشد النعم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها
وسكناتها وخطراتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهره نقيصة لا عوض لها يمكن أن
يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمة أبد الآباد فاقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى
ما يحلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا بالعمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنسى أجلي وأنعم على
به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا لحاسبى أنك قد توفيت
ثم قدر ددت فأياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهره لا قيمة لها واعلمى بالنفس
أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة
فيقال له من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار مالو وزع
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة
يفرح نكتها ويغشاها ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيقال له من المهور والفرح ما لوقم على أهل
الجنة لتنعص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) وهى الساعة
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتحصر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال
القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه أجهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها
فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملسكك ولا تميل إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

الله تفتيحها منه على
أصل الرضا وذلك أن
الرضا يحصل لا بشرط
القلب واتصاحه
واشراح القلب من
نور اليقين قال الله تعالى
سأقن شرح الله صدره
للإسلام فهو على نور
من ربه - فإذا تمكن
النور من الباطن اتسع
الصدر وافتحت عين
البصيرة وعان حسن
تدبير الله تعالى فيتوسع
الخط والضرر لأن
اتساع الصدر يتضمن
حلاوة الحب وفعل
المحبوب بموقع الرضا
عن المحب الصادق لأن
المحب يرى أن الفعل
من المحبوب مراده
واختياره فيفى في لذة
رؤية اختيار المحبوب

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الفين وحسرتك لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن السوء قد عفى عنه أليس قد فاقنا ثواب الحسين أشار به إلى الفين والحسرة وقال الله تعالى - يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن - فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسلمها إليها فاتها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم أعمال هذه التجارة وإن لجهم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تنفع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وحنه رسوله ومطالعة كتب الحكمة للانهاض والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولها لسانها والبطن أما اللسان فلا أنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنابته عظيمة بالنية والكذب والهميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمباراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو يصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراتة فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الله كمنطق المؤمن ذكر ونظرة عبدة وصمته فكرة وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ويمتنع من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة وبشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمتنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك بطول ولا تغنى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يقترن إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشرطة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديده المشرطة فيها بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد وقه عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتزام للحق في مجاريها ويحذر بها مغبة الإهمال ويهبطها كما يوعظ العبد الآبق للتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستحبة عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فإن الله كرى تنفع المؤمنين - فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام الرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله التحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - وهذا المستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار المعرفة وزيادة نقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيها بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه

قيل :

وكل ما يغفل المحبوب محبوب .

[الباب الحادى

والستون في ذكر

الأحوال وشرحها]

حدثنا شيخنا شيخ

الاسلام أبو النجيب

السهروردي رحمه الله

قال أنا أبو طالب الزيني

قال أخبرتنا كريمة

السهرورية قالت أنا

أبو الهيثم الكشميري

قال أنا أبو عبد الله

الفريرى قال أنا

أبو عبد الله البخارى

قال ثنا سليمان بن حرب

قال حدثنا شعبة عن

قتادة عن أنس بن

مالك رضى الله عنه

عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال ثلاث من

- ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه وبسطه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فاته عنه ^(١) » . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(٢) » دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أننا لمدينون - أي لمحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتيسروا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء فعلا بالندرة وقال لإمام حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للندامة . إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها . [للرابطة الثانية الرقابة] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها مذكراته فلا يبقى إلا الرقابة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائنة فانها إن تركت طفت وفسدت . ولذا ذكر فضيلة الرقابة ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه ^(٣) » وقال عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ^(٤) » وقد قال تعالى - أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قانعون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا لي فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان الغري : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والرقابة وسياسة عمله بالملم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريدي : أمرنا هذا مبنى على أصلين أن نلزم نفسك الرقابة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره كقائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرئك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ . ن هذه الطائفة تليق شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدا بمنة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال اذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان فاستحسنوا منه هذه الرقابة وقالوا حق لك أن تكرم .

كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه إلا الله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنهذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار . وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهربن أبي الفضل قال أنا أبو بكر بن خاف قال أنا أبو عبد الرحمن قال أنا أبو عمر بن حيوة قال حدثني أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه قال حدثني بشر بن محمد قال حدثنا عبد الملك ابن وهب عن إبراهيم ابن أبي عتبة عن الرباض بن سارية قال « كان رسول الله

(١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

وحكى أن زليخا لما خات يوسف عليه السلام قامت فغطت وجهه فتم كان لها فقال يوسف مالك أنتسحين من مراقبة حماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال من أستحي ؟ وما يرانا إلا السكواكب قالت فأين مكوكبها . وقال رجل للجنيديهم أستعين على غرض البصر فقال بطلك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فرأبون والذين اثنت أصلاهم من خشيق وعزقي وجلالي إلى لأهم بسذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والمطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل الحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للترمذي : المراقبة مراعاة السر على لحظة القلب مع كل لحظة ولقطة . وروى أن الله تعالى قال ملائكته أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تنيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه - قال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذوالنون بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا أن مانخذه عنه ينيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا لناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظمي فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية عليك بالرجاء ممن يملك الوفاء عليك بالحذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي : إن النافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السموة وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبده الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فرسنا في بعض الطريق فأعذر عليه راع من الجبل فقال له يراعى بني شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك قال قل لسيدك أكلها الدب قال فأين الله قال فبكي عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة للمراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة القلب يشمرها نوع من المعرفة وشمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتنه إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي شمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشيرة لاخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم
يدعو : اللهم اجعل
حبك أحب إلى من
نفسى وصمى وبصرى
وأهلى ومالى ومن
للماء الباردة فكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلب
خالص الحب وخالص
الحب هو أن يحب الله
تعالى بكليته وذلك
أن العبد قد يكون في
حال قائما بشروط
حاله بحكم العلم والجيلة
تتقاضه بضد العلم مثل
أن يكون راضيا
والجيلة قد تصكره
ويكون النظر إلى
الانقياد بالعالم لا إلى
الاستعصاء بالجيلة
قد يحب الله تعالى
ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربّ علم لاشك فيه لا يظلم على القلب كالعلم بالموت فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والوقوف بهذه المراقبة هم للقربون ، وهم يتسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة القربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والاحلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فاتها مقصورة على القلب . أما الجوارح فاتها تتطّل عن الالتفات إلى اللبّاحات فضلا عن المظهورات ، وإذا تحرّكت بالطاعات كانت كالستعانة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد . بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعانة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحدا فكفاه الله سائر الهوم ، ومن قال هذه الدرجة قد ينفل عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو قانع عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يمرّ على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، قال لمن طابه إذا مرت بي فركنى ولا تستبد هذا فانك تجد نظير هذا في القلوب المظمنة لملوك الأرض حتى إن خدم الملك قد لا يحسبون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشغل القلب بهم حقير من مهجات الدنيا فيغوس الرجل في الفكر فيه ويمشى فرما يجاوز للوضع الذى قصد وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لبند الواحد بن زيد هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشغل بحاله عن الخلق ، قال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سرىما حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عبّية ، قال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من أقيت في الطريق قال مارأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا ؟ قال ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بيدها منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى قلت أنت وحدك فقال معى ربى وملسكى قلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له قلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومضى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا به فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فاتها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبي الحسين النورى وهو متكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء قال من أين أخذت هذه الرقابة والسكون ، قال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال للرّقابة ، فلو نظرت إليهما انظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقعة وليس على كتنى شيء فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكلىتي ثم طأطأ رأسه فى السكان فبقيت عندهما حتى صليت الظهر والمصر

ويجب الأهل والولد
بحكم الطبع . والمعجة
وجوه وبواعث الهبة
الانسان متنوعة
لنفسا بحسبة الروح
وحبة القلب وحبة
النفس وحبة العقل
فقول رسول الله
سلى الله عليه وسلم
وقد ذكر الأهل
والنال والماء البارد
معناه استئصال عروق
الهبة بحسبة الله تعالى
حتى يكون حب الله
تعالى غالبا فيحب الله
تعالى بقلبه وروحه
وكليته حتى يكون
حب الله تعالى أغلب
فى الطبع أيضا والجليلة
من حب الماء البارد
وهذا يكون جا
صافيا لحواصى تنفر

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عطشى فرفعت رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب ولا تأم ولا رأيتهما أكل شيئا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعطاني لعل أن أتضع بهما فرفعت الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيته على قلبك يعطك بلسان فعله ولا يعطك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاحلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الاحلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يجزمون إلا بعد التثبت فيه ويعتمدون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فاتهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتجسج جوارحك وتراعى أحوالك لاعتى إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستفرقك فانها تهيب الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستفرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لاحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظر أن مظهره وتحركه بخله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى يكشف له ذلك بنور الحق . فان كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لغير الله استجيا من الله وانكشف عنه ثم لم يأم نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بصمته وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا يحصى لأحد عنه فان فى الخبر « إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن (١) » ومعنى لم أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاه أو ملئت إليه بشهواتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى قيل له كيف فعلت هذا فان الله فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا يعلم فيقال له كيف فعلت أم لم يحقق أم لم يعمل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو للطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت الوجه الله خالصاً وفاء بقولك لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمراة خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وقيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسوء وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقى وعقابي إذ كنت عبداً لى تأكل رزقى وترفعه بنعمتى ثم تعمل لغيري أما سمعتى أقول إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - ويحك أما سمعتى أقول - الله الدين الخالص - فاذا عرف العبد أنه بصدده هذه اللطابات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وليسكن الجواب جواباً فلا يبدى ولا يبعد إلا بعد التثبت

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن . لم أنف له على أصل .

به وبنوره نار الطبع والجليلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة يكفوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى فى قوله تعالى - يحبه ويحبونه - كما أنه بذاته يحبه كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . وقال بعضهم الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فاذا نال الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامثال الأمر وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء

ولا يحرك جفنا ولا أظفلة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذاب الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن قته الطين بأصبعيه وعن لسه ثوب أخيه (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يصدق بصدقة نظر وثبت فان كان له أمضاء . وقال الحسن رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم فان كان له مضي وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد بن أوصاء سلمان « اتق الله عندك إذا هممت (٢) » وقال محمد بن علي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كعاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه الرقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم للثين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان فمَن لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يعز بينه وبين ما يحبه الله وبرضاه في نيته وهمة وفكرته ومكونه وحركته فلا يسل في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يفتقر هبات بل طالب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواقع التورفت في ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في ثعب والشيطان منه في فرح وهمانية فتعود بالله من الجهل والنقطة فهو رأس كل عقاوة وأساس كل خسران لحكم الله تعالى على كل عبدا أن يراقب نفسه عند همه بالفضل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه قد تعالى فيمنه أوهو لموى النفس فيثيقه ويحجز القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث العمل والعمل يورث البوار والقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فان جميع ما ورأه يلقه وهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فينفكر في ذلك بنور العلم ويستفيد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان هجر عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضي بنور علماء الدين ولغير من العلماء المضلين للقلوب على الدنيا فرار من الشيطان بل أشد قدأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى طالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبي أولئك قطاع الطريق على عبادى ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضي بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيتها ومقبتها وهى شهوات الدنيا فلتكن همه المريد أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أضعف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات (٣) » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقان ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا قارقه عقل لا يهود إليه أبدا (٤) » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الأدمى به حتى يصد إلى محوه وعقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فان الناس كلهم قد هجرُوا هذه العلوم واغفلوا

(١) حديث قال لما ذاب الرجل ليسأل عن كحل عينيه الحديث تقدم في الله قبله (٢) حديث سعد بن أوصاء سلمان أن اتق الله عندك إذا هممت إذا هممت وأحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر المدنى ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا قارقه عقل لا يهود إليه أبدا تقدم ولم أجده .

والنعماء وهذا الحب يخرج من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذى فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لبيده واصطفاه إياه وهذا الحب يحكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد » لأنه

بالوسط بين الخلق في الخصومات النائرة في اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الإدفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر «أتم اليوم في زمان خيركم فيه السارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت» (١) ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة وعمر بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهوامة معجباته وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شعاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخافة نفسك» (٢) وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقب ما ليس لك به علم - وقوله عليه السلام «إياكم والظن فان الظن أكلذب الحديث» (٣) وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفنى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رغبته فاتبه وأمر استبان غيبه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عاله» (٤) وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» (٥) فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتننا على عبده - وكان فضل الله عليك عظيماً - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال تعالى - إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - وعلى الله قصد السبيل - وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العنى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصديق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التسكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العر التقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثوال والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فأنما الأمور أشباه وللرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوء فوت ما لم يكن ليسدركه فما نالك من دنياك فلا تسكترن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لاخرتك وهلك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرى بشيء من عمله وإذا عرض له أمر أن أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا» (٦) وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحولكن

(١) حديث أتم اليوم في زمان خيركم فيه السارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شعاً مطاعاً وهوى متبعاً الحديث تقدم (٣) حديث إياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

كلام عن وجدان روح
تلتذ بحب الذات
وهذا الحب روح
والحب الذي يظهر عن
مطالعة الصفات ويطلع
من مطالع الإيمان
قال هذا الروح ولما
صحت محبتهم هذه أخبر
الله تعالى عنهم بقوله -
أذلة على المؤمنين - لأن
الحب يذل المحبوبة
ولحبوب محبوبة
وينشد :
لعين تفدى ألف عين
وتتقى
ويكرم ألف للحبيب
الكرم
وهذا الحب الخالص
هو أصل الأحوال
السنية وموجبها وهو
في الأحوال كالتوبة
في المقامات فمن صحت

لا يعنيه فتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١). النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويعحسن النية في إتمامه وبكامل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يغفل في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن العمل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما مستقبل به القبلة»^(٢) ولا يجلس مترجماً إذ لا يجالس للولك كذلك وملك للولك مطلع عليه قال إبراهيم بن آدم رحمه الله جلست مرة مترجماً فسمعت هائفاً يقول هكذا تجالس للولك فلم أجلس بعد ذلك مترجماً وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في الرقابة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذن لا يغفل البعد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فمراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحرصها عن الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود للنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يغفل البعد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الضرب عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من الرقابة بل لا يفك البعد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو نذوب عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام الرقابة - ومن يمتد حدود الله قد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد البعد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليستعمل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مضبون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ البعد من دنياه لآخرته كما قال تعالى - ولا تنس نصيحتك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب فيها على البعد كيفما اقتضت في مشقة أو رفاهة وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري البعد أبشئ إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها وساعة راهنة فينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحصر على فوات هذه الساعة وإن آتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمه خمسين سنة فيطول عليه العزم على الرقابة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أوقاته فله آخر أوقاته وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أوقاته فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث نزود لمعاد أو مرمقة لمعاش أو لذة في غير هم»^(٣) وما روى عنه أيضاً في معناه «وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يتأجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يغفل فيها للمعظم والفترب»^(٤)

نوبته على الكمال
تحقق بسائر اللقائات
من الزهد والرضا
والزكوة على ما شرعناه
أولاً ومن صحت
حجته - منه - تحقق
بسائر الأحوال من
الفناء والبقاء والصحو
والخو وغير ذلك
والتوبة لهذا الحب
أيضاً بمثابة الجسدان
لأنها مشتملة على الحب
العام الذي هو لهذا
الحب كالجسد ومن
أخذ في طريق
المحبوبين وهو طريق
خاص من طريق
الحبة يتكامل فيه
ويجتمع له روح الحب
الخاص مسح قالب
الحب العام الذي
يشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما مستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث نزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يتأجى فيها ربه الحديث وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والشرب لا ينبغي أن يغفل عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين البصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات السخيرة للشهوة فيه كما فضلنا بضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين القلب والكرامة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهوته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذا ألهم إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد البعد فيه صنع الله تعالى في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب المكوث وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتناسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرم من جلته ويذمون منه ما لا يوافق هوامم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ وقدرته ولعله هو الله تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (١) فهذه الرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

(الرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولتذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها)

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعدو - وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال . ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر « أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيياً فاته عنه » وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » (٢) وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريك كان يحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز علي من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكامة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها « وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورى جاء له عوض بمافاته » (٣)

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديثه صدقة تقدم غير مرة .

النصوص وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات لأن القلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى - والذين جاهدوا فإنا لتحديهم سبلنا - ومن قوله تعالى - ويهدي إليه من ينيب - أثبت كون الانابة سبباً للهداية في حق المحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتناب غير معطّل بالكسب فقال الله تعالى - يجتبي إليه من يشاء - فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبو يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره . وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه محاسبها شوقا عما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شقي الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يعجزه الشيء يسجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فسمعته يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتتقين الله أو لعذبك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قال لا يلقي المؤمن إلا عاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشرقي والفاجر يعصى قديما لا عاتب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم أزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاناة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أعد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعاني أباكرا ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعاني سلاسلها وأغلها فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدني فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فانت في الأمانة فاعلمي ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكاييل رحم الله امرأ نظر في ميزانه فإزال يقول حق أبكاني ، وحكي صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم أن العبد كما يكون في وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الحيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبدأ بالأبدا ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وعسكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والقضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكب معصية اشتغل بفوتها وتعذيبها ومعانيها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يفتن في شيء منها فينبغي أن يتفنى غيبة النفس ومكرها فاتها خداعة ملبسة مكاره فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تسلك به طول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأنم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تعبه وهو يقيدها ويحبسها بترقيها منها واتزاعه صفوها وخالصها لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلج ملابس صفات النفس ونعوتها والمقامات كلها مصفية لثبوت والصفات النفسانية فالزهد يصفه عن الرغبة والتوكل يصفه عن قوة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود في النفس ما أشرق عليها فموس الحبة الخاصة فيبقى ظلمتها

من الحساب ما يستولاه غيره في صعب القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن ! فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنه قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي القدي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها بالقرامة والضمان وببعضها برد عينه وببعضها بالقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما قلنا عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي وأحد عشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : يا ولي الله ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف . وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هوميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأطل فكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة . ولو رمى المبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قرية من عمره ولكنه يتساهل في حفظ العاصي والملاك يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

(للرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها)

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارنة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يحملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارنة العاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روي عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على غذاها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبت . وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومته فكثرت كذا كذا زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فاقنن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بساقية فقال ما هذا الذي تريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يجدر رجله إلى الصومعة قال هيئات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركها ملقاة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تفتطت فسقطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريب يقول أصابني ليلة جنازة فاحتجبت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتفصيلا فحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء وأدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت وإعجابه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجدي المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقع هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهم ما تسكفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى جمرت وقال إنك للحاظلة إلى ما بصرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينفص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال مق بيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال نسألين عما لا بينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق
بالحب الخاص لانت
نفسه وذهب وجودها
فإذا ينزع الزهد منه
من الرغبة ورغبة
الحب أحرقت رغبته
وماذا يصني منه التوكل
ومطالعة الوكيل حشو
بصيرته وماذا يسكن
فيه الرضا من عروق
للنارعة بمن لم تسلم
كليته . قال الروذباري
مالم تخرج من كليتك
لا تدخل في حد الهبة
وقال أبو يزيد من
قتلته محبته فديته
رؤيته ومن قتله عشقه
فديته مذامته ، أخبرنا
بذلك أبو زرعة عن
ابن خلف عن أبي
عبد الرحمن قال سمعت
أحمد بن علي بن جعفر

أبى بعد العصر قلنا إنه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقفه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عن شيئاً أدركته وهو يدخل القابر وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أنى كان هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تكلمين بما لا تطيقن أما إن لله على عهد لا أقضه أبداً لأؤسذك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سواء لك أما تستحين كم توبخين عن غيبك لا تنهين قال وجعل يبكي وهو لا يشمر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . بحكى عن نعيم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها بتجدد ققام سنة لم يمت فيها عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال « انطلق رجل ذات يوم ففرغ ثيابه وتعمغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوق ونار جهنم أشد حراً أجيفة بالليل بطالة بالهار فيينا هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأناه فقال غلبتني قسسى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد بابهى الله بك للملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيك فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبي صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم^(١) . وقال حذيفة بن قبادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما طوى وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن السكك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجدت تقسك قبل أن تسجن وعذبت تقسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تصد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة قوام سبعين سبباً يأكل في كل سبت إحدى عشرة مرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فقلز إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فغضر العدو فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطمتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطمتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك قتل لأرقتك اليوم فرمته فجعل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشوا فكان فى موضعه حتى أنكشوا أمرات وهوناً ثم يقال فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأيت صرياً فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقتل كرتاً حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالذرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن جمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا . وأنكر وهيب بن الورد شيئاً طوى نفسه فتنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه وبحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبراً فيبر ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام فى الدنيا فمكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم ففرغ ثيابه وتعمغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا .

يقول سمعت الحسين ابن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فاذا التقلب فى أطوار القمامات لولم المحبين وطى بساط الأطوار لحواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن همهم القمامات وربما كانت القمامات على مسدارج طبقات السموات وهى مواطن من يتمسك فى أذيال بنياه . قال بعض الصكبار لأبراهيم الحواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسمى فى عمران باطنك أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبثوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غابتهم أن يشوهوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم القيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

[الرابطة الخامسة المجاهدة]

وهو أنه إذا حسب نفسه فراها قد قارفت معصية فينبغي أن يراقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تنوأن يحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤديها بتقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوأن من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى قد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياتك الليلة وأخر ليلة صلاة للقرب حتى طلع كوكبان فأعنت رقبتي وقات ابن أبي ربيعة ركعتي الفجر فأعنت رقبته وكان بعضهم يعمل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤخنة لها بما فيه نجاتها . فان قلت إن كانت نفس لا تطاوع على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فمما سبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين (١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صجعة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهدته فعملت على ذلك أسبوعا إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد قد في هذا الزمان من مجتهد في العبادة اجتهد الأولين فينبغي أن يعمل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجليل وقد انقضى تسعهم وبقي نوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكذرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي أبد الآباد نفوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وميام مرضى (٢) » قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله (٣) » ويروى أن الله تعالى يقول ملائكتنا ما بال عبادي مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللفناني وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته وللترمذي من حديث بلال عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك (٢) حديث رحم الله أقواما يحسبهم مرضى وميام مرضى لم أجده أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذي من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفها متفلة من
دائرة الزهد يردّها
الزاهد إلى الدائرة
بزهده والتوكل إذا
تحركت نفسه يردّها
بتوكله والراضى يردّها
برضاه وهذه الحركة
من النفس بقايا
وجودية تقتدر إلى
سياسة العلم وفي ذلك
تسم روح القرب
من بعيد وهو أداء
حق العبودية مبلغ
العلم وبحسبه الاجتهاد
والكسب ومن أخذ
في طريق الخاصة
عرف طريق التخلص
من البقايا بالتسرى
بأنوار فضل الحق
ومن اكتسب ملابس
نور القرب بروح دأمة
المكوف محبة عن

فيقولون إلهنا خوقهم شيئا غفوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشدّ اجتهدا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولمي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم يعيش عمره كله ماطوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزتهم وسألوا الله أن يفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمفطرة . وبخشي أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب ناضل الجسم فقال عمر له يا بني ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله إلا صدقتني فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأنني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقابل فقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم كان داود الطائي يشرب القنيت ولا يأكل الحبز قليل له في ذلك فقال بين مضغ الحبز وشرب القنيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جدعا كسورا فقال يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزبن من غداة إلى العصر لما التفت عنة ولا يسرة قليل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء : لو لا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطياب الكلام كما ينتقى أطياب الثمر ، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به ، وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أفعد من رجله فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتجى ثم قال هجيت للخلقة كيف أرادت بك بدلامنك هجيت للخلقة كيف أنست بسواك بل هجيت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري أمت عليه ثمان وتسعون سنة ما روى مضطجعا إلا في اللوت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حفظ أنفسهم وسوا حفظهم الأكبر من ربهم فكفى القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد النعالي قال جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يعد رجله فسير عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني

الطوارق والصروف
لا يزججه طلب ولا
يوحشه سلب فائزهد
والتوكل والرضا كائن
فيه وهو غير كائن
فيها على معنى أنه كيف
تقلب كان زاهدا وان
رغب لأنه بالخلق لا
بنفسه وإن روى منه
الالتفات إلى الأسباب
فهو متوكل وإن وجد
منه الكراهة فهو
راض لأن كراهته
لنفسه ونفسه للحق
وكراهته للحق أعيد
إليه نفسه بدواعيها
وصفاتنا مطهرة
موهوبة محمولة
ملطوف بها صارعين
الداء دواء وصار
الاعلال شفاء وناب
طلب الله له مناب كل

فأعاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قال دخلت على فتاح الموصلي
فرايته قد مد كفيه يكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد
خالطها صفرة فقلت ولم بالله يا فتاح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفني بالله ما أخبرتكم ، نعم بكيت دما
فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع
ثلاثا يكون ما صحت لي الدموع قال فرايته بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت
له فماذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يا فتاح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على
تخلفي عن واجب حقك فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يا فتاح
ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة ، وقيل
إن قوما أرادوا سفرا فنادوا عن الطريق فاتبعوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم
من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم
ما أراد فقالوا ياراهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تسكروا فان الهاران يرجع والعمر
لا يعود والطالب حيث فحجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخلق غدا عند مليكم فقال
على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما بلغ البقية ثم أُرشدهم إلى الطريق
وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين
فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا
براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحده
على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهايته وفكر
في حسابه وعقابه قهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا
فكلك عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس ثلاثا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع
الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها عمل
المعاصي والذنوب والعامل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من
ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن افارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه
ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل
كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لورقت بنفسك
قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتعم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان
الثوري عند الصباح محمد القوم السرى وعند المات محمد القوم التقي . وقال عبد الله بن داود
كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن
يصل كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي بأمأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان
يكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الريح بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون
وأنت لاتنام ؟ فيقول يا ابتاه إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الريح ما يلقي الريح من البكاء
والسهر نادته يا بني لملك قتل قتيلًا قال نعم يا أماء قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك فوالله
لو يطمون ما أنت فيه لرحمك وعفوا عنك فيقول يا أماء هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت بشر بن
الحريث قال سمعت خالي بشر بن الحريث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب على قنات له
أمي يا أختي أنا فذل لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يوم جوفك فقال لها
وبحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول فبكت أمي وبكى معها

طالب من زهد وتوكل
ورضا أو صار مطلوبه
من الله ينوب عن كل
مطلوب من زهد
وتوكل ورضا . قالت
رابعة : عجب الله لا يسكن
أنيته وحنيئته حتى
يسكن مع محبوبه .
وقال أبو عبد الله
القرشي حقيقة المحبة
أن تهب لمن أحببت
كلك ولا يبق لك منك
شيء . وقال أبو الحسين
الوراق : السرور بالله
من شدة المحبة له والمحبة
في القلب نار تحرق كل
دنس . وقال يحيى بن
معاذ صبر المحبين أشد
من صبر الزاهدين
واحبها كيف يصبر
الإنسان عن حبيبه .
وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يقتنس نقسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخى ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذا ولدتنى لم يدر نديها على . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقات لأشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقلبت عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم ونام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى العشاء فقصت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم يتقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فذاك ذلك في صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجد وضوءا فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش وتزل السماء في إحدى عيني فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد جمنون في كل يوم خمسمائة ركة ، وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردى في شبقي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى ثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى ، وكان منصور بن العنبر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لملك يابني أصبت نقسا لملك قتلت قتيلاً فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظلم الحواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبا ولا مثل النار نام هاربا وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : سمعت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام ليلة ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياماً يتلون كتاب الله يراوون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون السكل منك لامي فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابقي وكان يقول أياظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لئراحمهم عليهما حتى يملوا انهم قد خلفوا ورواهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تنقذت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

حجة الله من غير تورع
عن محارمه فهو كذاب
ومن ادعى حجة الجنة
من غير إغناك ملكه
فهو كذاب ومن ادعى
حب رسول الله صلى
الله عليه وسلم من غير
حب الفقراء فهو كذاب
وكانت رابعة تنشد :
نصى الإله وأنت
تظهر حبه

هذا الحمري في الفمال
يبيع

لو كان حبك صادقا
لأطعته

إن الحب لمن يحب
مطيع

وإذا كان الحب
للأحوال كالسوبة
للمقامات فمن ادعى
حالة يعثر حبه ومن
ادعى حجة تعثر توبته

فإن التوبة قالب الروح
الحب وهذا الروح
قيامه بهذا القالب
والأحوال أعراض
قوامها بجوهر الروح.
وقال مملون : ذهب
المحبون لله بشرف
الدنيا والآخرة لأن
النبي صلى الله عليه وسلم
قال «لأرو مع من
أحب» فهم مع الله
تعالى قال أبو يعقوب
السوسي لا تصح المحبة
حتى تخرج من رؤية
المحبة إلى رؤية
المحجوب بفناء علم
المحبة من حيث كان
له المحجوب في القلب
ولم يكن هذا بالمحبة
فاذا خرج المحب إلى
هذه النسبة كان
محبا من غير محبة

وما للدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى محبيك فاذهبى وإياهم فاخذعى ثم قال
 أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة في التراب ييلون وعلى الزمان يفتنون فتأديته يا عبد الله أتعلم
 اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من ياد الأوت وتوبادده يخاف سبقها بالموت إلى نفسه
 أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أتوقع زولها ثم لها عن
 ساعة وقرأ - وبه اللهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ثم صاخ صيحة أخرى أهد من الأولى وخرت
 مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول من أنا ما أطرى
 هب لى إساءتى من فضلك وجلالى بترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت
 له باللهى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلفتى فقال عليك بكلام من ينفك كلامه ودع كلام من أوقته
 ذنوبه إنى لى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إيايس وبجاهدى فلم يجد عونا طى ليخرجنى مما أنا فيه
 غيرك قاليك عنى ياخذوع قد عطلت طى لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله
 من شركك ثم أرجو أن يعيدنى من سخطه ويتفضل على رحمته . قال فقلت هذا أولى الله أخاف أن أشغله
 فأعاقب فى موضعى هذا فانصرف وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير فى مسيرى إذ علمت إلى
 شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف طى فقال لى يا هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام طى وجهه
 فاتبعته فسمعتة وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت
 فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مؤثر الحذر ولم يكن له الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت
 الوجوه يبيض وجهى بالنظر إليك واملا قلبى من المحبة . وأجرتى من ذل التويخ غدا عندك قد
 آن لى الحياء منك وحن لى الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسنى أجلى ولولا
 عفوك لم ينسبط فيما عندك أملى ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا للمنى :

تحيل الجسم مكنب الفؤاد	تراه بقعة أوبطن وادى
ينوح طى معاصى فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغنى باعماضى
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الصفح عن زلل العباد
ألف من التلذذ بالقوائى	إذا أقبلت فى حلال حسان
منيب فر من أهل ومال	يسبح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا	ويظفر فى العباد بالأماني
تلذذه التسلاوة أين ولى	وذكر بالأمؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	يبشر بالنجاة من الهوان
فيسدرك ما أراد وما تمنى	من الراحة فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له
 قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون
 ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا
 واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربك
 كثيرا وكنت بالرضا فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف
 الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العباد
 فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولوقدرت على مشاهدة من اتقنى بهم فهو أنجع

سئل الجنيد عن
 المحبة قال : دخول
 صفات المحبوب على
 البديل من صفات
 المحب . قيل هذا على
 معنى قوله تعالى « فإذا
 أحببته كنت له سمعا
 وبصرا » وذلك أن
 المحبة إذا صفت وكلت
 لا تزال تجذب بوصفها
 إلى محبوبها ، فإذا
 انتهت إلى غاية جهدها
 وقفت والرابطة متأصلة
 متأكدة وكالوصف
 المحبة أزال للوانع من
 المحب وبكمال وصف
 المحبة تجذب صفات
 المحبوب تعطفا طى
 المحب الخالص من
 موانع قادحة فى صدق
 المحب ونظرا إلى
 قصوره بعد استفاد

في القلب وأبث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا هجرت عن هذا فلا تنفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل فعزى وخبر نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زمرتهم وغمارهم وهم القلاء والحكام وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجملة العافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تتخطف في سلك الحق وتقع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة القلاء فان حدثت نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطلق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس رجل يصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولتذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات قد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت الغنمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخارها ثم قالت إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت اللوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم قبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقينى وعزتك لو اتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك . وروي عن هجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك طمع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفقني لديك في عليين في درجة القرابين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم المظلماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تفر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها إذا دخلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لو رقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد بن قال فبككت ثم قالت والله لو ددت أن أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جراحة من جوارحى وآتى لي بالبكاء وآتى لي بالبكاء فلم تزل تردد دأبى لي بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتجعدات قالت رأيت في منامى كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة قيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت فقلت أخفى والله قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيحة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أخفى أما تمرين مكانى من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك قالت فقبضت إلى وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عنى اثنتين ألزمتي الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضر لك منى مت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فقممت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لي ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الاسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشي قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريفة فنزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لحادم لي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبله القبلة تقول خلقت سريفة ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلاتك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لخطك بالتوبع على معاصبك **لله** بعد فلتة أراها أظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصري خرجت ليل من وادى كتمان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيعود الحب
ينفوالله اكتساب
الصفات من المحبوب
فيقول عند ذلك
أنا من أهوى
ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتى أجبرته
وإذا أبصرتى أجبرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه
حقيقة قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« تخلفوا بأخلاق الله »
لأنه بزاهة النفس
وكال الزكية يستمد
للمحبة والمحبة موهبة
غير معلة بالزكية
ولكن سنة الله
جارية أن يركب نفوس
أحبابه بحسن توفيقه
وتأييده وإذا منح
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من ■ ما لم يكونوا يحسبون - ويكي فلما قرب من السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف
ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فرعة مني قلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع
الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لي ما الذي أبكاك قلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع
في نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت برحمتك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذلك قالت
لأن البكاء راحة القلب فسكت متعبا من قولها . وقال أحد بن علي استأذنا على عفيفة فحجبتنا فلما
الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني
عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي
للغفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فغمضها
عليه فأصابه فتق في بطنه فباليات عفيفة إذا رفعت رأسها لم تمش وباليها إذا عصمت لم تعد . وقال بعض
الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتسبتا في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض
حوائجي وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال فأنصرفت فلم أجدها في اللوضع فأنصرفت إلى
منزلي وأنا عديد الغضب عليها فلما رأته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تسجل على إنك
أجلستني في موضع لم أر فيه ذا كر الله تعالى خفت أن يخسف بذلك اللوضع فحجبت لقولها وقلت لها
أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أحدها .
وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عمي قال لها برودة تبعدت وكانت كثيرة القراءة في الصحف فكلمها
أنت على آية فيها ذكر النار بكيت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عنها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا
إلى هذه المرأة حتى نصلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت قالت أصبحت
أضيقا منيخين بأرض غربة ننظر مني ندعي فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت
إن يكن لعيني عند الله خير لما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وإن كان لها عند الله شر فسيزيدها بكاء
أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فمسي والله في شيء غير ما نحن فيه . وكانت معاذة
المدوية إذ جاء النهار تقول هذا يوم الذي أموت فيه فلما تطعم حتى تمسي فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي
أموت فيها فتصلي حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقت أنا
إلى ناحية من البيت فلم تزل قاعة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قواني على قيام هذه الليلة قالت
جزاؤه أن تصوم ■ غدا وكانت شموانة تقول في دعائها اللهم ما أشوقني إلى لقاءك وأعظم رجائي لجزائك
وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يهلك عندك شوق المشتاقين اللهم إن كان دنائي إلى
ولم يقريني منك عمل قد جعلت الاعتراف بالذنوب وسائل على فان عفوت فمن أولى منك بذلك
وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك اللهم قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك
فالويل لها إن لم تسعدني اللهم إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت
من تولاني في حياتي بأحسنه أن يسحقني عند مماتي بفقرانه اللهم كيف أياأس من حسن نظرك بعد
مماتي ولم تولني إلا الجليل في حياتي اللهم إن كانت ذنوبي قد أخافتني فان عجبني لك قد أجارتني فتول من
أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله اللهم لو أردت إهانتى لما هديتني ولو أردت فضيحتي
لم تسترني فمتعني بماله هديتني وأدم لي ماله سترتني اللهم ما أظنك تردني في حاجة أنيت فيها عمري
إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .
وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى أسودت وبكت حتى عमित وصليت
حتى أقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفوليهون عليها الأمر قال فتشهقت

جذب روحه بمجاذب
المحبة خلغ عليه خلغ
الصفات والأخلاق
ويكون ذلك عنده
رتبة في الوصول فثارة
ينبعث الشوق من
باطنه إلى ما وراء ذلك
لكون عطاي الله
غير متناهية
وثارة يقضى بما منح
فيكون ذلك وصوله
الذي يسكن نيران
هوقه ويأبى الشوق
يستقر الصفات للهوية
الحقيقة رتبة الوصول
عند المحب ولولا باعث
الشوق رجع التفهري
وظهرت صفات نفسه
الحالة بين الله وقلبه
ومن ظن من الوصول
غير ما ذكرناه أو تخايل
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفى فرح فؤادى وكلهم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئا مذكورا
ثم أقبلت على صلاتها . فعليك إن كنت من الرابطين الراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء
من المجتهدين لينبث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فانك إن قطع أكثر
من فى الأرض يضورك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن
أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة
والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فان
حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما يسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان
والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك
إلا ما يجرى عليهم والصية إذا عمت طابت فأياك أن تتدلى بعجل غرورها وتخضع بتزويرها وقل
لها أرأيت لو هجم سبيل جارف يفرق أهل البلد وتبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم
بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبى فى سفينة تتخاضع بها من الترق فهل يخرج
فى نفسك أن للصية إذا عمت طابت أم تركبى مواقفهم وتستجلبهم فى صنيعهم وتأخذين حذر
عما دهاك فاذا كنت تركبى مواقفهم خوفا من الترق وعذاب الترق لا يتمادى إلا ساعة فكيف
لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب للصية إذا عمت ولأهل
النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بمواظبة أهل زمانهم
حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فعليك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك
وحملها على الاجتهاد فاستصحت أن لا تترك معاتبها وتوبيخها وتقرعها وتعرضها سوء نظرها لنفسها
فصاها تنزجر عن طغيانها .

(الرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جديك وقد خلقت أمارة بالسوء مائلة إلى الشر فرارة من الخير
وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها
عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تنظر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاينة والمعدل
واللامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس اللطيفة المدعوة
إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تنفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن
بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ
نفسك فان امتظت فمظ الناس وإلا فاستحي منى وقال تعالى - وذكر فان الله كرى تنفع المؤمنين -
وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بقطنتها وهدايتها ويشد أنفها
واستكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة
وأنت أشد الناس غباوة وحما أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على
القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم
تخطفين أو غدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراها الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن
البصير ما لبس بأت أما تعلمين أن الموت يأتى بضة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطاة
وأنة لا يأتى فى شئ دون شئ ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل
دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الألقاس يمكن أن يكون
فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون للرض فجأة ثم ينفى إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت

متعرض للذهب
النصارى فى اللاهوت
والناسوت. وإشارات
الشيوع فى الاستغراق
والقضاء كلها عائدة إلى
تحقيق مقام المحبة
بإسقياء نور اليقين
وإخلاصة الذكر على
القلب وتحقيق حق
اليقين بزوال اعوجاج
البقايا وأمنت اللوث
الوجودى من بقاء
صفات النفس وإذا
صحت المحبة ترتبت
عليها الأحوال وتبعها.
سئل الشبل عن المحبة
فقال كأس لها وهج
إذا استقر فى الحواس
وسكن فى النفوس
تلاشت . وقيل للمحبة
ظاهر وباطن ظاهرها
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تدبرين قوله تعالى - اقرب للناس حسابه - وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ويحك يا نفس إن كانت جرائدك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك . ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تترضين لقت الله وغضبه وشديده وعقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيات هيات جري نفسك إن أهلك البطر عن ألم عذابه فاحتسبي ساعة في الشمس أوفى بيت الحمام أوفى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاعتك أم تقترين بكرم الله وفضله واستغاثته عن طاعتك وعبادتك فمالك لاتعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكتفين إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقت حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقض إلا بالدينار والدرهم فمالك تزعين الروح في طلبها ونحصيلها من وجوه الحيل فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يضر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أنتحسين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا مسمى . عحك يا نفس ما أعجب ثقافتك ودعائك الباطلة فانك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للإنسان إلا مسمى - فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك أصبحت تكالبن على طلبها تكالب المدحوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض للفرور والاستحقر ما هذان علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان الناقون في الدرك الأسفل من النار . ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين يوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انقلت وتخلصت وهيات أنتحسين أنك تركين سدى ألم تكوني نقطة من مئى مئى ثم كنت علة غلقت فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فإن كان هذان إضمارك فما أ كفرك وأجهلك أما تفكرين أنه بماذا خلقك من نقطة خلقك قدرك ثم السيل يسرك ثم أمانك فأفرك أنتكذبنه في قوله ثم إذا جاء أشرك فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرک ولو أن يهوديا أخبرك في أنه أعطمتك بأنه يضرک في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء للتوידين بالمعجزات وقول الله تعالى في كنه للزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع قصان عقل وقصور علم والمعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول سبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغللها وأنكأها وزقومها ومقامها وصديدها وسومها وأفاعيها وعقوبها أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ماهذه أفعال العقلاء بل لو انكشف لبيها ثم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان سكنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل ولتوت لك بالمرصاد ولله يختطفك من غير مهلة فبا إذا آمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض القبة يفلح ويقدر على قطع القبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرايت لو سافر رجل ليتفقه في الفرية فأقام فيها سنين متعللا بطلا بصد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطمع فيه بعمدة قرية أو حسانه أن مناصب القمهاء تتال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يهكون
مفتونا بالحبيب عن
كل شئ ولا يبقى فيه
بقية لغيره ولا لنفسه
فمن الأحوال السنية
في المحبة الشوق ولا
يكون المحب إلا مشتاقا
أبدا لأن أمر الحق
تعالى لا نهاية له فما
من حال ينافي المحب
إلا ويعلم أن ما وراء
ذلك أوفى منها وأتم :
حزنى كحسك لالدا
أمد

ينهى إليه ولا لدا أمد
ثم هذا الشوق الحادث
عنده ليس كبه
وإنما هو موهبة
خص الله تعالى بها
المحبين . قال أحمد
ابن أبي الخوارى
دخلت على أبي سليمان

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات الصالحة اليوم آخر عمرك فلم لا تشغلن فيه بذلك فإن أوحى إليك بالامهال لما للنافع من المبادرة وما للبائع لك على التسويف هل له سبب إلا هزلك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والشقة أنتظرين يوما يأتيك لا تمصر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلق قط فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمسكوة ولا تكون المسكوة قط خفيفة على النفوس وهذا حال وجوده أما تتاملين مذكم تصدين نفسك وتقولين غدا غدا قد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأس لابل تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أهج وأهجز لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا هجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن هجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول اللدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا وهما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في الشباب بل من العناء رياضة المحرم ومن التهديب تهذيب القديب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فإذا كنت أيها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة وتركين إلى التسويف لما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما عني عن الاستقامة إلا حرص على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام وللشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهواتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنا بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب **ماء** مرض مرضا مزمنًا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيسر ثلاثة أيام ليتنم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في درجات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراكم تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي فاعتادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكروه واحتداجه واستغفاله عن عبادتك مع أنك لا تمتدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من اللؤلؤ أو كلة واحدة تسميها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب المحاقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان » وبهك يأنس لا ينبغي أن تترك الحياة الدنيا ولا يترك بالله التورع فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضعي أو **تلك** فالأحاسيس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بفسادك فاعتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والنعى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تسكين في ذلك **في** فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فاته قادر على ذلك أنتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فراه يكي
قلعت ما يريك رحك
الله قال وبهك يا أحمد
إذا جن هذا الليل
أقرشت أهل الهبة
أقدامهم وجرت
دموعهم على خدودهم
وأشرف الجليل
جل جلالة عليهم
يقول « يعني من تقد
بكلامي واستراح إلى
مناجاني وإلى مطلع
عليهم في خلواتهم أسمع
أنينهم وأرى بكاءهم
يا جبريل ناد فيهم
ماهذا البكاء الذي
أراه فيكم هل خبركم
خبر أن حبيا يذب
أحبابه بالنار كيف
يجعل بي أن أعذب
قوما إذا جن عليهم
الليل تعلقوا إلى فها

في الشدة والبرودة أفطنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار
وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبرد الماء إلا بحسن التوحيد وخندق الطاعات وإعما كرم الله تعالى
في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لافي أن يندفع عنك العذاب دون حسنه كأن كرم
الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهذا الطريق استخراجها من بين حديد وجر حتى تدفع
بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإتماما لشربته
لنفسك إذ خلقه سينا لاستراحتك فطاعتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإعما هي طريقك إلى
نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فطبيها والله غنى عن العالمين . ويحك يا نفس انزعى عن جهلك
وقيسى آخرتك بدينك فما خلقتكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نبيده . وكما
بدأكم تمودون وسنة الله تعالى لا تجدن لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا
وأنت بها فصر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكد في نفسك مودتها فاحسب أنك
غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنت مؤمنة بالموت والفرق بينك وبين محابك
أقربين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجهه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك
قلبه ثم يضطر لاحتالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الخلق . أما تعلمين أن الدنيا دار الملك
للكوك ومالك فيها إلا عجز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله
عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة فاعمل ما شئت فانك مجزى
به وعش ما شئت فانك ميت (١) » . ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأمن
بها مع أن الموت من وراءه فأنما يستكبر من الحسرة عند المفارقة وإنما يزود من السم الممك وهو لا يدري
أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعولاهم ذهبوا وخلقوا كيف أورش الله أرضهم وديارهم أعداءهم
أما تربهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون يعني كل واحد
قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من
هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرغل عنها يقينا ويحرب آخرته وهو سائر إليها قاطما ، أما تستحيين يا نفس
من مساعدة هؤلاء الخلق على حماقتهم واحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإعما عيلين
بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيس عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا
واقتردى من الفريقين بمن هو أغفل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والله كاه يا نفس ما أعجب
أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجيب لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ولعلك يا نفس
أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض
الناس إليك فاحسب أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة
لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر
من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا
فكيف تبين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكا
من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أدعت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى
إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين
للدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترها عن خسة شركائهم وتزها عن
كثرة عنائهم وتوقيا من سرعة فنائهم أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدت في كثيرها ومالك

حلقت إذا وردوا
القيامة على أن أسفر لهم
عن وجهي وأيهم
رياض قدسى وهذه
أحوال قوم من المؤمنين
أقيموا مقام الشوق
والشوق من المحبة
كالزهد من التوبة
إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد وإذا
استقرت المحبة ظهر
الشوق . قال الواسطي
في قوله تعالى : « عجبت
إليك رب لترضى » قال
شوقا واستهانة بمن
وراءه . قال أم أولاد
على أنرى - من شوقه
إلى مكاملة الله ورمى
بالألواح لما فاته من
وقته . قال أبو عثمان
الشوق غمرة المحبة فمن
أحب الله اشتاق إلى

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم في العلم وغيره .

تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لعنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون في زمرة المقتربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكون في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياما قلائل في أحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس قد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلح عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن أنجرت فيها وقد ضيقت أكثرها فلو بكيت بحة عمرك على ما ضيقت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيقت البقية وأصررت على عادتك . أمتعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتركاب فراشك والدود أنيسك والفرع الأكرين يديك ، أماغلت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالإيمان الغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أمتعلمين يا نفس أنهم يتننون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستفلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهن ويوم من عمرك لو يبع منهم الدنيا بخذا فإيهالا لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيئين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أمتستحيين تزيين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظام أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك تأمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أمتعلمين يا نفس أن اللذنب أثنى من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يعودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأيت بأس رأس لكان الرمح في يديك وكيف تعجبين بملك مع كثرة خطاياك وزلك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على النعاسي ويحك كم تعقدين فتقضي ويحك كم تمهدين فتفدين ويحك يا نفس أمتستغنين مع هذه الخطايا بعمارة دنيك كأنك غير مرتحلة عنها أمتنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جموا كثيرا وشوامشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنياهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أمالك بهم عبدة أمالك إليهم نظرة أنظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلفين هيهات هيهات ساء ماتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدورسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكيف من مستقبل يوما لا يستكملها وكيف من مؤمل لند لا يلقه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك قربين تحسرم عند الموت ثم لاترجعين عن جهالك فاحذري أيها النفس للسكنة يوما إلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله لآت - تقريرة للمشتاقين معناه أي أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القامات إذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء لقائه والنظر إليه . وعندى أن الشوق السكأن في المحبين إلى رب يتوقعون في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكشف أهل وده بعبايا مجدونها

فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تهجين وأعدى للسؤال جواباً وللجواب
صواباً واعلمي بقية عمرك في أيام تصار لأيام طوال وفي دار زوال والدار مقام في دار حزن ونصب لدار نعيم
وخلود اعملي قبل أن لا تعلى اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على
الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مضنون ورب مضنون لا يشعر فويل
لن في الويل ثم لا يشعر بضحك وضح وبلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه
من وقود النار فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً واسعاً لها اضطراباً ورفضاً لها اختياراً وطلبك
للاخرة ابتداراً ولا تسكوني ممن يجز عن فكر ما أوتى ويتنسى الزيادة فيبقى وينسى الناس ولا يتنسى
واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف من كانت مطيته الليل والنهار
قائه يساره وإن لم يسر فاقطعي يا نفس بهذه للوعظة واقبل هذه النصيحة فإن من أعرض عن
الوعظة قد رضى بالنار وما أراه بها راضية ولا لهذه للوعظة واعية فإن كانت القساوة تمنحك عن
قبول للوعظة فاستمعي عليها بدوام التهجذ والقيام فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام فإن لم تزل فبقية
المخالطة والكلام فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللفظ بالأيتام فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك
وأقل على قلبه وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئي نفسك على النار قد خلق الله
الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلقه فإن لم يبق فيك مجال للوعظ
فاقطعي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبار فعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل
لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن **لك** اعتزاز وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك
حزن على هذه للصية التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن
صححت فستقوى الذم من بحر الرحمة **بقي** فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستمعي
بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدعني الاستغاثة ولا تمل طول الشكاية لله أن يرحم
ضعفك وبخيلك فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد ضاقت وتمادبك قد طال وقد انقطعت منك
الحيل وراحت عنك الطل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك
فاغزعي إليه بالتضرع واخشي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم للتضرع
الدليل وبقي الطالب للتلطف ويجب دعوة الضرر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته
عنتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق واقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظائم
ولم يكسر لك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والشئول جواد والمستغاث به رءوف والرحمة واسعة
والكرم قاض والفوضائل وقوى يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا عظيم يا كريم أنا للذنب
للصر أنا الجريء الذي لا أقلع أنا للهادي الذي لا استحي هذا مقام للتضرع للسكين والبائس الفقير
والضعيف الخفير والمالك التريق فجعل **بقي** وافرقي آثار رحمتك وأذقني برد غضوك ومغزيتك
وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام قد قال وهب بن منبه لما أبط
الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له فممة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو عززون
كثيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك قال يارب عظمت
مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى نصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار
الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار
وفي دار اللوت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم
أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي ألم أخلقك بيدي وخصت فيك

علما وبطلونها فوقاً
فكذلك يكون شوقهم
ليصير العلم ذوقاً وليس
من ضرورة مقام الشوق
استبطاء اللوت وربما
الأصحاء من المحبين
يتلذذون بالحياة لله
تعالى كما قال الجليل
لرسوله عليه الصلاة
والسلام قل إن صلاتي
ونسكي ومحياي ومماتي
له رب العالمين فمن
كانت حياته لله
الكرام لله للنجاة
والهبة فحسبته
من النعم ثم يكلفه من
النعم والعطايا في الدنيا
ما يتحقق مقام الشوق
من غير الشوق إلى
ما بعد اللوت وأنكر
بضمهم مقام الشوق
وقال إنما يكون الشوق

من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصيت أمرى ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى
لو ملأت الأرض رجلا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحونى ثم عصونى لأنزلهم منازل العاصين فبكى آدم
عليه السلام عند ذلك ثلثائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى مكانه طول ليله : إلهى أنا
الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها
خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا ومأوى واعبيدها إن كانت
القمامع لرأسك تهيأ واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت
فى بعض الليالى بالكوفة عابدا ينادى ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بعصيتك عافتك ولا عصيتك
إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لمقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى
وأعانت على ذلك شقوتى وغرنتى سترك الرخى على فصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك
الآن من يستغنى أو يعجل من اعتصم إن قطعت حبلك عنى واسوأته من الوقوف بين يديك غدا
إذا قيل للمغنيين جوزوا وقيل للمتقنين حطوا أمع الخفين أجوز أم مع الثقلين أخطو بلى كلما كبرت سنى كثرت
ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصى قالى متى آتوب وإلى متى أعود أما أنى أن أستعجى من ربه
فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإعما مظلمهم من الناجاة الاسترضاء ومقصد
من المعاتبة التنبيه والاسترخاء فمن أهمل المعاتبة والناجاة لم يكن لنفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون
الله تعالى عنه راضيا والسلام . ثم كتاب المحاسبة والرفقة . ويتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى
والحمد لله وحده وصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

(كتاب التفكير)

(وهو الكتاب التاسع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى لم يخذل لا تنهأ عزته نهوا ولا قطرا ولم يجعل لمرأى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام
إلى حمى عظمت بهجى بل ترك قلوب الطالبين فى يدها كبريائه والهمة حيرى كلما اهتزت لنيل
مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا وإذا هممت بالانصراف آتية نوديت من سرادقات الجلال صبرا
صبرا ثم قبل لها أجبلى فى ذل البودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى
له قدرا وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظري فى نعم الله تعالى وأباده كيف توالى عليك
تترى وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأمل فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا
وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وإيمانا وكفرا وعرفانا
ونكرا فان جاوزت النظر فى الأنفال إلى النظر فى الآلات فقد حاولت أمرا إمرا وخاطرت بنفسك
بمجازاة حد طاقة البشر ظلما وجورا قد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانتقصت على أعقابها
اضطرابا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته غفرا صلاة تبقى لنا فى
عرصات القيامة عنة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا
ولطواف السليبين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] قد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » (١) وكثر الحديث فى كتاب

(كتاب التفكير)

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب المظنة من حديث أبى هريرة

لغائب ومضى غيب
الحبيب عن الحبيب
حتى يشاق ولها سئل
الأنطاكى عن الشوق
قال إنما يشاق إلى
الغائب وما غبت عنه
منذ وجدته وإنكار
الشوق على الإطلاق
لا أرى له وجها لأن
رتب العطايا والنح
من أنصبة القرب إذا
كانت غير متناهية
كيف يشكر الشوق
من الحب فهو غير غائب
وغير مشتاق بالنسبة
إلى ما وجد ولكن
يكون مشتاقا إلى ما لم
يجد من أنصبة القرب
فكيف يمنع حال
الشوق والأمر هكذا
ووجه آخر أن الإنسان
لا يبد له من أمور يردها

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجره ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمة تستفاد منه فإن كان لثمة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

(فضيلة التفكير)

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تسكلمون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فإن بهما للغرب أرضا يضاء نورها يياضها ويأضها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يصوا الله طرفه عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم « قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم « قال لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال قول رسول صلى الله عليه وسلم زر غبا تردد جبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبككت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أتعبد لربي عز وجل ققام إلى القرية فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى آتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ويحك يا بلال وما يعنى أن أبكي وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » قيل

بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالرفع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصماني في الترهيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تسكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله الحديث رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض - وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان « عن عطاء »

حكم الحال لموضع
بشريته وطبيعته
وعدم وقوفه على حد
العلم الذي يقتضيه حكم
الحال ووجود هذه
الأمور مثيل لنار الشوق
ولا نغنى بالشوق إلا
مطالبة تنبعث من
الباطن إلى الأولى
والأعلى من أنصبة
القرب وهذه المطالبة
كثافة في المحبين فالشوق
إذن كائن لا وجه
لأنكاره وقد قال قوم
شوق للشاهدة واللقاء
أشد من شوق البعد
والغيوبة فيكون في
حال الغيبة مشتاقا
إلى اللقاء ويكون في
حال اللقاء والشاهدة
مشتاقا إلى زوائد
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فهن قال يقرؤهن ويهقلهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسالها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تربك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لأبراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ الفل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل :

إذا للره كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لمسي بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لغو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق - قال أمتنع قلوبهم التفكير في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه (١) ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالعت قلوب التتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحده فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي وراه ساكتا متفكرا أين بلغت ؟ قال العراطة . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركنان مقصودتان في تفكير من قيام ليلة بلا قلب . وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يسكن قيل له يسيك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب . وقال حاتم من العبارة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والتدبر على الشرير يدعو إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو أهو فإذا كان همه وهو أهو إلى جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يودون بالذكور على الفكر والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال اسحاق بن خفاف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء تفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويكي حتى وقع في دار جبار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف ووطن أنه لمس فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيدي أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتفكير بنسيم العرفقة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا بهائم مجالس ما أجلبها ومن شراب ما ألذ طوبى لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

وإفضاله وهذا الذي
أراه وأختاره . وقال
فارس : قلوب المشتاقين
منورة بنور الله فإذا
تحركت اشتتابة أضاء
النور ما بين للشرق
والغرب فيعرضهم الله
على اللائكة فيقول
هؤلاء المشتاقون إلى
أنسهم أني إليهم
أشوق . وقال أبو يزيد :
لو أن الله حجب أهل
الجنة عن رؤيته
لاستغاثوا من الجنة
كما يستغيث أهل النار
من النار . سئل ابن
عطاء عن الشوق
فقال هو احتراق الحشا
وتلهب القلوب وتقطع
الأكباد من البعد
بعد القرب . سئل
بعضهم هل الشوق

وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الضرر والعزم في الرأي سلامة من التفریط والندم والرويعة والفكر يكشفان عن الحزم والقطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة فذكر قبل أن تعزمت بر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تهجم . وقال أيضا الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل الطاء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجازيها .

(بيان حقيقة الفكر وعمره)

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى الحاجة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإتيار من الآخرة فله طريقان : أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإتيار من الدنيا فيقبله ويصدق من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيقبل بضمه إلى إتيار الآخرة اعتقادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأتيق أولى بالإتيار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإتيار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإتيار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار للمعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتدبرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس عنهما معان مختلفة وأما اسم التدبر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل اللفظ واحدا كما أن اسم الصارم والهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار للمعرفتين من حيث إنه يصير منها إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينتقل عليه اسم التدبر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التدبر تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تمنح عن القلب . وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التدبر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أعترت معرفة أخرى فالمعرفة تناج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تفسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق . هذا لمن يقدر على استتار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما كثر الناس قائما بمنوا الزيادة في العلوم لتقدم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كاللدى لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استثمارها وتأليفها وإيقاع الازدواج للنفس إلى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم للتفكير قد تحضر هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها قلقة بممارسته لصناعة التعبير في الإرادة فكأن من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإتيار علما حقيقيا ولو شغل عن سبب معرفته لم يقدر على إبدائه والتعبير عنه مع أنه لم يحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأتيق أولى

أعلى أم المحبة . قال
المحبة لأن الشوق
يتولد منها فلا مشتاق
إلا من غلبه الحب فالحب
أصل والشوق فرع
وقال النصر آبادي
للخلق كلهم مقام
الشوق لا مقام الاشتياق
ومن دخل في حال
الاشتياق هام فيه
حتى لا يرى . أثر ولا
قرير . ومنها الأنس
وقد مثل الجنيد عن
الأنس فقال : ارتضاع
الحشمة مع وجود
المحبة . ومثل
هو النون عن الأنس
قال : هو انبساط
المحب إلى المحبوب قيل
معناه قول الخليل -
أرنى كيف نحي للوفى -
وقول موسى - أرنى

بالإيثار وأن الآخرة أبقي من الدنيا فتحصل معرفة ثلاثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثلاثة . وأما عمدة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن عمدة الخاصة العلم لا غير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالتفكير إذن هو اللبداً والفتاح للخبرات كلها وهذا هو الذي يكشفك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فاذن التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تنكر ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذي ينقل من المكروه إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والفتنة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالتفكير فثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب للعزة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته وتورغبتهم ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والافبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار المرفقين في القلب ، وثانيها التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منها . والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستئثار القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضي بها للوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنفض الأعضاء للعمل فكذلك زند نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المرفقين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبثق النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يعيل إلى ما لم يكن يعيل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنفض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينفض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فاذن عمدة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لأنها يلمها والأحوال التي تصورها أن تغلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فياذا تفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وعمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فاتها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

(بيان مجارى الفكر)

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلترك القسم الآخر ونعني بالدين المعاملة التي بين الصديقين الرب تعالى لجميع أفكار العبد إيمان أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد إيمان أن يكون نظرا فيا هو محبوب عند الرب تعالى أو فيا هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إيمان أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ولما أن يكون في أفعاله وملكوته وملكوته جميع ما في السموات والأرض وما بينهما ويكشف

أنظر إليك وأنشد
لرويم :
شغلت قلبى بما لديك فلا
ينفك طول الحيلة
عن فكر
أستنى منك بالوداد قد
أوحشتني من جميع
ذا البشر
ذكرك لي مؤنس
يمارضني
يوعدني عنك منك
بالظفر
وجيتا صكت
يامدى همى
فأنت منى بموضع النظر
وروى أن مطرف
ابن الشخير كتب إلى
عمر بن عبد العزيز
ليكن أنسك بالله
واقطعك إليه فان
له عبادة استأنسوا
بالله وكانوا في وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثل وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والشتاقين إلى لقائه يضاهى حال العاشق فلتتخذ العاشق المستهتر مثالا، فنقول : العاشق المستغرق المهمل يشقه لا يسد وفكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعاقى بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته لينتم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعا لذته ومقويا لهبته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقط من عين محبوبه حتى ينزعه عنها أوفى الصفات التي تقربه منه وتغيبه إليه حتى يتصف بها فان تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه مقصدا لغيره لمحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يسد ونظيره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدا بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعاله نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم العاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم الكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التي عليها القلب وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والنجيات والطاعات والمعاصي تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالقرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في السكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروهات التفكر في ثلاثة أمور : الأول التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا قرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثاني التفكر في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارقه فيامضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات بطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات النجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقى به المرید سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصي] ينبغى أن يفشى الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لا يسبها بالأسس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والممازاة والممازحة والخوض فيها لا يبنى إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالزلة والانفراد وبأن لا يجالس إلا صالحا تقيًا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فبهكذا يكون التفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في معصية أنه يصنى به إلى القيمة والكذب وفصول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالتهنى عن النكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطله أنه إنما يصنى الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه ولبسه ومسكنه ومكسبه ومالكه ويتفكر في طريق الحلال ومدخله ثم

أشد استئناسا من
الناس في كثرتهم
وأوحش ما يكون
الناس أنس ما يكونون
وأنس ما يكون الناس
أوحش ما يكونون .
قال الواسطي : لا يصل
إلى محل الأنس
من لم يستوحش من
الأكوان كلها . وقال
أبو الحسين الوراق :
لا يكون الأنس بالله
إلا ومعه التعظيم لأن
كل من استأنست
به سقط عن قلبك
تعظيمه إلا الله تعالى
فانك لا تنزابد به أنسا
إلا زددت منه هية
وتعظيما . قالت رابعة :
كل مطيع مستأنس
وأنشدت :
ولقد جعلتك في القواد
محدث

يتفكر في طريق الخيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهم حاصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولا في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة التوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما يحببه الله تعالى فيقول مثلا إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبدة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لأضله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لأضله وكذلك يقول في سمعه إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكرا فإني أعطيه وقد أنعم الله علي به وأودعني لأشكره فما لي أ كفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالـؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقي الله تعالى مثله وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الأيتام أحوج مني إلى ذلك المال وهكذا يفطن عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات للممكنة بها ويتفكر فيها يرغبة في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات الملهكة التي محلها القلب] فيعرفها بما ذكرناه في ربيع الملهكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والجبن والرياء والحسد وسوء الظن والفتنة والفرور وغير ذلك ويتفكر من قلبه هذه الصفات فإن ظن أن قلبه منزعه عنها فيتفكر في كيفية امتناعه والاستشهاد بالعلاجات عليه فإن النفس أبدا تمد بالحير من نفسها وتغلف فإذا ادعت التواضع والبرائة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض لضرب ياله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع الملهكات فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تنبئ تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الخيلة كالورأى في نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول إنما عمل بيدي وجارحني وبقدري وإرادتي وكل ذلك ليس مني ولا إلهي وإنما هو من خلق الله وفضله على فهو الذي خلقتني وخلق جارحني وخلق قدرتي وإرادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أحب بعمل أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بسند الموت وكمن كافر في الحال يموت مقربا إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكمن مسلم يموت شقيا

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه

مجهول وقد تقدم .

وأبحت جسمى من

أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس

مؤانس

وحبيب قلبي في القواد

أنيسى

وقال مالك بن دينار:

من لم يأنس بمحادثة

الله عن محادثة الخلق

قد قل علمه وعمى

قلبه وضيع عمره .

قيل لبعضهم من معك

في الدار قال الله تعالى

معي ولا يستوحش منى

أنس بربه . وقال

الحراز: الأنس بمحادثة

الأرواح مع المحبوب

في مجالس القرب .

ووصف بعض السارفين

صفة أهل المحبة

الواصلين فقال: جدد

لهم الود في كل طرفة

بتغير حاله عند الموت بسوء الحظاءة فإذا عرف أن الكبير مهلك وأن أصله الحظاءة فيتنفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال للتواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والواقع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما انصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن للملائكة القربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في النضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتبع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [وأما النوع الرابع وهو للنجات] فهو التوبة والنعم على القنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بآفائه والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يوزنه من هذه الصفات التي هي للقرية إلى الله تعالى فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فإذا أراد أن يكتب لنفسه أحوال التوبة والتسليم فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عنده نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتنفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع منحه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في التقيير والقطمير ثم في الصراط ودقته وشدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى النبال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى الميمين فيزول دار القرار ثم ليحضر بسد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقوماتها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية للوكلين بها وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدها ونعيمها للقيم وملوكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التزهد عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإنه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية يتفكر وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتنوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق للعامة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتى جوامع الكلم ^(١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم.

بدوام الاتصال وآوام
في كنفه بمخافت
السكون إليه حتى
أنت قلوبهم وحت
أرواحهم شوقاً وكان
الحب والشوق منهم
إشارة من الحق إليهم
عن حقيقة التوحيد
وهو الوجود بالله
فذهبت منام وانقطعت
آمالهم عنده لما بان
منه لهم ولو أن الحق
تعالى أمر جميع الأنبياء
يسألون لهم ما سألوه
بعض ما أعد لهم من
قديم وحدانيته ودوام
أزليته وسابق عله
وكان نصيبهم معرفتهم
به وفراغ همهم عليه
واجتماع أهوائهم فيه
فصار بحسبهم من
عبيده الموم أن

العالم حق التأمل لم يتقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار بطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزى به (١)» فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغفرهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالسكينة فهذا هو طريق الفكر في علوم العامة وصفات الصديقين حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة والابتدئ ينفي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن السكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية للطلب بل للشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث ينفي عن نفسه أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق السهتر عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر في أحواله نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة الشاق . فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فحق ينعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال فيهم أنت؟ قال أدور في البوادي أصليح حالي في التوكل فقال الحسين أفيت عمرك في عمران باطنك فأين القضاء في التوحيد فالقضاء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التزهد عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن السدة في النكاح . وأما الاتصاف بالصفات النجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب ، فكذا ينفي أن تضم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالمبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة فدونك وإتباع البدن بالأعمال الظاهرة فان يبتك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون وإذا عرفت مجال الفكر في علوم العامة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديندك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك للبعد من الله تعالى وأحوالك للقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات النجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه إن سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشراء الطعام وشراء الوقاع وحب اللال وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا والاخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على القصة الباقية وهكذا يصلح حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر .

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة

رفع عن قلوبهم جميع
الهموم . وأنشد في
معناه
كانت قلبي أهواء
مفرقة
فاستجمت إذا رأيتك
النفس أهوائ
نصار يصدني من
كنت أحسنه
وصرت مولى الورى
مدصرت مولائى
تركت للناس دنيام
ودينهم
عملا بذكرك ياديني
ودنيائى
وقد يكون من الأنس
الأنس بطاعة الله
وذكره وتلاوة كلامه
وسائر أبواب القربات
وهذا القدر من الأنس
نعمة من الله تعالى
ومنحة منه ولكن

وأما أكثر الناس من المدودين من الصالحين فينبغي أن يشبوا في جرائد المعاصي الظاهرة كأكل
الشبهة وإطلاق اللسان بالغبية والتمجئة والراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء وموالاته
الأولياء والداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من
وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن
الاشتغال بصيانة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من العصبية فينبغي أن يكون
تقدم لها وتحكروا فيها لافي معاصيهم بمنزل عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار
نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إماماً بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفترة عظيمة
لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب
والحيلة والزين والتصنع وذلك من الهلكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأتفة وحقد على من
يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلامه غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من
حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد شرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور
وضحكة للشيطان ثم مهما كان ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعراض لم يخل
عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان
قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينشر الحق ويحسن موقعه في
القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على
واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما
اختلف ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتد لفضله أكثر احتراماً
ويكون بلفظه أشد فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاته وربما
ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتفاربوا تبار النساء فيشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره
وإن كان يعلم أنه مستفيع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر
القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات فتنه العالم
عظيمة وهو إماماً ملك وإماماً ملك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب
عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما مثل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة
رضي الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون
الفتوى وكل من كان يغنى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الناس إذا قالوا
لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لا تدرست العلوم من بين الخلق ولقل لهم إن دين الإسلام مستغن
عن فانه قد كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدى ولومت لم تهتم أركان الإسلام فإن الدين مستغن
عن وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي ، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية
الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة
والملو يحملهم على كسر القيود وهم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم
لا يندرس مادام الشيطان يحب إلى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز
لنشر العلم أقواماً لأنصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين
بأقوام لا خلاق لهم» (١) و «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٢) فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه
التليسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والمعظيم فإن ذلك بذور النفاق

ليس هو حال الأنس
الذي يكون له حنين
والأنس حال شريف
يكون عند طهارة
الباطن وكنسه بصدق
الزهد وكال التقوى
وقطع الأسباب
والعلائق ومحو الخواطر
والمواجبي وحقيقته
عند كنس الوجود
بثقل لأعظم العظمة
وانتشار الروح في
ميادين الفسوح وله
استقلال بنفسه يشتمل
على القلب فيجمعه به
عن الهية وفي الهية
اجتماع الروح ورسوبه
إلى محل النفس وهذا
الذي وصفناه من
أنس اللذات وهيبة
اللذات يكون في مقام
البقاء بعد العبور على

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين
بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم .

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال يثبت النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل »^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذنيان ضاريان أرسلاني زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم »^(٢) ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتراف عن الناس والحرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن العالم في التنظير لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم التقي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطما إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فأعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فإن من خاف شيئا هرب منه ومن رجس شيئا طلبه وقد علمنا أن الحرب من النار بترك الشهوات والحرام وترك المعاصي ونحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا ففسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا بهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم العمالة فإن فرغوا منها انقطع التفاهم عن أنفسهم وارتفعوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتعظيم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانتكاس من جميع الهلكات والانصاف بجميع النجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكذرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتفنى عليه لغة الشهادة ولا طريق له في كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات الذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والكروهة عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان اللقمة الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قبل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطبق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطبقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفاس بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطبقه البتة بل يغتنى نهارا وإنما يتردد لبلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فانه بقدر على النظر إليها ولا يطبق دوامه ويغتنى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها بورث الممش ويغرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فإن أكثر العقول لا تحتمل بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن للكان ومتره عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطبقوا إسماعه ومعرفة بل ضعف طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يشاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحق من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف لإله لظن المسكين أن الجلالة

(١) حديث حب المال والجاه يثبت النفاق في القلب الحديث تقدم (٢) حديث ماذنيان ضاريان جاءان أرسلاني في زريبة غنم الحديث تقدم .

مر القناء وما غير
الأنس والهيبة اللذين
يذهبان بوجود القناء
لأن الهيبة والأنس
قبل القناء ظهر من
مطالعة الصفات من
الجلال والجمال وذلك
مقام التلويح وما ذكرناه
بعد القناء في مقام
التحسين والبقاء من
مطالعة القنات ومن
الأنس خضوع النفس
للمطمئنة ومن الهيبة
خضوعها والخضوع
والخشوع يتقاربان
ويترقان بفرق لطيف
يدرك بلعماء الروح.
ومنها القرب قال الله
تعالى لنبيه عليه الصلاة
والسلام - واسجد
واقرب - وقد ورد
■ أقرب ما يكون العبد

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره ويدين يديه غلمان يتشلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لحافلك جناحان ولا يد ولا رجل ولا طير أن لا تنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أنقص مني أن يكون مقصوص الجناح أو يكون زماً لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثاها وهو خالقي ومصوري وعقولي أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الإنسان لجهول ظلم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته محظراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصالح الخلق أن لا يتعرض لجاري الفكر فيه لكننا نعدل إلى القيام الثاني وهو النظر في أفعاله وعجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلالة وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى تآذي مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أنا نطبق النظر إلى الأرض مهما استتارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على اللؤثر دلالة ما « أن كان لا يقوم مقام النظر في نفس اللؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لاطلة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته اليوم بنفسه كأن قولم نور الأجسام بنور الشمس اللضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس قد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة ينض قليل من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهرباً أنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

(يان كيفية التفكير في خلق الله تعالى)

اعلم أن كل مافي الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق الله وكل ذرة من القدرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف قضيا عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لكدت البحار قبل أن ينفذ عشر عشره ولكننا نشير إلى جملته ليكون ذلك كالتال لما عداه . فنقول للوجودات المخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكما من الوجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى - ويخلق ما لا تعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنعمهم وما لا يعلمون - وقال - وتتشك فيا لا تعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدر كناه بحس البصر وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر فكالملائكة والجن والياطين والعرش والكرسى وغير ذلك وعجائب الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويضمض فنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي الدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهد بكونها كلها ومجسمها وقمرها وحركتها ودوراتها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وثلوجها ورعداها وبرقها وصور أعقابها وشبهها وواصفها فبها هي الأجسام الشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جلس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم

من ربه في سجوده
فالساجد إذا ذيق طعم
السجود يقرب لأنه
يسجد ويطوى
بسجوده بساط الكون
ما كان وما يكون
ويسجد على طرف
رداء العظمة فيقرب.
قال بعضهم إنى لأجد
الحضور فأقول يا الله
أو يارب فأجد ذلك
على أثقل من الجبال
قيل ولم قال لأن النداء
يكون من وراء حجاب
وهل رأيت جليسا
ينادى جلسه وإنما
هي إشارات وملاحظات
متناغة وملاطفات
وهذا الذي وصفه مقام
عزير متحقق فيه
القرب ولكنه مشعر
بمنحو ومؤذن بسكر

إلى أصناف ولا نهاية لانشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة
وجميع ذلك مجال التفكير فلا تحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا
فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك
شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلالة وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث
على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
آيات لأولي الأبصار - وكما - تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية التفكير
في بعض الآيات ، فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من الجوانب
الدالة على عظمة الله تعالى ما تنتفض الأعمار في الوقوف على عشر وعشر وأنت غافل عنه ، فيامن هو غافل
عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه
العزيز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قتل الإنسان
ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه قدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء
أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنظرون - وقال تعالى - ألم
يك نطفة من منى يعني ثم كان علقه خلقى فسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه
في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال
- إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة والعلقة مضغة وللضمة عظاما
فقال تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة
علقة - الآية ، فتكرر ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس لیسع لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر
الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأتنت كيف أخرجها
ربّ الأرباب من الصاب والتراب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف
قدم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف
استجلب دم الحيض من أمهات المروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسقاء بهاء
الحيض وغذاء حتى يماوربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاء مشرقة علقه حرام ثم كيف جعلها
مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والمروق والأوتار واللحم
ثم كيف ركب من اللعوم والأعصاب والمروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر
والأنف والتم وسائر المنافذ ثم مديد البدن والرجل وقسم رءوسها بالأصابع ، قسم الأصابع بالأظفار ثم كيف
ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والثلاثة والأمعاء كل واحد
على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء
بأقسام آخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة
منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلماذا جعلنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء
من العجائب والآيات لا نقضى فيه الأعمار فانظر الآن إلى النظام هي أجسام صلبة قوية كيف خلقها
من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة
فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الإنسان محتاجا
إلى الحركة بحملة بدنه وبعض أعضائه مفتقرا للتدبر في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل
عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقد شكل كل واحدة منها على وفق الحركة
المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتنا من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت
نفسه نور روحه
لغلبة سكره وقوة محوه
فاذا صحوا فاق تتخلص
الروح من النفس
والنفس من الروح
ويعود كل من العبد
إلى محله ومقامه فيقول
يا الله ولرب بلسان
النفس للطمشة العائدة
إلى مقام حاجتها وهل
ميسوديتها والروح
تستقل بفتوحه وبكمال
الحال عن الأقوال
وهذا أهم وأقرب من
الأول لأنه وفي حق
القرب باستقلال الروح
بالفتوح وأقام رسم
المسبودية يعود حكم
النفس إلى محل الاقتدار
وحفظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرًا غائرة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار المبدئ إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا المفاصل لتمذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كبرها من خمسة وخمسين عظمًا مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فيها ستة تخمس القحف وأربعة عشر للحمي الأعلى واثنتان للحمي الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبة للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فينصل به من أسفل عظم العنق وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فلا تطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان ما تناهت عظمه وتماينة وأربعون عظمًا سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيصة رقيقة ، وليس للقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء وللمتبحرون وإعنا الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وادبرها وخالف بين أشكالها وأقذارها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان قصاصا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فنتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات غلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهي مختلفة القادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفائها لو نقصت واحدة من جعلتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والكرايين وعددها ومنابتها وانشعاعاتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فلفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة ترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغاربها فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليها وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا لظنفتهم صمما وبصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو مخلوقا فيها عظمًا أو عرقًا أو عصبًا أو جلدًا أو شعرا هل يقدر أن يخلق ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فله عجب منك لو نظرت إلى صورة

بتوفر نصيب الروح
باقامة رسم العبودية
من النفس . وقال
الجنيد إن الله تعالى
مقرب من قلوب
عباده على حسب
ما يرى من قرب قلوب
عباده منه فانظر ماذا
يقرب من قلبك .
وقال أبو يعقوب
السوسي مادام البعد
يكون بالقرب لم يكن
قريبا حتى يغيب عن
رؤية القرب بالقرب
فاذا ذهب عن رؤية
القرب بالقرب فذلك
قرب وقد قال قائمهم:
قد تحققتك في الله
ر فتأجلك لسانى
فاجتمعنا لمعان
وافترقنا لمعان

إنسان مصور على حائط تألق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتسام فطنته وعظم في قلبك عمله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد والحائط وبالقدرة والعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكبر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القدرة كانت معدومة غلقها خالقها في الأصلاب والتراتيب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وأحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها تجري لغذائها ليسكون ذلك سبب بقائها وجعلها مميعة بصيرة عامة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن لحاوي لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهياتها ثم حماها بالأفجان لتسترها وتحفظها وتصلقها وتدفع الأفتاء عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكتافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدقة الأذن لتجمع الصوت قرده إلى صاخبها ولتجس يدبب الهوام إليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيقتبه من النوم صاحبها إذا قصد دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق بمنفذ للنخريين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعها اللسان ناطقاً وترجماناً ومعبداً في القلب وزين الفم بالأسنان لتسكون آلة الطحن والكسور والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتتطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الخنجرة وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والنقطيات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكبرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والحشونة واللينة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللبية والحاجبين وزين الحاجب رقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها والكلى تخدمها يجذب للمائية عنها والثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستبطنوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبعا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيان فلقد صيرك الوجه مد من الأحشاء داني قال ذو النون ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هبة. وقال سهل أدنى مقام من مقامات القرب الحياء وقال النصراني بآذني باتباع السنة تنال المعركة وبأداء القرائن تنال القربة وبالمواظبة على التواضع تنال المحبة. ومنها الحياء والحياء على الوصف العام والوصف الخاص فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا

ضما غير تام كانت معرفة الله وإن بسطها وضم أصابها كانت مجردة له ثم خلق الأنظار على رؤسها زينة للأنامل وعماد لها من ورائها حتى لا تنقطع وليتقطع بها الأغصان الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أهمل الخلق وأضعفهم ولم يتم أحد مقامه في حرك بدنه ثم هذى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والنفث من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بشيء لم يثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ثلاث ثلاث ولو كشف النماء والنشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها هيئا فصيها ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه فيبجانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السيل حتى تتكسر ونحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب للنفذ كانه عاقل صبر بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى الثمام الذي ثم لما كان بدنه ضعيفا لا يمتثل الأغذية الكثيفة كيف دبر الله في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين القرث والقمع ما ناعما خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأثبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلة الثدي قبا ضيفا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بدلا من تدريجها فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك الضيق اللبن الكثير **من** شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورايته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتنذى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يواقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى اللصغ والطحن فأثبت له الأسنان عند الحاجة لاقبها ولا بعدها فبجانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك الثبات البينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والقلوب والمساعدة تدريجها حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم هابا ثم كهلا ثم شيخا إما كفورا أو شكورا مطبعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن هيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة بهزله هجاب الحضرة الربانية والسبب كل العجب عن يرى خطأ حسنا أو قسا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والخطاط وأنه كيف تفقه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكل صنعه وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم ينقل عن صانعه ومصوره فلا تدعشه عظمتة ولا يهزله جلاله وحكته فهذه نبذة من هجاب بدئك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لتفكره وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت قائل عن ذلك مشغول بيطنك وفرجك لا تصرف من تفكرك إلا أن تجمع قفا كل وتشتبع فتمام وتنتهي فتجتمع وتنضب فتتائل والبهائم كلها تشاركك **من** معرفة ذلك وإنا خاصة الإنسان التي حببت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وهجاب الأناني والأفنى إذ بها يدخل البعد في زمرة اللاتسكة الأقربين ويعشر في زمرة النبيين والصدقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحي يا رسول الله
قال ليس ذلك ولكن
من استحي من الله
حق الحياة فليحفظ
الرأس وما وعى والبطن
وما حوى وليذكر الموت
والبلى ومن أراد الآخرة
ترك زينة الدنيا فمن
فعل ذلك فقد استحي
من الله حق الحياة
وهذا الحياة من
القسمات وأما الحياة
الخاصة فمن الأحوال
وهو ما نقل عن عثمان
رضي الله عنه أنه قال إني
لأغسل في البيت المظلم
فأنطوى حياء من
الله. أخبرنا أبو زرعة
عن ابن خلف عن
أبي عبد الرحمن قال
صحت أبا العباس
بالفسادى يقول
صحت أحمد السقطي

البيضة على ذلك وأما هو قد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق التفكير في تفكير في الأرض التي هي مقررك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراغا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاءا وجعلها ذلولا لتحشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسى فيها الجبال أو تادها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى همز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم قال تعالى - والسماء بانيها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم للهادون - وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أكرر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها للناء اهتزت وربت واخضرت وأنبئت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع اللبنة تحتها فجبر العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر مادن قيما عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به فروع الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لأعصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح بفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان **النواة** نطفة مطوقة بتقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وفنق ظاهرها وباطنها قراها تراها ثم إذا أنزل عليها للناء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة لكل واحد طعم وريح ولون وهكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير النافع الفرية فهذا النبات يندى وهذا يقوى وهذا يهي وهذا يجل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المدة قمع الصفراء من أحماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليها وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل هذا وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تثبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها صنائع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالنخل تؤبر والسكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستتبت بيت البلدي في الأرض وبضه بفرس الأغصان وبضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لاحتضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة بسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروز واللؤلؤ وغيرها بعضها منتظمة تحت الطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروز واللؤلؤ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتفتيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والسكرية والقار وغيرها وأقلها للبحر ولا يحتاج إليه إلا لطبيب الطعام ولو خلقت **البحر** لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبعة بجوهرها بحيث يجتمع فيها للناء الصافي من الطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت
محمد بن عبدون يقول
سمعت أبا العباس
المؤدب يقول قال لي
سري : احفظ عنى
ما أقول لك إن الحياء
والأنس بطسوفان
بالقلب فإذا وجداه فيه
الزهد والورع حطا
وبالإرحلا والحياء
إطراق الروح إجلالا
لعظيم الجلال والأنس
التساذ الروح بكمال
الجمال فإذا اجتمعا
فهو القاية في المنى والنهاية
في العطاء وأنشد
شيخ الاسلام
أشفاقه فإذا بدا
أطرق من إجلاله
لاخيفة بل هية
وصيانة لجماله
اللوت في إدباره
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطيباً لطعامك إذا أكلته فينبأ عيشك وامن جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عينا ولا لبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كائين على وجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين ما خلقناها إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين وإلى ما يمشى على أربع وعلى عشرة وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات ثم انقسامها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوارح وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرته مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر محجائب البقرة والخلة والنحلة أو الضفدع والسمكة أو من صفات الحيوانات في بنائها وبينها وفي جمعها غذاءها وفي ألوانها وزوجها وفي ادخالها لنفسها وفي حذفها في هندسة بينها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى الضفدع يمشي على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يتمكن أن يصل بالحيطين طرفيه ثم يبتدىء وبلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب يلتصق به ثم يندفع إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متساويا تناسبا هندسيا حتى إذا أحكم معاقده القمط ورتب الحياوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بدر إلى أخذه وأكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط أو وصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكسقا في الهواء ينتظر ذباة تطير فإذا طارت رمى نفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله وامن حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الضئيلة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادي له ولا معلم أفيتشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز بل القيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكائه وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لقاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للبر وجلاله وكما لا قدرته وحكمته ما تعجب فيه الأبواب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنهم أكثر الشاهدة ، نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولدودا تجد تعجبه وقال سبحانه الله ما أعجبكم ولا لسان أعجب الحيوانات وليس يتمتع من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألهمها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لحلقه وأكنا لهم في ظلمهم وإقامتهم وآنية لأشربهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألوانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأقالق قاطعة للوادي والقفارات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها إلا ليعلم محيط بجميع منافعها سابق على خالقها إياها سبحانه من الأمور مكتشفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استمالة بوزير أو مشير فهو العظيم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المارفين بتوحيده فما لخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والافراز بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا
وأروم طيف خياله
قال بعض الحكماء
من تكلم في الحياء
ولا يستحي من الله فيها
يتكلم به فهو مستدرج .
وقال ذوالنون : الحياء
وجود الهيبة في القلب
مع حشمة ما سبق منك
إلى ربك . وقال ابن
عطاء . العلم الأكبر
الهيبة والحياء فإذا
فهب عنه الهيبة
والحياء فلا خير فيه .
وقال أبو سليمان : إن
العباد عملوا على أربع
درجات على الخوف
والرجاء والتعظيم
الحياء وأشرفهم منزلة
من حمل على الحياء
لما أيقن أن الله تعالى
براه على كل حال

معرفة فسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورافته . ومن آياته البحار العميقة المسكتة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء بحزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإسطبل في الأرض ^(١) » فالسبب اصطبل إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها تأمل الآن عجائب البحار فأن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاع عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سمته أضاع سمعة الأرض ولمظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فيزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضاعف فيه أجناس لا يحسبها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجمعها أقوام غريب كوكب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفة تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف للباحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستنهي على الجملة عجائب منع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتطبيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للاتصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو هلك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من آدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفضل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها متسع للسكر والرحا وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متاصرة ناطقة بلسان حالها مفضحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنفائسها قائلة لكل ذي لب أما ترى وترى صورتي وتركيبى وصفاني ومنافى واختلاف حالاني وكثرة فوائدني أنظن أنني كومت نفسي أو خلقتي أحد من جنسى أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرى الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم بفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا الذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي فترى التفتيس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل النطفة شيئاً ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للأنثى ولا للأنثى ولا للأنثى ولا للرحم أم هذا النقاش بأعجب مما تشاهده بنقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي هم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإسطبل في الأرض تقدم ولم أجده .

استحيا من حسنه
أكثر مما استحيا
العاصون من سيئاتهم .
وقال بعضهم : الطالب
على قلوب المستحيين
الاجلال والتعظيم دائماً
عند نظر الله إليهم .
ومنها الاتصال .
النوري : الاتصال
مكاشفات القلوب
ومشاهدات الأسرار .
وقال بعضهم الاتصال
وصول السر إلى مقام
الدهول وقال بعضهم
الاتصال أن لا جهد
العبد غير خالقه
ولا يتصل بصره بخلقه
لتعير صانعه . وقال .
سهل بن عبد الله
حركوا بالبلاء فتحركوا
ولو سكنوا اتصالوا .
وقال يحيى بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لاتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها ان الذي صور
وقش وقدر لا نظير له ولا يساويه تقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين
الفاعلين من البايئة والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لاتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه
أعجب من كل عجب فان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنك من التبيين مع هذا البيان
جدير بأن تتعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحابيه
فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بمزده وعلائقه الخلق
والأمر والامتنان والفضل واللفظ والتعريف لاراد حكمه ولا معقب لقضائه [ومن آياته الهواء اللطيف
المحبوس بين مقر السماء ومحب الأرض] لا يدرك بحس اللبس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى
بالمين شخصه وجملة مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج
البحر فاذا حرك الله الهواء وجهه ريحاً هابة فان شاء جعله نثراً بين يدي رحمة كما قال سبحانه - وأرسلنا
الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للقاء وإن شاء جعله عذاباً
على العصاة من خلقه كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس
كأنهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغطة في الماء فالزق في المنفوخ
يتحمل عليه الرجل القوى ليغمسه في الماء فيجوز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه
فانظر كيف يتقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه
الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا ينفوس في الماء لأن الهواء يتقبض عن القوس في الماء فلا يفصل
عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف
كالذي يقع في بئر فيتملق بذبل رجل قوى يمتنع عن الهوى في البئر فالسفينة بمقعرها تقشبت بأذيال
الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والنفوس في الماء فسبحان من خلق الركب الثقيل في الهواء اللطيف
من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجوامع وما يظهر فيه من العجائب والبرق والرياح
والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة
ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بعبين - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى
تفصيله في مواضع حتى حيث قال تعالى - والسحاب المسخر بين السماء والأرض - وجبت - تعرض للبرق
والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى الطريق بينك وتسمع الرعد بأذنك
فالهيئة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملائكة التي قد فتحت عينيك
فأدركت ظاهرها فتمض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة ترى عجائب باطنها وغرائب
أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكرفيه إذ لا مطمع في استقصائه تأمل السحاب الكثيف الظلم كيف
تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رعايته حامل
للماء الثقيل ومحسك له في جو السماء إلا أن يأذن الله في إرسال الماء وتنطبع القطرات كل قطرة بالقدر
الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات
متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم
لها لا تبدل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون
والآخرون على أن يخذوا منها قطرة أو يعرفوا عددها ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة
لمعجز حسابها الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جسدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي :العمال أربعة
تائب وزاهد ومشتاق
وواصل فالتائب
محبوب بتوبته
والزاهد محبوب بزهده
والمشتاق محبوب
بجأله والواصل لا يحبه
عن الحق شيء .وقال
أبو سعيد القرشي :
الواصل الذي يصله الله
فلا يحشى عليه القطع
أبداً والتصل الذي
يجهده يتصل وكلا دنا
القطع وكأن هذا
الذي ذكره حال
المريد والمراد لكون
أحدهما مباداً
بالكشف وكون
الآخر مردوداً إلى
الاجتهاد . وقال
أبو يزيد :الواصلون
في ثلاثة أحرف مهم

لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة القلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن للندوف من السحاب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس له مؤننين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا لعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلمته فيقول الجاهل الغرور إنما يثزل الماء لأنه ثقل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له وبصرها ولو قيل له مامعنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقى الماء للصوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيمضى كل جزء من كل ورقة ويمجرى إليها في تجاويف عروق شعيرية صفار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير للمدود في طول الورقة عروق صفار فكان الكبير نهروما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل للماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان الماء يجذب جاذب فما الذي يسخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات قد فاته الكل تحقيقا فالأرض والنبع والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في عروا أصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فمابين سورة إلا وتشتمل على تفصيلها في مواضع وكمن قسم في القرآن بها كقوله تعالى - والسماء ذات البروج - والسماء ذات الطارق - والسماء ذات الحجب - والسماء وما بناها - وكقوله تعالى - والشمس وضحاها والتمر إذا تلاها - وكقوله تعالى - فلا أقسم بالجنس الجوار الكنس - وقوله تعالى - والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - قد علمت أن عجائب النطقة القنطرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأثنى على التفكيرين فيه فقال - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته (١) أي تجاوزها من غير تفكير وذهم المرصين عنها فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون - فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب عداد محفوظات عن التغير إلى أن يابح الكتاب أجله ولذلك ساء الله تعالى محفوظا فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - وقال سبحانه - وبينا فوقكم سماءا عدادا - وقال - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها - فانظر إلى الملكوت ترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه ترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهايم

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي قوله تعالى - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - تقدم .

له وشغلهم في الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد . وقال الجنيذ الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبدا . وقال ذوالنون ما رجع من رجع إلا من الطريق وما وصل إليه أحد فرجع عنه . واعلم أن الاتصال وللواصلة أشار إليه الشيخ وكل من

تشاركك في هذا النظر فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله - وكذلك ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما قاب عن الأبصار فيعبر عنه بالقيس والملكوت والله تعالى عالم القيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم القيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمضى لك أبواب السماء فتجول قلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فتند ذلك ربما يرجي لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأي قلمي ربي . وهذا لأن بلوغ أقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مقرك ثم الهواء المكتشف لك ثم النبات والحوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم الملكة الذين هم حملة العرش خزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما وبينك وبين هذه المقامات العظيمة والسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفتك برك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه فقها ذا أهكرك وإلى ماذا تطلع فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وفحسها وقرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بغير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار لم تعرف الواقت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت العاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إماتته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اعتدلت القيط وإذا كانت فيما بينهما اعتدلت الزمان وهجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي يحبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لافي كبر جسم ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فانت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة وثلاثين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها^(١) ثم الكواكب

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في نار الله الحامية لولا ما زعها من أمر الله لأهلك

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لو توفى مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى بتمام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والشاهدة مضي

التي تراها أصفرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها يتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وهذا تعرف ارتفاعها وبمدها إذ للبعد صارت ترى صفارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بدها فقال - رفع صمكها فصواها - وفي الأخبار أن ما بين كل صماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام (١) فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضافا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة قد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام (٢) فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورته مع اتساع أكنافها في حدة العين مع صفرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك فهوها فترى جميعها فتهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنتظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفة فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبح فهوها بالذهب ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت بطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مائتا كلة بهيمة فتكون الهيمة فوقك بشدة درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبايا الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضارا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا القورور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملك وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي خفرتة في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواويرى والفلسان وأنواع الدخائر

ما على الأرض والطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالليل كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقتة (١) حديث بين كل صماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصره عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصره صحاح من أبي ذر (٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانهم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا .

شهوده عن وجوده
وهذا ضرب من
تجلى القدرات لحواص
للقربين وهذا للقام
رتبة في الوصول وفوق
هذا حق اليقين
ويكون من ذلك في
الدنيا لا خواص لمع وهو
سريان نور الشاهدة
في كلية البعد حتى
يغطي به روحه وقلبه
ونفسه حتى قلبه وهذا
من رطل رتب الوصول
قذا تحققت الحقائق يعلم
المبدع مع هذه الأحوال
الشرعية أنه بعد في
أول المنزل فأين الوصول
هيئات منازل طريق
الوصول لا تقطع أبد
الآباد في عمر الآخرة
الأبدى فكيف في العمر
القصير الدنيوى ومنها

والشمس فاما إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بينها وغداها وكيفية ادخالها فأما حال القمر والملك الذي في القصر فهي بمنزل عنه وعن التفكير به بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبينها إلى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن مكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في السموات وتعرف من عجائب ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارنا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالاضافة إلى ما عرفته الملائكة القربون كما سرافيل وجبريل وغيرهما من جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال - وما أو تيتيم من العلم إلا قليلا - فهذا بيان معاقدا للجل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من آيات شعره يزيدك محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل مافي الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضيف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرننا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا « وفي هذا الكتاب نظرننا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرننا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته وللوقوف ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يصل بها من يشاء ويهتدي بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فعمود بالله من الضلال « ونسأله أن يحننا منزلة أقدام الجبال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

(تم الكتاب التاسع من ربيع النجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه)

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما
حالات شريفة قال الله
تعالى - والله يقبض
ويبسط - وقد تكلم
بهما الشيوخ وأشاروا
بإشارات هي علامات
القبض والبسط ولم
أجد كاشفا عن
حقيقتيهما إلا أنها كفتوا
بالإشارة والإشارة
تتبع الأهل وأحببت
أن أشبع الكلام فيهما
لهما يشوق إلى ذلك
طالب ويعب بسط
القول فيه والله أعلم .
واعلم أن القبض
والبسط لهما موسم
معلوم ووقت محتم
لا يكونان قبله ولا
يكونان بعده ووقتهما
وموسمهما في أوائل حال
الحياة الخاصة لا في نهايتها

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التروغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصراع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، وانخذلوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا - فسيحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من القضاء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقائه ، وجعل القبر سجنا للأشقياء وحسبا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي العجرات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فجدد بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جلسيه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة مواعده ، والجنة والنار مورداه ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا ترجع إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار إلا برصه ، وحقيق بأن بعد نفسه من الموت وبراهها في أصحاب القبور ، فان كل ماهو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ^(١) » ولن ييسر الاستعداد للشي إلا عند تجديد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأصغاء إلى المذكرات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمم الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحشا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

(الشطر الأول في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب :)

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتي بالمسكافة في المنام .

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة
الخاصة فمن هو
في مقام المحبة العامة
الثابتة بحكم الإيمان
لا يكون له قبض ولا
بسط وإنما يكون له
خوف ورجاء وقد يجد
شبه حال القبض وشبه
حال البسط ويظن
ذلك قبضا وبسطا
وليس هو ذلك وإنما
هو ثم يستريح فيظنه
قبضا واهتزاز قضائي
ونشاط طبيعي يظنه
بسطا والهم والنشاط
يصدران من محل
النفس ومن جوهرها
لبقاء صفاتها ومادامت
صفة الأمانة فيها بقية
على النفس يكون منها
الاهتزاز والنشاط والهم
وهج ساجور النفس

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره)

اعلم أن التهمك في الدنيا المكسب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه وقرر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم - قل إن للموت الذي تفرون منه فانه ملائكتكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ. أو عارف منته أما التهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للناسف على دنياه ويشغل بخدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبش به من قلبه الخوف والحشية فيقيم بتعام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه»^(١) فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجه رضاه فلا يدركها للقاءه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء وإلا التحق بالتهمك في الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقاءه لحبيبه والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطنه بحسب الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفزع من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الفنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فأذن التائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأولى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغايق والمنتهى ، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثوابه وفضل فان التهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينقص عليه نصيبه ويكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات»^(٢) معناه نقصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا»^(٣) وقالت عائشة رضي الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»^(٤) وأما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الاتهمك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت»^(٥) وأما قال هذا

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه)

(١) حديث من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسل إسناد حسن .

والفشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحل وذا قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايمان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي يقبضك عمالك ويبسطك فيما له وقال النوري يقبضك بياك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في غناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداومة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والاطلاق نعمة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من العاصي إلا باللمم والصفائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنبه الكبائر وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراساني «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكررات اللذات قالوا وما مكررات اللذات قال الموت» (٢) وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يخلص الذنوب ويذهب في الدنيا» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالموت مفرقا» (٤) وقال عليه السلام «كفى بالموت واعظا» (٥) . «وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال : اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (٦) . «وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فاحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه بذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك» (٧) وقال ابن عمر رضي الله عنهما «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عشرين عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال : أكثرهم ذكر الموت وأشد هم استعدادا له أولئك هم الأكيس ذهابوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (٨) وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع ابن خثيم ما قائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحد اوسلوني إلى ربي سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تفي فيها الموت فلا تنجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكونون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعنا عن لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاء الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكررات اللذات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مر سلا وروينا في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يخلص الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقا الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الجبلي مر سلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول فقد كره بلافا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عشرين عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة
فتارة مغلوبة وتارة
غالبة والقبض والبسط
باعتبار ذلك منها
وصاحب القلب تحت
حجاب نوراني لوجود
قلبه كما أن صاحب
النفس تحت حجاب
ظلماني لوجود نفسه
فاذا ارتقى من القلب
وخرج من حجاب
لا يقيد الحال ولا
يتصرف فيه فيخرج
من تصرف القبض
والبسط حيثنق فلا
يقبض ولا يبسط مادام
متخلصا من الوجود
النوراني الذي هو القلب
ومتحققا بالقرب من
غير حجاب النفس
والقلب فاذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وذل مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قال لا يقول في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما ترام إلا والهمين . وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فأعما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أكرهى ذكر الموت يرق قلبك فقلمت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظمى فقال ألتست أول خليفة يموت قال زدني قال ليس من آباءك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك لا كز الموت وكان يقول لو فارقت ذكر الموت فلي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نقص على أهل النعم نعيمهم فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش منيعة عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأبي هرون : أتحب الموت ؟ قالت لا ، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته (بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة تفكيرهم فيه وذكرهم له ومن يذكركه ليس يذكركه بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ القلب من كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة عنخرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرجه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه ويجمع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف يحال التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا لنساءهم وأيتيموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فبهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمل له للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانغداعه بمواتة الأسباب وبركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الدريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع صممه النداء إما بالجنة أو بالنار فند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كففلتهم وستكون عاقبته كما قبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فقد تفكك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو راجعا إلى الله عز وجل تضعونه في صدى من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب فإلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب حتى يقاب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستمد له ويشجاني عن دار الضرور وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء والبقاء يسود إلى الوجود والنوراني الذي هو القلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أولا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقع في الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط البسط وذلك أن الولد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتشرق النفس السمع عند وتأخذ نصيبها فإذا وصل أثر الوارد

قليل الجدوى في التحذير والتنبية ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا يقضى أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال والله لو لا الموت لكنت بك مسرورا ولولا المناصير إليه من ضيق القبور اقربت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .
(الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الأمل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لضعفك فانك يا عبد الله لا تدري ما أصابك غدا » (١) وروى علي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبيض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل » (٢) وقالت أم المنذر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا نأكله ولا نأكلون ما لا ندركون وتبنون ما لا تسكنون » (٣) وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روعي ولا رفت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض ولا لثمت لقمة إلا ظننت أني لأسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم إن كنتم تغفلون ففسدوا أنفسكم من اللوثي والذي نفسي بيده - إن ما توعدون لآت وما أتم بمعجزين - » (٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدري لعل لا أبلغه » (٥) وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا

(الباب الثاني في طول الأمل)

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث كن في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث علي إن أعند ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف (٣) حديث أم المنذر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا نأكله ولا نأكلون الحديث ابن الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعل لا أبلغه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بإسناد ضعيف .

إلى النفس طنت بطبعها
وأفرطت في البسط
حتى تشاكل البسط
نشاطا فتضال بالقبض
عقوبة وكل القبض
إذا قضى لا يكون إلا
من حركة النفس
وظهورها بصفها ولو
تأدبت النفس وعدلت
ولم تبحر بالطغيان تارة
وبالصبيان أخرى
ما وجد صاحب القلب
القبض وما دام روحه
وأنسه ورعاية
الاعتدال الذي يسد
باب القبض متلقى من
قوله تعالى - لكيلا
تأسوا على ما فاتكم
ولا تفرحوا بما
آتاكم - فوارد الفرح
مادام موقوفا على
الروح والقلب لا يكثف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبعدة فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتماطاه ابن آدم ويخجلجه الأجل دون الأمل (١) وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته النايا وقع في الهرم (٢)» قال ابن مسعود هذا الهرم وهذه الختوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الختوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذه فان أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبدالله «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطأ وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأته هذه شدة هذا وذلك الأمل يعني الخط الخارج (٣)» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل (٤)» وفي رواية وتنبأ معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وبهلك آخر هذه الأمة باليخل والأمل (٥)» وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يشير بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فساءله عيسى عن ذلك فقال بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت للمسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقامت إلى مسحاتي وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا أجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء (٦)» وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (٧) الآثار : قال مطرف بن عبدالله لو علمت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالفيلة عن الموت ولولا الفيلة ماتوا بعيش ولا مات بينهم الأسواق. وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولا هما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحق ولولا ذلك لم يهنأ العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبدالله بن الشخير وقال سن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطأ الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل وفي رواية ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وبهلك آخر هذه الأمة باليخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهه ولا أدري من حوشب.

ولا يستوجب صاحبه القبس سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء إلى الله وإذا لم يلتجئ بالايواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى الممنوع منه فمن ذلك القبس في بعض الأحيان وهذا من أطف الذنوب الموجبة للقبض وفي النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ثم الخوف والرجاء لا يدمهما صاحب القبس والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة لأنهما من ضرورة الإيمان فلا يندمان وأما القبس والبسط

عمزت الدنيا بقلعة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجزتني حتى أضحتني مؤملا
الدنيا ولولت يطالبه وغافل وليس بفعل عنه وضاحك ملة فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه
أم راض وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأخوة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله
ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام
فقلت أي الأعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس
بأكل الفليظ ولا لبس العباءة وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام
والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تنسل
فيضك فقال الأمر أجعل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من ورائكم
وقال بعضهم أنا كرجل هاد عنقه والسيوف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت
أن أعيش شهرا لم أبق قد أتيت عظيما وكيف أوئيل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل
والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائمي مصرور
فقال له أستاذك إيش هذا معك فقال لوزات دفها إلى أخ لي وقال أحب أن تظفر عليها فقال يا شقيق
وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا تكلتك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر
ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى
وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطلون عليكم الأمد فتفسد قلوبكم
وتنقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا عسى بعد صباحه وربما
كانت بين ذلك خطفات المنايا وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وإعما تفر عين من وثق بالنجاة
من عذاب الله تعالى وإعما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يدوي كلها إلا أصابه جرح من
ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا ينهي عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر
عيبي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الفنى والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به
النجوم لانكدرت ولو عنيتم به الجبال لدايت ولو عنيتم به الأرض لثقت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة
والنار مثقلة وأنكم سائرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة
والتوسط بينهما اللوت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا طويل
واللوت من الإنسان قريب ولتنقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادى
بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمه خلف ظهره وأجله بين عينيه
فما أصاب الخطيئة حول فجعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سبيط سمعت أبي يقول
أيها المفتري بطول محنته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها المفتري بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير
عدة إنك لو فسكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبالصحة تفكرون أم بطول العافية
تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك
ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم
الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه
سألت ابن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى بوهب بن منبه فاذا
فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك
واقصرت من حرصك وحيلك وإعما يلغاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلك أهلك وحشمتك
وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسانك زائدة فاعمل

فينممان عند صاحب
الإيمان لتقصان الحظ
من القلب وعند صاحب
الفناء والبقاء والقرب
لتخلصه من القلب
وقد يرد على الباطن
قبض وبسط ولا
يعرف سببها ولا
يغنى سبب القبض
والبسط إلا على قليل
الحظ من العلم الذي
لم يحكم علم الحال ولا
علم المقام . ومن أحكم
علم الحال والمقام لا يغنى
عليه سبب القبض
والبسط وربما يشبهه
عليه سبب القبض
والبسط كما يشبهه عليه
الهم بالقبض والنشاط
بالبسط وإعما علم
ذلك لمن استقام قلبه
ومن عدم القبض
والبسط وارتقى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فيسكن سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فأتى أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلكك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منسكرك ونكسر فيقعدانك وينتيرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحث الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجمع بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأبقت النامنين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب التقيين فاعلمنا نحن بهوله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم غلاب وشقي غدا عبيد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجته التي عرضها السموات والأرض وإعما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وقانيا يباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بدمكم الباؤون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون فادياورنا نحن إلى الله عز وجل قد قضى نحبنا واقطع أمله فتضمونه في بطن صدع من الأرض غير موسى ولا نبي بعده قد خلع الأسباب وفارق الأحياب وواجه الحساب وإيم الله إني لأقول مقاتلي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ولكننا سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يسكني حتى بلغت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القمقام بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهايته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أكنافك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبهت فوجدت ناحية وهي تدفن فجلت فوجدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد نصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب . واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشغوم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إما يندمون على ما غفلوا عنه ويفرحون بما قدموا وما ندموا عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصل صلاة أخرى فعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظلم عنها فكم من عامر موثق عما قليل يغرب وكم من مقيم منتبسط عما قليل يظلم فاحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضرنكم من الثقة وتزودوا فان خير الزاد التقوى إما الدنيا كئيب ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قمر العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حنقه فسلبه آثاره ودياره وصير لقوم آخرين مصانعه ومضاه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تقصر إنما تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

ففسه مطمئنة
لا تنفخ من جوهرها
نار توجب القبض ولا
يتلاطم بحر طبعها من
أهوية الهوى حتى
يظهر منه البسط وربما
صار لمثل هذا القبض
والبسط في نفسه لا من
نفسه فتكون نفسه
الطامشة بطبع القلب
فيجري القبض
والبسط في نفسه
الطامشة وما لقلبه قبض
ولا بسط لأن القلب
متحصن بشعاع نور
الروح مستقر في دعة
القرب فلا قبض ولا
بسط (ومنها الفناء
والبقاء) قيل
الفناء أن يغنى عن
الحظوظ فلا يكون
في شيء حظ بل يغنى

أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوهم العجبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يسطون القلعة في مواطن الحرب قد تضرع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا .

(بيان السبب في طول الأمل وعلاجه)

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وشبهواتها ولذاتها وعلاقاتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيجنى نفسه أبدأ بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كغاطي هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصبر شيئا فإذا صار شيئا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويغضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تحتطفه النية في وقت لا يحتسبها فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف والسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعو إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون الخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيات فما يفرغ منها إلا من أطرحها .

فما قضي أحد منها لباته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ** (١) . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شيا به فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فائما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وريبع من ليل ونهار اعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن يشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألقه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يفتيس نفسه بغيره ويهمل أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يسطى به لحدده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسبب الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها
شغلا بمن في فيه
وقد قال عامر بن
عبد الله لأبالي
امرأة رأيت أم حانطا
ويكون عفوفا فيها
فله عليه مصروفا
عن جميع الخالقات
والبقاء يعقبه وهو
أن يخفى عماله ويخفى
بما لله تعالى . وقيل
الباقى أن نصير
الأشياء كلها له شيئا
واحدا فيكون كل
حركته في موافقة
الحق دون مخالفة
فكان قانيا عن
المخالقات باقيا في
المواقفات . وعندى
أن هذا الذى ذكره
هذا القائل هو

الباقية من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطيئة هو الذي يحو عن القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استبكت أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منقص فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أماناً كان مستهدفاً فازفوا عظيماً وأماناً كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خساراً مبيناً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاهالة وكيف تنفت عظامها وليتفكر أن الدود يبدأ بحديثه المبني أولاً وليسرى لها على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وواله منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

(بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره)

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء يشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى - يودّ أحدكم لو يعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترفوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم» (١) ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستمد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه استنعت اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعد لإلتهازه وأماله فلا قال عيسى عليه السلام «لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يحاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح» ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتيها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حديث أنه كان يصلي ليلاً وابتلغت يمينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

مقام صحة التوبة
النصح وليس من
الفناء والبقاء في شيء
ومن الإشارة إلى الفناء
ماروى عن عبد الله
ابن عمر أنه سلم عليه
إنسان وهو في الطواف
فلم يرد عليه فشكا
إلى بعض أصحابه فقالوا
له كنا نترامى الله في
ذلك المكان . وقيل :
الفناء هو النية عن
الأشياء كما كان فناء
موسى حين تجلى ربه
لجبل . وقال الحرّاز :
الفناء هو التلاشي
بالحق والبقاء هو
الحضور مع الحق .
وقال الجنيد : الفناء
استجمام الكل عن
أوصافك واشتغال
الكل منك بكنيته

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترفوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لأنتمما أخرى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في البادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فانه يعنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يفل عنه ساعة فلا يستعمل الموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة الناحلة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يأسكين فان السیرحات بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا ببادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه .

(بيان البادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فلا استعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسما في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هراما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والنساء أدهى وأمر ^(١) » وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لم رجل وهو يظنه « اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ^(٣) » أى أنه لا يشتملها ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه ^(٥) » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة ^(٦) » وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المفير والساعة الوعد ^(٧) »

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذى من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ الصنف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسل (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذى وحسنه ابن حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المفير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين .

وقال إبراهيم بن شيان علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية وصحة العبودية وما كان غير هذا فهو من المغالط والزندقة . وسئل الخراز ما علامة القاني ؟ قال علامة من ادعى الفناء ذهب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى . وقال أبو سعيد الخراز : أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحهم علم البقاء وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحهم علم الفناء .

واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر **خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه** (١) وقال صلى الله عليه وسلم **مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع** (٢) وقال جابر **كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيّتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه** (٣) وقال ابن مسعود **رضي الله عنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقبيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجاني عن دار الضرر والالابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله** (٤) وقال السدي - **الذي خلق الموت والحياة ليولكم أياكم أحسن عملا - أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا** وقال حذيفة **ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر - في الموت وقال مسجيم مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال أرخصي بما جئتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقامت عنه وقام إلى صلاته ومرداود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضي الله عنه التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة - وقال للنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أجمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته **المبادرة المبادرة فانما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تقر بون بها إلى الله عز وجل ورحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية - إنا نهد لهم عددا - يعني الأتقاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا فقبل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرملت تقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: **عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحبهم فانتهوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم ورحلوا فقد جد بكم وإن غابة تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر للدعوان غابا يجد به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة وإن قادما يهل بالفوز أو الشقة والمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به بمنية التوبة ليسوفها ويزين إليه العصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا اللوت أن ينزل به فيها حسرة على ذي غفلة******

(١) حديث ابن عمر **خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه** ابن أبي الدنيا فيه بأسنا وحسن والترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له (٤) حديث ابن مسعود **تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم -**

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخلوقات وبقاء اللواقف وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للذمومة وبقاء الأوصاف الحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيقلب كون

أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تنقصه
عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه مبيع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فعال لما يشاء وقال
بعض المفسرين في قوله تعالى - فنتنم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قال بالتوبة - وارتبتم -
قال شكركم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغرکم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن
تصبروا وتشددوا فانما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب
ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما يحضر تكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله
عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات
فيه فقال مرحبا بكم وأهلاً بكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم
وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسموه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه
الأذن فإن من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحاً لم يضع لينة على إنبته ولا قصبة على قصبة
ولكن رفع له علم فشمروا إليه الوحا الوحا التجالنجاع لعل تمرجون أنتم ورب السكرة كأنكم والأمر
معا رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً كل كسرة وليس خلقوا لرق بالارض واجتهد في العبادة
وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(١) . وقال عاصم الأحول
قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخص إليك
دونهم ولا تنقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لاشئ فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئا
قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم .

(الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عنده)

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد للمسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد هالكان
جديراً بأن يتنفس عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه
فكره ويعظم له استمداده لاسيما وهو في كل نفس بصده كإقال بعض الحكماء كرب يبدسواك لا تدرى
متى يفشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدرى متى يلقاك استمد له قبل أن يفجأك والعجب أن
الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس الله فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس
خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت
بسكرات التزع وهو عنه غافل لما لهذا سبب الإلجھل والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات
الموت لا يمر فيها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فاعلم يعرفها بإمساقياس إلى الآلام التي أدرکها وإما
بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو
لأرواح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرک للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح
أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر
الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم
ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستفرق جميع أجزائه حتى لم يبق
جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي
يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر
الاحتراق لأن أجزاء النار تنفوس في سائر أجزاء البدن فلا يفيى جزء من العضو المحترق ظاهراً

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث
ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى
على كون العبد وهو
ينقسم إلى فناء ظاهر
وفناء باطن فأما الفناء
الظاهر فهو أن
يتجلى الحق سبحانه
وتعالى بطريق الأفعال
ويسلب عن العبد
اختياره وإرادته فلا
يرى لنفسه ولا لغيره
فعلاً إلا بالحق ثم
يأخذ في المعاملة
مع الله تعالى بحسبه
حتى سمعت أن بعض
من أقيم في هذا
المقام من الفناء كان
يبقى أياماً لا يتناول
الطعام والشراب حتى
يتجرد فعل
الحق فيه ويقبض
الله تعالى له من

وباطنا وإلا تصيبه النار فتحسسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فأنما تصيب للوضع الذي منه الحديد قطع فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم التزعج يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه التزعج المجدوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربيه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان التناول للباشر نفس الروح وإنما يستتبع المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك قوة الاستغناء . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغناء ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزول الروح وجذبها خوارجا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه وارتدت حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم ينتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأثنيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجدوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجدوب نفس الروح التآلم لامن عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فبدأ ولا قدماء ثم ساقاه ثم غفاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويفلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تقبل توبة العبد ما لم يفرغ» (١) وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عاب الرسل ففند ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت» (٢) والناس إنما لا يستغيثون منه ولا يستعظمونه لجعلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن هوّن على هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفا من الموت على الموت . وروى أن نهارا من بني إسرائيل مرّوا بقبرة فقال بعضهم لبعض لودعونا الله تعالى أن يخرج لكم من هذه القبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت . من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يموت عليه الموت بعد الذي رأيته من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول «اللهم إنيك تأخذ الروح من بين العصب والعصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوّنه علي» (٣) وعن الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغشته وألمه فقال

بطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمري فناء لأنه في عن نفسه وعن الغير نظرا إلى قول الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف نارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هوّن على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنيك تأخذ

الروح من بين العصب والعصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة

ابن غيلان الجهني وهو معضل سقط منه الصحابي والثاني .

هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف^(١)». «وسئل صلى الله عليه وسلم عن اللوت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف^(٢)». «ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إني أعلم مايلقي مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته^(٣)» وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن الميت يجد ألم اللوت ما لم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالناشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدر ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما اتفعوا ببئس ولا ذواب نوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يلفها بعمله شدد عليه اللوت ليلغ بسكرات اللوت وكرهه درجته في الجنة وإذا كان الكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفة فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون اللوت ■ مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسي تخرج من قف إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر^(٤)» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو أن شجرة من شجر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بأذن الله تعالى لأن في كل شجرة للوت ولا يقع اللوت بشيء إلا مات^(٥)» وروى «لو أن قطرة من ألم اللوت وضعت على جبال الدنيا كلها لهابت^(٦)» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي ■ كنفود جبل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسي كالصفور حين يقلى على القلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسي كشاة حية تسلم يد القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء عند اللوت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت^(٧)»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر اللوت وغصته وأله فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث مثل عن اللوت وشدته فقال إن أهون للوت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني لأعلم مايلقي مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذه أسف (٥) حديث مكحول لو أن شجرة من شجر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا الحديث ابن أبي الدنيا في اللوت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه لو أن ألم شجرة ■ وزاد وإن في يوم القيامة لتسعين هولًا أدناها هولًا يضاعف على اللوت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من اللوت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لهابت لم أجده أصلاً ولعل المصنف لم يورده حديثاً فإنه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند اللوت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات اللوت متفق عليه من حديث عائشة.

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الحنفى وكان عندي أن ذلك من الشرك الحنفى فقال لي هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الحنفى أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوشت أسطوانة في الجامع فارتعج لهدتها أهل السوق فدخلوا للمسجد فرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطنياً ثم قد يتسع دعاؤه حتى لعله يكون

وفاطمة رضى الله عنها تقول واكره لسكرتك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أيك بعد اليوم^(١) وقال عمر رضى الله عنه لسكرت الأجير يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كمن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة برق ثم جذب رجل شديدا لجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقتك إلى يوم القيامة^(٢) » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه « فما حالنا ونحن النهمكون في المعاصي وتوالي علينا سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزاع كاذكرناه . الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القاب فلو رأى صورته التي قبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترى صورتك التي قبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لميب النار والدخان فتش على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي رجل في الدار قالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليقين منه عناء جاء . داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا أهلب الملوك ولا يمنع مني الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه^(٣) » وروى أن عيسى عليه السلام مر بمحمجة فضر بها برجله فقال تكلمي بأذن الله قالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمتي على سريري ملكي إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حاله ثم خرجت نفسي إليه فبليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة وبليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقيها العاصاة ويكنهاها الطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتنفس عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال . وأما الطيع فانه يراه في أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربهما فقال أنا ربهما فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترى الصورة التي قبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب قد كثر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ، ومنها مشاهدة المالكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يترأى ملكاه

متحققا بالقضاء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الأذن في كليات أموره ليكون في الأشياء باقلا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان صاحب الانتظار لا إذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله بباطنه في جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باق والباقي في مقام

(١) حديث إن فاطمة قالت واكره لسكرتك يا أبت الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ واكره أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكره (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رواه في الأربعين لأبي هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبي هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه .

الساكنين عمله فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح
أحضرتنا ، وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح
أحضرتنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى
الدنيا أبدا . الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل الشاهدة فانهم في حال
السكرات قد تخاذلت قوام واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسموا الله ملك
الموت بأحد البشريين إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف
أرباب الأبواب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره
وحق يرى مقعده من الجنة أو النار ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له
عماهو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ^(٢) » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود
وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أرى ساعة هي تمام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحراء فقال
حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه
فقال أبو هريرة اللهم اشدد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم
ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم نار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال « إن الله إذا رضى عن عبد قال يملك الموت اذهب إلى فلان فأتى بروحه لأريحه حسبي
من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان
الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين
لخروج روحه معهم الريحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده
مالك يا سيدنا فيقول أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به
فكان مصوما ^(٣) » وقال الحسن لأرواح المؤمنين إياي لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى
قيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال
نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال يا أخواناه الساعة
والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا أخواناه عليكم السلام إلى النار
أو بهواه وتبني بعضهم أن يبقى في التزعج أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . نخوف سوء الحاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحق يرى مقعده من الجنة أو النار
ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن طي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا
حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام طي نفس أن يخرج من الدنيا حتى تعلم من
أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد بذلك إن المؤمن
إذا حضره الموت حضره رضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر حضره عذاب الله وعقوبته الحديث
(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه الحديث متفق عليه
من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال يملك الموت اذهب إلى
فلان فأتى بروحه لأريحه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد
ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللإسناد
من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيقولون اخرجني
راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا يحجبه الحق عن
الخلق ولا الخلق عن
الحق والقائى محبوب
بالحق عن الخلق
والقاء الظاهر لأرباب
القلوب والأحوال
والقاء الباطن لمن
أطلق عن وثاق
الأحوال وصار بالله
لا بالأحوال وخرج
من القاب فصار مع
مقلبه لأمع قلبه .

[الباب الثانى والستون]
فى شرح كلمات مشيرة
إلى بعض الأحوال فى
اصطلاح الصوفية
أخبرنا الشيخ الثقة
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي بن سليمان
إجازة قال أنا أبو الفضل
أحمد بن أحمد قال أنا
الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لا نثق بهذا الوضع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .
(بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت)

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويشت شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيظ الخنوق واحمر لونه واربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به ^(١) » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ^(٢) » وفي رواية حذيفة « فاتها تهديم ما قبلها من الخطايا ^(٣) » وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ^(٤) » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضي الله عنه : احضر واموتاكم وذكرهم قائم يرون مالا ترون ولقنوم لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فظفر في قلبه فلم يجد فيه شيئا فذك لحية فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا إله إلا الله ففصر له بكلمة الاخلاص ^(٥) » وينبغي للملقن أن لا يلج في التلقين ولكن يلفظ فرجما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استنقاه التلقين وكراهيته للكلمة ويغشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة . وإعما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغوبا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على حقيقتها وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن بفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكن أرجو رحمة ربي فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ^(٦) » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وفرفت عيناه الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فاتها تهديم ما قبلها تقدم (٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فظفر في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٦) حديث دخل وائلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا .

الأصفهاني قال شاهد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت ■ الزيادة فيه وإعما زهد الرجل في علم مالم يعلم قلة الاتضاع بما قد علم ■ فتشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما طموا لموضع تقواهم فلههم الله تعالى مالم

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف^(١) وقال ثابت البناني كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يا بني إن لك يوما فاذا ذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتبت عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما فقال يا أمه إن لي ربا كثير للعروف وإنني لأرجو أن لا يدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصي بشي قال نعم خاتمي لاسليبيه فإن فيه كرام الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رؤي في المنام فقال أخبروا أمي أن السكينة قد نلتني وأن الله قد غفر لي . ومريض أعرابي فقيل له إنك تموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال لما كراهني أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو العتمر بن سليمان قال أبي لما حضرته الوفاة يامعتر حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكروا لصيد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

(بيان الحسرة عند لقاء ملك اللوت بحكايات يعرب لسان الحال عنها)

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك اللوت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك اللوت ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع قال أدعو الأرواح باذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك اللوت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي مصحف أو كتب تلتق إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فدعا بشباب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غير هاتين لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ففلاها كبراً ثم سار وسارت معه الحيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرافجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن قهره على اللجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى لمرأسته فساره وقال أنا ملك الموت فخير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضى حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتهلك أبدا قبض روحه فخر كأنه خشية ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته طي فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر طي أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر طي ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتومئناً وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روحه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتى بشي كثير من الخيل والابل والريق وغيره فلما نظر إليه بكى نحسراً عليه فرأه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فو الذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هي بات اقتطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روحه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذه وابنتي قصراً وجعل عليه بائناً وثميناً وجمع عليه حرساً من غلماناه ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد طي سريره ورفع إحدى رجله طي الأخرى وهم يأكلون

(١) حديث دخل طي شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم .

يطوا من غرائب
العلوم ودقيق الاشارات
واستنبطوا من كلام
الله تعالى غرائب العلوم
وعجائب الأسرار
وترسخ قدمهم في العلم
قال أبو سعيد الخزاز
أول الفهم لكلام الله
العمل به لأن فيه العلم
والفهم والاستنباط
وأول الفهم لقاء السمع
والمشاهدة لقوله تعالى
- إن في ذلك لذكرى
لمن كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيـد .
وقال أبو بكر الواسطي
الراسخون في العلم هم
الذين رسخوا بأرواحهم
في غيب الريب وفي
سر السر ففرهم
ما عرفهم وأراد منهم
من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال يانفس انصبي لسنين فقد جمعت لك مايكفيك فلم يخرج من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه غلالة يتشبه بالمساكين قمرع الباب بشدة عظيمة قرعاً أفزعوه وهو على فراشه فوثب إليه الغلمان وقالوا ماشأ بك فقال ادعوا إلى مولانا كم قالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فظلم به وفعلتم قمرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أني ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الدل والتخضع فقال قولوا له قولاً لنا وقولوا له تأخذ به أحداً فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغفتني عن عبادة ربي ومنعتني أن آتخلى لربي فأنطق الله إليك فقال لم تصبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد التقي عن باهمم وكنت تتكبح التمتع بي وتجناس بحال للوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فمنطلق ير ومنطلق يار ثم قبض ملك الموت روحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء وقالت لللائكة لمن كنت أشد رحمة بمن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيته وقد ولدت مولوداً فرحمته لثربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا تمتعه له بها فقالت لللائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك الولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان الطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال قبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإن البديل يفرس القراس وينكح الأزواج ويبنى البنيان وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجدته منهم قد استوفى رزقه واقتضى أجله قبض روحه فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بضادتي الباب فيقول والله ما كنت له رزقا ولا أفيت له عمرا ولا انتصت له أجلا وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بينا جبار من الجبابرة من بني اسرائيل جالس في منزله قد خلا بعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مضطربا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري فقال أما الذي أدخلني الدار فربها وأما أنا فوالذي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على للوك ولا أخاف صولة للتسلطين ولا يمنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مرید قال فسقط في يد الجبار وارتد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهدا قال هيأت انعطام مدتك وانقضت أنفاسك وتفتت ساعاتك فليس لي تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته قال فاني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فإلى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وبك قال يزيد الرقاشي لو يملكون سوء النقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خزيمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال أقدر أيته ينظر إلى كأنه يريدني قال فإذا تريد قال أريد أن تغلصني منه فأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أقام ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي . قال نعم كنت أتعب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك ففعلت من ذلك .

مالم يرد من غيرهم
وخاضوا بحر العلم
بالفهم لطلب الزيادات
فانكشف لهم من
مدخور الحزائن
والخزون تحت كل
حرف وآية من الفهم
وعجائب النص
فاستخرجوا الدرر
والجواهر ونطقوا
بالحكمة . وقد ورد
في الخبر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
فيما روى سفيان بن
عيينة عن ابن جريج
عن عطاء عن أبي
هريرة أنه قال إن من
العلم كهشة المسكون
لا يملأه إلا العلماء بالله
فإذا انطقوا به لا ينكره
إلا أهل القرة بالله .
أخبرنا أبو زرعة قال

(الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)

(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفلاوة ولا وجميع أحواله عبرة
لناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه
وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته
لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام للوكيلين ببعض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها
وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسن بل إلى مقصد صدق في جوار
الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر أُنْبُيْهِ وتَرادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه
واضطربت في الانقباض والانبساط فماله وبينه حتى بكى لمصرعه من حفره وانتحب لشدة حاله من
شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك في أهلا وعشيراه هل ساعه
إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيات بل امتل ما كان به مأمورا واتبع ما وجد في اللوح
مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو القام المحمود والحوض اللورود وهو أول من تنشق عنه
الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالسبب أنا لانعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن
أسراء الشهوات وقرناء المصاحي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المؤمنين
وحبيب رب العالمين لمنا نظن أننا مخلدون أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيات
هيات بل نتيقن أننا جميعا على النار واردون ثم لا نجو منها إلا التفتون فنحن اللورود مستيقنون
والصدور عنها متوهمون لا بل ظننا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين لما نحن والله
من المؤمنين وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تجي
الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فليُنظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى
المؤمنين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وقفوا له من
الخطائين ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمته على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المؤمنين
واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى قال
ابن مسعود رضي الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله
عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم
الله أو أياكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله إلى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا
على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدة المنتهى وإلى جنة المأوى
وإلى السكاس الأولى فاقروا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة
الله (١) » . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

(الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت آمناء شاة حين دنا القرقي الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

أنا أبو بكر بن خلف
قال ثنا أبو عبد الرحمن
قال سمعت النصراني
يقول سمعت ابن عائشة
يقول سمعت القرشي
يقول هي أسرار الله تعالى
ييدها إلى أسماء أوليائه
وسادات النبلاء من
غير ممان ولا دراسة
وهي من الأسرار التي
لم يطلع عليها إلا
الخوادم . وقال
أبو سعيد الحرّاز
للعارفين خزائن
أودعوها علومًا مغربية
وأبناء عجيبة يتكلمون
فيها بلسان الأبدية
ويخبرون عنها بعبارة
الأزلية وهي من العلم
المجهول فتقوله بلسان
الأبدية وعبارة الأزلية
إشارة إلى أنهم بالله

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بشوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني (١) وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة غفرغ فصلى بالناس واستغفر لأهل أهدود ما لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عبيق التي أويت إليها فأكرموا كريمهم يعني محبتهم وتجاوزوا عن مسيئتهم ثم قال إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكي أبو بكر رضي الله عنه ووطن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر صد وأهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصحبة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضي الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربي وريقه - اللوت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يسجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأوماً برأسه أن نعم فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت آليه لك فأوماً برأسه أن نعم فليتنه وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن اللوت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلأطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثلته فد يده وقالها فتناولوه فقال ماتقولون قالوا تقول نخشى أن نموت وتصاح نساؤم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على طي والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على اللوت كأنه استنكار منكم للوت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتعي إليكم أنفسكم هل خلدني قبلي فيمن بمث فأخذه فيكم ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يسجل لمجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى قال أشير يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل فحدثنا الحديث الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار يختلف فيه عن محمد ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالمنعنة (٣) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربي وريقه عند اللوت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه في حق الخضر - آتيناها رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما - فلما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهمنا من بعضهم لبعض وإشارة منهم إلى أحوال يحذونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة قبل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللاسلكة وأولوا العلم - وقوله تعالى - آمننا بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أنزل إلينا - والجمع أصل والتفرقة

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الفجار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة
ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ألا ولا تستأثروا عليهم
ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن موعدكم الحوض حوضي أعرض مما بين بصري الشام
وصنماء اليمن يصب فيه ميزاب الكوز ماء أشد يابسا من اللبن والين من الزبد وأحلى من الصند
من شرب منه لم يظلمأ أبدا حباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه للسك من حرمة في للوقف غدا حرم الحبر كله
ألا فمن أحب أن يردني على غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما ينفني قال العباس يابني أوصي بقرش
قال إنما أوصي بهذا الأمر قرشا والناس تبع لقرشي برم لبرم وفاجرهم فاجرم فاستوصوا
آل قرشي بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فإذا بر الناس برم أنتم
وإذا فجر الناس عقوم قال الله تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا كما نولي أكسبون- (١)
وروى ابن مسعود رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه سل يا أبا بكر
قال يا رسول الله دنا الأجل قال قد دنا الأجل وتبدل قال لينك يابني الله ماعد الله فليتشمري
عن منقلبنا فقال إلى ■ وإلى سدرة للنتهى ثم إلى جنة للآوى والفردوس الأعلى والسكاس الأوفى
والرفيق الأعلى والحظ والعيش للهنا فقال يابني الله من يلى غسلك قال رجال من أهل بيتي الأذن فالأذن
قال فقيم نفسك ؟ فقال في ثيابي هذه وفي حلة بمانية وفي يابض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا
وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلكموني وكفتموني فضعوني
على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من صلى على الله عز وجل هو
الذى صلى عليكم وملائكته - ثم بأذن للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله
ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك اللوت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى
الله عليهم أجمعين ثم أتم فادخلوا على أفواجا فسلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني
بزيك ولا صيحة ولا رنة وليدأ منكم الامام وأهل بيتي الأذن فالأذن ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان
قال فمن يدخلك القبر ■ قال زمر من أهل بيتي الأذن فالأذن مع ملائكة كثيرة لا رونهم وهم يرونكم
قوموا فأدوا عني إلى من بعدى (٢) « وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن
بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر صلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في
رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس قيام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابني الله ذلك والسلمون قالها ثلاث
مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق
القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإعفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا
مصبوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر قد ذكر خطبته بطولها هو حديث
مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن
ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث في
سؤالهم له من يلى غسلك وفيهم نفسك وكيف الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد
ابن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

فرع لكل جمع
بلا خثرة زندقة
وكل خثرة بلا جمع
تعطيل. وقال الجنيدي
القرب بالوجد جمع
وغيته في البشرية
تفرقة وقيل جمعهم في
الفرقة وفرقهم في
الأحوال والجمع اتصال
لا يشاهد صاحبه إلا
الحق فحق شاهد غيره
لما جمع والتفرقة شهود
لأن شاء بالباينة
وعباراتهم في ذلك
كثيرة والمقصود أنهم
أشاروا بالجمع إلى
تجريد التوحيد
وأشاروا بالتفرقة إلى
الاكتساب فلي هذا
لا جمع إلا بتفرقة
ويقولون فلان في عين
الجمع ينون استيلاء

قال صلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا آتي ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إنني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا لرغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من الخطورة والمهلكة إلا من سلم ■ وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيجسدونه ويغفون عليه ويتشاءمون به فاذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) ■ وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائحهم مستبشرين وأخلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقاء فيينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجني عن هذا للملك يستأذن على فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجرى ■ فجلس وتحت في جانب البيت فاجى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأدور رأسه في حجرى وقال للنفوة ادخلني فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك اللوت جاءني فقال إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بأذن فان لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقضك حتى تأمرني فاذن أمرك فقلت اكفف عني حتى يأتي جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصخرة مانعير إليه شيئا وما يتكلم أحدهم أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فلم يفرك حسه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل قرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمك فقال أجدني وجبا فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يملك ما عدك فقال يا جبريل إن ملك اللوت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يملك الذي يريدك لا والله ما استأذن ملك اللوت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يجيء وأذن للقاء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى مني رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وهي تضعك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها هجيا فسالها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال إنني ميت اليوم فبكيت ثم قال إنى دعوت الله أن يملكك بي في أول أهلي وأن يملكك منى فضحك وأدنت ابنها منه فشهما قالت وجاء ملك اللوت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك سأمرنا يا محمد قال ألقني ربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمة جاء به في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر الحديث أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مروا من يصل بالناس وقال يابى الله ذلك وللؤمنون مرتين وفي رواية له فقال لا لا لا يصل للناس ابن أبي قحافة يقول ذلك منضبا وأما ما في آخره من قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنك صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه
فاذا عاد إلى شيء من
أعماله عاد إلى التفرقة
فضحة الجمع بالتفرقة
وصحة التفرقة بالجمع
فهذا يرجع حاصله
إلى أن الجمع من العلم
بالله والتفرقة من العلم
بأمر الله ولا بد منهما
جميعا . والله للزمن
الجمع عين الفناء بالله
والتفرقة السودبة
متصل بعضها ببعض
وقد غلط قوم وادعوا
أنهم في عين الجمع
وأشاروا إلى صرف
التوحيد وعطوا
الاكتساب فزندقوا
وإنما الجمع حكم الروح
والتفرقة حكم القالب
وما دلهما التركيب
باقيا فلا بد من الجمع

ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما نزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يغير إليه في ذلك كلمة ولا يمشي إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا قالت فقممت إلى النبي ﷺ حتى أضجع رأسه بين يدي وأمسكت بصدري وجعل يغمي عليه حتى يثلب وجهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك الفرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي وتغشى وأهلي ماتلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شذقيه كنفس الحمار فتند ذلك ارتعنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهد أخيه بعثه إلى أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإنما صدم الله عنه لأنه ولاء جبريل وميكائيل وجعل إذا أغشى عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الخيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متأسكين ما صليتم جميعاً الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة (١) قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضي الله عنها ماتت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بظيمة

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالهم مستبشرين وأخبروا رسول الله ﷺ بالنساء فيينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجني عن هذا الملك يستأذن علي الحديث بطوله في مجيئ ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيئ جبريل ثم مجيئ ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته في سماء الدنيا واللائكة يعزونه فيك لما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فأتته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت بهالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد التميم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضاً متروك البدار قطني ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربك كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضاً وفيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في مجيئ ملك الموت أولاً واستئذانه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث (٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

والتفسرة . وقال الواسطي إذا نظرت إلى نفسك فرت وإذا نظرت إلى ربك جمعت وإذا كنت قائماً بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة . وقيل جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه حكماً ونظراً إلى أعماله فهو في التفرقة وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع وجميع الاشارات يبنى أن الكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظر إلى الكون فرق فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فإذا

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فماليق من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتبنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم^(١) وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فان الله عز وجل أيدها بالتوفيق والساد وإن كان الناس لم يعرفوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليزيئك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رباً محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم -^(٢) الآية فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفمل والقمل فأحسب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلاً وهو منكسر (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليزيئك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسبح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله ﷺ وهو منثنى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله . بكي ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد تمتها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيها .

أثبت طاعته نظراً إلى كسبه فرق وإذا أثبتها بالله جمع وإذا تحقق بالنقاء فهو جمع الجمع ويمكن أن يقال رؤية الأفعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع . سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كالم فكان الحكم والحكم هو وكيف كان يطبق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا إياه مع ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك

حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة عظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجئنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفقدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع فيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يتم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (١). وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجل أهل البيت بحبها سمع أهل البيت كل واحد ذكر شيئا ازدادوا لها سكن يحجبهم إلا نسليم رجل طي الباب صبت جلد قال السلام عليكم يا أهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه تقفوا فاستمعوا له وأنصتوا وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء قد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تهكونوا من المخلصين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفحل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في معجم التعزية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه تقفوا ثم سمعوا آخر بعده إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصحبه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يكون قد دخل عليهم رجل طويل شمر للكتفين في إزار ورداء ينخطي أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك قال الله تعالى فأنبؤا ونظروا إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا فبينما هم لا يملأون يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخونينا عليه السلام جاء يبرئنا ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبآله تقفوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدرون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تسلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والعروف عن علي بن الحسين مرسل من غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر الخضر.

القوة مع ولولا
تلك القوة ما قدر
على السمع ثم أنشد
القائل ممتلا :
وبدا له من بعد
ما اندمل الهوى
بقي تألق موهبا
لمانه

يلو ككاشية الرداء
ودونه
سبب القرى تمنع
أركانه
فبدا لينظر كيف لاح
فلم يطق
نظرا إليه ورده
أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه
خلوعه
ولماء ما جمعت به
أجانه
ومنها قولهم التجلى
والاستقار . قال الجنيد

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كآزل وأن الدين كآسرع وأن الحديث كآحدث وأن القول كآقل وأن الله هو الحق البين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومما فاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابشه مقامه محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانقضا بمقامه الم محمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشفلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فليحق بكم ويفتنكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا وكذا وكذا وبوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه - إنك ميت وإنهم ميتون - فقال والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نعتب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لفصله قالوا : والله ما ندري كيف نفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتجرده عن ثيابه كما نضع بموتانا أو نفسله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بق منهم رجل إلا واضح لحيته على صدره ناعما ثم قال لا يدري من هو عسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فصل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قبره فنودينا لا نخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه ففعلناه في قبره كما تفعل موتانا مستلقيا مانشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نخرج منه وإن معنا لحقيفا في البيت كالريح الرخاء وبموت بنا ارفقوا رسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة (١) ففي وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

(وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه)

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بق في حياته فتقدم أيضا .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب (ومنها التجلي) ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه

لعمرك ما بيني الثراء عن الفقى إذا حشر جت يوما وصاق بها الصدر
فكشفت عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه
نخيد - انظروا ثوبى هذين فاعسواهما وكفونى فيهما فان الحق إلى الجديد أحوج من البت .
وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستقى الفمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طيبا ينظر إليك؟
قال قد نظر إلى طيبى وقال إني فاعل عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك . واعلم أن
من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفون الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك، ولما نقل
أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس
له استخلفت علينا فظا غليظا فإذا تقول لربك فقال أقول استخافت على خلقك خير خالقك ثم أرسل
إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن الله حقا في التبار لا يقبله في الليل وأن
الله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافقة حتى تؤدي القرصة وإنما قلت موازين من قلت
موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وتلقه عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يشغل
وإما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفت عليهم وحق لميزان لا يوضع
فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل
أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا
فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للؤمن راغبا راها
ولا يلقى يديه إلى التهلكة ولا يمتنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب
إليك من اللوت ولا بدلك منه وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من اللوت ولا بدلك
منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن السيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء
الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين ؟ قال قاع بين يدي العرش
فيه رياض الله وأنهار وأشجار يشاء كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا
المكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا
للسمير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسمير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت
منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيذا فلا تشفق بمصاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل
أن تخلقها فلا تعص لها مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء
فاجعل مشيتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا تتحرك شيء
إلا بأذنك فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عملا
يعمل به فاجعلني من خير الصالحين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا
فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم فاشرح صدري
للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأجني بيد اللوت حياة
طيبة وقربني إليك زلفي . اللهم من أصبح وأمسى تمته ورجاؤه غيرك فأنت تقى ورجائي ولا حول
ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل .

لهم ولنيرهم فأما لهم
فلا تنهم به يرجعون
إلى مصالح النفوس وأما
لنيرهم فلا تنلوا مواضع
الاستئثار لم ينتفع بهم
لاستفراقهم في جمع
الجمع وبروزهم لله الواحد
القهار . قال بعضهم
علامة تجلني الحق
للأسرار هو أن لا يشهد
السر ما تسلط عليه
التصوير ويحويه القهم
فمن عبر أوفهم فهو
صاحب استدلال لا ناظر
اجلال . وقال بعضهم
التجلى رفع حجة
البشرية لأن يتلون
ذات الحق عز وجل
والاستئثار أن تكون
البشرية حائلة بينك
وبين شهود الغيب .
(ومنها التجريد والتفريد)

(وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه)

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر ما بين وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفيين قام بينهما فإذا رأى خلا قال استوا حتى إذا لم يرفهم خلا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فها هو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلني أو أكلني السكب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملق بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد عينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملق أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم قد دوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فضلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام الغيرة بن شعبة فقال عمر رضي الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني يدا رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فعلت : أي إن شئت قتلنا قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وجبوا حرككم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأتى بنيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فصرفوا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبتري أمير المؤمنين يبشرى من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا على ولا لى فلما أدبر الرجل إذا إزاره يحس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أتقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين لحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلّا نسل في بني عدى بن كعب فإن لم تصف أموالهم فسل في قريش ولا تهدم إلى غيرهم وأد عني هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تغفل أمير المؤمنين فأتى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدوها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريدك لنفسى ولأولادى اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال مالك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لى فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها فتننا فوجلت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فوجلت داخل فسمعا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء الغر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس لهم الأمر شيء كهيئة التعمية له فإن أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستن به أيكم أمر فأتى لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصى لحليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمهم وأوصيه بالأنصار خير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقل من محسنهم وأن يعف عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خير أقاتهم رده الإسلام

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وإقيادا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن مكسبه (ومنها الوجد والتواجد والوجود) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ويضربه عن هيئته

وجاء الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فاتهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حوائج أموالهم ويرد على قرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بهدم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نحمي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فتألت أدخلوه فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر ^(١) » وعن ابن عباس قال بوضع عمر على سريره فتكفئه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجلا قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن لي جعلتك الله مع صاحبك وذلك أتي كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهب أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ^(٢) » فاني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

(وفاة عثمان رضي الله عنه)

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور قد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلو فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين يدي وبين كتفي وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشجع عثمان في اللوت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشخط ؟ قالوا مصناه يقول اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال اتوني بصاحبيكم الذين ألباكم على قال فجئ بهما كأنما هما حملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستحب غير بر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين غير له منها في الجنة فاشترتها من صلب مالي فأتتم اليوم تمنوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون آتى جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن للسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في السجد بغير منها في الجنة فاشترتها من صلب مالي فأتتم اليوم تمنوني أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارتها بالحضيض قال فركنه برجله وقال اسكن ثبير لما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكلمة آتى شهيد ^(٣) . وروى عن شيخ من صبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكفئه الناس يدعون ويصلون فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذي وقال حسن والنسائي .

وتطلع إلى الله تعالى وهو فرحة يجدها القلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بمرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربني وجدى فأقصدي عن رؤية الوجد من في الوجد موجود والوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم
إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليني .

(وفاة علي كرم الله وجهه)

قال الأصمعي الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر
يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عثرته وهو يقول:

اشدد حيازك للموت فان الموت لا يقا

ولا تجزع من الموت إذا حصل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول
مالي ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن
علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنه
ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله
عنه فقال يا أخي لأى شيء تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبو الكوفة وعلى خديجة
بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجعفر وهما عمك قال يا أخي أقدم على أمر لم أقدم على مثله
وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنهما آمن منهم قاتلوه فقام في أصحابه
خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتكررت وأدير معروفها
وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كعبابة الإناء ألا حسبي من عيش كالمري الويل لأتروا الحق لا يعمل به
والباطل لا يقناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى الموت لإسماعدة والحياة مع الظالمين إلا جرماً .

(الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين)

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أتعذوني فأتعذني فجل يسبح الله تعالى ويدكره ثم بكى
وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضريان وبكى حتى
علا بكأوه وقال يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحملك
على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه
في مرضه فرأوا في جلده غصونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإني أجمع لإماما جربنا ورأينا
أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثنا الدنيا أن نهضت ذلك منا حالا
بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من
دار ثم أف لها من دار . وروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع
قد استحصد وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى كما كان من قبلى خيراً منى
ويا يزيد إذا وفى فوول غسلى رجلاً لبيا فان اللبيب من ■ ■ ■ يمكن فلينعم القسل وليجهر بالتكبير
ثم اعهد إلى منديل في الحزاة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة من شعره وأظفاره
فاستودع القراضة أننى وفى وأذن وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ
وصية الله فى الوالدين فإذا أدرجتموني فى جسد يدى ووضعتوني فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم
الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلاً من قريش بذي طوى
وإني لم آل من هذا الأمر شيئاً . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق
يلوى ثوباً بيده ثم يضرب به للفضة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسلاً كل من كسب يدى يوماً يوم

(ومنها الغلبة) الغلبة

وجد متلاحق فالوجد

كالبرق يبدو والغلبة

كتلاحق السبق

وتواتره يقبب عين

للمخيم فالوجد ينطقه

سريماً والغلبة تبقي

للأسرار حرزاً منيعاً .

(ومنها السامرة) وهى

تفرد الأرواح بحسنى

مناجاتها ولطيف

مناجاتها فى سر السر

بلطيف إدراكها

للقلب لتفرد الروح بها

فتلذذ بها دون القلب

(ومنها السكر والصحو)

فالسكر استيلاء

سلطان الحال والصحو

العود إلى ترتيب الأفعال

وتهذيب الأقوال

قال محمد بن خفيف

(الباب الخامس فى كلام جماعة من المحتضرين)

ولم آل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضروا الموت يشتمون ما عن فيه وإذا حضروا الموت لم تشتم ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى . ولقد جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم . الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولوساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجالت في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعه يقول . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين . ثم هدا فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما فقلت لو صيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصر عى هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تأمن الموت أيضا طى من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فعالج يا أمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال ربي خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شغافى عند شحمة أذنى ما رفعت يدي إلى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى قفيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سندا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحففت طى نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فصبت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر قفيل له في ذلك فقال إني لأرى خضرة مام بأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وهكى عن هرون الرشيد أنه استقى أ كفانه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانيه وفرش الأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان العتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت وكان للتصير يضطرب طى نفسه عند موته قفيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأبليت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبنيه من يأخذها بما فيها ليه كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفرلى فان الناس يقولون إنك لا تغفرلى فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك الحسن قال أفلها ١ قيل نعم قال عسى .

(بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)

(من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين)

لما حضرت معاذ رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا الثمر الأشجار ولكن لظما لأهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر ولما اشتد به التبع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلا أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أختفى خفتك فوعزت لك إنك تعلم أن قلبى يحبك ولما حضرته سلمان الوفاة بكى قفيل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعا طى الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب
عند معارضات ذكر
المحبوب وقال الواسطى
مقامات الوجد أربعة
الذهول ثم الحيرة ثم
السكر ثم الصحو كمن
صحح بالبحر ثم دنا منه
ثم دخل فيه ثم أخذته
الأمواج فطلى هدامن
بقى عليه أثر من
سريان الحال فيه
فطلى أثر من السكر
ومن عاد كل شئ منه
إلى مستقره فهو صاح
فالسكر لأرباب القلوب
والصحو لاهلها
عقائق القيوب .
(ومنها المحو والإنبات)
المحو بإزالة أوصاف
النفس والانبات بما
أدير عليهم من آثار
الحب كؤوس أو المحو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلفة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب (١) نظامات سلمان نظرت في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناته فقال بل واطرباه غدنا تلقى الأحبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال لست بهذا فليعمل العاملون - ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن للسكر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك فقال والله ما يبكي لذنوب أعلم أني أميته ولكن أخاف أني أميت شيئا حميته هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما يبكي جزعا من اللوت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما يغوتني من ظمأ المواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعده سفره واقلة زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لصبر مولا اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحيني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له تلقى ولا تعد لي ما لم أنكمم بكلام ثان . وقال عطاء بن يسار تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت قال ما أمنتك بعد وبكى بعضهم - للوت فقيل له ما يبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل - إنما يتقبل الله من المتقين - ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل مجود بنفسه فقال إن أمرا هذا أوله لجدير أن يبقى آخره وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهدي في أوله . وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم التبرؤ وهو يقرأ القرآن فتمت فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم قال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال ربيع حضرت وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول:

حين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكرهم وقت للناجاة للسر
أدبرت ككؤوس المنابا عليهم فأغفوا عن الدنيا كما غفاه ذى الشكر
همومهم جوازه بمسك به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى عجه وأرواحهم في الحجب نحو الملائكة
لما عزموا إلى أقرب حبيبهم وما عرجوا من مس يؤس ولا ضر

وقيل للجنيد إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بسبب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لدى النون عند موته ما تشتهي قال أن أعرفه قبل موتي بلحظة وقيل لبعضهم وهو في النزاع قل الله فقال إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند محمد بن دينار في التبرؤ وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومدرج عليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت قد مدت ووقت ميتة . وبكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجرى فتح عيني وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغت الرتبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ وبالحد للورد من حياكا

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلفة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

هو رسوم الأعمال
بنظر الفناء إلى نفسه
ومامنسه والاثبات
إثباتها بما أنشأ الحق
له من الوجوه به
فهو بالحق لا بنفسه
بإثبات الحق إياه
مستأثرا بعد أن
عمده عن أوصافه .
قال ابن عطاء بمحو
أوصافهم وثبت
أسرارهم (ومنها علم
اليقين وعين اليقين
وحق اليقين) فلم
اليقين ما كان
من طريق النظر
بالاستدلال وعين اليقين
ما كان من طريق
الكشف والتوكل
وحق اليقين ما كان
بتحقيق الانفصال
عن لوث الصلصال

وقيل للجنيدي قل لا إله إلا الله فقال ما نسبته فأذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال علي درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما لي قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئى للصلاة ففعلت فتسببت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا توصي بابنك وعيالك فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أو صنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم احتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عايتك أبكي فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيدي دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابي من طيبي
فأخذت الروحة لأروحه فقال كيف يجد ريح الروحة من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول :
القلب يحترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب إن بك شيء فيه لي فرج فامنن علي به مادام بي رفق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله فأنشأ يقول :
إن بيتا أنت ما كنه غير محتاج إلى السرج وجهك المأمول حجتنا
يوم يأتي الناس بالحجج لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج
وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيدي في وقت نزع فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فاني كنت في وردي ثم دلى وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للسكتاني لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتك به وقفت على باب قلبي أربعين سنة فسلكها مر فيه غير الله حجته عنه وحكى عن المعتز قال كنت فيمن حضر الحسك بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من التكم ؟ فقلت أنا فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي إني بكل سخي رفيق ثم طفي . ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلعا فقال يا أبا محمد هذا أو ان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة وأعجبا لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله . وعن المغازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو غليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي . ودخل بعض المشايخ على محمد الدينوري في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي . وقيل لرويم عند الموت قل لا إله إلا الله فقال لأحسن غيره ولما حضرت الثوري الوفاة قيل قل لا إله إلا الله فقال أليس ثم أمر . ودخل الزني على الشافعي رحمه الله عليه ما في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدينار احلاوا للاخوان مفارقا ولسوء عملي ملاقيا ولكأس النية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزها ثم أنشأ يقول :

بورود رائد الوصال
قال فارس : علم اليقين
لا اضطراب فيه
وعين اليقين هو
العلم الذي أودعه
الله الأسرار والعلم
إذا انفرد عن نص
اليقين كان علما
بشبهة فاذا انضم
إليه اليقين كان علما
بلا شبهة وحق اليقين
هو حقيقة ما أشار
إليه علم اليقين وعين
اليقين . وقال الجنيدي
حق اليقين ما يتحقق
المبدأ بذلك وهو
أن يشاهد التسبب
كما يشاهد المراتب
مشاهدة عيان
ومعكم على النبي في خبر
عنه بالصدق كما أخبر
الصدق حين قال لما

ولما قسا قلبي وضاعت مذاهبي جلت رجائي نحو عفوك سلما
تصانطني ذنبي فلما قرئت به بسفوك ربي كان عفوك أعظما
لما زلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم ينقو إبليس عابد فكيف وقد أغوى صفك آدماء

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة قدمته عيناه وقال يا بني باب كنت أدته خمسا وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فآن لي أو أن الجواب فنهه أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فقلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون أن الممولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولله في غد أو بعد غد. ويروي عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر. وكان مكحول دمشق إذا رأى جنازة قال اغدوا فانا راغمون موعظة بلغة وغفلة سرية يذهب الأول والآخر لا عقل. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو معمول به وما هو صائر إليه ولمسات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم ما دمت حيا وقال الأعشى كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا ندري إلا متفعا با كيا فكذا كان خوفهم من الموت والآن لا تنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتسكمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأذنيه إلا في الجيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء. في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قساوة القلوب بكثرة العاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونفعل ونشغل بما لا يعنيننا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاءهم على الميت ولو عقلا البكوا على أنفسهم لا على الميت نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم إنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحاخمة وقد آمن . وقال أبو عمرو بن الصلاء : جلست إلى جرير وهو يعلى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

نروعا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات

مكروعة ثلة لخار ذئب فلما قاب طادت راتبات

فمن آداب حضور الجنائز التمسك والتنبه والاستعداد والتي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسنته في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان قاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فإن الحاخمة عظيمة لا ندري حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر)

قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم

« ماذا أبقيت لمالك »

قال الله ورسوله « وقال

بعضهم : علم اليقين

حال التفرقة وعين

اليقين حال الجمع وحق

اليقين جمع الجمع

بلسان التوحيد وقيل

اليقين اسم ورسم

وعلم وعين وحق

فلاسم والرسم للموام

وعلم اليقين للأولياء

وعين اليقين لخواص

الأولياء وحق اليقين

للأنبياء عليهم الصلاة

والسلام وحقية اليقين

اختص بها نبينا محمد

صلى الله عليه وسلم .

(ومنه الوقت والمراد

بالوقت ما هو غالب

على العبد وأغلب

واحد من جيرانه وكان مسرفاً على نفسه فتجأى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال یرحمک الله یا أبا فلان فلقد صحبت عمرک بالتوحید وعفرت وجهک بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطایا فمن منا غیر مذنب وغیر ذی خطایا . ويحكي أن رجلاً من التهمكین فی الفساد مات فی بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من یسبها علی حمل جنازته إذ لم یدرها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالین وحملتا إلى المصلی فصلى علیه أحد خدمتها إلى الصحراء للدفن فكان علی جبل قریب من الموضع زاهد من الزهاد الکبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن یصلی علیها فانتشر الخبر فی البلد بأن الزاهد نزل لیصلی علی فلان فخرج أهل البلد فصلی الزاهد وصلوا علیه وتعجب الناس من صلاة الزاهد علیه فقال قیل لی فی المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فیه جنازة لیس معها أحد إلا امرأة فصلت علیه فانه مغفوره فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه کیف كانت سیرته قالت كما عرف كان طول نهاره فی المأخور مشغولاً بشرب الخمر قال انظری هل تعرفین منه شیئاً من أعمال الخیر قالت نعم ثلاثة أشياء : كان کل یوم یفیک من سكره وقت الصبح یدیل ثیابه ویتوضأ ویصلی الصبح فی جماعة ثم یعود إلى المأخور ویشتغل بالقسق ، والثانی أنه كان أبداً لا یخلو بینه من یتیم أو یتیمین وكان إحسانه إلیهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شدید التفقد لهم ، والثالث أنه كان یفیک فی أثناء سكره فی ظلام اللیل فیکى ویقول یارب أى زاویة من زوايا جهنم ترید أن تملأها بهذا الخبیث ینى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشکاله من أمره . وعن صلة بن أشیم وقد دفن أخ له فقال علی قبره :

فان تج منها تج من ذی عظمة وإلا فانی لا إخالک ناجیاً

(بیان حال القبر وأقاربهم عند القبور)

قال الضحاک قال رجل یرسل الله من أزهد الناس قال من لم ینس القبر والبلى وترك فضل زینة الدنیا وآثر ما یتقی علی ما یغنی ولم یعدّ غداً من آیامه وعدّ نفسه من أهل القبور (١) . وقیل لابی کرّم الله وجهه ما شأنک جاورت المقبرة قال لانی أجدم خیر جیران لانی أجدم جیران صدق یکفون الألسنة ویذکرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ «ما رأیت منظراً إلا والقبر أفظع منه» (٢) وقال عمر ابن الخطاب رضی الله عنه «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وکنت أدنى القوم منه فبکی وبکی وبکوا فقال ما یمیکم فلنا بکینا البکاء قال هذا قبر أمی آمنة بنت وهب استأذنت ربی فی زیارتها فأذن لی فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى علیّ فأدركنى ما یدرک الولد من الوقة» (٣) .

(١) حدیث الضحاک : قال رجل یرسل الله من أزهد الناس؟ قال من لم ینس القبور والبلى الحدیث تهدم (٢) حدیث : ما رأیت منظراً إلا والقبر أفظع منه تقدم فی الباب الثالث من آداب المسجدة (٣) حدیث عمر : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس علی قبر وکنت أدنى القوم الحدیث وفیه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربی فی زیارتها فأذن لی الحدیث وتقدم فی آداب المسجدة أيضاً ورواه ابن أبی الدنیا فی کتاب القبور من حدیث ابن مسعود وفیه ذکر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفیه یوب بن هانی "نفعه ابن مبین وقال أبو حاتم صالح .

ما على العبد وقته
فانه كاسف يعضى
الوقت بحمكه ويقطع
وقد يراد بالوقت
ما يجمع على العبد
لا يكسبه فيتصرف
فيه فيكون بحمكه
يقال فلان بحكمكم
الوقت يسنى مأخوذاً
عما منه بما للحق .
(ومنه القية والشهود)
فالشهود هم الحضور
وقنا بنت المرافقة
ووقنا بوصف
المشاهدة لآدام العبد
موصوفاً بالشهود
والرافية فهو حاضر
فاذا قصد حال
المشاهدة والرافية
خرج من دائرة
الحضور فهو غالب
وقد ينعون بالنية

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١)» وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى القبرة فنزل وصلى ركعتين فقبل له هذا شيء لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنايت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لي . وقال أبوذر ألا أخبركم بيوم تقري يوم أوضع في قبري وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقبل له في ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرون معادى وإذا قت لم يتأبون وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرقمت الليلة أنفكر في القبر وساكنه إنك لو رأيت البيت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قبره بعد طول الأنس منك به ولرايت بيتا تجول فيه الهوام ويحمر فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشي يقول أيها القبور في حفرته والتخلي في القبر بوحدته للسأنس في بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأى أعمالك استبشرت وبأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغبط والله بأخوانه التعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يغور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالقبابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان يكر العابد يقول يا أماء ليتك كنت بي عقيما إن لابتك في القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين يجيئه إن أجبتك من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبتك من قبرك منعها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القابر يقول ما أحسن ظواهركم إنما الدواهي في بواطنكم وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى القبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعايتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء في القبور غدا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فساكن إذا وجد في قلبه تساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لى أعمل صالحا فيما تركت- يرددها ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حنبل في حفرته ما أحببت من رجل يمهّد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلث واستحك فيهم البلى وأصابهم الهوام مقيلا في أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم بمن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت القابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يفرنك صموت أهلها فكم

الغيبه عن الأشياء
بالحق فيكون على
هذا المعنى حاصل ذلك
راجعا إلى مقام الفناء
(ومنها الذوق والشرب
والرى) فالذوق إيمان
والشرب علم والرى
حال فالذوق الأرباب
البواده والشرب لأرباب
الطوابع واللوامع
والاوامع والرى لأرباب
الأحوال وذلك أن
الأحوال هي التي تستقر
فما لم يستقر فليس
بمحال وإنما هي لوامع
وطوابع وقيل الحال
لا تستقر لأنها تحوّل
فاذا استقرت تكون
مقاما (ومنها المحاضرة
واللكاشفة والشاهدة)
فالمحاضرة لأرباب
التلويح والشاهدة

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصلوة .

من نفس مغمومة فيها ، و يروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن
فنبطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أسوار رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت
المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما قصدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يشعروا
فاقلبوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم
الحسن فقال الحسن يا أبافراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منستين سنة
فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تصافى أشد من القبر التهابا وأضيقا

إذا جأني يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلاعة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساكنها من منكم للغمور في ظلماتها

ومن المكرم منكم في قصرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لدى العيون فواحد لا يستبشز الفضل في درجاتها

لو جابوك لأخبروك بالسن تصف الحقائق بعد من حالاتها

أما المطيع فنازل في روضة يفضى إلى ساءل من دوحاتها

والمحرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها

وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدعاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا

فكيف أذوق لطمع الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناء بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار
مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أنيت القبور فتأديتها فأين للعظم والمختر

وأين المدل بسلطانه وأين الزكي إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما نجبر وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائل عن أناس مضوا أما لك فما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تناجيك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لتسير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

لأرباب التحكين
والكاشفة بينهما إلى
أن تستقر فالمشاهدة
والمخاضة لأهل العلم
والكاشفة لأهل العين
والشاهدة لأهل الحق
أى حق اليقين (ومنها
الطوارق والبوادي
والباده والواقع
والقاص والطوالع
واللوامع والواويع)
وهذه كلها ألقاظ
مقاربة المعنى ويمكن
بسط القول فيها
ويكون حاصل ذلك
راجعا إلى معنى واحد
يكثر بالعبارة فلا فائدة
فيه والمقصود أن هذه
الأسماء كلها مبادئ
الحال ومقدماته وإذا
صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غاتم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه بينهم

وقال ابن السكك مررت على القابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربى جنات قبرى كأن أقاربى لم يعرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى وما يألون أن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيأفه أسرع ما نسونى

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب غتلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدينا ولدتها يامن بعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت باغافلا فى القص منغما وأنت دهرك فى اللذات منغس
لا يرحم الموت ذا جهل لقرته ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أحرص للموت فى قبر وقتت به عن الجواب لسانا مابه خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلا أن بكيت وفاض دمعى رأيت عيناى بينهم مكانى

ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رسمه
فأبني ما بوصف من طبه وحذفه فى الساء مع جسمه
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فلتقى الله ربه رجىل أمكنه لى حياته العمل
ما أنا وحدى قلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير مكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بهذا فبرها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فأنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك القصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزبد الموفق به ربته فيتضاعف له الثواب فأنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة وأملك تقدر على أمثالهم ثم أنت مضى لها فوطن نفسك على التضرع على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها بلى الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونى لأن فلانا

هذه الأسماء كلها

ومعانيها .

(ومنها التلوين

والتحسين)

فالتلوين لأرباب

القلوب لأنهم تحت

حجب القلوب وللقلوب

تخلص إلى الصفات

وللصفات تعدد بتعدد

جهاتها فظهر لأرباب

القلوب بحسب تعدد

الصفات تلوينات ولا

تجاوز للقلوب وأربابها

عن عالم الصفات وأما

أرباب التحسين

فخرجوا عن مشائم

الأحوال وخرقوا

حجب القلوب

وباشرت أرواحهم

سسطوع نور الذات

فارتفع التلوين لعدم

قد قام فصلي ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها .
(بيان أقاولهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في مقدمه عليه في الموت منزلة مالوكا في سفر قبقة الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يعظم عليه تأسفه له أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا للموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق التأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لوداد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا قيل له ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار» قالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان (٢) وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب به إلى الاجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فأغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إني قد وهبت له ما صرفه من برى فهب له ما صرفه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في الحدة فقال ياذر لقد شغلنا الحزن عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر منعني به مامتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت أؤتمته طاعتك وطاعتي اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذه فأكبكي الناس ثم قال عند انصرافه ماعلينا بمدك من خصاصة ياذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فاقدم مضينا وتركنك ولوالفنا ما نقصناك . ونظر رجل إلى امرأة البصرة فقال ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحي وكان لي صبيان مليحان بأعنان فقال أكبرهما للآخر أريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا امتشعنا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب القلام فاجأ إلى جبل فرمقه ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادني الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فإمن مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به)

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار بزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجده فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خنفي (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في النكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التفكير في القدرات إذ جعلت ذاته عن حصول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلويح فالتلويح حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلويح الواقع في النفوس لا يخرج صاحبها عن حال التمسك لأن جريان التلويح في النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القدم في التمسك ككشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمسك أن لا يكون له بعد تغير ذاته بشر وإنما المعنى

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا» (١) وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ (٢) وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار (٣) كما أوردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها (٤) ولا ينبغي أن يتمسك بهذا يؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فانهم يكثرن المجر على رؤوس المقابر فلا ينبغي خير زيارتهن بشرها ولا يغفلن في الطريق عن كشف وتبرج وهذه عظام والزياره سنة فكيف يغفل ذلك لأجلها نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة تردأعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «زار القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله» (٥) وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ «زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة» (٦) وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد الا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برًا» (٧) وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين» (٨) وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التأويل قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتقيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون نبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس المنتهى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدى بطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس

(١) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له وأبو يعلى غير أن لا تقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جده عن ربيعة بن النابتة قال البخاري لم يصح وريضة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخرس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قالت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زار القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسل وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برًا الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن الملاء البجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عتبة بن أبي الصير عن محمد بن جعدة

■ من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي (١) ■ وقال صلى الله عليه وسلم «من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة» (٢) ■ وقال كعب الأحبار: ما من جريح يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشفت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه البيت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسح ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأى مائة مرة أو أكثر يجرى إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وينصرف. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه اتبع الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم» (٣) وقال سليمان بن سعيد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم قلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصم بن مثنى بعد موته بهنتين قلت أليس قد مات قال بلى قلت أين أنت فقال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله الزني فتتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيئات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تملكون زيارة من إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة قبيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يملكون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبري قبل طلوع الشمس يوم السبت علم لبيت بزيارته قبل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ونجاوز عن ميتاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأسميت ذات ليلة فافترفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعوا كما كنت أدعو فيينا أنا نائم إذا بخاق كثير قد جاءوني قلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عندنا نصرافك إلى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك. وقال بشر بن غالب النجرائي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشر بن غالب هداياك تأتيها على أطباق من نور عذرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به البيت قبيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما الميت في قبره إلا كالفرق الفوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عتبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سميان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه ومحمه عبد الحق الاشيلي.

متسكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالنية والحضور بل تكون للواجب مقرونة بأقاسه مقبلة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع يركنهم آمين

[الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات ومحتها] حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزيني قال أخبرتنا كريمة الروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي

أخيه أوصديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأخياء للأموال
الدعاء والاستغفار (١) . وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام قفلة ما كان حاله حيث وضعت
في قبرك قال أنا أني أت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالي لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب
تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي وشهدت بأمامة الباهلي وهو في
الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم
فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجيب
ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثالثة فانه يقول أرسدنا
يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله
وأن محمدا رسول الله وأنت رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن
إماماً فان منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عندهذا وقد لقن حجه
ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى
حواء (٢) ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحدا قال: كنت مع أحمد بن
حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضري يقرأ عند القبر فقال له
أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله
ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرني مبشر بن
اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة
البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد
ابن أحمد الروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقروا وبأتمة الكتاب واللعو ذين وقل
هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل اليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة
فنزلت الخندق فطهرت وصليت ركعتين بديل ثم وضعت رأسي على قبر فسمعت ثم تفتت فاذا صاحب القبر
يشتكي يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا تقدر على العمل ثم قال للركعتان
اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزي عنا أهل الدنيا خير أقرهم السلام فانه قد يدخل
عليها من دعائهم نور أمثال الجبال فالقصد من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللزور الانتفاع بدعائه
فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور
في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القبر سيلحق به كما روى
عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل
تخزمت ثم قامت إلى المهراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت في كثرة اتيانها للمقابر

الكشميني قال أنا
أبو عبد الله محمد بن
يوسف القريبي قال
حدثنا أبو عبد الله محمد
ابن اسمعيل بن ابراهيم
البخاري قال حدثنا
الحسين بن علي بن أحمد
بن عيسى بن عينة قال
حدثنا يحيى بن سعيد
الأنصاري قال أخبرني
محمد بن ابراهيم التيمي
أنه سمع علقمة بن
وقاص قال سمعت عمر
ابن الخطاب رضي الله
عنه يقول على المنبر
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
«إنما الأعمال بالنيات
وإنما لكل امرئ
ما نوى فمن كانت
هجرته إلى الله
ورسوله فاجرت له
والله ورسوله ومن

(١) حديث ما للميت في قبره إلا كالفرق الغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له
الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن
عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بهديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي
قال شهدت بأمامة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول
يا فلان ابن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف .

قالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلبه إلا رسوم البلى وإنى لآنى القبور فكأنى أنظرو قد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنسل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال **يا فلان** لورأتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الحدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وخرج الصديد من الفم وانتفع الفم وتآ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من الناحل رأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت والى ذكره إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقفوا فيه»** (١) وقال صلى الله عليه وسلم **«لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا»** (٢) وقال صلى الله عليه وسلم **«لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار لحسبهم ما هم فيه»** (٣) وقال أنس بن مالك **«مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر بن الخطاب فقال إن هذا أثبتتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثبتتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء لله فى الأرض»** (٤) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«إن البديوت فيفى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى ملائكتك أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبيدى وتجاوزت عن على فى عبيدى»** (٥)

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى تحفة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نكير ولا عقاب للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للحدادين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتمتع بشواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما الثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقفوا فيه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلفظ هل سكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن البديوت فيفى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبراته الأدينين بخير لإقال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبيدى على ما علموا وغفرت لهم ما علم.

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر)

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه النية أول العمل وبحسبها يكون العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم وبمحاسن طاعتهم لله تعالى فإن دخوله فى طريقهم هجرة حاله ووقته. وقد ورد «الهاجر من هجر ما نهاه الله عنه» وقد قال الله تعالى - ومن يخرج من بينه مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله - فالمريد ينبغى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطن باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تسطع أعضاء الزمان فسادمزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة للمدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام الغموم والذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام والذات والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام والذات وذلك لا يموت أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمان خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقا في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية . ثم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلته ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء فإن اللؤلؤ هو القراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والملك والألم واحد في الحائزين ، وإتمام معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بازواجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويحتج إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقه بل ياتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قبس كان يلبسه مثلاً ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوقا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوقا له في النوم والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويحسرها عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك حسياسا - وينكشف كل شيء عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران القراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الحلي قال سمعت الجنييد يقول أكثر العوائق والحوائل والوانع من فساد الابتداء فالمرید في أول مسالوك هذا الطريق يحتاج

بفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لئنه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان
يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب
والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب
وقد يعني عنه ويكون حال التنعم بالدنيا للطمئن إليها كحال من تتم عند غيبة ملك من الملوك في داره
وملكه وحرمة اعتداده على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبض
أفاله فأخذه الملك بضمة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحته وجنباياته ذرة ذرة وخطوة
خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمة ومتنعم من الجنة على ملكه وغير ملتفت إلى من يشفع
إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا للأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف
والحجعة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر للعتى بالدنيا للطمئن إليها قبل نزول عذاب
القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الحزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد
من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند اللوت شاهداً وأول البصائر بشاهدة باطنة
أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه
حقيقة اللوت إذ لا يعرف اللوت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك
ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربي (١) »
فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن أطلع عليه وإنا للأذون فيه ذكراً
الروح بعد اللوت ويدل على أن اللوت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار
كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل
أحياء عند ربهم يرزقون فرحين - ولما قتل صناديل قريش يوم بدر نادى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فقل
بارسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام
منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشق وبقاء إدراكها ومعرفة
والآية نص في أرواح الشهداء ولا يغلو الميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر
إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن اللوت معناه
تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتمثل عند اللوت من غير تأخر وإنا
يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
« اللوت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه
مقدمه غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا
مقدمك حتى تبت إليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

إلى إحكام النية وإحكام
النية تنزيهاً من
دواعي الهوى وكل
ما كان للنفس فيه حظ
عاجل حتى يكون
خروجه خالصاً لله تعالى .
وكتب سالم بن عبد الله
إلى عمر بن عبد العزيز
اعلم يا عمر أن عون الله
للعبد بقدر النية فمن
تمت نيته تم عون الله له
ومث قصرت عنه نيته
قصر عنه عون الله
بقدر ذلك . وكتب
بعض الصالحين إلى
أخيه أخلص النية في
أعمالك يكفك قليل
من العمل ومن لم يهتد
إلى النية بنفسه يصحب
من يعلمه حسن النية .
قال سهل بن عبد الله
التستري أول ما يؤمر به

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث
ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - ويسألونك عن الروح - وقد تقدم
(٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث
مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة
الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس اللوت القيامة من مات
فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في اللوت بأسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم
عرض عليه مقدمه بالغداة والعشي الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

وعن أبي قيس قال كنا مع عاقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر وغذى وريح عليه برزقه من الجنة (١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فإن لم يموت قال يضل ماله وولده وإنا أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأمن بالدنيا والأمن بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل مأسوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفلسح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراذه بمحبوه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم والذات وأكل الذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبايع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه ما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقته وتجرد القلب لحب الله تعالى قد ينشق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم المذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما أنقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك يا جابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقدمه بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيكه فقال يارب ما عبدتك حق عبادتك آتني عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع (٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن يشكف له عقيب الموت، من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب

للريد البتدى التبرى
من الحركات للذمومة
ثم النقل إلى الحركات
المهمومة ثم التفرد
لأمر الله تعالى ثم
التوقف في الرشاد ثم
الثبات ثم البيان ثم
القرب ثم النجاة ثم
المصاداة ثم الموالاة
ويكون الرضا والتسليم
مراده والتفويض
والتوكل حاله ثم يمن
الله تعالى بعد هذه
بالمعرفة فيكون مقامه
عند الله مقام للتبرئين
من الحول والقوة
وهذا مقام حملة العرش
وليس بعده مقام
هذا من كلام سهل
جمع فيه ما في البداية
والنهاية ومضى تمسك
للريد بالمصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا فان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك يا جابر الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقدمه بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت باسناد فيه ضعف وللقزوين وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه فقال يا عبدى تمن على أعطاك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون.

إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطبوع فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه (١)» فرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه (٢)» وكذلك المؤمن يخرج من اللوث فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلاناً قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه (٣)» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقي مرثياً ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة، وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليسلونه ويكفنونونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلات تلعب حيث شئت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فإله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم (٤)» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور (٥)» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال في حواصل طير بيض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنازي مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة بألفظ مرّ عليه بجزالة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في اللوث باللفظ الذي أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فإله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدّى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكالة الأزدي في الضمفاء وقال لأصبح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكالة في ترجمة أبي اسمعيل السكوني رواية عن مالك بن أدّى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزدي لأصبح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدّى (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والمهالمي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث .

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر التبرع وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي خلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغرة» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بآدابهم . قال أحمد بن حنبل : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليزِم

صلى الله عليه وسلم يقول «إن الميت يعرف من يفله ومن يحمله ومن يدليه في قبره» (١). وقال صالح
الري بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مأواك
وفي أي الجسد كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا أتاهم
الميت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم فيقولون إن الله وإنا إليه راجعون سلك به
غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كاستقبال الغائب . وقال مجاهد:
إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره . وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا
أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت
فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبل قالوا إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية» (٢).

﴿ بيان كلام القبر للبت ﴾

وكلام الموتى إما بلسان القتال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان القتال في تفهيم
الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في
ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك في إذ كنت تمر بي فذاذا
فإن كان مصلحا أجاب عنه بحجب القبر فيقول أرايت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول
القبر إني إذا تحول عليه خضرا ويسود جسده نورا وتصدر روحه إلى الله تعالى» (٣) والفتاد هو
الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي . وقال عبيد بن عمير الليثي ليس من ميت يموت
إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والافتراق فان كنت في حياتك لله مطيعا
كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك قمة أنا الذي من دخلني مطيعا خرج
مسرورا ومن دخلني عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فغذب
أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك
فيما مضى أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة أماريت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهل استدركت
مافات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلكت في بطن
الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه عمو لا تهاداه أجبته إلى المنزل الذي
لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشي بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت
أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب: إذا
وضع الميت الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتحي
ملائكة المذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله

(١) حديث أبي سعيد الخدري إن الميت يعرف من يفله ومن يحمله ومن يدليه في قبره رواه أحمد
من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن
نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى
يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك
في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفع ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل
ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه . من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث يقول
القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم أني بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب
القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج التميمي بإسناد ضعيف.

الصدق فإن الله تعالى
مع الصادقين وقد ورد
في الخبر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
الصدق يهدي إلى
البر ولا بد للمريد
من الخروج من المال
والجاء والخروج عن
الخلق بقطع النظر
عنهم إلى أن يحكم
أساسه فيعلم دقائق
المهوى وخفايا شهوات
النفس وأنفع شيء
للمريد معرفة النفس
ولا يقوم بواجب حق
معرفة النفس من له
في الدنيا حاجة من
طلب الفضول
والزيادات أو عليه
من المهوى بقية . قال
زيد بن أسلم: خصلتان
هما كمال أمرك تصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسييل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج واجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة تفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتى بتبديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعث الله من قبره . وقال عبيد الله بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعة فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيق وتنى وهولى ودودى فإذا أعددت لي (١) » .

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار بقلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبر من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروهم ما أعددت لهم من الكرامة فاني وعدتهم منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبي محمد ﷺ قال فيتهراته انتهارا شديدا وهي آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهي معنى قوله تعالى - يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عمالك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فانه إذا كان في قبر من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لهنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله ساء ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروهم ما أعددت له من الشر إني وعدتهم - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا دريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أشر بسخط من الله وبسذاب أليم مقيم فيقول بשרك الله بشر من أنت فيقول أنا عمالك الحبيث والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعة فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه .

لاهم لله بمصيبة ونسي
ولا لهم لله بمصيبة فاذا
أحكم الزهد والتقوى
انكشفت له النفس
وخرجت من حجبها
وعلم طريق حركتها
وخفى شهبوانها
ودساتها وتلبساتها
ومن تمسك بالصدق
قد تمسك بالعروة
الوثقى . قال ذوالنون
الله تعالى في أرضه
سيف ما وضع على شيء
إلا قطع وهو الصدق
وقل في معنى الصدق
أن عابدا من بنى
إسرائيل راودته
ملكة عن نفسه ،
فقال اجعلوا لى ماء فى
الحلاء أتتظف به ثم
صعد على موضع فى
القصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شرا ثم يقبض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يملوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار واتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن علي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسنة وبطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ■ إن المؤمن إذا احتضر أته لللائكة بحريرة فيها مسك وضاير الريحان فتسل روحه كأنسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس الطمئة اخرجي راضية ومرضا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك للسك والريحان وطويت عليها الحريرة ويث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أته لللائكة بمسح فيه حجرة فتزع روحه انزعاضا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطة عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الحجرة وإن لها نشيئا ويطوى عليها للسح ويذهب بها إلى سجين (٢) وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلى أعمل صالحا فإني تركت - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتفرس القراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحا فإني تركت قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها - أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ■ « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت - فإن له معيشة منسكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رهوس يخذشونه ويلعسونه ويففخون في جسمه إلى يوم يبعثون » ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق للدمومة من الكبر والرياء والحمد والذل والحق وسائر الصفات فإن لها أصولا معدودة ثم تنشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم . فإن قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونرايه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف الشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن أزم عبدي قال فآزره ووضعته على الأرض وضعا رفيقا قبيلا لإبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون ■ في كل شيء نية لله تعالى حتى في كفه وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت قد استعصى النفس وتجيّب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منسكا رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكاه وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضر أته لللائكة بحريرة فيها مسك وضاير الريحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز بالقطب المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان

والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلغ في الليث ولسكنك لا تشاهد ذلك فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور للسكرتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم للسكرتية أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان باللائكة والوحي أم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا يجوز هذا في الليث وكما أن الملك لا يشبه الأميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلغ في القبر ليست من جنس حيات العالم بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى [للقام الثاني] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حبة تلغ فيه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويرى جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى البقطن وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية والحية موجودة في حقها والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد [للقام الثالث] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاها منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفروا وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضى إليه في العادة فإنه لو خلق في الإنسان لغة الواقع مثلا من غير مباشرة صورة الواقع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لادائه وهذه الصفات للمهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت العشوق فإنه كان للذيذا فطرات حالة صار للذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتحن به أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بينه هو أحد أنواع عذاب الليث فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشقى ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فإذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشد عذابه ويتمنى ويقول ليت لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا تأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة: ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

لما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبداً الآباد وذلك الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يمتد به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيم أوقف على محبته وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبداً الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلغغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب ، فإذا ألم فراق القرس عنده أعظم من لدغ العقرب ووجهه لا فرس هو الذي يلغغه إذا أخذ منه فرسه فليست هذه اللدغات فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق النفس لآفة بغير نية صالحة صار ذلك وبالاً عليه وقد ورد في الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من السك الأذفر ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أثنى من الجيفة» . وقيل كان أنس يقول طيبوا كفى بكم فان ثابتاً يصالحني ويقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله ببيتهم فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأسواله ولا يسمع نفسه أن تتحرك بحركة أو تسكن بكلمة إلا الله تعالى

من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قدينا أن
 للنبي الذي هو للدرك للآلام والأذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه في الحياة يتسلى بأسباب
 يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء السوء إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولاسلوة
 بعد الموت إذ قد انسدت عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذن كل قيس له ومنديل قد أحبه بحيث
 كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأخفا عليه ومعذبا به فإن كان عضا في الدنيا بلم وهو للنبي
 بقولهم نجا المحضون وإن كان مثقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من
 يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو النبي بقوله
 صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين» (١) وما من شيء من الدنيا
 يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حيرة عليك بعد الموت فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقل
 فإن استكثر قلت بمسكرك إلا من الحسرة وإن استقلت قلت تخفف إلا عن ظهرك وإعانتك
 الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها
 فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدري
 ابنا قد مات في المنام فقال له يابني عظمي قال لا تخاف الله تعالى فيما يريد قال يابني زدني قال يابني
 لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قيما ثاليس قيما ثلاثين سنة . فإن قلت فما الصحيح
 من هذه المقامات الثلاث . فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر
 الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الخلق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار
 أن كل ذلك في حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصته وجهله باتساع قدرته
 سبحانه ومحال تقديره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل
 هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يقاب بنوع واحد من هذه
 الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره . هذا
 هو الحق صدق به تقليدا فيز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيرا والذي أوصيك به أن
 لا تنكر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفة بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان
 فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وجبه لقطع يده
 ويجمع أنفه فأخذ طول الليل يفكر في أنه هل يقطعه بسكين أوبسيف أوبعوسى وأهل طريق
 الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد
 الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل
 العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتم ملكان أسودان أزرقان يقال
 لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في التي كان مؤمنا قال هو عبد الله
 ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا نعلم أنك تقول ذلك ثم فرغنا
 في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له نعم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي
 فأخبرهم فيقال له ثم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه
 ذلك وإن كان مناقها قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا نعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده أصلا .

وقد رأينا من أصحاب
 شيخنا من كان ينوي
 عند كل لقمة ويقول
 بلسانه أيضا أكل
 هذه اللقمة لله تعالى
 ولا ينفق القول إذا لم
 تكن النية في القلب
 لأن النية عمل القلب
 وإنما اللسان ترجمان
 لما لم تشتمل عليها
 عزيمة القلب لله
 لا تكون نية . ونادى
 رجل امرأته وكان
 يشرح شعره فقال
 هات الدرهم أراد
 الليل ليفرق شعره
 فقالت له امرأته أجي
 بالمسدري وللرأة
 فسكت ثم قال نعم
 فقال له من ممهسكت
 وتوقفت عن للرأة
 ثم قلت نعم قال إني

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثني عليه فلنتم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى ييمته الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك ففعلوك وكفوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك أتاك فانا القبر منكرو ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الحاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنبياهما فتلاك وترتاك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقي الآن ؟ قال نعم قال إذن أكنفيكما (٢) وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون لليت عاقلا مدركا عالميا بالآلام والذات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فإن ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسلط عليه في قبره دابة عقيم صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لاتراه فتتقيه ولا يسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة إذا وضع لليت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت البدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقاله عند ذلك بارك الله لك في مضجعتك فعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال « كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضطأ المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقمة فخبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله فلما اتينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة فلما خرج أسفر وجهه قلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا لم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأنتيت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلًا . قلت ووصله ابن بطه في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تخرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أريد إلينا عولنا فقال نعم كبريتكم اليوم فقال عمر بن الخطاب (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدري
بنية فلما قالت والمرأة
لم يكن لي في المرأة نية
فتوقفت حتى هيا الله
تعالى لي نية قلت
نعم وكل مبتدئ
لا يحكم أساس بدايته
بمجاهرة الألف
والأصدقاء والمعارف
ويتمسك بالوحدة
لا يستقر بدايته ، وقد
قيل من قلة الصدق
كثرة الخطاء وأقع
ماله لزوم الصمت وأن
لا يترك صممه كلام
الناس فإن باطنه يتغير
ويتأثر بالأقوال المختلفة
وكل من لا يعلم كمال
زهده في الدنيا وعسكه
بحقائق التقوى
لا يعرفه أبداً فإن عدم

قد خفف عنها ولقد ضفطت ضفطة سمع صوتها ما بين الخافقين (١) .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

اعلم أن أنوار البصائر للاستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وإقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن خالد زيد وعمرو وبينه فلا ينكشف أصلاً فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من المتقين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه إذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم النيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت مالم تنفتح تلك الغشاوة عن عين قلبه ، ولما كانت الغشاوة منقشة عن أعين الأنبياء عليهم السلام جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائب الموتى في عالم الملكوت فشاهدوا ما أخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضفطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقره بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه المشاهد لا مطلق فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تحرب درجاتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعلى بها الشهادة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة تجزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٣) وهو أيضاً انكشف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤيته ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتسكك لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كأن انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) وقبلها غلغلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحاً الرؤيا ومعرفة القلب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرته الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والحق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقمة الحديث فيه لقد ضفطت ضفطة سمع صوتها ما بين الخافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواة سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة)

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضفطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعتك فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابتداء كالشمع قبل كل نقش وربما استضر المبتدى بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بفضل النظر أيضاً وفصول المشي فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بيمينه ويساره ثم يبقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالزعاية والاحتراز فإن عساه الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ولا يستحق فضول

علاوة على علم العاملة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثله مثال مرآة تراهى فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن لجميع ما جرى في العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثالا يقر به إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير في اللوح ضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو قننت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا الخط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لسكنت صورة تلك المرآة تراهى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم المسكوت ، فان هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفقته تلاحا في مرآة القلب شئ من عالم المسكوت كالبرق الخاطف وقد شبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم المسكوت ، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب فاذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا جوهرة ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شئ بما فى اللوح كاتع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه لما يقع في القلب فيتدبره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فاذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج العبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالمنااسبة التى بين التخيل والمعانى وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير وبكيفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء قال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان قال صدقت فانظر أن روح الحتم هو المنع ولأجله يراد الحتم وإنما يكشف القلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألب المنع عند الحتم بالحتم بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضئيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فلذا ترمى في الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالملكة حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنسكال والمجازى والنضام نحو ذبائه من ذلك وإما مكتوبا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء - لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - وقال - أفسح هذا أم أتم لا تبصرون أصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - وبهائمهم من الله ما لم يكونوا يحسبون -

الشي فان كل شئ من
قول وفعل ونظر وسامع
خرج عن حد
الضرورة جر إلى
الفضول ثم يجر إلى
تضييع الأصول - قال
سفيان : إنما حرموا
الوصول بتضييع
الأصول فكل من
لا يتمسك بالضرورة في
القول والفعل لا يقدر
أن يقف على قدر
الحاجة من الطعام
والشراب والنوم ومضى
نمضى الضرورة
تداعت عزائم قلبه
وأغفلت شيئا بعد شئ
قال سهل بن عبد الله
من لم يعبده الله اختيارا
يعبده الخلق اضطرارا
ويبتغي على العبد
أبواب الرخص

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء يتكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل ثم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذيرفع وما الذى يتكشف عنه النطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمنا وبصرنا مع أننا لم يفارقنا جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعنى ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فلاجرم لما كان ذلك مكشوراً بين اليقين كان في الدنيا كما برسيد لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة (٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهما (٣) ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً نعم قال «لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن» (٤) فين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن جبهه تمكن من جبهه قلبه فلم يترك فيه مقسماً لخليل ولا حبيب وقد قال لأمتة - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - فأما أمتة من أتبعه وما أتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادها إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فيقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة قد سلكت سبيله الذى سلكه وقدر ما سلكت سبيله فقد أتبعته وقدر ما أتبعته قد صرت من أمتة وبغدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ودرغبت عن متابته والتفت بالدين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى للآوى - فلو خرجت من مكن التورور وأنصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لانسمى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمتة وأتباعه ما أبدنك وما أبدنك عما أبدنك - أنجبل السليين كالجهرين ما لك كيف تحكمون - وترجع إلى ما كنا فيه وبصده قد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولتذكر الآن من اللامات الكاذبة لأحوال اللوتى ما يظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت البشرات وليس ذلك إلا للامات.

بيان منامات تكشف عن أحوال اللوتى والأعمال النافذة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى في المنام قدراً رأى حفا فان الشيطان لا يمثل بي» (٥) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيت لا ينظر إلى قلات يارسل الله ماشأتى فالتفت إلى وقال ألسن القبل وأنت صائم قال والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً . وقال العباس رضى الله عنه كنت وداعاً لعمراً فاشتيت أن أزل في المنام فما رأيت إلا عند رأس الحول فرأيت يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهد لولا آتى لقيته رده فارجعاً . وقال الحسن بن على رضى الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لى الليلة فى منامى ققلت يارسل الله ما لقيت من أمتك قال ادع عليهم ققلت اللهم أبدلى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى بفرج فضر به ابن ملجم وقال بعض الشيوع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ققلت يارسل الله استغفر لى فأعرض عنى ققلت يارسل الله إن

والانسان ويهلك مع
المالكين ولا ينبغي
المتبدي أن يعرف
أحد من أرباب
الدنيا فان معرفته لهم
سم قائل . وقد ورد
«الدنيا مبغوضة الله
فمن تمسك بعجل منها
قاده إلى النار» وما
جل من جالها إلا
كأبائنا والطالين
لها والمحبين فمن
عرفهم انجذب إليها
شاء أو أبى ومحرز
المتبدي عن مجالة
الغفراء الذين لا يقولون
قيام الليل وصيام
التها فانه يدخل عليه
منهم أشمر ما يدخل
عليه بمجالة أبناء
الدنيا وربما يشيرون
أن الأعمال غفل

- (١) حديث إن روح القدس نفث في روعى أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة أيضاً (٣) حديث لم يخلف ديناراً ولا درهما تدم أيضاً (٤) حديث لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تدم أيضاً (٥) حديث من رأى في المنام قدراً رأى فان الشيطان لا يتخيل بى متفق عليه من حديث أبى هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن سبيد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل على فقال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما ملت وأخبر الله بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يرزق إياه في المنام قال فرأيتني يلتهب ناراً فسألت عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف لك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به واعتقت وليدة لي فرحاً به فأتاني الله بذلك أن رضع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألت عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمان الله أباك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فدخلت من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبتني عيني فتمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تتحوا لمسح وجهه يده ثم أتاني فقال قم فقد يرضى الله وجهه أيك قلت له من أنت بآبي أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض لما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده فجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر لما كان بأسرع من أن أخرج على رضى الله عنه وهو يقول قفى لي وزب الكعبة وما كان بأسرع من أن أخرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم قال ألا تعلم ما صنعت أمي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرقتها إلى الله تعالى فبجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً في لسانك هذا أوردني للوارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

(بيان منامات للشايخ رحمة الله عليهم أجمعين)

قال بعض الشايخ رأيت منما الدورى في المنام قلت يا سيدي ما فعل الله بك قال دبرني في الجنان قيل لي يا منتم هل استحسنتم فيها عيشاً قلت لا يا سيدي قال لو استحسنتم منها عيشاً لو كنتم إليه ولم أوصلكم إلى ورؤي يوسف بن الحسين في المنام قيل ما فعل الله بك قال غفر لي قبل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله البرار في النوم قلت ما فعل الله بك قال أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحداً فاني استحييت أن أقربه فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي قلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقهاء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما بيده طشت ويد الآخر يريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل بيده ثم أمر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

التجدين وأن أرباب
الأحوال ارتقوا عن
ذلك . وينبغي للفقير
أن يقتصر على الفرائض
وصوم رمضان لحسب
ولا ينبغي أن يدخل
هذا الكلام فيه رأساً
فانا اخترنا وما رسلنا
الأموال كلها وجالسنا
الفقراء والصالحين
ورأينا أن الذين يقولون
هذا القول ويرون
الفرائض دون
الزيادات والنوافل
تحت القصور مع كونهم
أصحاباً في أحوالهم فعل
العبد التمسك بكل
فريضة وفضيلة فبذلك
يثبت قدمه في بدايته
وبراعى يوم الجمعة
خاصة بحسب الله تعالى
خالصاً لا يمزجه بشيء

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فإنه ليس منهم قتل يارسل الله أليس قد روى عنك أنك قلت « الرء مع من أحب » قال بلى قلت يارسل الله فاني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء قال صلى الله عليه وسلم صب على يده فإنه منهم وقال الجنيد رأيت في المنام كأنى أنكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا قلت عمل خفي بيمين وفي فؤلى الملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤى مجمع في النوم قيل له كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهد بن في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام لعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فصمت منه فأشخص رجلا يقتلى . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تفره وقال صالح بن بشر رأيت عطاء السلى في النوم قلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما قلت في أى الدرجات أنت - فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية . وسئل زرارة بن أبي أوفى للناس أى الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلنى على عمل أقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المهزولين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفرلى وما لم أستغفر منه لم يغفرلى وقال على الطلمسى رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجى نفسك قالت اخطبى إلى سيدى وأمهرنى قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتنا وقال إبراهيم بن اسحق الحربى رأيت زيدة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفرلى قلت لها بما أنفتت في طريق مكة قالت أما النفقات التى أنفتتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفرلى بنيتى ولما مات سفيان الثورى رؤى في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمى على الصراط والثانى في الجنة وقال أحمد بن أبي الحواري رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نورا فقلت لها بماذا ضو وجهك قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمك فمسحت به وجهى فمن ثم ضو وجهى كما ترى وقال السكتانى رأيت الجنيد في المنام فقلت ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل ورؤيت زيدة في المنام فقلت له ما فعل الله بك قالت غفرلى هذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمرى لا إله إلا الله أدخل بها قبرى لا إله إلا الله أدخل بها وحى لا إله إلا الله أفنى بها ربي ورؤى بشر في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال رحمتى ربى عز وجل وقال يا بشر أما استحييت منى كنت تخافى كل ذلك الخوف ورؤى أبو سليمان في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال رحمتى وما كان شىء أضر على من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر السكتانى رأيت في النوم شاة أرا حسن من قتلته من أنت قال التنويز قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأ سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة وقال أبو سعيد الخراز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها فنهض بي هاتفا إن هذا لا يخاف من هله وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحى رأيت إبليس في النوم يمشى عريانا فقلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالسكر بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخراز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبى

من أحوال نفسه
وبآربها ويسكر إلى
الجامع قبل طلوع
الشمس بعد الغسل
للجمعة وإن اغتسل
قريبا من وقت الصلاة
إذا أمكنه ذلك فحسن
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم « يا أبا
هريرة اغتسل للجمعة
ولو اشتريت الماء
بشئائك وما من
نبي إلا وقد أمره
الله تعالى أن يغتسل
للجمعة فإن غسل
الجمعة كفارة للذنوب
ما بين الجمعتين » ويستعمل
بالصلاة والتضرع
والدعاء والتلاوة وأنواع
الذكر من غير فتور
لأنه أن يصل الجمعة
ويجلس معتكفا في

صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقى على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدرى فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لئلا هذا فيعمل العالمون فقلت له أوصى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قيس بن عتبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
قد كنت قواما إذا أظلم الدجى بصيرة مشتاق وقلب عميد
قدونك فاخترأي قصر أردته وزوني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلبي بعد موته بثلاثة أيام قيل له ما فعل الله بك قال ناقضني حتى أيت فصار رأي بأسى تمدني برحمته وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على المهبين وروى الثوري في المنام قيل له ما فعل الله بك قال رحماني قيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو بمن يلج على ربه في كل يوم مرتين وروى بعضهم فستل عن حاله فقال: حاسبونا فقد قوائهم منا فاعتقوا وروى مالك بن أنس قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت ولا يؤذى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كان أبواب السماء مفتحة وكان مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض وروى الجاحظ قيل ما فعل الله بك فقال :

ولا تكتب بحظك غير شئ يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أتوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الجبث وروى النصر أباضى بمكة بعد وفاته فى النوم قيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أهد الاتصال انفصال فقلت لا بأذا الجلال لما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربي ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أتألك عاشقة فأنظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيجالح بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب السخيانى جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم فى المنام قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب - قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لمسكم خشية الاتفاق - وقال بعضهم رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت أيها الشيخ قال دع التشيخ قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تنعن عنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها المجز وقال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسى المعلم فى النوم فقال لى قل لأبي سعيد الصغار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحياة الحب حلتهم وماحلتنا

قال فاتبته فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت أليس قد مات قال بلى قالت فما صنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال يخ بخ ذاك - من الدين أنهم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى
فرض العصر وبقية
النهار يشغله بالتسبيح
والاستغفار والصلاة
على النبي صلى الله عليه
وسلم فانه يرى بركة
ذلك فى جميع الأسبوع
حتى يرى ثمرة ذلك
يوم الجمعة وقد كان من
الصادقين من يضبط
أحواله وأقواله وأفعاله
جميع الأسبوع لأنه يوم
المزيد لكل صادق
ويكون ما يجده يوم
الجمعة معيارا يعتبر به
سائر الأسبوع الذى
مضى فانه إذا كان
الأسبوع سليما يكون
يوم الجمعة فيه مزيد
الأنوار والبركات وما يجد
فى يوم الجمعة من الظلة
وسأمة النفس وقلة

قال أجلسني على كرسى من ذهب وشرط لي الألو والطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلقات الحسن كأن مناديا بنادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي رأيت في منامي رجلا آدم طوا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أوبس القرنى فأثنته فقلت أوصنى رحمتك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند مصيئته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد فقلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرأها أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة قالت يا أبت قد مننا على أمر عظيم نعم ولا نفعل وتعملون ولا تعلمون والله لتسيحبه أو تسيححن أو ركة أو ركتان في فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت يا هادي الضلين ويا راحم الذين وبيا مقيل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء الرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله بهم نلت هذا فقال بالورع قلت فتابال على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا تكابرى السكوكب ورأى رجلا من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله عظمى قال نعم من لم ينفق القصد فهو في قصاص ومن كان في قصاص فالموت خير له . وقال الشافعي رحمه الله عليه هم في هذه الأيام أمر مضى وآلئى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن إدريس قل اللهم إني لأملك لنفسى نقما ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن أخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقفتى اللهم فوقى لما يحب وترضى من القول والعمل في عافية فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتى وسهل لي الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه اللدعات لا تخفلوا عنها فهذه جملة من الكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال القريبة إلى الله زلفى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نقخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نقخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يدي من الأهوال والأخطار] أوفى يان نقخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهبها وأسماها وصفة الساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الحصاة ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الخوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأشجارها وأشجارها ولباس أهلها فرشهم وشررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

(صفة نقخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

(الشطر الثاني من وقت نقخة الصور)

الانصراف فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس للناس اما للرفع من الثياب أو ثياب للتشفين لير بين الزهد حتى لبس للرفع للناس هوى وفي لبس الحسن رياء فلا يلبس إلا لله . بلقنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية الله فلا غيره فألبسه بنية للناس فليعلم المبد ذلك وليعتبره ولا بد للمبتدئ أن يكون له حط من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لشكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان منضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من فزع الصور والبث يوم النشور والعرض على الجبار والنزول عن القليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة التقادير ثم جواز الصراط مع دقة وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاستعداد وإما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر **■** ذلك لينبث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثرت الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من مويدها أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرق الصيف وبرد الشتاء ونهاونهم بحر جهنم وزمهرير هاجع ما تكتنفه من اللصاحب والأهوال بل إذا استلواهن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتناوله كان مصداقاً لبسائه ومكذباً بعمله **■** تكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي **ﷺ** **■** قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمني وكذبني وما ينبغى له أن يكذبني أما شتمه أياي فيقول إن لي ولها وأما تكذبه فيقول له لن يصدني كابدائي ^(١) وإيمان تور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعاً يصنع من النطفة القنطرة مثل هذا الأدمي الصور العاقل التكلم التصرف لا شدة نور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى **■** وأولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين **■** وقال تعالى أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني عني ثم كان علقة غلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى **■** في خلق الأدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعجيب يزيد على الأعاجيب بهته وإعادته في فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعه وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقل الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولاً فيما يفرح مع سكان القبور من شدة فزع الصور فاتها صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رموس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك متغيراً بدنك من فركك إلى قدمك من رباب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزهجهم الفزع والربح مضافاً إلى ما كان عندهم من المغموم والغموم وشدة الانتظار لعافية الأمر كما قال تعالى **■** ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون **■** وقال تعالى **■** فإذا قرأ في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير **■** وقال تعالى **■** ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون **■** فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقي فاتها نقحة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **■** كيف أنتم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمني وكذبني وما ينبغى له أن يكذبني الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصحني إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما ينبغي بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض الشايخ أن يديم المرید ذكراً واحداً ليجمع المهم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد فإذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر مصانعة وينزل من التلاوة

وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) قال مقاتل: الصور هو القرن وذلك أن إسرئيل عليه السلام وضع فاه على القرن كبشة اليوق ودائرة رأس القرن كمرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صفع من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرئيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرئيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرئيل فيأمره أن ينفخ الثانية فنكث قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم: حين يبعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة (٢) فنفكر في الخلائق وذلمهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من معادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كنتعيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفين والأغنياء التتمين فلوك الأرض في ذلك اليوم أدل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطشون بالأقدام مثل الدر وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رهوسها غثلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أبليت الشياطين للردة بعد تمردها وعتوها. وأذعنت خاشعة من هبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فو ربك لنحضرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جنيا - فنفكر في حالك وحال قابك هناك .

(صفة أرض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور خفاة غراغرا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع مصصف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ولا ترى عليها بؤة يخفي الإنسان وراءها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا فصباحا من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أنظار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد (٣)

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحتى الجبهة الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين يبعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرئيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرئيل فهو واضمه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان وإسنادها جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد

إلى الله كره فانه أخف على النفس وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يستد بالاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحضر الوساوس وحديث النفس فانه مضروءاء عضال فيطالب نفسه أن تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشتمل بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لانباء بستر ولا تفتاوت برد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساوها إلا فى الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتعدمد الأديم العكاظى أرض بياض مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب فمسها وقرها ونجومها فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدة فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تثار من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لمجود سراجها فبينام كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانشتت مع غلظها وشدة خمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فياهول صوت انشقاقها فيسمعك وباهية ليوم تذشق فيه السماء مع صلابتها وشدة ثم نهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالملح وصارت الجبال كالمن والشتبك الناس كالفرش الميثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد أبلجهم العرق وبلغ شحوم الآذان . قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) » فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والاتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (٢) » فى طبع آدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور الشئ على غير رجل والشئ بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تسكر شيئا من عجائب يوم القيامة لخالفته قياس ما فى الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوبا ذليلا مدحورا متحريرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

(صفة العرق)

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الوقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقواب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا القربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضج حر الشمس قد صهرته بخرها واشتد كربه وغممه من وهجه ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد أبلجهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة راوية الحديث واسوأتاه الحديث الثعلبي والغوى وهوى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأتاه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأتاه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون
لمراقبة حلية باطنه
فيشفل باطنه بمطالعة
نظر الله إليه مكان
حديث النفس فان
بالدوام على ذلك يصير
من أبواب الشاهدة.
قال مالك : قلوب
الصدقين إذا سمعت
القرآن طربت إلى
الآخرة فليتمسك
للريد بهذه الأصول
وليسستن . بدوام
الافتقار إلى الله فبذلك
ثبات قدمه . قال
سهل : على قدر لزوم
الالتجاء والافتقار إلى
الله تعالى يعرف البلاء
وعلى قدر معرفته
بالبلاء يكون افتقاره
إلى الله فدوام الافتقار
إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الحسرة والحياة من الافتقار والاختراء عند العرض على جوار السماء فاجتمع وهج الشمس حرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياة والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبهضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه» (١) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويلغ أذانهم» (٢) كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح وفي حديث آخر «قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب» (٣) وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ غلظه ومنهم من يبلغ خصرته ومنهم من يبلغ فاه، وأشار يده فألجأ فاه، ومنهم من يغطي العرق، وضرب يده على رأسه هكذا» (٤) فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولولوا إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بهد حساباً ولا عقاباً فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . وعالم أن كل عرق لم يخرج من سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياة والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولولا أن آدم من الجهل والغرور لم أن تعب العرق في تحمل مصائب الطاعات أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجذون في دوح نسيم . قال كعب وقناة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال «كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم» (٥) وقال الحسن ما ظنك يوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً الحديث أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف (٣) حديث قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن له تشبه عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمرو ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق القسوم وهذا الافتقار مع كل الأقداس لا ينشبت بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلعت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيراً قطعاً علماً ذلك وتحققاً . وقال سهل من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأذى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا يعنيه وتركه ما يعنيه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه النار ثم رجع إلى

لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شرربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشوا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آتية قد آن حرها واشتد لقمها فلما بلغ المجهود منهم الماطقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي فخلقني أمري عن أمر غيبي واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يمكن الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن العاصي في عمرك المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة بصلاته في الدنيا» (١) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يبق لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تريح ربعا لا تنتهي لسروره واستحقق عمرك ببل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يومه مداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا .

(صفة يوم القيامة ودواهيته وأساميته)

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه للديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوأته يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والسكواكب من هولاء قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجيال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سمرت ، والجنة قد أزلت ، والجيال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت في زلزالها ، وأخرجت الأرض أنفها ، يومئذ يصدر الناس اثنتان اثنتان ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجيال قد كتبا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، وعمل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفرش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا مصفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أممات ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يستل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يستل فيه عن الإجماع بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تحرس فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة بصلاته في الدنيا أبو بكر بن أبي شيبة في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن أبي شيبة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن أبي شيبة وهو حسن ولا يبيح من حديث أبي هريرة بأسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتحلى الشمس للغروب إلى أن تشرق ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رخصه باقظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال فإلى وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لاتعني وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها وإلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا . أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأنصاري يقول سمعت الجنيدي يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما ناله وهذه

وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضي الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال « شيتني هود وأخواتها » (١) وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛ فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك أن تجميع القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك عما شاب منه شعر سيد المرسلين وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثرت أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب فتح كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نص من نصوصها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجتمع لك أساميها - وهي : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم الحاسبة ويوم المسألة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الرزقة ويوم الدمنة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراحفة ويوم الرادفة ويوم العاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم الساق ويوم القصاص ويوم التشاد ويوم الحساب ويوم الحساب ويوم العذاب ويوم القرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الحزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم القزع ويوم الجزع ويوم النهى ويوم التأوى ويوم الليقات ويوم العباد ويوم الرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الانتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التفاني ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا ينفي مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيمتدرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفهم العاذر وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد وبشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت للوازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الحميم وزفرت النار ويشس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت السور واستترت عن الخلائق قهارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك كل لويل كل لويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا وبقول - اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة

الجملة يحتاج البدئي أن يحكمها والنهني عالم بها عامل بمخافتها فليبتدئ صادق والنهني صديق قال أبو سعيد القرشي الصادق الذي ظاهره مستقيم وباطنه يعيل أحيانا إلى حفظ النفس وعلامته أن يجد الخلاوة في بعض الطاعة ولا يجدها في بعض وإذا اشتغل بالذكر نور الروح وإذا اشتغل بمحظوظ النفس يحجب عن الأذكار والصديق الذي استقام ظاهره وباطنه يبد الله تعالى بتلوين الأحوال لا يجيبه عن الله وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ويزاهقون - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا - ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تتدبر معانيه ولا تنتظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأسمائه ولا نستمد للتخلص من دواهيه فتمود بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

(صفة المسالة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فيتنا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عذابها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي الجبرمين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عيفيه مسيرة مائة عام (١) لما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين بما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذنانهم خوفا من أن يكونوا هم الأخوذون فهذا حال المقرين لما ظنك بالعصاة الجبرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيك ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لحاقهم عن أن يكون فيهم فتأدوا بأصواتهم منزهين للملكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفاحدين بالخلاتق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الدل والخضوع وهيئة الخوف والهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين فلتقنص عليهم علم وما كنا غائبين - وقوله - فو ربك لنساءنهم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيأخذ يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قندهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادفون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمتك هل بلغكم فيقولون ما أمانا من نذير ويؤتى يعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملائكة الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرقت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسالة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواء وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل اتقنى بالنار فيجئها جبريل ويقول يا جبريل أجيى خالقك ومليكك فيصادفهما جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وطارث وزفرت إلى الخلائق وشهقت وجميع الخلائق تهبطها وزفيرها وانهمضت خزنتها متوجة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزوا ورعبا فساقتوا جميعا على الركب

(١) حديث إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عيفيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

ولا نوم ولا شرب
ولا طعام والصديق
يريد نفسه لله وأقرب
الأحوال إلى النبوة
الصدقية . وقال
أبو يزيد : آخر
نهايات الصديقين أول
درجة الأنبياء . واعلم
أن أرباب النهايات
استقامت بواطنهم
وظواهرهم لله
وأرواحهم خلصت
عن ظلمات النفوس
ووطئت بساط التقرب
وتقوسهم متقادة
مطوعة سالحة مع
القلوب مجيبة إلى كل
ما تحبب إليه القلوب
أرواحهم متعلقة
بالمقام الأعلى انطفات
فيهم نيران الهوى
وتخمر في بواطنهم

وولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جانبية - وسقط بعضهم على الوجوه منسكين وينادى المصاقق الظالمون بالويل والتبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فضاغف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجيتم فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفرع على العصاة فصر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالله نفسى يده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذكرك رأسا وتربيع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملائقي فيقول لا فيقول فأتانا أنساك كما نسيتني (١) فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت اللانكسة بضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب قضا ذابليته ألم أمهل لك في العمر قضا ذابقيته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيما ذا أنفقته ألم أكرمك بالملم فإذا عملت فباعلت فكيف ترى حياتك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضي الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فأنى لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيحتم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بمدا لكن وصحفا فضكن كنت أنا ضل (٢) فتعذبا لله من الاتضاح على ملائحتي شهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعده للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم (٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته عثر الله عورته يوم القيامة (٤) » فهذا الإنعيار جى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه قصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبهم عما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع صمك النداء إلى المعرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والمالم عليك من عدة المول مظلم تقدر

صریح العلم وانكشف
لم الآخرة كما قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم في حق أبي
بكر رضي الله عنه « من
أراد أن ينظر إلى ميت
يمشي على وجه الأرض
فلينظر إلى أبي بكر »
إشارة منه عليه
الصلاة والسلام إلى
ما كشف به من
صریح العلم الذي
لا يصل إليه عوام
الؤمنين إلا بعد الموت
حيث يقال فكشفنا
عنك غطاءك فبصرك
اليوم حديد - فأرباب
النهايات ماتت أهولتهم
وخلصت أرواحهم .
قال يحيى بن معاذ وقد
سئل عن وصف
العارف فقال رجل

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد به مسلم (٢) حديث أنس أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتغرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الحلائق إليك أبصارهم فتوم نفسك أنك في أيدي اللوكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم منى قد نوت. نه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذي لا يقادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسبتها فقد كرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فأنكشفت لك عن مساوئها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وهجز فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول ثم تفكر في عظم حياتك إذا ذكرك ذنوبك شفها إذا يقول يا عبدي أما استحييت مني فبارزني بالقيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجليل أ كنت أهون عليك من سائر عبادى استخففت بنظرى إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيبرى ألم أنعم عليك فإذا غرك بي أظننت أن لا أراك وأنتك لا تلقانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليقتل أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة» (٢) وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا سيخار الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقر ليلية الدير ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت الرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيقا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيقا على أذنيك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن عمله ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفماذا أنفق فاعظم يا منسكين بحياتك عند ذلك ويخطر لك فأنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ففند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويفيطك الأولون والآخرون وإما أن يقال لله لا تسكه خذوا هذا الصبد السوء فنلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا يعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بئت آخرتك من دنيا دنيتك ثم بق معك.

(صفة لليزان)

ثم لا تغفل عن الفسك في اليزان وتطير الكتب إلى الأيمان والشمائل فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سمادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد ليقيم الحامدون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم عن لم تشغله نجارة الدنيا ولا يبعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويقتى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد غنى عنهم ولا يغنى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يبرهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعده عند العقاب فتطير الصحف والكتب منظومة على الحسنات والسيئات وينصب اليزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أضع في اليمين أو في الشمال ثم إلى لسان اليزان أي ميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبي حاتم بلفظ إلا سيكلمه الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخارى من حديث عدى بن حاتم .

مهم بأن منهم وقال مرة عبد كان فبان فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم معوقين بتوفيت الأجل جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهتدى بهم يرشد بهم يجذب أهل الإرادة كلامهم دواء وانظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالمسلم . قال ذو النون علامة العارف ثلاثة لا يطفى نور معرفته نور ورعه ولا يمتد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار عظام الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنفس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فقطط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتبه فقال ما يبكيك يا عائشة » قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسى بيده في ثلاثة مواطن فان أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت للوزن ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أنخف ميزانه أم يثقل . وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ كتابه أو شماله . وعند الصراط (١) . وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويؤكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان فلان سعد لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقي فلا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابث بئس النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضوا ابتاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لحليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتا مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة (٢) »

(صفة الحصاء ورد المظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن العين شاخصة إلى لسان الميزان - فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمة هائلة وما أدراك ما هي نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإعما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويستدرك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصاؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعاقب بلبه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتني ففشتني وهذا يقول أباعدتني ففبتني وأخفيت عني عيب سلعك وهذا يقول كذبت في سمر

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابث بئس النار فيقول وكم بئس النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

كلما ازدادوا نعمة
ازدادوا عبودية وكلما
ازدادوا دنيا ازدادوا
قربا وكلما ازدادوا
جاها ورفعة ازدادوا
نواضا وذلة - أذلة على
الؤمنين أعزة على
الكافرين - وكلما تناولوا
شهوة من شهوات
النفوس استخرجت
منهم شكرا صافيا
بتناولون الشهوات نارة
رققا بالنفوس لأنها
معهم كالطفل الذي
يلطف بالشيء ويهدى
له شيء لأنه مقهور
تحت السياسة مرحوم
ملطوف به وتارة
يمنعون نفوسهم
للمشهورات تأصيا بالأنبياء
واختيارهم التقليل من
الشهوات الدنيوية قال

متاعك وهذا يقول رأيته محتاجا وكنت غنيا لها أطمعتني وهذا يقول وجدته مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عن فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينما أنت كذلك وقد أنشبت الحياء فيك محالهم وأحكوا في تلايك أيديهم وأنت مبهوت متعير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغية أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضحفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى ميدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع صمك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - فعد ذلك ينخل قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبوار وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين بمعنى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفقتهم هواء وأنذر الناس الآية ثم أشد فحرك اليوم بمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوقته بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عدراً فعد ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من الفليس قلنا الفليس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال الفليس من أمق من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس بسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاصبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعدت أنه لا ينقض عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف يقيه السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من الظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القرناء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت تراباً فكنت أنت يامسكين في يوم ترى محيبتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى محيبتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبت واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما فارقتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في البايعة والمجاورة والمخاطبة والناظرة والذاكرة والدارسة وسائر أصناف للعامة .

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من الفليس ؟ قالوا الفليس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

عبي بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ما شطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شمرها ويحرق ثوبها والعارف بالله مشغل بسيد ولا يلتفت إليها . واعلم أن اللتشي مع كمال حاله لا يستغنى أيضاً عن حياصة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط في هذا خلق وظنوا أن التشي استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول اللذات الشهوات وهذا خطأ لا من حيث إنه يعجب العارف عن معرفته ولكن

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يشق أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات فانقوا الظلم واستطعم فان العبد ليحیی يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجيهن لها يزال عبد يحیی فيقول رب إن فلانا ظلمني بمظلمة فيقول امح من حسناته لها يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ففرق القوم لخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن أظمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غبرا بما قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه حتى الأظمة قلنا وكيف وإنما نأى الله عز وجل عراة غبرا بما قال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله وظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخاق في معاشرتهم فإن ما بين البديوين الله خاصة فالغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب الظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فساهمه يقرب ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأته ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي قال رجلان من أنس جيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يارب خذ لي مظلمتي من أخى فقال الله تعالى أعطاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يارب يتحمل عني من أوزاري قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة

يوقف عن مقام الزيد
وقوم لما رأوا أن هذه
الأشياء لا تؤثر فيهم
فسوة ولا تورثهم حجة
ركنوا إليها واسترسلوا
فيها وقتعوا بأداء
القراض واتسعوا في
لأكل والشرب وهذا
الانسياط منهم بقية
من سكر الأحوال
وتقيد بنور الحال
وعدم التخاص
بالكلية إلى نور الحق
ومن تخاص من نور

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات الحديث وفي آخره وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث رواه أحمد والبيهقي في الشعب مختصرا على آخره بإياكم ومحقرات الذنوب فأنهم يجتمعون على الرجل حتى يهلكته وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد أيس أن يعبد الصلوات في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر الله العباد عراة غبرا بما قال بهما قال ليس معهم شيء الحديث قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله ابن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا .

مرفضة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لؤلؤى نبي هذا؟ أولأى صدق هذا أولأى شهيد هذا؟ قال لمن أعطاني
التمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إني قد عفوت
عنه قال الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله
وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق
الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتذكر الآن في نفسك إن خلت صحيفة عن الظالم أو تطلب
لك حق عفائك وأمنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع
عليك خلة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء ونعيم لا يدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار
قلبك سرورا وفرحا وايمس وجهك واستنار وأشرق كإشراق القمر ليلة البدر فوهم يختلج بين الخلاق
رافضا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرتك ونضرة نسيم النسيم برد الرضا تلاءم من جبينك خلق الأولين
والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك وينبطونك في حسنك وجمالك والملائكة يحشون بين يديك ومن
خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد بسعادة لا يشقى
بعدها أبدا أقرى أن هذا المنصب ليس بأعظم من السكينة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بربائك
ومداهتك وتصنعك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة إليه فوصل إلى إدراك هذه
الرتبة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به وإن تسكن الأخرى
والعياذ بالله بأن خرج من صحيفة جريئة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة لفنتك لأجلها قال
عليك لعنني يا عبد السوء لأتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تقضب
للملائكة غضب الله تعالى فيقولون وعليك لعنتنا ولعنة الخلاق أجمعين وعند ذلك تنال إليك الزبانية
وقد غضبت لتعذب خالقها فأقدمت عليك بمظاظها وزعارتها وصورها للسكره فأخذوا بناصيتك
يسحبونك على وجهك على ملاء الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت
تنادى بالويل واليبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى للملائكة
ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه وعازبه ولعنه قبايح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد
بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من
الافتضاح عندهم لما أعظم جهلك إذ تخرز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا
للترصعة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملاء العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق
بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

(صفة الصراط)

ثم تذكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى - يوم نحشر للتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين
إلى جهنم وردا - وفي قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقوهم إنهم مسئولون - قال الناس بعد هذه
الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر محدود على متن النار أحده من السيف وأدق من الشعر فمن
استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا
وأثقل ظهره بالأوزار وعصى نصرتي أول قدم من الصراط وتردى نفسه في النار فبما عمل من النزاع بخؤاذك
إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحتك ثم قرع صمرك شريق النار وتقيظها

(١) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيت ضحك حتى بدت ثناياه فقال
عمر ما أضحكك يا رسول الله بأبي وأمي قال رجلان من أمي جنيان يديرب العالمين الحديث بطوله
ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في الاستدراك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق
ينهب عنه بقايا
السكر ويوقف نفسه
مقام العبيد كأحد
عوام المؤمنين يتقرب
بالصلاة والصوم وأنواع
البر حتى يطمأنة الأذى
عن الطريق ولا
يستكبر ولا يستكف
أن يسود في صور
عوام المؤمنين من
إظهار الإرادة بكل
بر وصلة في تناول
الشهوات وقتا رقتا

وقد كافت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وتقل ظهرك بالأوزار
الساكنة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه
إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطربت إلى أن ترفع القدم الثانية والحلائق بين يديك يزلون
ويتعثرون وتنبأولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب وأنت تنظر إليهم كيف يتكسون فتسفل
إلى جهة النار ردوسهم وتعلو أرجلهم فياله من منظر ما أظفحه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر
إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق
وهم يهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول «يا رب سلم سلم» والزقات بالويل والثبور قد
ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك
ولم يتفكك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياقي باليتني
اتخذت مع الرسول سيلا يوليئنا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ياليتني كنت ترابا ياليتني كنت نيامنسيا
ياليت أُمِّي لم تلدني ، وعند ذلك تختطفك النيران والعايا بالله وينادي النادى اخسوا فيها ولا تكلمون
فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار
بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت
به مؤمنا وعنه غافلا وبلا استعداد له متهاونا فما أعظم خسارتك وطفيلتك وماذا يتفكك إيمانك إذا
لم يتفكك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلم يكن بين يديك إلا هول الصراط
وارتياح قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فناهيك به هولا وفزعاً ورعباً قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج بأمره من الرسل ولا يتكلم يومئذ
إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان هل رأيت
شوك السعدان قالوا نعم يا رسول الله قال فأنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى
تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بماله ومنهم من يخرجل ثم ينجو^(١) وقال أبو سعيد الخدري
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف
تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من
يجبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأما أهل النار الذين هم أهالها فلا يعوتون ولا يحبون وأما مناس
فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحما ثم يؤذن في الشفاعة^(٢) وذكر إلى آخر
الحديث . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين
ليقات يوم معلوم قيا ما أربعين سنة شاحصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث
إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فرفعوا رؤوسهم فيعطهم
نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسمى بين يديه ومنهم من
يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من
ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخبو مرة فإذا أضاء
قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس الطاهرة للزكاة
للنقادة الطواعة لأنها
أسيرته ويعتبرها
الشهوات وقتا لأن
في ذلك صلاحها
واعتبر هذا سواء
بحال الصبي فإنه إن
جاوز حد الاعتدال
من إعطاء المراد
وقتا ومنعه وقتا
انفسد طبعه لأن
الجبلة لا بد من قمعها
بسياسة العلم ومادامت
الجبلة باقية لا بد من

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج بأمره من حديث أبي هريرة
في أثناء حديث طويل (٢) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب
وخطاطيف الحديث متفق عليه مع اختلاف ألفاظ .

يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كأنه ضاحك الكواكب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تبحر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيته فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتل (١) » وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن اللائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام يأخذ بحجرتي وإني لأقول يا رب سلم سلم فالزلازل والزلزالات يومئذ كثير (٢) » فهذه أهوال الصراط وعظائمها فطول فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعني بالخوف رقة كركة النساء تدمع عينك وبرق قلبك حال الجمع ثم نفسه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يتنعم عن معاصي الله تعالى ويحتمل على طاعته وأبعد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعنت بالله فعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في محراء ووراء حصن فادارأى أبواب السبع ووصلته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأني ينفي عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معه ود غيره ومن أخذ الله هوله فهو بعيد من الصدق في توحيد وأمره مخطر في نفسه فإن عجزت عن ذلك كله فكن بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومثوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتمبرا بأدعيتهم فساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

(صفة الشفاعة)

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقراته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبا ولايته في عباده فامل الذي تزدرب عينك هو ولي الله ولا تستصغر مصيبة أصلا فإن الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فإن الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولستوف بعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاحصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضيف قال وروى عن زياد الخير عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن أبي عمير .

سياسة السلم وهذا
باب غامض دخل
في النهايات على المنتهى
من ذلك دواخل ووقع
الركون وانسد به
باب المزيد فالمنتهى
ملك ناصية الاختيار
في الأخذ والترك ولا بد
له من أخذ وترك
في الأعمال والحظوظ
ففي الأعمال لا بد له من
أخذ وترك فتارة
يأتي بالأعمال كآحاد
الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد قتل ما ييكك فأناه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد قتل ما ييكك في أمته ولا نسوءك^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحل لي القتائم ولم تحمل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وراها طهورا فأنا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطي الشفاعة لكل نبي يموت إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غفر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع يدي لواء الحمد تحت آدم فمن دونه^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة^(٥) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقرئ منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا عفاة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى فأقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطي صكا كما برجال قد بعث بهم إلى النار وحق إن مالكا خازن النار يقول يا محمد مازكت النار لنضرب ربك في أمته من بقية^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر^(٧) » وقال أبو هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه القدرع وكانت تصببه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقما
بالنفس وتارة يأخذ
الحظوظ والشهوات رقما
بالنفس وتارة يتركها
افتقادا للنفس بحسن
السياسة فيكون في
ذلك كله مختارا فمن
ساكن ترك الحظوظ
بالكلية فهو زاهد
تارك بالكلية ومن
استرسل في أخذها
فهو راغب بالكلية
والنهي شمل الطرفين
فانه على غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد قتل ما ييكك في أمته ولا نسوءك في أمته قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله بن بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطي الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقرئ منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث ريدة بإسناد حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بانكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بأدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد صمالك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبي الله وخليته من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات وبذكرها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسائه وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله وإني قتلته نفسا لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يبذ كر ذنبا نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فأناطاق فأتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله لي من عماده وحسن اثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبل ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمي أمي يا رب يقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذي نفسي بيده إن بين المصريين من مصاريح الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصري (١) وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله في السكوا كب هذا ربي وقوله لأهلهم بل فعله كبيرهم هذا وقوله إنني مقيم فلهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأحد أمتهم من العلماء والصالحين شفاعته أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم قال للرجل قم يا فلان فاشفع في قوم الرجل فيشفع لأقبيلة

(١) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فتش منها شهية ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجهما مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر رويناه في جزء أبي عمر بن السكك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فسكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن ولازمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعداء يدخل الجنة بشفاعته الرجل من أمتي أكثر من بني نعيم قالوا سواك قال سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط
بين الافراط والتفريط
فمن ردت إليه
الأقسام في النهاية
فأخذها زاهدا في
الزهد فهو تحت قهر
الحال من ترك الاختيار
وتارك الاختيار الواقف
مع فعل الله تعالى مقيد
بالحال وكأن الزاهد
مقيد بالترك تارك
الاختيار فكذلك
الزاهد في الزهد الأخذ
من الدنيا ما سبق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتي
 شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني
 أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني ؟ فقلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذي
 استسقيتي في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من
 النار (٢) » وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا
 وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يتسوا لواء الحمد يومئذ يدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي
 ولا غفر (٣) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة
 من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (٤) »
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه
 فخرج حتى إذا دنا منهم ممهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجباً إن الله عز وجل أخذ من
 خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليماً ، وقال آخر فعيسى
 كلمة الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت
 كلامكم وتعيذكُم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نبي الله وهو كذلك وعيسى روح الله
 وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا غفر وأنا حامل لواء الحمد
 يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك خلق
 الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى قراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) »
 (صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه
 ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه
 لم يظم أبداً . قال أنس « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقالوا له
 يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال آية أنزلت علي آتفاً وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك
 السكوتر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما السكوتر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعديته

(١) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على
 قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة
 الحديث وقال حسن وللبرار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس
 إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا وما فاستسقيتي
 شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
 بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب
 (٤) حديث فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث
 أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم ممهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم
 عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرؤيته فعل الله مقبداً
 بالأخذ وإذا استقرت
 النهاية لا يتقيد بالأخذ
 ولا بالترك بل يترك وقتاً
 واختياره من اختيار الله
 ويأخذ وقتاً واختياره
 من اختيار الله وهكذا
 صومه النافلة وصلاته
 النافلة يأتي بها وقتاً
 ويسمح للنفس وقتاً لأنه
 مختار صحيح في الاختيار
 في الحالين وهذا هو
 الصحيح ونهاية النهاية
 وكل حال يستقر

ربى عز وجل في الجنة عليه خير كثير حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آتيته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حاقناه قباب القؤل الموقوف قلت ماهذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرِبَ للملك يده فإذا طينه مسك أذفر (٢) وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما بين لابق حوضي مثل ما بين للدينة وصنعاء أو مثل ما بين للدينة وعمان (٣) وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حاقناه من ذهب شرابه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل القؤل والرجان (٤) وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أوكل الناس ورودا عليه قهراء الهاجرين قال عمر بن الخطاب ومن ثم يارسول الله ؟ قال ثم الشعث رهوسا الدنسي ثيابا القيني لا ينسكحون التنتعات ولا تفتح لهم أبواب السدد لأن يرخصي الله لأجرم لأدهن رأسى حتى يبعث ولا فاطمة بنت عبد الملك وثقت لي أبواب السدد لأن يرخصي الله لأجرم لأدهن رأسى حتى يبعث ولا أغسل ثوبى الذي على جسدى حتى يتسفع وعن أبي ذر قال «قلت يارسول الله ما آتية الحوض ؟ قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للفضية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٥) وعن حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي حوضا وإنهم يبتاهون أبهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٦) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإتبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد فأما من ترك الحرانة أو الزراعة وتقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكك فقال آية نزلت على آتاه وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حاقناه قباب القؤل الموقوف الحديث الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ما بين لابق حوضي مثل ما بين للدينة وصنعاء أو مثل ما بين للدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حاقناه من ذهب شرابه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل القؤل والرجان (٥) حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء (٦) حديث أبي ذر قلت يارسول الله ما آتية الحوض قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للفضية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٧) حديث حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حاقناه من ذهب شرابه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل القؤل والرجان (٨) حديث عمر بن الخطاب ومن ثم يارسول الله ؟ قال ثم الشعث رهوسا الدنسي ثيابا القيني لا ينسكحون التنتعات ولا تفتح لهم أبواب السدد لأن يرخصي الله لأجرم لأدهن رأسى حتى يبعث ولا فاطمة بنت عبد الملك وثقت لي أبواب السدد لأن يرخصي الله لأجرم لأدهن رأسى حتى يبعث ولا أغسل ثوبى الذي على جسدى حتى يتسفع وعن أبي ذر قال «قلت يارسول الله ما آتية الحوض ؟ قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للفضية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٩) وعن حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي حوضا وإنهم يبتاهون أبهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (١٠) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإتبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد فأما من ترك الحرانة أو الزراعة وتقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غصير رمضان ويتناول الشبهوات ولما قال الرجل إني عزمتم أن لا أكل اللحم قال فإني أكل اللحم وأجبه ولوسألت

فهذا مقر ومتمنّ وليس من الراجين في شيء وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحقى فهو ذباقة من القرور والغفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى - فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله القرور -

(القول في صفة جهنم وأهلها وأنكأها)

يا أيها الغافل عن نفسه القرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا الشرف على الاقضاء والزال ودع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قبل - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فانت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك للورود فمساك تستعد للنجاة منه وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فيها ثم في كربها وأهلها وقوا فينتظرون حقيقة أنبأها وتشفيع شفعا ثم إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لمب ومحموا لها زفيرا وجرجرة فصيح عن هدة القيق والنضب فمعد ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجنت الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء القلب وخرج السادي من الزبانية قائلا : أين فلان ابن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل للضيع عمره في سوء العمل فيادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظام التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم - فأسكنوا مارا ضيقة الأرجاء مظلمة السالك مبهمة للهالك يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شراهم فيها الحميم ومستقرم الجحيم الزبانية تقمهم والهاوية تجمعهم أمانهم فيها الهلاك ومالم منها فساك قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد فضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لانعد فتقول الزبانية هيات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاحسوا فيها ولا تسكمون ولوا أخرجتم منها لكانتم إلى ما نهيتم عنه تمودون فمعد ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طامهم نار وشراهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرايل القطران وضرب المقامع وتقل السلاسل فهم يتجملجون في مضايقتها ويتحطمون في دركاتهما ويضطربون بين غواشيها تغلى بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والويل ومهما دعوا بالبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ماني بطونهم والجلود ولحم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحمها ويتعظم من الأطراف شعورها بل جلودها وكلها فضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم بقيت الأرواح منوطة بالمروق وعلائق العصب وهي تنش في لفتح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يعمون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجذعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطنون حساك الحديد بأحداقهم فلييب النار سار في بواطن أجسامهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

(القول في صفة جهنم)

ي أن يطعم كل يوم
لأطمعني وذلك يدلك
على أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم كان
مختارا في ذلك إن شاء
أكل وإن شاء لم يأكل
وكان يترك الأكل
اختيارا وقد دخلت
الفتنة على قوم كلما
قيل لهم إن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فعل كذا يقولون كان
رسول الله صلى الله عليه
وسلم مشرعا وهذا إذا

جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتذكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثمان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أو جب الحزن قال واد في جهنم تعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء للرايين (٢) « فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشعابها وعدد أبوابها بمدد الأعضاء السبعة التي بها يصي العبد بعضها فوق بعض الأطل جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا جحر أرسل في جهنم مندسبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها (٣) « ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكبر كالقريق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بخلافها لا تقدي بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغل دماغه من حرارة نعليه (٤) « فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيأت لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاؤوها طامعين هربا مما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا (٥) « بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمزاقه تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلة (٦) « وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها فسبغ في سبغين

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثمان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بحملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال ياطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمنا وجبة الحديث وفيه هذا جحر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار الحديث متفق عليه من حديث التميمي بن بشر (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولو لا ذلك ما انتفع بها أحد ولعل من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليه حتى أحسبه قال فضحت بالماء فتنى ، عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ثم إن المنهي يحاكي حاله حال رسول الله في دعاء الخلق إلى الحق فكل

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجذونه في الصيف من حرها وأشد ما تجذونه في الشتاء من زمهريرها (١) وقال أنس بن مالك يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار خمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس خيرا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة خمسة ثم يقال له هل رأيت خيرا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في السجدة مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لما تورا وقد قال بعض العلماء في قوله - تلحق وجوههم النار - إنها لفتحهم لفتح واحدة فما أقيت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في نين الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يعرفون فيه وهو السناق ، قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ «لو أن دلو من غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢)» فهذا شرابهم إذا استاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسغه وبأية اللوت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتقا . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الحميم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رهوس الشياطين فانهم لا تكون منها فمالتون منها البطون ثم إن لهم عليها الشوبان من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية - وقال تعالى - إن الدنيا أنكا لا وجهها وطعاما ذا غصا وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣)» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيعتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم (٤)» وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يبغي من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كما كانوا يحيزون القصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولئك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال قال فيقولون ادعوا ما لك لا تدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ما كنتم (٥)» قال الأعمش أنبت أن

ما كان يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد عليه فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقضى به وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك فان كان ليقضى به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بعث ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث اشكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلو من غساق ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إسنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذي من رواية سمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله.

بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخشوا فيها ولا تسكلمون قال فعند ذلك يشعرون من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقي من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال « يقرب إليه فيسكره فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاء حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حما قطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم ^(١) » فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة مومنها وعظم أشخاصها وقظاظه منظرها وقد سلطت على أهلها وأغرقت بهم فهي لا تفر عن التهيؤ واللذخ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا يحسبن الذين يخولون بما آتاهم الله من فضله الآية - ^(٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللمعة فيجد حوتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبعال للوكفة يلسعن اللمعة فيجد حوتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وفى ذلك وفى هذه الحيات فلم تمثل ^(٣) » ثم تفسر بهذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولذخ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه ^(٥) » قال عليه السلام « إن الكافر ليجر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس ^(٦) » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار حرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناها جلودا غيرها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا ثم تفسر الآن في بكاء أهل النار وشيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إلقتهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ^(٧) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون لهم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقي من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه (٣) حديث إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللمعة الحديث أحمد من رواية ابن أبي عمير عن إدراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد الحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الحارث عن ابن عمر وقال غريب وأبو الحارث لا يعرف (٧) حديث يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يفعل ذلك لجهرد الاقتداء بل كان يهد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الحيلة . قال الله تعالى خطايا - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنهي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستثن

والشهيقي والزفير والدعوة بالويل والثبور فلمهم فيه مستروح ولكنهم ينعون أيضا من ذلك (١) قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتان وأحيتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشارك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وصحنا فارجعنا لعلنا نصالح - فيجيبهم الله تعالى - أولم نتكلموا أنتم من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - أولم نصبركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا لها للظالمين من نصير - ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فغانا ظالمون - فيجيبهم الله تعالى - اخشوا فيها ولا تكلموا - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلاموت (٢) » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي فقيل له لم تبكي؟ فقال أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزائها ومجناها وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشئ بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياها قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منخصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بهيئان ربنا وكيف لم نكف أنفسنا الصبر أياها قلائل ولو صبرنا لكانت قد اهضمت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متممين بالرضا والرضوان في الحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولقد اتهمناهم ولم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفقوا راحمتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون يمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن نرينا ما أرينا من ثوابك وما أعددت فيها لأولياك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا قيمتم الناس لقيتموهم محبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجلتكم الناس ولم تجلوني وتركتهم للناس ولم تتركوا لي فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب القيم (٣) » قال أحمد بن حنبل إن أحدا لا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام من جدد صبيح ووجهه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود إلهي لا صبر لي على حر نفسك - كيف صبر

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انضموا به وبين قسمة الطاهرة وهوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورابطة التأليف أن النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفقوا رواها الحديث رويناه في الأربعين لأبي هذبة عن أنس وأبو هذبة إبراهيم بن هذبة هالك .

على حر نارك ولا صبر على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالحجب منك حيث تضحك وتلهو وتستغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقلك ! فان قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجى وما الذى سبق به القضاء في حقك فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فان كلا يسير لما خلق له فان كان قد يسر الله سبيل الخير فأبشر فانك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك الموائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا فيتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فان دلالة هذا على السابقة كدلالة الطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مشتركهما من الدارين والله أعلم .

(القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها)

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغموها تنها بلها دار أخرى تأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدها استقرار لا محالة في الأخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم القيم الوعود لأهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسفون من رحيق محتوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من البقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالجر والعسل مخفوفة بالطلح والولدان مزينة بالخور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والرجان لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان يمشي في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطاها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتحير فيه الأبصار مكملات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والرجان شكالات غنجات عطرates آنيات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في تصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين يضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ السكون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربههم يتعاهدون فهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ربب النون آمنون فهم فيها يتمتعون وبأكلون من أطعمتها وشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضها من فضة وحبابها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحب فيها من ماء الفسرين على كشبان الكافور ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السليل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه بريقته وجمته لم يصنعه آدمي فيصير في نوبة صنفته وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

(القول في صفة الجنة)

ألفت آخا كما أن
الأرواح ألفت أولا
ولكل روح مع
نفسه تأليف خاص
والسكون والتأليف
والامتزاج واقع بين
الأرواح والنفوس
وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يديم
المعمل لتصفية نفسه
وقوس الأتباع لها
احتاج إليه نفسه من
ذلك ناله وما فضل من
ذلك وصل إلى قوس

وملاحة أحداقه في أعماقها لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تهل القبائع عن
 نزل جناتها ولا تنتظر الأحداث بين التغير إلى أهلها كيف يأتي بدار الله أن الله في خرابها وبناتها
 يعيش دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوث والجوع والبطش وسائر أصناف
 الحدثن لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتفحص من ضرورته
 كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور تمتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم ببناء العرش
 يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم
 الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد بأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم
 أن تموتوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصبوا فلا تنصبوا أبدا وإن لكم أن تصموا فلا تصوموا أبدا
 فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون - (١) وبهذا أردت أن
 تعرف صفة الجنة فاقرا القرآن فليس وراء يان الله تعالى يان وقرأ من قوله تعالى - ولن خاف مقام ربه جنتان -
 ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن وقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف
 تفصيل صفاتها من الأخبار فأقبل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أو لا عدد الجنان
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قوله تعالى - ولن خاف مقام ربه جنتان - قال جنتان من فضة
 آتيتهما وما فيهما جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء
 الكبرياء على وجوههم في جنة عدن (٢) ثم انظر إلى أبواب الجنة فاتها كثيرة بحسب أصول الطاعات كآل
 أبواب النار بحسب أصول المعاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتق زوجين
 من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها والجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي
 من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب
 الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من
 ضرورة من أيها دعي فهل يدعي أحد منها كلها ؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم (٣) وعن حابر بن
 ضمرة عن أبي بكر رضي الله عنه أنه ذكر النار فظم أمرها ذكر الأخطال ثم قال - وسبق الذين اتقوا
 ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا اتقوا إلى باب من أبوابها وجدوا عند مفجرة يخرج من تحتها
 عتبان فخرجوا فمعدوا إلى إحداها كما أمروا به ففروا منها فأذهبت مافي بطونهم من أذى وبأس ثم
 عمدوا إلى الأخرى ففطروا منها فخرت عليهم نضرة النعم فلم تغير أعضارهم بعدها أبدا ولا تشعب
 رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم اتقوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طمئن فادخلوها
 خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم تطيف ولذان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة
 يقولون له أجزأ أعد الله لك من الكرامة كذا قالوا فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض
 أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان بأهله الذين كان يدعي به في الدنيا فيقول أنت رأيت فيقول
 أنا رأيت وهو بأثرى فيستغنيا بالفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس
 بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الأمة وهكذا انتهى
 مع الأصحاب والأتباع
 على هذا المعنى فلا يخلف
 عن الزيادات والنوافل
 ولا يسترسل في الشهوات
 والذات إلا بدلالة
 نفس النفس ولا يعطى
 الاعتدال حقه من
 فلك إلا بتأييد الله تعالى
 ونور الحكمة وكل
 من يحتاج إلى صحة
 الجلو لا غير لا بد له
 من خلو صحبة
 بالحق حتى تكون

(١) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا الحديث مسلم من حديث
 أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما
 الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أتق زوجين من ماله في سبيل
 الله دعي من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لآلم أن يذهب بصره ثم يطأطئ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ونبارق مصفوفة وزرائه مبثوثة - ثم اتسكا فقال - الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد نحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظنون أبدا وتصحون فلا تمضون أبدا - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آتى يوم القيامة باب الجنة فأنفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ^(١) » ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذا في الجنة يمازجون به تفاوت ظاهرا فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمر الله بالمسابقة والنافسة فيها قال تعالى - سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء قل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنقص بمسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخلافها فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليزادون أهل الغرف فوقهم كما تزدادون الكوكب النائر في الأفق من الشرق إلى المغرب لفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يليقها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ^(٢) » وقال أيضا « إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كائترو النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنعم ^(٣) » وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أحدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه عليك بأبينا أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجواهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولهن هذه الغرف قال لئن أفقنى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطبق ذلك قال أمي تطبق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفقنى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الددافة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام ^(٤) » يعني اليهود والنصارى والمجوس - « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال - قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الخمر العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة وسطى للؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع ^(٥) ».

(١) حديث آتى يوم القيامة باب الجنة فأنفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليزادون أهل الغرف فوقهم كائترو النجم الطالع رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يا رسول الله بأبينا أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجواهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث سئل عن قوله تعالى - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والأجر في كتاب النسيحة

جلوته في حياة خلوته
ومن يراى له أن
أوقاته كلها خلوة وأنه
لا يحجب به شيء وأن
أوقاته بالله والله ولا يرى
تقصا لأن الله ما فطنه
لحقيقة المزيد فهو
محيى في حاله غير أنه
تحت قصور لأنه ما به
لسياسة العيلة وما عرف
سر تملك الاختيار
وما وقف من البيان
على البيضاء النقية وقد
نقلت عن الشايع كلمات

(صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها)

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتها بالدنيا عوضاً عنها قد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك ^(١) » . « ومثل ^(٢) عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص ^(٣) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا ^(٤) » « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك ^(٥) » « ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها ^(٦) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها لقراءوا إن شئتم - وظل محدود - ^(٧) » وقال أبو أمامة « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفضنا بالأعراب ومسايلهم أقبل أعرابي قال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكاً فقال قد قال الله تعالى - في سدر عضود - يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تتفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر ^(٨) » وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفا فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تلبسه فقلت للقلام انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فان من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لا أدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه
قد يسمها الانسان
ويبين عليها والأولى
أن يقتصر إلى الله تعالى
في أي كلمة يسمها
حتى يسمها الله من
ذلك الصواب . قل
عن بعضهم أنه سئل
عن كمال المعرفة فقال :
إذا اجتمعت التفرقات
واستوت الأحوال
والأماكن وسقطت
رؤية التمييز ومثله
هذا القول يوم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن والفسائي بإسناد صحيح : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي قال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صفه فقال يا جبريل لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلىها النمر .

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ^(١) » . وقال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضعك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم م تضعكون من جاهل سألت عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينسج عنها ثمر الجنة صرتين ^(٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصغون فيها ولا يمتخطون ولا يمتخطون آئتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورسنهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية (وفي رواية) على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تقي ما بين الشرق والغرب ^(٤) » وقال ﷺ « الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للؤمن أهل لا يراهم الآخرون ^(٥) » ورواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى « وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) »

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن من الفواكه والطيور والسمان واللبن والسوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلقا أم تنسج نسج الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تقي ما بين الشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا يعرفه إلا من حديث رشدين سعد (٥) حديث : الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - وفرش مرفوعة - قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذي بلفظ : ارتفاعها لسما بين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال غريب لا يعرفه إلا من حديث رشدين سعد .

لا يبق تمييز بين الحلو والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يعني أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يقتصر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ الوريد يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه خبر من أخبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط ؟ فقال فقراء المهاجرين ، قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة » قال زيادة كبد الخوف . قال لما غداؤهم على أثرها » قال يندرجهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها . قال لما شربهم عليه ؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا . فقال صدقت (١) » وقال زيد بن أرقم « جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقرئ بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم يعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع ، فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل اللسك فاذا البطن قد ضمير (٢) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخر بين يديك مشويا (٣) » وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني ، قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر (٤) » وقال عبد الله بن عمر فى قوله تعالى - بطاف عليهم بصحاف - قال بطاف عليهم بصحفة من ذهب كل صحيفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يمزج لأصحاب اليمين ويشربه للقربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل الفضة يخنمون به آخر شراهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذرورح إلا وجد ريح طيبها .

(صفة المحور العين والولدان)

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه ، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « غداة فى سبيل الله أوروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضادت ولملاّت ما بينهما رائحة ولصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥) » يعنى الحمار وقال

(١) حديث ثوبان جاء خبر من أخبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل للسلك الإنسانى فى الكبرى باسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخر بين يديك مشويا البزار باسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وإنى أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر السكونى وقال فيه طير أعناقهم كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لآبى بكر وقال حسن (٥) حديث غداة فى سبيل الله أوروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس .

التميز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه . قيل لعمد ابن الفضل حاجة الممارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصة التى كلفت بها المماسن كلها ألا وهى الاستقامة وكل من كان أنتم معرفة كان أم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التماس والعباد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محبوب بها

أبو سعيد الخدرى «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من الرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها لضى مابين الشرق والغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك» (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى اليبخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر قلن السلام عليك يا رسول الله فقالت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظمن أبدا» وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - (٢) وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة - قال من الحيض والقائط والبول والباق والنخامة والمني والولد - وقال الأوزاعي - في شغل الكون - قال شغلهم انقضاء الأيكار - وقال رجل يا رسول الله «أياض أهل الجنة» قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» (٣) وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا» (٤) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور المين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلاق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا» (٥) وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من الرأة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسل لا دون ذكر أبي سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن الرأة من نساء أهل الجنة ليرى يابض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٢) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط لم أجده هكذا إتمامه وللترمذى من حديث علي بن في الجنة لمجتمع الحور المين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلاق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكناله وقال غريب ولا يبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات الحديث (٣) حديث قال رجل يا رسول الله أياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم الترمذى ومحمدا بن جبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فليل أو يطبق ذلك قال يعطى قوة مائة (٤) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهن مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات الحديث وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقته لهن وإسناده ضعيف وتقديمه بحديث (٥) حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرنه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

عن الأحوال وفي
التوسط محفوظ
بالأحوال قد يحجب
عن الأعمال وفي الانتهاء
لا تعجبه الأعمال عن
الأحوال ولا الأحوال
عن الأعمال وذلك هو
الفصل العظيم . سئل
الجني عن النهاية فقال
هي الرجوع إلى البداية
وقد فسر بعضهم قول
الجني فقال معناه أنه
كان في ابتداء أمره في
جهنم ثم وصل إلى

« إن الحور في الجنة يتغني نحن الحور الحسن خبثنا لأزواج كرام »^(١) وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يجرون - قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الحور العين ينيانه بأحسن صوت - الأنس والجن - وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهدية »^(٢) .
(بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب للكعبة نور بتلاكم ورمانة تهتز وتصر مشيد ونهر مطرد وفاكة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه^(٣) » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فأنها تعجني قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من باقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الأبل تعجني فهل في الجنة من إبل قال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما شئت نفسك ولدت عيناك^(٤) وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كإبنته يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة »^(٥) وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاقوا الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الله فيقول بأخي تذاكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل ففقرنا^(٦) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع »^(٧) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للمرقة ثم زد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشد تمحيصا فيه ويجوز أن يكون معنى الله ما ذكرناه أنه يادی الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون للنهي

(١) حديث أنس إن الحور في الجنة يتغني فيقلن نحن الحور الحسن خبثنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للسكندري قال البخاري يشكحون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الحور العين ينيانه بأحسن صوت سمعه الأنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهدية الطبراني بإسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فأنها تعجني الحديث الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه السمودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى اللديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له محبة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كإبنته ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث لأبي رزين يلد ويلم مثل قدامك في الدنيا ويتلذذون بكم غبرا أن لا تواله (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاقوا الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله يبيض جماد مكحولون خلق آدم إلى آخره

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كباين الجاية إلى صنعاء وإن عليهم
التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين الشرق والغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت
إلى الجنة الرمان من رمانها تكلف البعير للقتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية قتلت بإجارية
لمن أنت ؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢) »
وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها
تكلمي فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلناها تفصيلا ، وقد
ذكر الحسن البصري رحمه الله جلها قال « إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لينة لا يفسد
الأحلام ولا تصدح منها الرءوس » إن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملكوا ناعمون
أبناء ثلاث وثلاثين سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كل جرد ممد قد آمنوا المذاب والمطمانات
بهم الدار وإن أنهارها تجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ
وتنملها لا يعلم علمها إلا الله تعالى وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإيلا
هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الخور العين كأنهن يضيئ مكنون
وإن للراءة تأخذ بين أصبعيها سبعين حلة تلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله
الأخلاق من السوء والأجساد من اللوث لا يمتخطون فيها ولا يولون ولا يتخوطون وإنما هو جشاء ورشح
مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر الندو على الرواح والرواح على الندو وإن آخر من
يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليدله في سره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ
ويضج في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يفتدى عليهم سبعين ألف صحيفة من ذهب وبراح
عليهم بثملها في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ولا يحيط لهم آخره كما يحيط لهم أوله وإن في الجنة ياقوتة
فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد : إن أدنى أهل
الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرغمهم القدي ينظر إلى ربه بالعداة
والشئ . وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار
من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العينا إذا مشى
عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال
يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد من ترك الدنيا مهران الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا
النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فإيهما لمن يختار للذة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبق .

(صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)

الله تعالى - الذين أحسنوا الحسن وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين
من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم هتون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له
ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطع من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان
ومن هنا باسناده أيضا وقال لا نعرفه إلا من حديث ربه بن سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمان
من رمانها بكلف البعير للقتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية قتلت بإجارية
المبدى عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة
يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الراد الأخذ في طريق
المحبوبين تجذب
روحه إلى الحضرة
الالهية وتستبج
القلب والقلب يستبج
النفوس والنفوس تستبج
القلب فيكون بكنيته
قائم بالله ساجدا
بين يدي الله تعالى
كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« سجدك سواي
وخيالي » وقال الله تعالى
- وفه يسجد من في

الكبرى التى ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب الهبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر قال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) » وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صبيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخبرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فأنعشوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هى غاية الحسنى ونهاية التعمى وكل ما فضلناه من النعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة سعادة الاقام منتهى بل لانبية لشي من لذات الجنة إلى لذة الاقام . وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فضلناه فى كتاب الهبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه البعد من الجنة سوى لقاء الولي . وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البرية للسرحة فى للرعى .

(نغم الكتاب يباب فى سنة رحمة الله تعالى على سبيل التفاضل بذلك)

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به النفرة فنقتدى برسول الله ﷺ فى التفاضل ونرجو أن نغم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى قد قال الله تعالى - إن الله لا يفر أن يحرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إياه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طفى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدین الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدهاء به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعميرى بقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف ترينا للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمنفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر قال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته (٢) حديث صبيب فى قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره للصف .

(باب فى سنة الرحمة)

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل متفق عليه من حديث أنس فى أثناء حديث « ويصحبى الفأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة : وخيرها الفأل قالوا وما الفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسميها أحدكم .

السموات والأرض
طوعا وكرها وظلالهم
بالصدور والآمال -
والظلال القلوب تسجد
بوجود الأرواح وعند
ذلك تسرى روح الهبة
فى جميع أجزائهم
وأبعاضهم فيتقدون
ويتنعمون بذكر
الله تعالى وتلاوة
كلامه عجة وودا
فيحبه الله تعالى

فان الكريم عليم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلاق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى ما تفرحه أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والحوام فيها يتماطفون ويهايتراحمون وأخر تسع وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمى سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحبيتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى في مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بأخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيرة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

(١) حديث إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمى سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمى سبقت غضبي لفظ البخارى وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمى تطلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا قداؤك من النار ولأبى داود أمى أمقر حومة لأعذاب عليها في الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبي موسى أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جدهان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبرانى من حديث أنس باسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحبيتم لقائى فيقولون نعم الحديث أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى في مقام الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معان فى النار الحديث فى إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح (٨) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيرة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا فى السبي فأخذته فألصقته بيطنها فأرضعته .

وعجيبهم إلى خلقه
نعمة منه عليهم وفضلا
على ما أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروردى رحمه الله
قال أنا أبو طالب
الزبني قال أخبرتنا
صكرية المروزية
قالت أنا أبو الهيثم
الكشميهني قال أنا
عبد الله الفريرى قال
أنا أبو عبد الله البخارى

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استأثرت بك فارون فلم تقض وعزتي وجلالي لو استأثرت بي لأعنته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد وبأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها وينسكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال العصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تنسكأ - من ظني بك كان يشعري أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة رحمى ^(١) » وروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفاخرة من النار فأخذكم منها - فقال الأعرابي والله ما أخذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال مهلا لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحبط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار ^(٢) » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ « إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتسکر من هذا شيئا أعلمتك كذبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تنظم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وتحلت البطاقة فلا يتحمل مع اسم الله تعالى ^(٣) » وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمى ربي في رواية أبي الأسعد العشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

قال حدثني إسحق قال
حدثنا عبد الصمد
قال حدثنا عبد الرحمن
ابن عبد الله بن دينار
عن أبيه عن أبي
سالم عن أبي هريرة
رضي الله عنه قال
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن الله

قال فيقول الله تعالى شفعت للملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقهم **■** نهر في أنفواء الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر مما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترفعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوا ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة لئلا رأيتم فهو لكم فية ولون ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا **■** فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا **(١)** رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأم عمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الزهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ففرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة قالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقت بها عكاشة **(٢)** وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتسبت عنا حتى قلنا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم وإن سألت ربي في هذه الثلاثة أيام الزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ أمي هذا؟ قال أكل لك العدد من الأعراب **(٣)** وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت يا جبريل

(١) حديث إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج اللوحدين وقوله تعالى لأهل الجنة فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأم عمر النبي صلى الله عليه وسلم معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبقت بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البهق في البعث والنشور ولأحمد وأبي بطة من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولا أحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزنته فقال قد استزنته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال همر فهلا استزنته قال قد استزنته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحق عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضيف .

تعالى إذا أحب عبدا
نادى جبريل إن الله
تعالى قد أحب فلانا
فأحبه فيحبه جبريل
ثم ينادى جبريل
في السماء إن الله قد
أحب فلانا فأحبوه
فيحبه أهل السماء
ويوضع **■** القبول في

وإن سرق وإن زنى قال نعم وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى قال وإن سرق وإن
زنى قلت وإن سرق وإن زنى قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر^(١) وقال أبو الدرداء
«قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قلت وإن سرق وإن زنى
يا رسول الله فقال - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قلت وإن سرق وإن زنى قال الولي خاف، قام
ربه جنتان - فقلت وإن سرق وإن زنى يا رسول الله قال وإن رغم أنف أبي الدرداء^(٢)» وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل ثقيل له هذا
فداؤه من النار»^(٣) وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه
أبي موسى عن النبي ﷺ قال «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانته الثارين وذيات وأنصرانيا
فاستخلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم خلف له^(٤)» وروى عنه أنه وقف صبي في بعض الغارز ينادي عليه فيمن يزيد في يوم
صائف شديد الحر فبهرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تفتش وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت
الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها فقبحه الحر وقالت ابني ابني
فبكى الناس وتركوا ما هم فيه فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر
فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال أعجبتم من رحمة هذه لأنها قالتوا نعم قال صلى الله عليه وسلم فإن الله
تبارك وتعالى أرحمكم جميعاً من هذه بابنها^(٥) تففرق السلون على أفضل السرور وأعظم البشارة
فهذه الأحاديث وما أوردها في كتاب الرجاء يشهدنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو من الله تعالى
أن لا يعاملنا بما نستحقه ويفضل علينا بما هو أهله عنه وسعة جوده ورحمته .

الأرض وبالله العون
والصحة والتوفيق ،
ثم بحمد الله للعبد
للبدى كتاب عوارف
للمصارف للإمام
السهروردى والمحدثه
رب العالمين صلى الله
على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين .

(١) حديث أبي ذر عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة الحديث متفق عليه بلفظ أتأتى جبريل فبشرنى وفى رواية لهما أتأتى آت من ربى (٢) حديث أبى الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولمن خاف مقام ربه جنتان - فقلت وإن زنى وإن سرق الحديث رواه أحمد باسناد صحيح (٣) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل قليل له هذا فداؤك من النار رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقد تقدم (٤) حديث أبى بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً عازاً للصنف لرواية مسلم وهو كذلك (٥) حديث وقف صلى فى بعض الغزى بنادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فيصرت به امرأة الحديث وفيه الله أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها متفق عليه مختصراً مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسى فاذا امرأة من السبي تسمى إذ وجدت صبياً فى السبي أخذته فألصقته بيظنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آتون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أرحم بباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخارى فاذا امرأة من السبي قد تحاب ثديها تسمى إذ وجدت صبياً الحديث .

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والسلام على سيدنا محمد في كل حركة وهذه .

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي انتهى أكلت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٩١
وأكلت نبيض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى .

فهرس

١١٥	الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك	٧	(كتاب التوبة)
١١٦	الطرف السادس في إصلاح الأطعمة	٨	الركن الأول في نفس التوبة الخ
١١٧	الطرف السابع في إصلاح المصلحين	٩	بيان حقيقة التوبة وحدها
١١٨	الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	١٠	بيان وجوب التوبة وفضلها
١٢٠	بيان السبب العارف للخلق عن الشكر	١١	بيان أن وجوب التوبة على القور
١٢٤	الركن الثالث من كتاب الصبر	١٢	بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة
١٣١	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد	١٣	بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
١٣٢	بيان فضل النعمة على البلاء	١٤	الركن الثاني فيها عنه التوبة وهي القنوب
١٣٣	بيان الأفضل من الصبر والشكر	١٥	بيان أقسام القنوب بالإضافة إلى صفات العبد
١٣٨	(كتاب الخوف والرجاء)	١٦	بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على		١٧	بيان ما تعظم به الصفات من القنوب
بيان حقيقة الرجاء الخ		١٨	الركن الثالث في تمام التوبة الخ
١٣٩	بيان حقيقة الرجاء	١٩	بيان أقسام الصبر في دوام التوبة
١٤١	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه	٢٠	بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب الخ
١٤٢	بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب	٢١	الركن الرابع في دواء التوبة الخ
١٥٢	الشرط الثاني من الكتاب في الخوف	٢٢	(كتاب الصبر والشكر)
بيان حقيقة الخوف		٢٣	الشرط الأول في الصبر
١٥٤	بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف	٢٤	بيان فضيلة الصبر
١٥٥	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه	٢٥	بيان حقيقة الصبر ومناه
١٥٦	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه	٢٦	بيان كون الصبر نصف الإيمان
١٦١	بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما	٢٧	بيان الأسامي التي تتجدد لصبر الخ
١٦٤	بيان الذي به يستجلب حال الخوف	٢٨	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
١٧٠	بيان معنى سوء الخاتمة	٢٩	بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
١٧٧	بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف	٣٠	بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
١٨٠	بيان أحوال الصالحين والتائبين والسلف والصالحين في شدة الخوف	٣١	الشرط الثاني من الكتاب في الفكر
١٨٥	(كتاب الفقر والزهد)	٣٢	الركن الأول في نفس الفكر
الشرط الأول من الكتاب في الفقر		٣٣	بيان فضيلة الفكر
١٨٦	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه	٣٤	بيان حد الشكر وحدته
١٨٩	بيان فضيلة الفقر مطلقاً	٣٥	بيان طريق كشف الغطاء عن الفكر في حق الله تعالى
١٩٥	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراسخين والفاتحين والصادقين	٣٦	بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
١٩٩	بيان فضيلة الفقير على التقي	٣٧	الركن الثاني من أركان الشكر الخ
٢٠١	بيان آداب الفقير في فقره	٣٨	بيان حقيقة النعمة وأقسامها
٢٠٢	بيان آداب الفقير في قبول المعطاء الخ	٣٩	بيان وجه التأمؤذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها من الحصر
٢٠٥	بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه	٤٠	الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
٢٠٩	بيان مقدار التقي المحرم للسؤال	٤١	الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات
		٤٢	الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة والآلات الحركة
		٤٣	الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي تحصل فيها الأطعمة الخ

سلسلة

- ٢١٠ بيان أحوال السالكين
 ٢١١ الشطر الثاني من الكتاب في الزهد
 بيان حقيقة الزهد
 ٢١٤ بيان فضيلة الزهد
 ٢٢٠ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
 ٢٢٤ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
 ٢٣٦ بيان علامات الزهد
 ٢٣٨ (كتاب التوحيد والتوكل)
 بيان فضيلة التوكل
 ٢٤٠ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب
 ٢٥٣ الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل الخ
 بيان حال التوكل
 ٢٥٧ بيان ما قاله الصيوخ في أحوال التوكل
 ٢٥٨ بيان أعمال التوكلين
 ٢٦٥ بيان توكل المعبول
 ٢٦٨ بيان أحوال التوكلين في تتعلق بالأسباب بضرب مثال
 ٢٧٤ بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم
 ٢٧٩ بيان أن ترك التداوى قد يحمي في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ
 ٢٨٣ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال
 ٢٨٥ بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكنائه
 ٢٨٦ (كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا)
 بيان شواهد الشروع في حب المبدقة تعالى
 ٢٨٨ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
 ٢٩٣ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
 ٢٩٩ بيان أن أجل اللذات وأعلماها معرفة الله تعالى الخ
 ٣٠٣ بيان السبب في زيادة النظرة لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا
 ٣٠٧ بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى
 ٣١١ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
 ٣١٢ بيان السبب في تصور أفهام المخلوق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
 ٣١٤ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
 ٣١٨ بيان محبة الله تعالى للعباد ومناها
 ٣٢٠ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
 ٣٢٩ بيان معنى الأنس بالله تعالى
 ٣٣١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تشره قلبه الأنس
 ٣٣٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
 ٣٣٤ بيان فضيلة الرضا
 ٣٣٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
 ٣٤١ بيان أن الدعاء غير منال للرضا

سلسلة

- ٣٤٤ بيان أن الفرار من البلاد التي هي مطلق القاصي ومنعتها لا يندرج في الرضا
 ٣٤٥ بيان جهة من حكميات الحيين والوفاهم ومكشفتهم
 ٣٤٩ خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها
 ٣٥٠ (كتاب الثبة والإخلاص والصدق)
 ٣٥١ الباب الأول في الثبة
 بيان فضيلة الثبة
 ٣٥٣ بيان حقيقة الثبة
 ٣٥٥ بيان سر قول صلى الله عليه وسلم : يا أيها المؤمن خير من عمله
 ٣٥٧ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالثبة
 ٣٦٢ بيان أن الثبة غير داخلة تحت الاختيار
 ٣٦٤ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته ودرجاته
 فضيلة الإخلاص
 ٣٦٧ بيان حقيقة الإخلاص
 ٣٦٩ بيان أقوال الصيوخ في الإخلاص
 ٣٧٠ بيان درجات القواب والآفات للكثرة للإخلاص
 ٣٧٢ بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به
 ٣٧٤ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته ودرجاته - فضيلة الصدق
 ٣٧٥ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه
 ٣٨١ (كتاب المراقبة والمحاسبة)
 المقام الأول من المراقبة المباشرة
 ٣٨٤ المراقبة الثانية المراقبة
 ٣٨٥ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
 ٣٩١ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ
 فضيلة المحاسبة
 ٣٩٢ بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل
 ٣٩٣ المراقبة الرابعة في محاسبة النفس على تقصيرها
 ٣٩٥ المراقبة الخامسة المحاسبة
 ٤٠٣ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعائبها
 ٤٠٩ (كتاب التفكير)
 فضيلة التفكير
 ٤١٢ بيان حقيقة التفكير وثمرته
 ٤١٣ بيان مجازي التفكير
 ٤٢٠ بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى
 ٤٣٣ (كتاب ذكر الموت وما بعده)
 الشطر الأول في مقدمته وتوابعه الخ
 ٤٣٤ الباب الأول في ذكر الموت الخ
 بيان فضل ذكر الموت كثيرا كان
 ٤٣٦ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
 ٤٣٧ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طول وكيفية معالجته

صفحة	موضوع
٤٨٦	بيان سؤال منكر ونكير وصورتها ومنطقة القبر
	وبقية القول في عذاب القبر
٤٨٨	الباب الثامن في معرفة من أحوال الموتى بالكاشفة في المنام
٤٩٠	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة
٤٩١	بيان منامات الشيخ رحمة الله عليهم أجمعين
٤٩٤	الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال البيت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأحوال والأخطار وفيه بيان نفخة الصور الخ . صفة نفخة الصور
٤٩٦	صفة أرض المحض وأهلها
٤٩٧	صفة العرق
٤٩٨	صفة طول يوم القيامة
٤٩٩	صفة يوم القيامة ودواحيه وأصابعه
٥٠١	صفة المساءة
٥٠٣	صفة الميزان
٥٠٤	صفة النقصاء ورد الظالم
٥٠٧	صفة الصراط
٥٠٩	صفة الشفاعة
٥١٢	صفة الخوض
٥١٤	القول في صفة جهنم وأهلها وأنكلماتها
٥١٩	القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها
٥٢٢	صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها
٥٢٣	صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم وأرائكهم وخيامهم
	صفة طعام أهل الجنة
٥٣٤	صفة الخمر والعين والودان
٥٣٦	بيان جبل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردته بها الأخبار
٥٣٧	صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .
	نظم الكتاب بباب في سمة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بنقل
٥٣٨	باب في سمة رحمة الله تعالى

صفحة	موضوع
	فضيلة قصر الأمل
٤٤١	بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
٤٤٢	بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
٤٤٣	بيان للباحرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٤٥	الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عند
٤٥٠	بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٥١	بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بمحكيات يهرب لسان الحال عنها
٤٥٣	الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمخلفاء الراشدين من بعده
	وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٦٠	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
٤٦٢	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٤٦٣	وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٤٦٤	وفاة علي كرم الله وجهه
	الباب الخامس في كلام المحتضرين من المخلفاء والأمرء والصالحين
٤٦٥	بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين
٤٦٨	الباب السادس في أقوال المارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
٤٦٩	بيان حال القبر وأقوالهم عند القبور
٤٧٣	بيان أقوالهم عند موت الولد
	بيان زيارة القبور والدعاء للميت الخ
٤٧٧	الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور
	بيان حقيقة الموت
٤٨٧	بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال
٤٨٣	بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

فهرس

بقة عوارف المعارف للسهروردي الذي بالمهامش

صفحة	صفحة
٢٠٢ الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتخصيلها وتميزها	٢ الباب التاسع والأربعون في استقبال النهار والأدب فيه والعمل
٢٨١ الباب الثامن والخمسون في شرح الحلال والحرام والفرق بينهما	٣٧ الباب الخمسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات
٢٩٨ الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز	٧٨ الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ
٣٣٥ الباب الستون في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب	١١٧ الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يتمده مع الأصحاب والتلامذة
٣٨٣ الباب الحادي والستون في ذكر الأحوال وشرحها	١٣٨ الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والشر
٤٤٩ الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية	١٦٥ الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصعبة والأخوة في الله تعالى
٤٧٥ الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها	١٨٠ الباب الخامس والخمسون في آداب الصعبة والأخوة
	١٩٧ الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

بمجد الله تعالى تم طبع كتاب [إحياء علوم الدين] لجنة الإسلام الإمام الفزالي ، وصح كتاب [لثني من حل الأسفار في الأسفار في تحرير ما في الإحياء من الأخبار] لحافظ الإسلام زين الدين العراقي .

وبهاشيه ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر العيدروس باعلوى .

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الفزالي .

الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .